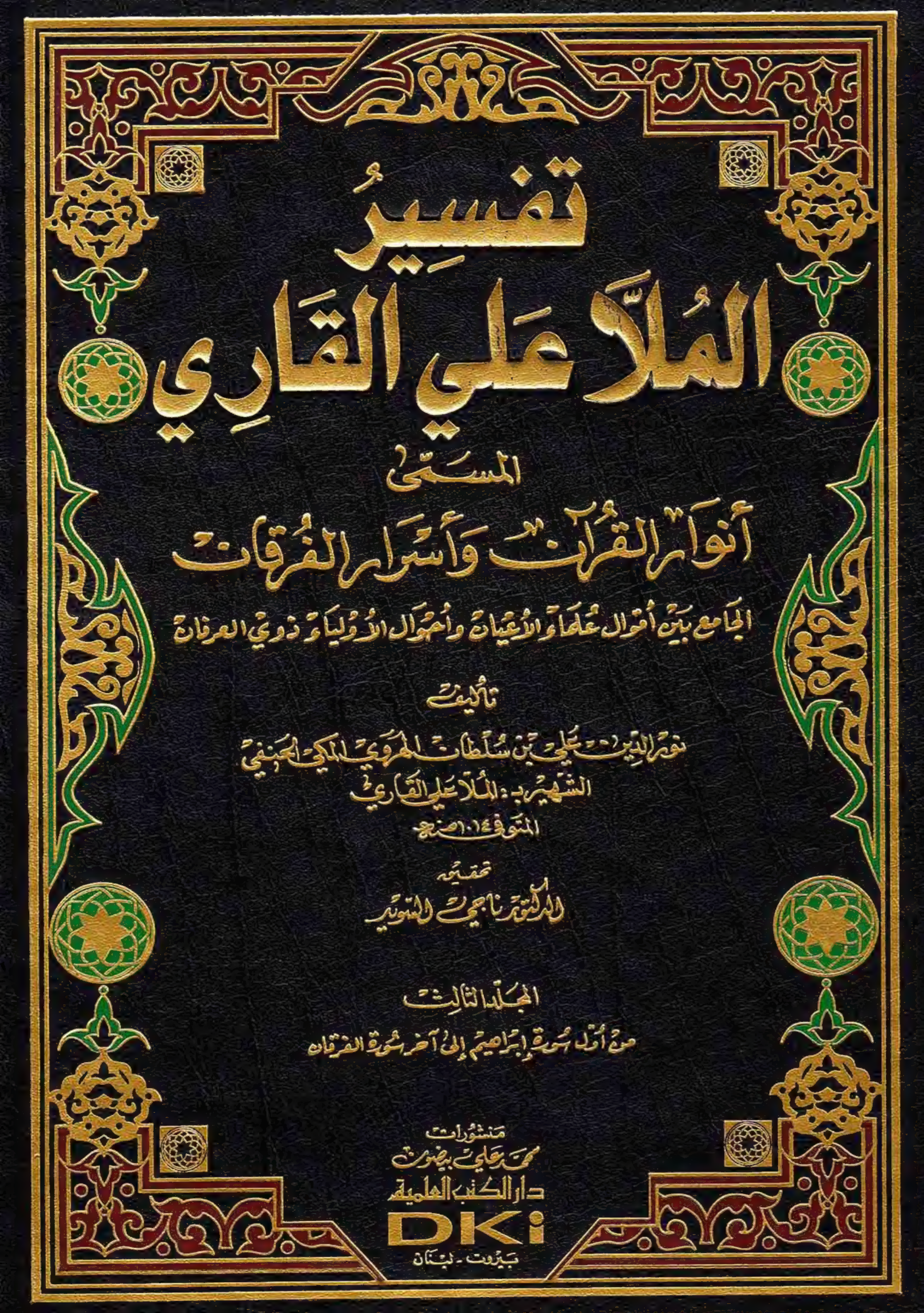


تفسير
الملا علي القاري
المسمى
أنوار القرآن وأسرار الفرقان
الجامع بين أقوال علماء الأعيان وأحوال الأولياء ذوي العرفان
تأليف
نور الدين علي بن سلطان الهروي المكي الحنفي
الشهير بـ: الملا علي القاري
المتوفى ١٠١٤هـ
تحقيق
الدكتور ناجي السويد
المجلد الثالث
من أول سورة إبراهيم إلى آخر سورة الفرقان
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تفسير الملا علي القاري

المسمى

أنوار القرآن وأسرار الفرقان

الجامع بين أقوال علماء الأعيان وأحوال الأولياء ذوي العرفان

تأليف

نور الدين علي بن سلطان الهروي المكي الحنفي
الشهير بـ: الملا علي القاري
المتوفى ١٠١٤هـ

تحقيق

الدكتور ناجي السويد

الجزء الثالث

من أول سورة إبراهيم إلى آخر سورة الفرقان


دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الكتاب : تفسير الملاّ علي القاري

Title : **TAFSĪR AL-MULLĀ 'ALĪ AL-QĀRĪ**

AL MULLA ALI AL-QARI'S
EXEGESIS OF THE HOLY QUR'AN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of the Holy Qur'an

المؤلف : الملاّ علي القاري (ت ١٠١٤ هـ)

Author: Al-Molla Ali Al-Qari (D. 1014 H.)

المحقق : الدكتور ناجي السويد

Editor : Dr. Naji As-souwayd

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

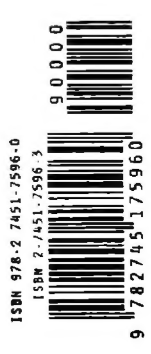
Pages (5 Volumes)	2592	(٥ مجلدات)	عدد الصفحات
Size	17x24 cm		قياس الصفحات
Year	2013 A.D. -1434 H.		سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		لبنان	بلد الطباعة
Edition : 1st (2 Colors)		الأولى (لونان)	الطبعة

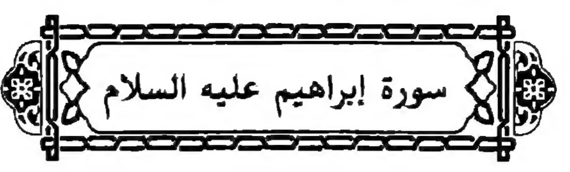
http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah Bldg.
Tel +961 5 804 810/11/12
Fax. +961 5 804813
P.o.Box 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ٢٢٩٠ ١١٠٧


ISBN 978-2-7451-7596-0
ISBN 2-7451-7596-3



سورة إبراهيم عليه السلام

[مكيّة]

وهي إحدى وخمسون آية(١)

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قال الأستاذ: قلوب العارفين بالله إشراقها، وقلوب الوالهين بالله احتراقها، لهؤلاء ذوق الشراب محبته ولهؤلاء شوق إلى لقاء رؤيته، فأصحاب الوصول قالوا: بالله حصل من الحادثات ما حصل، وأرباب الوصول قالوا: بالله وصل من الطالبين مَن وصل.

﴿الٓر﴾ [الآية 1] سبق مراراً ﴿كِتَٰبٌ﴾ [الآية 1] أي هذه السورة كتاب جامع للأسرار ولُباب لامع للأنوار ﴿أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ﴾ [الآية 1] وأحلنا بيانه عليك ﴿لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ﴾ [الآية 1] بدعائك إياهم إلى ما تضمنه من نفع دنياهم وأخراهم ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الآية 1] من أنواع الضلالة وموجبات التفرقة ﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الآية 1] أي إلى نور الهداية الموصلة إلى أنوار التوحيد وأسرار المعرفة وأطوار الجمعية في مقام/ التنديد. ولا يخفى أن النور في الآية يحتمل الإفراد والوحدة والجنس الشامل للكثرة، فقد قال جعفر الصادق: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان ومن ظلمات البدعة إلى نور السنَّة، ومن ظلمات النفوس إلى أنوار القلوب. 87/أ

وقال الأستاذ: من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمات الجمال إلى نور اليقين، ومن ظلمات وجود التقدير إلى قضاء نور شهود التقدير، ومن ظلمات دعاوي النفوس إلى نور معارف القلوب، ومن ظلمات التفرقة إلى أنوار الجمع، ومن ظلمات الابتداع إلى أنوار الاتباع ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [الآية 1] بتوفيقه وتسهيله وتحقيقه أو بإرادته ومشيئته وسابق حكمه وقضائه ﴿إِلَىٰ صِرَٰطِ

---

(١) كذا في الأصل المخطوط.

﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ [الآية 1] بدل من إلى النور بتكرير عامله وإضافة الصراط إلى الله لأنه مقصده أو مظهره وتخصيصه بالوصفين للإيماء إلى أنه لا يذلّ سالكه ولا يخيب سائله. والمراد به الصراط المستقيم والدين القويم.

وأفاد الأستاذ: إن صراط الله هو نهج التوحيد بشواهد التفريد.

﴿ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 2] جملة من مبتدأ وخبر على ما قرأه نافع وابن عامر بالرفع والباقون بالجر على البدل ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [الآية 2] وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج من ظلمات الحجاب إلى نور مدرك صوب الصواب.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه عرَّف الخلق بأن الله هو الذي له ما في السموات وما في الأرض فمن عرفه فله المآب الحميد ومن جحده فله العذاب الشديد وذلك العذاب هو جهله بأنه من هو يعني والحجاب أشد العذاب.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الآية 3] ويؤثرون اليسير من حطام الدنيا عن الخطير من إنعام الأخرى وذلك لشدة ضلالتهم وكثرة جهالتهم حيث لم يعلموا أن الآخرة خير وأبقى لمن هو أتقى وأنقى ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 3] ويعرضون عن طريق الحق أو يمنعون عنه ومن قدروا عليه من الخلق ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الآية 3] أي يطلبون لها زيفاً وميلاً عن الحق ليفرحوا فيها وينسبوها/ إلى الباطل. وفي الكلام حذف وإيصال والموصول يحتمل الثلاثة من الأحوال ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [الآية 3] عن الوصال وعن حسن الحال في المآل. 87/ب

وقال الأستاذ: أولئك لهم في الدنيا الافتراق وهو أشد عقوبة وفي الآخرة الاحتراق وهو أجلّ محنة ومصيبة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾ [الآية 4] إلا بلغة قومه الذين هو منهم وبُعِثَ فيهم ولو أُرسل إلى غيرهم ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [الآية 4] ما أُمروا به فيفهموه منه بسرعة ولم ينقلوه لغيرهم بترجمته فيحصل لهم مرتبة الكمال ورتبة

التكميل كما أشار إليه قوله ﷺ: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه»[1]. هذا ولو نزل على من بعث إلى أمم مختلفة كتب على تلك الألسنة استقل ذلك بزيادة من المعجزة لكن كان يومىء إلى اختلاف الكلمة وفوت فضل المجاهدة في تعلُّم المباني ومعرفة المعاني المقتضية لجزيل المثوبة مع بُعد أكثر أفراد الأمة شرقاً وغرباً عن تلك الحضرة، فإفراد اللغة بهذه الملاحظة برحمة عامة دالة على نعمة خاصة ولعل وجه تخصيص هذه اللغة كونها لغة أهل الجنة في الدار الآخرة مع ما فيه من الإشارة إلى أن تحصيل هذه المنزلة من الانتفاع بالآيات المنزلة ليس بمعرفة اللغة ولا بمجرد العلم والمعرفة، فكم مِن جاهل باللسان حصل له الإيمان والعرفان، وكم مِن عالم بمراتب بلاغة المعاني وفصاحة البيان وقع في مقام الكفران والخذلان كما يومىء إلى هذا التبيان قوله: ﴿فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية 4] بخذلانه عن الإيمان ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ [الآية 4] بتوفيقه للعرفان.

وقال الأستاذ: إنما كان كذلك ليكون آكد في إلزام الحجة وأنى ينفع ذلك إذا لم يوفقوا لسلوك المحجة فأهل الهداية فازوا بسابقة العناية وأصحاب الغواية وقفوا في ذلّ العداوة فلا اعتراض عليه فيما يصنع ولا يسئل عما يفعل لِمَ يفعل، يعني وكذا لا يعقل فتأمل.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ [الآية 5] كاليد والعصا ﴿أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ﴾ [الآية 5] أن مفسرة لا مصدرية لخللها بالنسبة المعنوية، والمعنى / كن سبباً لإخراج قومك ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الآية 5] بدعوتك لهم من ظلمات شكّهم إلى نور اليقين ومن علاقات حالهم إلى الحضور المبين ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 5] أنذرهم وعِظْهم بوقائعه التي وقعت على الأمم المؤتلفة أو بنعمائه وبلائه في الأيام المختلفة.

88/أ

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (5027)، والترمذي في الجامع الصحيح (5/ 173) رقم (2907)، والدارمي في السنن (2/ 538) رقم (3337)، والنسائي في السنن الكبرى (5/ 19) رقم (8037).

وقال الأستاذ: ذكّرهم بما سلف لهم من وقت الميثاق وإقرارهم ما وقع عنهم من فنون البلاء في سالف أحوالهم. ويقال: وذكّرهم بما سبق من الصفوة لأرواحهم قبل حلولها في أشباحهم.

سقياً لها ولطيبها ولحسنها وبهائها أيام لم يلج النوى بين العصا ولحائها[1]

أو هي الأيام التي كان العبد فيها في كتم العدم، والحق يقول بقوله الأزلي: «عبادي لم يكن للعبد عين ولا أثر ولا لمخلوق عنه خبر ولا وفاق بعد ولا شقاق ولا وفاء ولا حياء ولا جهد للسابقين ولا عناء ولا ورد للمقتصدين ولا بكاء ولا ذنب للظالمين ولا السواء كان متعلق العلم متناول القدرة مقصور الحكم على الإرادة لا علم له ولا اختيار ولا ذلّة ولا أوضار ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [الآية 5] أي للمبالغ في الصبر على بلائه والشكر على نعمائه فإنه إذا سمع بما نزل عليَّ من قبله من البلاء وأُفيض عليه من النعماء اعتبر وتنبَّه وتبَّصر لما يجب عليه من الصبر والشكر أو لكل مؤمن، فقد ورد: أن الإيمان نصفان نصفه صبر ونصفه شكر[2]، فيصبر عن المعصية ويشكر بالطاعة على أن حاله لا يخلو عن المحنة.

وأفاد الأستاذ: أن الصبار غريق المحن لكنه راضٍ بحكمة لذيذ العيش بسره وإن كان مستوجباً للرحمة عند خلقه، والشكور غريق المنن لكنه محجوب لشهود النعم عليه استغراقه في ظهور حقه، بل هذا واقف مع صبره وهذا واقف مع شكره وكل ملازم لحده وقدره والله غالب على أمره مقدّس في نفسه متعزّز بجلالة قدسه.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية 6] أي اذكروا نعمة الله وقت إنجاءه سبحانه إياكم/ في أصلاب أبائكم أو زمان إنجاء أسلافكم ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الآية 6] ليذيقونكم أشد 88/ب

---

(1) تفسير القشيري (4/ 28) وروح المعاني (13/ 230) من دون نسبة.

(2) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (7/ 123) رقم (5/ 97)، والقضاعي في المسند (1/ 127) رقم (159).

العقوبة من الاستبعاد والذلّة والاستعمال في الأعمال الشاقة ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الآية 6] إظهاراً للعداوة ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [الآية 6] يتركون بناتكم أحياء للنسل وإبقاء للخدمة ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ﴾ [الآية 6] أي في مجموع ذلك ابتلاء وامتحان ﴿مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [الآية 6] ويجوز أن تكون الإشارة إلى الإنجاء، فالمراد بالبلاء النقمة إلى سوء العذاب، فالمراد به المحنة وعلى كل تقدير طولبوا بالصبر وعوتبوا بترك الشكر.

وأفاد الأستاذ: أن تذكير ما سلف من النعمة توجب تجديد ما سبق من المحبة، وفي الخبر: «جُبِلَتْ القلوب على حبّ مَن أحسن إليها»[1]، فالحق سبحانه أمر موسى عليه السلام بتذكير قومه عزيز ما سبق إليهم من شرائف إنعامه ولطائف إكرامه، وفي بعض الكتب المنزلة على بعض الأنبياء المرسلة: «عبدي أنا لك محب فبحقي عليك كن لي محباً»[2]، ثم أمرهم بأن يذكرهم بما كانوا فيه من البلاء العظيم من فرعون وقومه من ذبح الأولاد والاسترقاق وما كان فيه من صنوف العقوبة ثم تخليص الحق لهم عن ذلك لعجائب الكفاية.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ [الآية 7] من كلام موسى أو من قوله تعالى، والمعنى أعلمكم ربّكم حيث قال لكم: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ [الآية 7] ما أنعمت عليكم بالإيمان والطاعة ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [الآية 7] النعمة على النعمة والمراد الكثرة أو نعمه الظاهرة والباطنة أو نعم الدنيا والآخرة ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ [الآية 7] بنعمكم أو قصرتم في شكركم ﴿إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [الآية 7] فيصيبكم، ومن عادة الكريم أن يصرِّح بالوعد ويعرض بالوعيد.

قال ابن عطاء: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ هدايتي ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ من إكرامي ﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ﴾ إحساني لأعذبنكم اليوم بامتحاني وغداً بفراقي وهجراني،

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (1/ 381) رقم (466)، والقضاعي في المسند (1/ 350) رقم (599). وانظر جامع الأحاديث (12/ 33) رقم (11366).

(2) تفسير الرازي (3/ 4) وتفسير القشيري (4/ 29) وإحياء علوم الدين (6/ 332).

ولئن عرفتم قدر أفضالي ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [الآية 7] من وجود نوالي إلى شهود جمالي وحالي، ويقال: لئن شكرتم وجود توفيق العبادة لأزيدنكم تحقيق الإرادة. ويقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ وجود ألطافي ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ شهود أوصافي، أو ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ صنوف نعمي/ ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ كشوف كرمي، ثم لأرقينكم إلى شهود قدمي، ويقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ﴾ ما خوّلتكم لأمن عطائي ﴿لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ ما وعدتكم من لقائي.

89/ أ

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [الآية 8] من الثقلين وتخصيصهما لانحصار تصور الكفر فيهما ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [الآية 8] مستحق للحمد في ذاته ويحمده ملائكته وأهل سمواته بل وينطق بنعمته ذرّات مخلوقاته فما صبرتم بكفركم وكفرانكم إلا أنفسكم حيث حرمتموها مزيد النعمة وعرّضتموها لشدة النقمة كما جاء في آية: ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [لقمان:الآية 12].

وقال الأستاذ: إن اجتمعتم أنتم ومن عاصركم وكل مَن غاب عنكم وحضركم والذين يقتفون أثركم عن أن تكفروا بالله جميعاً وأخذتم كل يوم شركاً فظيعاً ما أوحيتم لقومنا شيئاً كما لو شكرتم وآمنتم لملكنا ربنا والحق بنعوته ووصف جبروته عليّ وعن العالم بأسره غني.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ [الآية 9] كلام مبتدأ من الله تعالى، وقيل: من كلام موسى ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الآية 9] عطف على ما قبله ﴿لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الآية 9] اعتراض، المعنى أنهم لكثرتهم لا يعلمهم إلا خالقهم، وقد ورد النسابون ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الآية 9] بالمعجزات/ الواضحة والحجج الظاهرات ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الآية 9] بأن عضوها غيظاً من مجيء أنبيائهم وإفضاح أحوالهم أوردوها في أفواه أنبيائهم بمنعوتهم عن أنبيائهم ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ [الآية 9] على زعمكم في الرسالة ﴿وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ﴾ [الآية 9] من الإيمان والمعرفة ﴿مُرِيبٍ﴾ [الآية 9] موقع في الريبة أو في شبهة توجب قلق النفس وعدم الطمأنينة.

89/ ب

قال الأستاذ: ألم يأتكم استفهام في معنى التقرير أخبرهم أنه أخبرهم أنه لما جاءتهم الرسل قابلوهم بالكنود وعاملوهم بالجحود وردوا أيديهم في أفواههم وجروا على سبيل أمثالهم في الكفر وأشباههم وبنوا على الشك والريبة قواعدهم وأسرُّوا على الشرك والفرية مذاهبهم.

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ﴾ [الآية 10] دخلت همزة الإنكار على الظرف لأن الكلام في المشكوك فيه لا في الشك مجرده، والمعنى إنما ندعوكم إليه وهو لا يحتمل الشك لكثرة الأدلة الظاهرة عليه كما أشار إليها بقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 10] صفة للجلالة.

وأفاد الأستاذ: أن المراد بالاستفهام هنا التوبيخ والنفي أي كيف يشك في نبوّته مَن لا يتحرك إلا نفس أو مصرفاً بنعوته بلا كيف يبصر جلال قدره إلا من كحّله بنور برّه ﴿يَدْعُوكُمْ﴾ [الآية 10] إلى الإيمان بربكم ﴿لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [الآية 10] بعض ذنوبكم وهو ما بين الحق وبينكم فإن الإسلام يحيد دونه المظالم ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ﴾ [الآية 10] تأخيراً حسناً ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الآية 10] إلى وقت سمّاه الله وقدّره وقضاه وجعله أجر أعمالكم.

وقال الأستاذ: ليس العجب ممن يكلفه سيده المشاق ويحمله ما لا يطاق أن يهرب من خدمته أو يحتج إلى شوق راحته إنما العجب من عزيز كريم يدعو عبده لغفرانه ويفيض عليه إذا أجابه سجال إحسانه ثم يقابل أمره بالعناد ويؤثر عليه راحة نفسه في داره ما يجمع أمره بسبب الفساد لا يشمل هذا إلا على قسمة بإشقائه صادقة وأحكام لله برده سابقة.

﴿قَالُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ [الآية 10] لا فضل لكم علينا فلم تُخَصُّون بالنبوّة دوننا ﴿تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾ [الآية 10] أي تصرفونا بهذه الدعوة ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ/ ءَابَآؤُنَا﴾ [الآية 10] قدماؤنا ﴿فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية 10] بحجة ظاهرة 90/أ تدل على استحقاقكم بمزية فاخرة أو على صحة ادعائكم بالنبوّة لعدم اعتدادهم بما ظهر على أنبيائهم من المعجزة وتفننوا بطلب الآيات المقترحة.

وأفاد الأستاذ: أنهم شاهدوا من الرسل ظواهرهم ولم يعرفوا سرائرهم

ومالوا إلى تقليدهم لأسلافهم على ما اعتادوا من شقاقهم وخلافهم.

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الآية 11] أي ما نحن إلا أمثالكم في الصورة البشرية ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الآية 11] بالسريرة السنية من النبوَّة والولاية وسائر الأوصاف الرضية كالشجاعة والسخاوة والقناعة وأمثالها من الأحوال العلّية. وفي الآية دلالة على أن النبوَّة عظيمة وهبية لا كسبية وإن ترجيح بعض الجائزات بالمشيئة الأزلية.

وفي «تفسير السلمي»: قيل يمن على مَن يشاء بالمعرفة. وقال سهل: بحلاوة كلامه وفهم مرامه.

وقال الأستاذ: أي الفرق بيننا أنه مَنَّ علينا بتعريفه واستخلصنا بما أفردنا به من شريعته.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [الآية 11] أي بأمر خرق العادة متعلق بالمشيئة وكل نبي يختص بنوع من المعجزة ﴿وَعَلَى اللَّهِ﴾ [الآية 11] أي لا على غيره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الآية 11] في الصبر في معاداتكم والتحمُّل على معاداتكم. قيل: التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد. وقيل: الثقة بالوعد. وقيل: التوكل غضّ البصر عن الدنيا وقطع القلب عن الأخرى اعتماداً على كرم المولى.

﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ﴾ [الآية 12] أي أي عذر لنا في عدم توكلنا على مولانا في جميع ما أولانا من أمور دنيانا وأخرانا ﴿وَقَدْ هَدَانَا﴾ [الآية 12] ربنا ﴿سُبُلَنَا﴾ [الآية 12] طرق معرفته ومنها العلم بأن الأمور كلها بقبضته وقدرته وتحت مشيئته.

وقال الأستاذ: أي ما لنا أن لا نتوكل على الله وقد رقانا من حد تكشف البرهان إلى روح تكلف البيان بكثرة ما أفاض علينا من جميل الإحسان وكفانا من مهمات الشأن.

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا﴾ [الآية 12] أكدوا / بالقسم المقدر وتوكلهم وعدم 90/ ب

مبالاتهم بما يجري من الكفار عليهم فالصبر على الإيذاء من سنن الأنبياء.

وأفاد الأستاذ: أن الصبر على البلاء يهون إذا كان على رؤية المبلي ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الآية 12] فليثبت المتوكلون على توكلهم الناشىء عن إيمانهم بوجوده وإيقانهم بكرمه وجوده.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الآية 13] بربهم ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾ [الآية 13] أي المرسل إليهم تهديداً وتوعيداً لهم ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ [الآية 13] بلدتنا ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ﴾ [الآية 13] أو لتصيرنّ ﴿فِى مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الآية 13] إلى رسلهم ﴿رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الآية 13] الكافرين منهم.

﴿وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ [الآية 14] في دارهم وديارهم ﴿مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ [الآية 14] آمنين من شرار شرارهم ﴿ذَٰلِكَ﴾ [الآية 14] أي ما ذكر من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ﴿لِمَنْ خَافَ مَقَامِى﴾ [الآية 14] موقفي وهو الموقف الذي يوقف فيه العباد يوم القيامة للحكومة المميزة بين أرباب المثوبة وأصحاب العقوبة لقيامي بالاطلاع عليه وحفظي لأعماله بالنظر إليه ﴿وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [الآية 14] وعيدي لعبيدي من تبعيدي، فالأول تذكير المحاسبة في الآجل والثاني تحقيق المراقبة في العاجل.

وأفاد الأستاذ: لما عجز الأعداء عن معارضة الأنبياء أخذوا معهم في الجفاء بأنواع الإيذاء والتهديد لهم بفنون البلاء من ذلك الإخراج عن الأوطان والتشريد في البلدان فربط الله على قلوبهم بوعد النصر على مقاساة بلائهم.

﴿وَٱسْتَفْتَحُواْ﴾ [الآية 15] أي يسأل من الله الأنبياء الفتح والنصر على الأعداء ﴿وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [الآية 15] وخسر كل ظالم للخلق معاند للحق أو متنكر على الطاعة ومتفنن في الخصومة.

وأفاد الأستاذ: أن الكفار استعجلوا القضاء فلما نزل بهم البلاء لم ينفعهم التضرُّع والبكاء ولم يقبل منهم الصدقة والنداء وندموا حين لا ندامة وتضرّعوا بعدما عدموا السلامة. ويقال: أن الرسل لما بغتوا بإقرار قومهم سألوا من الله النصرة عليهم فأجابهم الله بإهلاكهم. ويقال: إذا صدق النجاء

واستعظم البلاء قرب النجاء.

﴿مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ﴾ [الآية 16] أي من بين يديه فإنه مرجعها ومباشر لأسبابها واقف على شفيرها في الدنيا مبعوث إليها/ في العقبى، أو من خلفه بمعنى وراء حياته وحقيقته ما توارى عنك بمعنى استتر، فلفظ وراء يقع على ما بين يديه وعلى ما خلفه ﴿وَيُسْقَىٰ﴾ [الآية 16] أي عطف على مقدّر تقديره من ورائه جهنم يُلقى فيها ما يلقى ويسقى ﴿مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ﴾ [الآية 16] عطف بيان لماء وهو ما يسيل من جروح أهل النار.

91/أ

﴿يَتَجَرَّعُهُۥ﴾ [الآية 17] يتكلف جرعه وبلغه ﴿وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾ [الآية 17] لا يقرب أن يبلغه فكيف يسيغه وهو يغص به فيطول عناءه، والسوغ مرور الشراب على الحلق بسهولة وقبوله طبيعة ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ﴾ [الآية 17] أي أسبابه من المشتقات فتحيط به من جميع الجهات أو من كل مكان من جسده حتى من أصول شعره وأصابع يده ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ﴾ [الآية 17] فيستريح ولا حي صحيح كما قال تعالى: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ﴾ [طه:الآية 74]، ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ﴾ [الآية 17] من بين يديه أو من خلفه أو من غير ما ذكر من عذابه ﴿عَذَابٌ غَلِيظٞ﴾ [الآية 17] أي نوع آخر أشد من هذا وهو حبس الأنفاس وضيق الاحتباس وضم قرين سوء إليه ويستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه من الخلود فيما بين يديه.

وأفاد الأستاذ: أن هذا الكافر يأتيه العذاب فيما بين يديه من الزمان أو من خلفه لأجل ما سلف في الماضي من العصيان ويسقى من عصارة أهل النار ما يشربه جرعة بعد جرعة ولصعوبة مرارته وحرارته لا يشربه بمرقه، ويأتيه الموت من كل عضو من الشدة وهذا أجر من اغترّ بأيام قليلة ساعدته المنية فيها وانخدع بها ولم يشعر بما يليها.

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ﴾ [الآية 18] مبتدأ خبره ﴿أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ﴾ [الآية 18] وقرأ نافع الرياح، والمعنى حملته ﴿فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖۖ﴾ [الآية 18] شديد هبوبها فيه شبه عبادة الكفرة برماد طيّرته الريح العاصفة، وفي

معناها صنائعهم من صلة الرحم وإغاثة الملهوف وعتق الرقاب والضيافة والصدقة في كونها حيطة لبنائها على غير أساس من معرفة الله وتصحيح النية والتخليص من الرياء والسمعة مع أن الله سبحانه جازاهم عليها في دنياهم بطول الأعمار / وكثرة الأولاد وسعة الأموال ودوام الصحة ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ﴾ [الآية 18] يوم القيامة ﴿مِمَّا كَسَبُواْ﴾ [الآية 18] من أعمالهم ﴿عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ [الآية 18] من الجزاء الجميل وهو قولك لمثيل ﴿ذَٰلِكَ﴾ [الآية 18] الإشارة إلى ضلالتهم وطغيانهم في كفرانهم مع حسبانهم أن لهم ثواباً على صورة إحسانهم ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ﴾ [الآية 18] فإنه الغاية في البُعد عن صراط العزيز الحميد.

91/ ب

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ [الآية 19] وقرأ حمزة والكسائي: خالق السموات والأرض بالحكم ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ [الآية 19] يعدمكم ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [الآية 19] يخلقكم.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ ٢٠﴾ [الآية 20] بمتعذر أو متعسر فإنه على كل شيء مقتدر فمن هذا برهانه تعالى شأنه كان حقيقاً بأن لو منَّ به ويعيد على وفق أمره ءجاء لثوابه وخوفاً من عقابه.

وقال الأستاذ: أي الله خلق السموات والأرض بالحكم الحق أي له ذلك بحق ملكه وخلقهما بقوله الحق فجعل كل جزء منها على وحدانيته دليلاً، ولمن أراد الوصول إلى ربه سبيلاً. ثم قال: ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ﴾ [الآية 19] بالإفناء ﴿وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ [الآية 19] بموقف من الإنشاء وليس ذلك عليه بعسير وأنى ذلك وهو على كل شيء قدير.

﴿وَبَرَزُواْ لِلَّهِ﴾ [الآية 21] أي يبرزون من قبورهم يوم القيامة لحكمه سبحانه بمحاسبة أمورهم، وذكر بلفظ الماضي لتحقق ظهورهم ولسبق تعلق علمه سبحانه بهم ﴿جَمِيعٗا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ﴾ [الآية 21] أي ضعفاء الرأي من الأتباع الذين قلدوا الرؤساء الأقوياء في اتِّباع الابتداع ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ [الآية 21] من الأغنياء الأعتياء الذين استبقوهم في الإغواء ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ [الآية 21] تبعاً في الدنيا بتكذيب الأنبياء والإعراض عن نصيحة الأولياء ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا﴾ [الآية 21] دافعون عنا في العقبى ﴿مِنۡ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الآية 21] من الأولى للبيان

واقعة موقع الحال والثانية للتبعيض واقعة موقع المفعول إنما قالوا توهُّماً أن يدفعوا عنهم شيئاً من البلاء أو يرفعوا عنهم شيئاً من العناء ﴿قَالُوا۟﴾ [الآية 21] أي المستكبرين ﴿لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الآية 21] للإيمان ووفقنا للعرفان ﴿لَهَدَيْنَٰكُمْ﴾ [الآية 21] لشركناكم في الهداية وفي الخلاص من العقوبة ولكنا غوينا فأغويناكم كما غوينا. / والمعنى فاخترنا لكم ما اخترنا لأنفسنا فلا عتب لكم علينا ولا مزية لكم لدينا ولا ملامة من جهتكم راجعة إلينا حين تبين حالنا فنحن وإياكم ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [الآية 21] ملجأ ومنجا من عذابنا الذي نزل بنا بأمر ربنا. روي أنهم يقولون: تعالوا نجزع ونتضرع لعله ينفعنا فيجزعون ويشفعون خمسماية عام فلم ينفعهم فيقولون: تعالوا نصبر لعل صبرنا يفيدنا في هذا المقام فلا يفيدهم فيقولون: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا مدافع عنا.

92/ أ

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الآية 22] حكم وفرغ منه وتمّ ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار قام خطيباً في الأشقياء لدفع توهُّم الأغبياء في حقه حقيقة إحقاقه الإغواء حيث لم يعرفوا حقائق الأشياء بما بيَّن لهم الأنبياء من أن الله يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ [الآية 22] وعداً من حقه أن ينجز لقوله الحق وخبره الصدق من الوعد بالبعث والجزاء بالثواب والعقاب ﴿وَوَعَدتُّكُمْ﴾ [الآية 22] وعد الباطل بأن لا بعث ولا حساب ﴿فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [الآية 22] بتبين خلف وعدي في المآب ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [الآية 22] تسلط جبر وقهر يحببكم به إلى ارتكاب الكفر والمعصية ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ﴾ [الآية 22] لكن دعوتكم إلى الضلالة والجهالة والغفلة ﴿فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [الآية 22] أسرعتم في إجابة دعوتي وما تأملتم في أول أمري ولا في مآل عقاب عاقبتي ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ [الآية 22] بوسوستي فإن من صرح بالعداوة لا يُلام بمثل هذه الحالة ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [الآية 22] حيث أطعتموني حيث دعوتكم ولم تطيعوا دعوة ربكم على لسان البشير النذير ولم تقبلوا نصيحته لكم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:الآية 6].

وقد قال السلمي في التفسير: إنه قيل مَن لم يلم نفسه على الدوام ويَرضى عنها في حال من أحوالها فقد أهلكها. أقول: وسببه أن مَن لم يَلم نفسه اللوامة

في الدنيا على خلاف الأولى احتاج إلى ملامتها في الأخرى عند مشاهدة العقبى / ومحاسبة المولى. 92/ب

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ [الآية 22] بمغيثكم من العذاب ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ﴾ [الآية 22] من طرد الباب ورفع الحجاب. وقرأ حمزة بكسر الياء على الأصل في باب الالتقاء ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ﴾ [الآية 22] بحذف ياء الإضافة وكون ما مصدرية، إني كفرت اليوم في العقبى بإشراككم إياي ﴿مِن قَبْلُ﴾ [الآية 22] قبل هذا اليوم في الدنيا بمعنى تبرأت منه وتبعّدت عنه كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر:الآية 14]، ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الآية 22] تتميم لكلامه أو ابتداء كلام من الله سبحانه وتعالى له أو لغيره. وفي حكاية أمثال ذلك مما يقع بيانه هنالك تنبيه للسامعين وإيقاظ للغافلين حتى يحاسبوا أنفسهم ولا يضيعوا أنفاسهم لئلا يحشروا مع حزب الشيطان وأتباعهم.

﴿وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ [الآية 23] بساتين معمورة بأنواع أثمارها ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الآية 23] أي تحت أشجارها أو تحت قصور أهلها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الآية 23] مقدره الخلود فيها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِمْ﴾ [الآية 23] بسبب أمره أو بقضائه وقدره والمدخلون هم الملائكة أو المعنى أذن لهم بدخولها ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ [الآية 23] تحية الملائكة أو الله سبحانه لهم أو تحية ما بينهم ﴿فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [الآية 23] أو ملاقاتهم فيها ذات سلامة من الملامة والكراهة في تلك المقامة فإنها دار النعمة والكرامة.

وأفاد الأستاذ: أن الإيمان هو التصديق والعمل الصالح للتصديق تحقيق ويدخل في جملة الأعمال الصالحة ما قلّ وكثر من وجوه الخير حتى القذاة يميطها عن الطريق. قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ [الأنبياء:الآية 94] أي في عاقبة أمره. ثم أحوالهم في دار السلام متفاوتة في الرتبة، فقوم يُحييهم الملائكة قال تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء:الآية 103]، وقوم يحييهم الملك، قال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:الآية 44] سلموا من الاحتراق، ثم من الفراق، ثم من العذاب، ثم من الحجاب. أقول: ولا منع للجمع في مقام السلام للجميع لأنهم وصلوا إلى مرتبة

93/ أ جمع الجمع المؤدي إلى ذلك المقام ولعموم رحمة / رب كريم بقول مطلق عميم ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾ [يس:الآية 58].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [الآية 24] وضعه وبيّنه للملّتين من جميع الأمة ﴿كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ [الآية 24] أي جعل كلمة طيبة ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [الآية 24] فهو تفسير لقوله ضرب مثلاً فأبهمه أولاً ثم أوضحه ثانياً لأنه أوقع للنفس في تأثيرها لأجل إعادة الجملة وتكريرها ﴿أَصْلُهَا ثَابِتٌ﴾ [الآية 24] في الأرض ثابت بفروعه فيها ﴿وَفَرْعُهَا﴾ [الآية 24] أعلاها ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية 24] أي الهواء.

﴿تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا﴾ [الآية 25] تعطي أثمارها ﴿كُلَّ حِينٍ﴾ [الآية 25] عيّنه الله لإثمارها ﴿بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [الآية 25] بأمر خالقها وإرادة بارئها ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الآية 25] أمثال أهل الجنة أو أمثال هذا المثل ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الآية 25] بالانتقال من الأمثال إلى تصور اختلاف الأحوال فيحصل لهم الكمال بتأملهم في كلام المتعال.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [الآية 26] أي مثل شجرة خبيثة ﴿ٱجْتُثَّتْ﴾ [الآية 26] أخذت اجتثّث بالكلية واستؤصلت ﴿مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 26] لأن عروقها قريبة من فوقها ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [الآية 26] لا استقرار بها ولا مدار للاستمرار عليها، وفسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد ودعوة الإسلام ولها القرآن، والكلمة الخبيثة بالإشراك بالله والدعاء إلى عبادة مَن سواه وتكذيب الحق وأهله. والأظهر أنه ما يعم ذلك من كل كلمة مليحة أو كلمة قبيحة، فالكلمة الطيبة ما أعرب عن حق أو دعا إلى صلاح، والكلمة الخبيثة ضدها، وقد فسرت الشجرة الطيبة بالنخلة[1]. وروي ذلك مرفوعاً من الطرق الصحيحة، وشجرة طوبى في الجنة[2]، والخبيثة بالحنظل[3] ولعل المراد بها أيضاً ما يعم ذلك بأن

(1) النكت والعيون (2/ 330)، وتفسير الخازن (4/ 114).
(2) أخرجه ابن حبان في الصحيح (16/ 429) رقم (7413).
(3) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (5/ 295) رقم (3119) وأبو يعلى في المسند (7/ 182) رقم (4165).

ذلك كل شجرة يطيب ثمرها في جميع زهرها وما يكون بخلاف ذلك أمرها وهو لا ينافي ما صح في الأخبار من تفسير الشجرة الطيبة بالنخلة حيث يراد بها مثلاً أو نظر كلها لا حقيقة الانحصار، بل في العموم إشارة إلى بيان اختلاف مراتب أخلاق الأبرار وأحوال الأشجار بحسب تفاوت مذاق الأثمار وبقائها وثباتها في الديار والقفار كما أشار / إليه قوله سبحانه: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف:الآية 58]. 93/ ب

وأفاد الأستاذ: ربما أراد من أن هذا المثل خبّره الله به للإيمان والمعرفة فشبّهه بشجرة طيبة أصل تلك الشجرة باقٍ تؤتي أُكلها كل وقت وزمان وينتفع بها أهلها كل حين وآن، فالإيمان كتلك الشجرة أصلها المعرفة مصححة بالأدلة والبراهين وسنن المرسلين ثم مجانبة المعصية كصيانة الشجرة عما يضرها من كشط مظهرٍ وقطع عرق وإتلاف غصن وما جرى مجراه، وأوراق تلك الشجرة قيامة بآداب العبودية وأنهار تلك الشجرة أخلاقه الجميلة وثمرة تلك الشجرة حلاوة الطاعة ولذة الخدمة ثم الثمار تختلف في الطعم والطبع والرائحة والصورة كذلك ثمرات الطاعة ومعاني الأشياء التي يجدها العبد في قلبه تختلف من حلاوة طاعة وهي صفة العابدين، وبسط يجده في وقته وهو صفة العارفين، ولوعة تدركه في ضميره وهو صفة المريدين، وأسف يناله وهو صفة المحبين، وقلق واهتياج يجده ولا يعرف سببه ولا يجد سبيلاً إلى سكونه وهو صفة المشتاقين إلى ما لا يفي بشرحه نطق ولا يستوفيه قول. وذكر من لوائح ولوامع وطوارق وشوارق، كما قيل:

طوارق أنوار تلوح إذا بدت فتظهر كتماناً وتُخبر عن جمع[1]

ثم إن ثمرات الأشجار في السنة مرة وثمرة هذه الشجرة في كل لحظة كذا وكذا كرة، وكما قال تعالى في ثواب أهل الجنة: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الواقِعَة: الآيتان 33،32] وقلوب أهل الحقائق عنها لا مصروفة ولا محجوبة وهي لها في كل وقت ونفس بعدله غير محجوبة ولا

(1) أورده القشيري في تفسيره (4/ 44) وفي الرسالة (1/ 32) وقد نسبه إلى الجنيد.

مدفوعة وثمرات هذه الشجرة أشرق وأنوارها ألطف وأظرف وإشارات هذه القصة وألفاظهم في مراتبهم ومعانيهم كالرياحين والأزهار وهي مختلفة متفاوتة الكلية والكيفية ومقدار الاستمرار. ويقال: الكلمة الطيبة وهي الشهادة لله بالوحدانية وللرسول بالنبوَّة والرسالة وإنما تكون طيبة إذا صدرت عن سر مخلص، والشجرة الطيبة المعرفة،/ وأصلها ثابت في أرض غير سبخة[1] والأرض السبخة من أرض الكافر والمنافق لا تنبت، والإيمان في قلوبهم لا يثبت. ثم لا بد للشجرة من الماء وما لِهذه الشجرة من دوام العناية وإنما تورق بالكفاية وتتورد بالكلاءة والهداية وتثمر بالوقاية والرعاية. ويقال: ما هذه الشجرة إلا الحياة والندامة والتلهف والحسرة والخشوع وإسبال الدموع والإثابة. ويقال: ثمرات هذه الشجرة مختلفة بحسب أحوال أهلها فمنها التوكُّل والتفويض والتسليم والمحبة الوافية والشوق والرضا وسائر الأحوال الصافية والأخلاق الزكية ثم الكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر وخبثها ما صحبها من نجاسة الشرك والعصبية فخبيث الكلمة لصدورها عن قلب هو مستقر الشرك ومتبعه والشجرة الخبيثة هي الشرك اجتثت من فوق الأرض لأن أساس الكفر متناقض متضاد ليس له أصل صحيح ولا برهان موجب ولا دليل كاشف ولا علة مقتضية، إنما ذلك شبه وأباطيل وضلال اقتضاها وساوس وتأويل ما لها من قرار لأنها حاصلة من شِبَه واهية وأصول فاسدة بادية، ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [الآية 27] الذي يثبت بالحجة عندهم وتمكّن قلوبهم في الحياة الدنيا فلا يزالون إذا افتتنوا في دينهم كأصحاب الأخدود وأمثالهم وفي الآخرة فلا يتلعثمون إن سئلوا عن معتقدهم في القبر ولا يدهشهم أهوال يوم الحشر والنشر، وقد صح عنه ﷺ أنه ذكر قبض روح المؤمن فقال: «ثم تعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه في قبره ويقولان له: مَن ربك وما دينك وما نبيّك فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد عليه السلام، فنادى من السماوات: صدق عبدي»[2]، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْآخِرَةِ

(1) الأرض التي تعلوها الملوحة. انظر لسان العرب (3/ 23).
(2) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (9/ 233) رقم (9145).

﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية 27] على أنفسهم بالكفر والمعصية وحيث لم يقدروا على الجواب وتحيروا في محضر الحساب المؤدي إلى العقاب ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [الآية 27] من تثبيت / المؤمنين وإثابتهم وإضلال الكفار ومعاقبتهم. 94/ ب

وفي «تفسير السلمي» قال بعضهم: الخلق كلهم مجبورون تحت الإرادة والقدرة مقهورون على لسان الجبروت والعظمة وليس من أمورهم شيء راجع إليهم، ممنوعين عما يريدون مقضي عليهم بِما يكرهون، وهذا من آثار العبودية وفنائها، والله تعالى يدبر الأمور ويبديها وينشئها، أنشأها على إرادته وإبدأها على مشيئته لا ناقض لما أبرم ولا مبرم لما نقض، والأفعال على الحقيقة فعله والكون صنعه ولا علة لفعله ولا لصنعه.

وأفاد الأستاذ: أن البعث هو البقاء على الاستقامة وترك العوج في الديانة والقول الثابت هو الشهادة الصادرة عن صفاء العقيدة وخلوص السريرة الحميدة. ويقال: القول الثابت هو بيان الجنان لا نطق اللسان. ويقال: هو قول العزيز القدير الذي لا يجوز عليه الزوال والفناء، هو بالثبوت أوْلى من قول العبد يقول الله وقول العبد أثر والآثار لا يجوز عليها الثبات والبقاء عيناً وإنما يكون حكماً، فثبات العبد لقول الله وهو حكمه له بالإيمان وإخباره أنه مؤمن وتسميته له بالإيمان والعرفان وقول الله لا يزول في جميع الأزمان ففي الدنيا ينبئهم حتى لا يدعهم لغيرهم شبهة، وفي القبر يثبِّتهم عند سؤال الملك للفتنة، وفي القيامة يثبِّتهم عند المحاسبة، وفي الجنة يثبِّتهم ولا يزول حمدهم لله مع كمال المعرفة، ثم إذا تنوَّعت عليهم الخواطر وتصنَّفت عليهم الدواعي فالحق ينبئهم حتى لا يحيدوا عن النهج المستقيم ولا يزيغوا عن الدين. ويقال: إذا دعتهم الوساوس إلى متابعة الشيطان وجرتهم الهواجس إلى مواقعة النفس فالحق يثبِّتهم على موافقة رضاه. ويقال: إذا دعتهم دواعي المحبة من كل جنس لمحبة الدنيا تركوا الجميع ولم يستجيبوا إلا لدواعي حبه سبحانه، كما قيل:

إذا واجهتنا حيلة كي تزيلنا		أبينا وقلنا إلى إجابته أول[1]

---

(1) ذكر القشيري في تفسيره لفظاً آخر وهو على النحو التالي:

إذا ما دعتنا حاجة كي تردنا		أبينا وقلنا مطلب الحق أولاً

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [الآية 28] شكرها ﴿كُفْرًا﴾ [الآية 28] بها بأن وضعوها/ مكانه كفراناً لها ﴿وَأَحَلُّواْ﴾ [الآية 28] أنزلوا ﴿قَوْمَهُمْ﴾ [الآية 28] أتباعهم وأشياعهم في الكفران وترك الإيمان والعرفان ﴿دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [الآية 28] دار الهلاك بحملهم على الكفر والإشراك.

95/أ

﴿جَهَنَّمَ﴾ [الآية 29] عطف بيان لها ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ [الآية 29] يدخلون فيها ويقاسون ألم حرّها وبردها ﴿وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ [الآية 29] دار البوار ومقرّها الكفار والفجار.

وقال أبو عثمان: أجهل الخلق مَن استعملها في المعصية ولم يقم بشكرها بأن يعرف النعمة في رضى وليّها من الطاعة.

وقال الأستاذ: أي وضعوا الكفران محل الشكر والإحسان كمن أبدلها مما كان ينبغي أن يشكروا، واستعمال النقمة في المعصية من هذه الجملة وأعضاء العبد كلها نعم من الله عليه فإذا استعمل العاصي يديه في زلّة بدل ما كان الواجب استعماله في الطاعة فقد بدّل نعمته كفراً، وكذلك إذا أودع الغفلة قلبه مكان المعرفة والعلاقة وقفة مكان الانقطاع إليه وعلق قلبه بالأغيار بدل الثقة به ولطخ لسانه بذكر المخلوقين ومدحهم بدل ذكر الله واشتغل بغير الله دون الفناء في ذكره كل هذا تبديل نعمة الله كفراً، وإذا كان العبد منقطعاً إلى الله مكتفياً من قبل الله ووجد في فراغه مع الله راحة ومع الخلق سلوة ومن إقباله عليه سبحانه كفاية ثم رجع إلى أسباب التفرقة ووقع في بحار الأشغال ومعاملة الخلق ومدحهم وذمّهم فقد أحلّ قومه دار البوار على معنى إيقاعه قلبه ونفسه وجوارحه في المذلّة من الخلق والمضرّة من الحال، وشأنه كما قيل:

ولم أر مثل مَن يفارق جنة ويقرع بالتطغيان باب جهنم[1]

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الآية 30] الذي هو التوحيد ومقام

(1) ذكره القشيري في تفسيره (4/ 46).

التفريد بإيقاع غيرهم من حضيض التقليد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، والمعنى ليضلوا بهم أتباعهم باتباعهم لأهوائهم عن طريق الحق وسبيل الصدق، واللام للمعاتبة كما في حديث: «لدوا للموت وابنوا للخراب»[1]، ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ [الآية 30] عيشوا بشهوتكم أو بعبادة / آلهتكم التي ألهتكم عن طاعة مولاكم 95/ ب وساعة آخرتكم ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [الآية 30] كسائر الكفار والفجار.

وأفاد الأستاذ: أنهم رضوا بأن يكون معمولهم معبودهم ومنحوتهم مقصودهم فضلُّوا عن نهج الاستقامة وزلوا عن مقام الكرامة وسيلقون غب صنيعهم يوم القيامة حين لن ينفعهم الندامة كما قيل:

قد تركناك والذي تريد فعسى أن تملهم فتعودا[2]

﴿قُلْ تَمَتَّعُوا﴾ [الآية 30] أياماً قلائل في الدنيا فإن مآلكم إلى خلود النار في العقبى.

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الآية 31] خصّهم بالإضافة التشريفية تنبيهاً على أنهم المقيمون لحقوق العبودية. والمعنى قل لهم ما أمرناك به من قولنا ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَآتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة:الآية 43] أو أمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بقرينة قوله: ﴿يُقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ [الآية 31] وفيه تنبيه على أنهم لفرط مسارعتهم إلى مطاوعتهم لا تنفك طاعتهم عن أمره ﷺ بإطاعتهم، أو التقدير: قل لهم ليقيموا أو ينفقوا كقول القائل: محمد تفد نفسك كل نفس ﴿سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ [الآية 31] إنفاق سر وعلانية، وفي وقتي سر أو علانية والأحب إخفاء النافلة وإعلان الواجب ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾ [الآية 31] فيشتري المقصر ما يتدارك به أو ما يفدي به نفسه ﴿وَلَا خِلَالٌ﴾ [الآية 31] لا مخافة فيه فينفعه أحد بالشفاعة لمن بالغ في المعصية كما قلت:

قلت للنفس إن أردت رجوعاً فارجعي قبل أن يسد الطريق

وقرأ ابن كثير وأبو عمر بالفتح فيهما.

---

(1) أورده السيوطي في جامع الأحاديث (19/ 190) رقم (20536).
(2) ذكره القشيري في تفسيره (4/ 46).

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الآية 32] مبتدأ وخبر ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [الآية 32] تعيشون به على وجه المأنوس وهو يشمل المأكول والمشروب والملبوس، ومن بيانية مقدمة ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الآية 32] بمشيئته وقدرته أو بمقتضى قضائه وقدره ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [الآية 32] معدّة لانتفاعكم بها في الزروع والأشجار المنتجة للأثمار.

﴿وَسَخَّر لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ [الآية 33] يدأبان في مسيرتهما ويدومان في إنارتهما ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ [الآية 33] يتعاقبان لراحتكم ومعيشتكم.

96/أ قال جعفر الصادق: سخّر لكم السموات/ بالأمطار والأرض بالنبات والفلك بأن تتخذوا سبيلها متجراً والشمس والقمر توصلان إليكم منافع الزروع والثمار، وسخر قلب المؤمن لمحبته ومقاربته وحظ الله من العبد القلوب لا غير لأنه موضع نظره ومستودع أمانته وسره، ذكره السلمي. ولعل المراد بحفظ الله حقه الواجب على العبد من إعانة من حفظ قلبه من غير ربه وكثير ما يستعجل الحظ بمعنى النصيب في القسمة، وأما الحظ بمعنى اللذة فلا يجوز نسبتها إليه سبحانه.

وأفاد الأستاذ: أن معنى الآية في الظاهر رفع السماء فأعلاها والأرض من تحتها دحاها وخلق بحاراً وأجرى أنهاراً وأنبت أشجاراً وأنبت بها أزهاراً وأثماراً وأمطر من السماء ماء مدراراً وأخرج من الثمرات أصنافاً ونوع لها أوصافاً وأفرد لكل واحد منها طعماً مخصوصاً ولإدراكه وقتاً معلوماً مصنوعاً، وأما في الباطن فسماء القلوب زينها بمصابيح العقول وأطلع فيها شمس التوحيد وقمر الوفاق ومرج في القلوب بحر الخوف والرجاء وجعل بينهما برزخاً لا يبغيان لا الخوف يغلب الرجاء ولا الرجاء يغلب الخوف كما في الخبر: «لو وزنا لاعتدلا»[1]، وهذا لعوام المؤمنين. وأما للخواص فالفيض والبسط ولخاص الخاص الهيبة والأنس والبقاء والفناء، وسخّر لهم الفلك في

(1) أورده القشيري في تفسيره (4/ 50).

هذه البحار ليعبروها بالسلامة وهي فلك التوفيق والعصمة والحماية وسفينة الإيواء والحفظ والرعاية، وكذلك سخّر ليالي الطيب للمريدين وليالي الطرب لأهل الأنس من المحبين وليالي الحرب للتابعين وكذلك نهار العارفين باستغنائهم عن سراج العلم عند طلوع نهار اليقين.

﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ [الآية 34] وأعطاكم بعض جميع مسؤولاتكم بلسان حالكم أو بيان قالكم من جهة حاجاتكم وفيه تنبيه على أن كل صنف من الموجود بعض ما في قدرة واجب الوجود، وما يحتمل أن تكون موصولة وموصوفة أو مصدرية على أنها تكون بمعنى المفعول، وقرىء بتنوين كل أي من كل شيء ما احتجتم إليه، ويجوز أن تكون ما نافية /في موضع النصب 96/ب على الحالية، وأتاكم من كل شيء غير سائليه.

قال الأستاذ: أي ما سمت إليه هممكم وتعلق به سؤالكم وخسر تحقيق ذلك بيانكم أنلناكم فوق ما تأملون وأعطيناكم أكثر مما ترجون. ومن قرأ بتنوين كل وجعل ما نافية أي من كل شيء مما لم تسألوه كذلك جاء أنه قال: يا أمة محمد أعطيتكم قبل أن تسألوني هذا لأرباب الطاعات دعوت وغفرت لكم قبل أن تستغفروني وهذا لأرباب الزلّات علم قصور لسان العاصي وما يمنعه من الخجل وما يقبض على لسانه إذا تذكر ما عمله من الزلل فأعطاه غفرانه بدءاً وكفاه خشية السؤال والتنصل فقال: غفرت لكم قبل أن تستغفروني، ومتى خطر على قلب العبد ما أهلّه الحق سبحانه من العرفان وكيف ذا والحديث قبل أن كان له إمكان أو معرفة أو إيمان أو طاعة أو عصيان أو عبادة أو إحسان أو كان له أعضاء وأركان أو كان للعبد شبحاً أو أثراً لا بل كما قيل:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغاً فتمكنا[1]

---

(1) نسب هذا البيت إلى مجنون بني عامر. انظر البيان والتبيين (1/ 233)، والحيوان (1/ 338).
ونسب إلى ابن الطثرية. انظر محاضرات الأدباء (٨/ ٣٤٩)، وأخبار أبي تمام (١/ ٤٠)، وحماسة القرشي (١/ ٢١).

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [الآية 34] أي أنواع النفع من المنن وأصناف الدفع من المحن ﴿لَا تُحْصُوهَآ﴾ [الآية 34] لا تحصروها ولا تضبطوها ولا تطيقوا عد أنواعها فضلاً من أفرادها لعدم تناهي أجناسها وأصنافها فكيف تقدرون أن تقوموا بشكرها، وصرف كل منها في طاعة منعهما فلا شكر لذلك إلا أن معرفة العجز عما هنالك وهذا تحقيق كلام الصديق: العجز عن درك الإدراك إدراك ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ﴾ [الآية 34] كثير الظلم على نفسه بأن يعرِّضها للحرمان ﴿كَفَّارٌ﴾ [الآية 34] شديد الكفران لما فيه من الإنعام والإحسان. قيل: ظلوم في الشدة يشكر أو يجذع، كفار في النعمة يجمع ويمنع.

وقال السلمي: ظلوم لنفسه حيث ظن أن شكره يقابل نعمه، كفار محجوب عن رؤية فضله وكرمه.

وقال الأستاذ: أي كيف شكركم يفي بنعمي وشكركم نذر يسير وإنعامي. وفير وإني لكم بعد إنعامي وعلومكم عن تفصيلها / متقاصرة وفهومكم عن تحصيلها متأخرة وإذا كان ما يدفع عن العبد من وجوه المحن وفنون البلايا والفتن من مقدراته لا نهاية لها فكيف يأتي الحصر والإحصاء على ما لا يتناهى وكما أن النفع من نعمه والدفع أيضاً من نعمه وكرمه. ويقال: إن توفيق الشكر من جملة ما ينعم به الحق على العبد فإذا أراد أن يشكروه عليه لم يمكنه إلا بتوفيق آخر فإنه يبقى عليه من النعم ما لا يشكره.

97/أ

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ﴾ [الآية 35] بلده مكة ﴿ءَامِنًا﴾ [الآية 35] ذا أمن لمن فيها أو نزل بها ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ﴾ [الآية 35] من بعدي وأولادي من صلبي ﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [الآية 35] واجنبني وجنبني منه لغات بمعنى اجعلني في جانب عنه، وفيه دلالة على أن عصمة الأنبياء بتوفيق الله لهم وحفظه إياهم.

وفي تفسير السلمي قيل: المراد بالأصنام أنفس الأنام فإن لكل نفس صنماً من الهوى إلا من طهر بنور توفيق المولى.

وقال ابن عطاء: المراد بعبادتها والخلد والركون إليها.

﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الآية 36] سرن بسبب ضلالة كثير من الخلق، فهذا موجب سؤال الاستفادة بالحق ﴿فَمَن تَبِعَنِى﴾ [الآية 36] على ديني ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [الآية 36] بعضي لاينفك عني فيما ينوبني ﴿وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية 36] تقدر أن تغفر له وترحمه من البداءة أو بعد التوفيق للتوبة أو بعد التعذيب إن كانت المعصية فيما عدا الشرك والكفر، وفيه إشارة إلى أن كل ذنب فله سبحانه أن يغفره حتى الشرك غير أن الوعيد فرق بينه وبين غيره.

وقال الأستاذ: لما سأل أن يجعل مكة بلداً آمناً طلب أن يجعل قلبه محلاً آمناً والبدن يكون آمناً إذا صبر عن المخالفات والهوى والقلب يكون آمناً إذا لم يكن فيه شيء غير حب المولى، ثم الصنم ما يعبد من دون الله قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:الآية 24] فصنم كل شيء ما يشغله عن مولاه من طاعة وعبادة ومال وولد وجاه. ويقال: إنه لما بنى بيت ربه استعاذ به أن يجيره من ملاحظة بنائه وفعله، ويقال: / إنه عليه السلام كان متردداً بين شهود فضل ربه وشهود فضل نفسه فلما لقي من فضله وجوده قال من كمال بسطه: واغفر لي ربي، ولما نظر من حيث فقد نفسه قال: واجنبني وبنيَّ. ويقال: شاهد عزه واستغناءه فقال: واجنبني، وشاهد شمول لطفه وعموم جمعه فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ﴾ [الشعراء:الآية 86]، ثم قال: ومن نفعني ﴿فَإِنَّهُۥ مِنِّى﴾ [الآية 36] موافق لي ومن أهل ملتي ﴿وَمَنْ عَصَانِى﴾ [الآية 36] وخالفني وعصاك ﴿فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية 36] كائن بعين البسط فلاحظهم بعين الرحمة واسترحمهم بالإشارة. ويقال: من عصاني ولم يقل من عصاك وإن كان من عصاه فقد عصى الله ولكن للفظ من عصاني إيماء إلى أنه إنما طلب الرحمة فيما كان تصيب نفسه من ترك حقه في عصيانهم لربه فلم يقتصر لنفسه بل قال لهم برحمة ربه. ويقال: إن قول نبينا ﷺ في هذا المعنى ثم جئت قال جزماً وسأل حتماً: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1]. وإبراهيم عليه السلام عرض وقال: فإنك غفور رحيم. ويقال: لم يجزم السؤال لأنه راعى أدب المقال. أقول: فجزم نبينا ﷺ للسؤال

97/ ب

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (3477)، وابن حبان في الصحيح (3/ 254) رقم (973)، والبيهقي في شعب الإيمان (2/ 164) رقم (1447).

يومىء إلى ما له من الكمال في مقام البسط والكمال.

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [الآية 37] بعض أولادي وأجنادي ﴿بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾ [الآية 37] لئلا ينشغلوا بغير القيامة ويتكلوا على ربهم في أمر المعيشة ﴿عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾ [الآية 37] المحترم المكرَّم الذي حرَّمت التهاون به والتعرُّض لأهله. روي أن هاجر كانت جارية سارة وهما بالشام فوهبتها من إبراهيم عليه السلام فولدت منه إسماعيل فغارت عليهما فناشدته أن يخرجهما من عندها فأخرجهما إلى أرض مكة فأظهر الله عين زمزم من جناح جبريل أو قدم إسماعيل ثم إن قبيلة جرهم رأوا ثمَّ طيوراً فقال: لا طير إلا على الماء، فقصدوه فرأوهما فقالوا: أشركينا في ماءك فنشركك في ألباننا ففعلت ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الآية 37] أي أسكنتهم عند مسجدي المعظم لإقامة الصلاة، / والمقصود من الدعاء توفيقهم للعبادة. وقيل: اللام لام الأمر، والمراد هو الدعاء لهم بالإقامة والاستقامة بتوفيق الطاعة وحسن العبادة. 98/ أ

قال ابن عطاء: أسكنتهم وادياً لا متعلق لي ولا علاقة لهم سؤال ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الآية 37] أي أفئدة من أفئدة الناس أو من للتبعيض ولذا قال بعضهم: لو قال أفئدة الناس لازدحمت عليهم فارس والروم ونحوهم ولحجت اليهود والنصارى وغيرهم وفيه إشارة إلى أن الدعوة خاصة والمدعوين زبدة وخلاصة ﴿تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الآية 37] تميل إليهم شرقاً وتحمس عليهم ذوقاً ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [الآية 37] فواكه المطعومات والملبوسات ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [الآية 37] ربهم على تلك الحالات، وأجاب الله دعوته وجعله حرماً آمناً يجيء إليه ثمرات كل شيء حتى قد يوجد فيه الفواكه الربيعية والصيفية والخريفية في وقت واحد، وحتى يوجد تحف الأشياء المحتاج إليها مجموعة في أيام موسم الحج مسهلة من الأطراف والأكفاف مجلوبة.

قال ابن عطاء: من انقطع عن الخلق بالكلية صرف الله إليه وجوه البرية وجعل مودّته في صدورهم ومحبته في قلوبهم وذلك من دعاء الخليل من ربه الجليل لما قطع بأهله من الخلق وأسباب الرزق دعا لهم بالرفق فقال: ﴿فَٱجۡعَلۡ

أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [الآية 37] الآية، قال: مَن كان لله كان الله له.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أخبر عن صدق توكله وصدق تفويضه بقوله: ﴿إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [الآية 37] أي قوماً منهم ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [الآية 37] فلا متعلق من الأغيار بقلوبهم ولا متناول لأفكارهم وأسرارهم مطروحون ببابك مقيمون بحضرة جنابك جار بينهم حلمك إن راعيتهم وكفيتهم كانوا أعز خلق الله وإن أقصيتهم ونبذتهم كانوا أذلّ خلق الله عند بيتك المحرم وإنما رأى الرفقة بينهم في الجوار لا في المبار فقال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [الآية 37] ثم قال: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [الآية 37] أي / أسكنتهم لإقامة حقك بهم لا لحظوظهم بك بإقامة حقك عليهم ليشتغلوا بعبادتهم ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [الآية 37] فأمر قوماً بأن يقوموا بكفايتهم وارزقهم من الثمرات فإن مَن قام بحق الله أقام الله بحقه قوماً واستجاب الله دعاءه وصارت القلوب من كل بحر وبر كالمجبول على محبة ذلك البيت الأجلّ والميل إلى سكان ذلك المحل. 98/ ب

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ [الآية 38] تعلم سرنا كما علم علننا، والمعنى أنك أعلم بأحوالنا ومصالحنا وأرحم منا بأنفسنا فلا حاجة لنا إلى الطلب إلا لإظهار العبودية وافتقاراً إلى الحضرة الربوبية. وقيل: ما نخفي من وجد الفرقة وما نعلن من التضرع والمسكنة، وتكرير ربّنا للمبالغة في مقام الدعوة.

قال السلمي: وقيل ما نخفي من الحجة وما نعلن من الجد.

قال ابن عطاء: ما نخفي من الأحوال وما نعلن من الأفعال ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [الآية 38] من الاستغراق في نفي الحقائق.

وأفاد الأستاذ: أن من عرف هذه الجملة استراح عن النظر إلى الأغيار واستروح قلبه عن مترجم الأفكار.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ﴾ [الآية 39] أي في حال كبري ﴿إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ [الآية 39] روي أنه وُلِد له إسماعيل لتسع وتسعين سنة وإسحاق لمائة واثنتي عشرة، وقيد الهبة بحال الكبر استعظاماً للنعمة واستظهاراً

لما فيه من الآية. وإسماعيل جد نبينا ﷺ وإسحاق أبو سائر الأنبياء ﴿إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [الآية 39] أي مجيب، ومنه قوله: سمع الله لمن حمده، أي أجابه.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الآية 40] صيِّرني مديماً لها وقائماً بحقوقها ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ [الآية 40] أي واجعل بعض أجنادي مقيمين لها ومواظبين عليها والتبعيض لعلمه إما بإعلامه سبحانه له أو باستقراء عادة الله في الأمم الماضية من وجود الكفار والفجار في الذرية.

وأفاد الأستاذ: أن في هذه الآية دلالة على أن أفعال العباد مخلوقة فإن الجعل والخلق بمعنى / واحد في اللغة. 99/ أ

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ﴾ [الآية 41] وقد سبق عذر استغفاره لهما، وقيل: أراد وجوبهما ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية 41] من السابقين واللاحقين ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [الآية 41] يوم يقوم الناس لربِّ العالمين.

وأفاد الأستاذ: أن إجابة الدعاء فضل من الله يفعل ما يشاء فلا ينبغي للعبد أن يتوكل على دعاء أحد من الأعيان وإن كان عالي الشأن بل يجب على العبد أن يعلق قلبه بالله ولا يسكن إلى ما سواه فلا دعاء أتم من دعاء إبراهيم ولا عناية أتم من عنايته بشأن أبيه ثم إنه لم ينفعه فيه ولا ينبغي للعبد أن يترك دعاءه ويقطع رجاءه فإن إبراهيم دعا لأبيه فلم يستجب فيه، ثم إنه لم يترك الدعاء في حق سائر الأشياء كالأبناء ولا غضاضة على العبد في أن لم يجبه مولاه في شيء ولا مذلة بل الدعاء عبادة فلا بد للعبد من فعلها والإجابة فضل فله سبحانه فعلها وتركها.

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الآية 42] فيه مثلبة للمظلوم وتهديد للظالم الملوم.

وأفاد الأستاذ أن المظلوم إذا تحقق أنه سبحانه عالم بما يلاقيه من البلاءات على مقاساته وخفف عليه تحمله ومرارته. والظلم على وجوه، ظلم على النفس بوضع الزلة مكان الطاعة، وظلم على القلب بتمكين الخواطر الرديئة وإخطار الغير بالبال، وظلم على الروح بمحبة المخلوقين. ويقال:

الشيطان من جملة الظالمين والعبد المؤمن مظلوم من جهته والحق سبحانه ينتصف له منه غداً وذلك لمن لا يتبعه اليوم طائعاً فيتأذى بوساوسه ويدفعه بالمجاهدة عن نفسه ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الآية 42] أي أبصارهم فلا تقر في أماكنها من هول ما ترى.

﴿مُهْطِعِينَ﴾ [الآية 43] حال كونهم مسرعين إلى الداعي وصوب صوت النداء ﴿مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ﴾ [الآية 43] رافعيها إلى جهة السماء ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ [الآية 43] أي لا يرجع إليهم نظرهم فينظروا إلى أنفسهم بل بقيت عيونهم شاخصة ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ [الآية 43] كالخلاء خالية عن الفهم لفرط الحيرة والدهشة أو خالية عن الصدق / خاوية عن الحق. 99/ ب

قال ابن عطاء: هذا صفة قلوب الحق متعلق به لإقرار الأمة، ولا يسكن إلا إليه وليس في قلوبهم محل لغير الله قال تعالى: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النّمل:الآية 88] ولا تلتفت إلى غير الله ولا لها قرار مع ما سواه.

وقال الأستاذ: وهذا لعوام المؤمنين لتعلق قلوبهم بالانتقام لهم وأما الخواص فإذا علموا أنه سبحانه عالم بهم وبحالهم فإنهم يثقون بذلك ويكتفون لما هناك، وأما خاص الخاص فعلموا أنهم عبيده فإنهم لا يرضون بالعفو عن مَن ظلمهم حتى يستغفروا لهم كما قال ﷺ: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[1]. وأما أصحاب التوحيد فإذا علموا أن المنشىء هو الله ولا مخترع سواه فليس بينهم وبين أحد محاسبة ولا مع أحد معاتبة ولأمته مطالبة أنهم يعدون إثبات الغير في الظن والحساب شركاء نظر إلى حقيقة الوحدة.

﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [الآية 44] خوِّفهم ﴿يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الآية 44] وقت إتيان العذاب لهم وهو يوم القيامة أو يوم موتهم فإنه أول أيام عذابهم، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ [الآية 44] بالكفر والكفران والعصيان والعدوان ﴿رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ [الآية 44] أخِّر العذاب عنا وأمهلنا على حالنا إلى

(1) انظر تخريج الحديث السابق.

حد من الزمان قريب من آجالنا لتدارك أحوالنا وإصلاح أعمالنا ﴿نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ﴾ [الآية 44] بإقرار التوحيد وإظهار الدعوة لا بحقيقتها لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ [الأنعام:الآية 28]. ولما قيل: وما مواعيدها إلا أباطيل وتظهر مما يقع لهم ولأمثالهم من الدعاء عند البلاء والعود إلى الجفاء بعد الإنجاء ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوٓاْ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [الآية 44] ما لكم جواب القسم جاء بلفظ المخاطبة على المطابقة دون الحكاية وإلا لقيل: ما لنا، والمعنى يقال لهم أقسمتم بلسان الحال ما لكم من زوال في جاه ومال حيث نعمتم شديداً وأملتم بعيداً.

﴿وَسَكَنتُمْ﴾ [الآية 45] أمداً مديداً ﴿فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الآية 45] بالكفر والمعصية، قيل: أراد بهم عاداً وثموداً ﴿وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ﴾ [الآية 45] بما يشاهدون وما نزل عليهم في منازلهم وآثارهم وما تسمعون / من تواتر أخبارهم ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الآية 45] من أحوالهم تنبيهاً على أمثالهم. 100/ أ

قال أبو عثمان: مجاوزة الفساق وأهل المعصية من غير ضرورة فسق كامن ومعصية مستترة لأن الله تعالى ذمّ قوماً من عباده فقال: ﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الآية 45] ولم يقدر من أقام بها، وقال: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النّساء:الآية 97].

وقال الأستاذ: أي أحللنا بهم العقوبة وأشهدناكم فما اعتبرتم وجريتم على منهاجهم وما انزجرتم وفعلتم مثل فعلهم وبإمهالنا إياكم اغتررتم فانظروا مثل ما عاملناهم به جزاء لكم على ما أسلفتم.

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ﴾ [الآية 46] لإبطال الحق وإظهار الباطل ﴿مَكْرَهُمْ﴾ [الآية 46] المستغرق فيه جهدهم وفكرهم ﴿وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ [الآية 46] ما يمكرهم به جزاء لمكرهم أو مكتوب عنده فعلهم وجزاؤهم ﴿وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ﴾ [الآية 46] في العظمة والشدة ﴿لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ﴾ [الآية 46] مسوِّي لإزالة الجبال الثابتة فإن وصلته فرضية غير واقعية. وقيل: مخففة من المثقلة والمعنى إنهم

مكروا ليزيلوا ما هو ثابت كالجبال الراسية من آيات الله وشرائعه الماضية. وقرأ الكسائي: لتزول بالفتح والفرع على ألفها المخففة واللام هي الفاصلة والمراد منه المبالغة في تفخيم أمرهم وتعظيم مكرهم.

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ [الآية 47] كقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾ [غافر:الآية 51] لأصله مُخلِفَ رسله وعده فقدم المفعول الثاني إيذاناً بأنه لا يخلف الوعد أصلاً كقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ [الآية 47] لا يخلف الميعاد فإذا لم يخلف وعده أحداً لا يخلف رسله أبداً ﴿عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [الآية 47] غالب لا يدافع وقادر لا يمانع ذو انتقام لأوليائه من أعدائه.

وقال الأستاذ: أي لا تحسبنه مخلف رسله وعده لا يخلف الوعد لصدقه في قوله، وله أن يعذبهم بما وعدهم لِحَقِّه في ملكه وهو ﴿عَزِيزٌ﴾ [الآية 47] لا يصل إليه أحد وإن كان ولياً ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾ [الآية 47] لا يفوته أحد وإن كان قوياً.

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾ [الآية 48] غير السموات والتبديل بالصفة أو الذات ويؤيد الأولى قوله تعالى: ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفُرقان:الآية 70]، ويقوي الثاني ما عن علي كرَّم الله وجهه: «تبدل أرضاً من فضة / وسمٰوات من ذهب»[1] وهو لا ينافي ما روى ابن مسعود وأنس رضي الله عنهما: «يحشر الناس على أرض بيضاء لم يخطئ أحد عليها خطيئة»[2]. 100/ب

وعن ابن عباس: هي تلك الأرض بعينها وإنما تغير صفتها ويدل عليه ما روى أبو هريرة مرفوعاً: تبدل الأرض غير الأرض فينبسط الأديم فلا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً[3].

وفي «تفسير السلمي» قيل: فإن الأشياء إذ ذاك قد عادت إلى مصادرها.

(1) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (1/ 170) رقم (140).
(2) أخرجه ابن حبان ـ بلفظ مختلف ـ في الصحيح (16/ 312) رقم (7320).
(3) أورده البيهقي في البعث والنشور (2/ 137).

لكنه يؤخرها بمقتضى حكمه ثم في العاقبة يفعل ما يفعل على قضية إرادته وحكمه.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [الآية 59] أي قرى عاد وثمود وأمثالها ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ [الآية 59] أي أهلها ﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ [الآية 59] على أنفسهم بإهمالها ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم﴾ [الآية 59] بضم الميم وفتح اللام أي لإهلاكهم. وقرأ أبو بكر بفتح الميم واللام وحفص بكسر اللام لهلاكهم ﴿مَّوْعِدًا﴾ [الآية 59] وقتاً معيناً وزماناً مبيناً لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، فليعتبر غيرهم بهم ولا يغتروا بتأخير عذابهم.

وأفاد الأستاذ: أنهم لما لم يشكروا النعمة ولم يصبروا في المحن عجّلنا لهم العقوبة. ويقال: لما غفلوا عن شهود التقدير وحرموا روح الرضا في حالاتهم وكّلناهم في ظلمات تدبيرهم فطاحوا في أودية غفلاتهم.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الآية 60] لخادمه أو تابعه يوشع بن نون بن افرايم بن يوسف عليه السلام ﴿لَآ أَبْرَحُ﴾ [الآية 60] لا أزال أسير ولا أزول عما أنا عليه من السير والطلب لتحصيل الأدب ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الآية 60] ملتقى بحر فارس والروم مما يلي المشرق إذ وعد لقاء الخضر فيه أو البحران موسى وخضر عليهما السلام، فإن موسى كان بحر علم الظاهر والخضر كان بحر علم الباطن ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الآية 60] أو أسير زماناً طويلاً، والمعنى حتى يقع إما بلوغ المجمع أو مضي الحقب وهو الدهر. قيل: وهو ثمانون سنة، وقيل سبعون. وفي الحديث: «إن موسى خطب الناس بعد هلاك القبط ودخوله مصر خطبة بليغة فأعجب بها فقيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك، فقال: لا، فأوحى الله إليه: بلى عندنا الخضر وهو مجمع البحرين»[1]. وقيل: إن موسى سأل ربه: أي عبادك أحب إليك، قال: الذي يذكرني ولا يسألني، قال: فأي عبادك أقضى، قال: الذي يقضي بالحق ولا يتبع الهوى، قال: فأي عبادك

(1) تفسير البيضاوي (1/ 507).

179/ ب أعلم، قال: الذي ينبغي علم الناس إلى علمه عسى/ أن يصيب كلمة تدل على هدى أو ترده عن ردى، فقال: إن كان في عبادك أعلم مني فادللني عليه، قال: أعلم منك الخضر، قال: أين أطلبه، قال: على الساحل عند الصخرة، قال: كيف لي به، قال: فخذ حوتاً في مكتل فحيث تفقده فهو هنالك، فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهبا يمشيان.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾ [الآية 61] أو محل وصلهما ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الآية 61] نسي موسى أن يطلبه ويتعرف حاله ويوشع أن يذكر له ما يرى من حياته ووقوعه في البحر وذهابه ﴿فَاتَّخَذَ﴾ [الآية 61] الحوت ﴿سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الآية 61] مسلكاً ومهرباً.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ [الآية 62] مجمع البحرين ﴿قَالَ لِفَتَاهُ ءَاتِنَا غَدَاءَنَا﴾ [الآية 62] أعطنا ما نتغذى به ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الآية 62] تعباً.

﴿قَالَ﴾ [الآية 63] فتاه ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى الصَّخْرَةِ﴾ [الآية 63] على ساحل البحر ﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ [الآية 63] أي ذِكْره لك بما رأيته منه ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا الشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ [الآية 63] بدل من الضمير وهو اعتذار عن نسيانه بوسواس الشيطان له في شأنه ﴿وَاتَّخَذَ﴾ [الآية 63] الحوت ﴿سَبِيلَهُۥ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الآية 63] اتخاذاً عجيباً.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ [الآية 64] أي أمر الحوت ﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ [الآية 64] الذي كنا نبغيه ونطلبه فإنه أمارة المطلوب ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾ [الآية 64] فرجعا في الطريق الذي جاءا [منه] ﴿قَصَصًا﴾ [الآية 64] يتبّعان آثارهما اتّباعاً.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الآية 65] هو الخضر، وقيل إلياس أو غيره ﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الآية 65] وحياً ونبوّة ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الآية 65] مما يختص بنا ولا يُعلم إلا من جانبنا.

وأفاد الأستاذ: أن معناه صار مرحوماً من قبل تلك الرحمة التي خصصناه بها من عندنا، أو يرحم بها على عبادنا. ثم قيل: العلم اللدني ما يحصل من طريق إلهام دون التكليف بالطلب. ويقال: هو ما لا يجد صاحبه

سبيلاً إلا في صحبته ودليلاً على صحته. وقد قيل: أقوى العلوم أبعدها من الدليل. وقال ذو النون: العلم اللدني هو الذي يحكم على الخلق بمواقع التوفيق والخذلان.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ [الآية 66] قال فارس: استثنى موسى على نفسه ولم يستثنِ الخضر على موسى في ذلك الوقت علم تكلف واستدلال وعلم الخضر علم لدني من غيب إلى غيب/ بلا شك ولا ريب على شرط تعليمك لي ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الآية 66] علماً ذا رشد وهو إصابة الخبر. وقرأ عمرو بفتحتين ولا ينافي كونه صاحب الشريعة أن يتعلم من غيره ما لم يكن من أبواب الديانة، فإن الرسول ينبغي أن يكون أعلم ممن أُرسل إليه فيما يبعث به من أصول الدين وفروعه لا مطلقاً، وقد راعى موسى عليه السلام في ذلك غاية التواضع والأدب فاستجمل نفسه واستأذن أن يكون تابعاً له وسأل منه أن يرشده وينعم عليه ببعض ما أنعم الله به عليه. 180/أ

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾﴾ [الآية 67] نفى عنه استطاعة الصبر معه على وجود من التأكيد له ثم علل ذلك واعتذر عما هنالك بقوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الآية 68] من أمور ظواهرها مناكير وبواطنها لم يحط بها خبرك مما تعلق به المقادير.

قال جعفر: لن تستطيع أن تصبر مع من هو دونك فكيف تصبر مع من هو فوقك.

وقال ابن عطاء: كره صحبة المخلوقين فآيسه من صحبته بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الآية 67] لعلّه يفارقه بهذه اللفظة فمن وجد الله صاحباً استوحش مما سواه غالباً.

وقال أبو عثمان المغربي: إنما أوتي الناس من قبل أنهم لا يعرفون مقامهم مع الله قال الله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [هُود:الآية 17] والبينة هي الكشف عن مراد الحق فيه فإذا عرف مراده فيه استراح واطمأن ومن ذلك أنه يبدي له علم مجاري أحكامه قبل أن تجري فإذا جرت الأحكام عليه يصبر لديه

كما قال الخضر لموسى: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الآية 68] لصبرت ولكن ستر عنك محل هذا العلم لموضع التأديب والتهذيب ولذلك قيل: من عرف علم ما يجري عليه صبر على أحكامه لعلمه بما يراد منه.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا﴾ [الآية 69] معك غير منكر عليك ﴿وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا﴾ [الآية 69] فيما يبدو لديك وهو عطف على ﴿صَابِرًا﴾ [الآية 69]، أي ستجدني إن شاء الله صابراً وغير عاصٍ لك أمراً.

﴿قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى﴾ [الآية 70] أي ابتداء ﴿عَن شَىْءٍ﴾ [الآية 70] مما أنكرته ولم تعلم ما يقتضي صحته ﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ/ ذِكْرًا﴾ [الآية 70] أي حتى أبيّن لك حجته. 180/ب

قال أبو عثمان المغربي: للمتبع أن يسأل المتبع ويهتدي له بالسؤال إن كان المتبع من أهل الإشراف لكنه يكتفي بإشرافه عليه وتأديبه في وقت الأدب لديه، ألا ترى كيف قال الخضر لموسى: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الآية 70].

وأفاد الأستاذ: أنه ليس للمريد أن يقول لشيخه لم، ولا للتلميذ أن يقول لأستاذه ولا للعامي أن يقول للمفتي.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ [الآية 71] فذهبا على الساحل يطلبان السفينة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا﴾ [الآية 71] الخضر بأن أخذ فأساً وقلع لوحين من ألواحها وكان في خرقها إبقاء على صاحبها لئلا يرغب الملك الطامع في السفن إليها لعيبها ﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾ [الآية 71] فإن خرقها سبب لدخول الماء فيها المفضي إلى غرق أهلها، والمعنى لتؤدي عاقبة هذا الأمر إلى غرق أهلها لأنه علم أنه لم يكن قصده إغراق أهل السفينة بخرقها. وقرأ حمزة والكسائي ليغرق أهلها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الآية 71] أتيت أمراً فظيعاً.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾﴾ [الآية 72] أي أنت تنظر إلى هذا من حيث العلم وأنا أجري على هذا من حيث الحكم، كذا أفاد الأستاذ.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ﴾ [الآية 73] من الوصية بعدم الاعتراض والمسألة من أول الوهلة ﴿وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾ [الآية 73] ولا تغشني عسراً في المتابعة من أمري بالمضايقة والمؤاخذة على النسيان فإن ذلك يعسر على نوع الامتنان.

﴿فَانْطَلَقَا﴾ [الآية 74] أي بعدما خرجا من السفينة ذهبا ﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا﴾ [الآية 74] ولداً صغيراً ﴿فَقَتَلَهُ﴾ [الآية 74] من غير سبب يوجبه ﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ [الآية 74] طاهرة من الذنوب ﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ [الآية 74] قُتِلَت من جهتها. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: زاكية بالألف وتخفيف الياء ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ [الآية 74] أي منكراً عظيماً. وقرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بضمتين.

﴿۞ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الآية 75] أزيد لك في مواجهة بالعتاب على ترك محافظة الوصية في هذا الباب وإشارة بقلّة الصبر لما تكرَّر منه/ مخالفة الأمر.

181/ أ

﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ [الآية 76] ولو سألت صحبتك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الآية 76] قد وجدت عذراً من قبلي لما خالفتك ثلاث مرات إذ الثلاث آخر حد القلة وأول حد الكثرة فلم يكن بعد ذلك المسامحة.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الآية 77] أنطاكية أو غيرها ﴿اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾ [الآية 77] يقرب أن يسقط ﴿فَأَقَامَهُ﴾ [الآية 77] بعمارته أو بإشارته ﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخِذْتَ﴾ [الآية 77] وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتخفيف أي لأخذت ﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الآية 77] أي أجرة نتعشى بها.

قال الواسطي: الخضر شاهد أنوار الملك وموسى شاهد الوسائط فأخبره أن السؤال من الله فلا تعصيب عند المنع فإن المانع والمعطي واحد فلا تشهد الأسباب واشهد المسبب حتى تستريح من هواجس النفس ووساوس النعت.

وفي «تفسير السلمي» قال ﷺ: «إذا سألت فاسأل الله»[1]، فأخبر الخضر موسى أن السؤال من الناس هو السؤال من الله فقال: لا تغضب من المنع حين أبوا أن يضيفوهما.

قال الأستاذ: فإن لم تأخذ بسببك فلو أخذت بسببنا لكان أخذه خير لك من ترك ذلك، ولئن وجب حقهم فلم خللت بحقنا هنالك. ويقال: إن سفره هذا كان سفر تأديب فردّ إلى تحمُّل المشقة وإلا فموسى عليه السلام حيث سقى لبنات شعيب عليه السلام كان ما حباه من التعب والجوع أكثر ولكنه كان ذلك الوقت محمولاً وفي هذا الوقت متحملاً.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الآية 78] أي هذا الاعتراض سبب افتراقنا أو هذا الوقت وقت المفارقة بيننا مع اشتياقنا له.

قال جنيد: إذا وردت ظلم الأطماع على القلوب حجبت النفوس عن حظوظها من بواطن الحكم ﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ [الآية 78] سأخبرك ﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الآية 78] أي بالخبر الباطن فيما لم تقدر عليه الصبر لكونه من حيث الظاهر منكراً.

﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ﴾ [الآية 79] ملكاً أو إجارة ﴿يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ [الآية 79] خدمة أو تجارة ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ [الآية 79] أجعلها معيبة بقاء لأهلها ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ [الآية 79] قدامهم أو خلفهم ﴿مَّلِكٌ﴾ [الآية 79] ظالم ﴿يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ [الآية 79] أي صالحة كما قرىء / بها ﴿غَصْبًا﴾ [الآية 79] قهراً من أهلها. 181/ب

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾ [الآية 80] يغشيهما ﴿طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [الآية 80] لعلمهما بعقوقه لهما فيلحقهما شراً يضرهما دهراً وإنما خشي ذلك لأن الله تعالى أعلمه بما هنالك.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الآية 81] قرأ نافع وأبو عمرو بالتشديد أي

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (3/ 623) رقم (6303)، والترمذي في الجامع الصحيح (4/ 667) رقم (2516)، وابن حبان في الصحيح (15/ 166) رقم (6763).

يرزقهما بدله ولداً ﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾ [الآية 81] طهارة من الأحوال الردية والأفعال الدنية ﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ [الآية 81] وقرأ ابن عامر بضمتين أي رحمة وشفقة على والديه. قيل: ولدت لهما جارية فزوّجها نبي فولدت نبيّاً هدى الله به أمة من الأمم وانتصاب زكاة ورحماً على التمييز والعامل اسم التفضيل.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ [الآية 82] من ذهب وفضة. روي ذلك مرفوعاً والذم على الكنز إنما هو لمن لا يؤدي زكاته. وقيل: من كتب العلم، وقيل: كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه: عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلّبها بأهلها كيف يطمئن إليها لا إلٰه إلا الله محمد رسول الله[1] ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الآية 82] قيل كان يتيماً وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾ [الآية 82] أي الحكم وكمال الرأي والعلم والحكم ﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الآية 82] أي مرحومين من عنده. ولعل إسناد الإرادة أولاً إلى نفسه لأنه المباشر للتعقيب، وثانياً إلى الله تعالى وإلى نفسه لأن التبديل بإهلاك الغلام وإيجاد الله بدله، وثالثاً إلى الله وحده لأنه لا مدخل له في بلوغ الغلامين أو لأن الأول في نفسه شر والثاني خير والثالث ممتزج، أو لاختلاف حال العارف في الالتفات إلى الوسائط.

ذكر البيضاوي: والتعليل الأول هو المعول وفق ما أفاد الأستاذ على ما سنذكره عنه، والآخر هو الظاهر إما بطريق العبارة فمن نوع التفنن، وإما بطريق الإشارة/ فمن باب التلوين والله أعلم بحقائق اليقين ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾ 182/أ [الآية 82] أي ما رأيته مني ﴿عَنْ أَمْرِى﴾ [الآية 82] رأيي وإنما فعلته بأمر ربي وعلى وفق ما حكم لي. ومبنى ذلك على أنه متى تعارض ضرران يجب تحمل أهونهما لدفع أعظمهما وهو أصل ممهد مؤتلف غير أن الشرع في تفاصيله مختلف ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الآية 82] أي ما لم تستطع فحذف التاء تخفيفاً وآخر

---

(1) تفسير الرازي (10/ 243)، والكشاف (4/ 45).

القصة أولى به تطريفاً.

ومن فوائد هذه القصة أن لا يعجب المرء بعلمه ولا يبادر إلى إنكار ما لا يستحسنه بعقله فلعل فيه سراً هو غير عالم بوجهه وأن يداوم على التعلم ويتذلل للمعلِّم لا سيما حال السؤال ويراعي الأدب في المقال وأن ينبِّه المعلِّم المجرم على جرمه ويعفو عنه بحلمه حتى يتحقق إكثاره ويبيِّن إصراره فيما جرى عنه بعدما ظهر إعذاره والله أعلم بحقائق القرآن ودقائق الفرقان.

هذا وقد أفاد الأستاذ أنه لما فارق الخضر موسى عليهما السلام لم يرد أن يبقى في قلب موسى شبه اعتراض عليه فأزال عن قلبه ذلك بما أوضح له من الحال وكشف السر لديه فبيَّن أن قصده من خرق السفينة سلامتها أو بقاؤها لأهلها حيث لم يطمع فيها الملك الغاصب وبقاء السفينة لأهلها وهي معيبة كان خيراً لهم من سلامتها وتصير عنهم مغصوبة، وبيَّن أن قتل الغلام فيما سبق به القلم ومضى من الله الحكم أن في بقاء الغلام فتنة للوالدين وفي إبدال الخلف عنه سعادة لهما في الكونين، وأما تسوية الجدار فلاستبقاء كنز الغلامين وترك طلب الرفق مع الخلق على وجه اكتساب الأجرة فلموجب الثقة بالله في جميل الكفاية من غير اكتساب وفق ثقة بالمقسوم على جهة الرعاية ثم بيَّن الخضر أن جميع فِعْله لم يكن من قبله بالاختيار والاستقلال ولا يكلفه من حيث النظر والاستدلال وإنما ذلك بتعريف من الله من حيث الإلهام وإجراء الحق عليه بما هو محفوظ من تعاطي غير ما كان يجريه الحق إليه عليه السلام. ويقال: لما كانت السفينة قال: أردت أن/ أعيبها، فأخبر عن نفسه بالانفراد بالإرادة فيه مراعاة للأدب فلما انتهى إلى حديث الغلام المقتول قال: فأردنا، لما كان فيه القتل والخلق فالقتل منه كسباً والخلق من الله فضلاً، فلما انتهى إلى حديث اليتيمين قال: فأراد ربك أن يبلغا لأنه لم يكن لتكسبه فيه شيء أصلاً. 182/ب

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ [الآية 83] يعني إسكندر الرومي ملك فارس والروم. وقيل: المشرق والمغرب، ولذا سمي ذو القرنين. وقيل: لأنه اقترض في أيامه

قرنان من الناس. وقيل: كان لرأسه قرنان وهما صغيران. وقيل: كان لتاجه قرنان. وقيل: من كمال شجاعته كان كالكبش الشجاع لأنه ينطح أقرانه بقرنيه. واختُلِف في نبوَّته مع الإجماع على إيمانه وديانته والسائلون هم اليهود وسألوه امتحاناً، أو مشركوا مكة سألوه تعنتاً وافتتاناً ﴿قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الآية 83] أي من ذي القرنين أو من الله سبحانه وهو الأنسب بما بعده من تعظيم شأنه.

وأفاد الأستاذ: أن إنزال الحق سبحانه القرآن في القصص التي سألوا رسول الله ﷺ كان له معجزة حيث عرفوا من أحواله بالضرورة أنه لم يكن للكتب قارئاً ولا للأخبار عنها سائلاً ولا من أحد لها مستمعاً، ثم كانوا يعارضون ما يقوله بالكتب المنزلة فيجدونها موافقة لها فعلم مَن أنعم النظر في بابه أن ذلك بتعريف سماوي. وكان لرسول الله ﷺ ذلك زيادة رتبة وسبباً يوجب له في كل وقت سكون قلب وسلوة. ويقال: فرق ظاهر بين نبينا ﷺ حيث تولى تعليمه بنفسه يعني حيث قال: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء:الآية 113]، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه:الآية 114]. ولعل وجه الفرق بينهما والله أعلم بهما أن موسى عليه السلام كان مريداً مجذوباً ونبينا ﷺ كان مراداً محبوباً، أو لأن موسى عليه السلام كان ممن يدّعي العلم ويُظهر الحكم ونبينا ﷺ كان ممن يتواضع للحق ويعترف بالعجز عند الخلق كما يشير إليه قوله في الحديث: «لا أُحصي ثناء عليك»[1]، وقوله/ في التنزيل: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ [الأحقاف:الآية 9] ومن تواضع لله رفعه الله. 183/ أ

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 84] بالتصرف فيها كيف يشاء ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الآية 84] أراده وأقبل عليه ﴿سَبَبًا﴾ [الآية 84] وصلة توصله إليه وتشهدُ لديه من العلم والقدرة والآلة والقوة.

﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾ [الآية 85] أي فأراد بلوغ المغرب فاتبع سبباً يكون وسيلة وصوله إليه وذريعة حصوله لديه. وقرأ الكوفيون وابن عامر بقطع الألف والتاء

---

(1) سبق تخريجه.

المخففة في المواضع الثلاثة.

قال ابن عطاء: أي جعلنا الدنيا طوع يده فإذا أراد طُوِيت الأرض فإذا أحب انقلبت له الأعيان وإذا شاء مشى على الماء وإذا هوى طار على الهواء وكذلك مَن أخلص سريرته في حضرتنا مكّناه من مملكتنا يتقلّب فيها كيف يشاء، فمن كان للملك كان الملك له.

وأفاد الأستاذ: أن ذا القرنين مُكِّن في الأرض جهراً يعني وكثيراً من الأولياء سراً وكان تطوى له الأرض إذا قطع أجوازها وسهل عليه أن يروح مشارقها ومغاربها ويحضر أقطارها ومناكبها ومن كان في محل إمامة من الأولياء فالحق سبحانه يملّكه من المملكة ليحصل عند همّه من ما أراده من حصول طعام وشراب أو ما جرى مجراه وكذا من قطع مسافة واستتار عن أبصار ومما في معناه من تصديق مأمول وتحقيق مسؤول وإجابة دعاء وكشف بلاءٍ وفق ذلك تمكنه من تحقيق همة له في أمرهم فوق ذلك من التمكين في أن يخلص الله بهمتهم قوماً بما شاؤوا ويمنع بهمتهم قوماً عما يشاؤون فلهم من الحق تحقيق أمل إذا تصرفوا في المملكة بإرادات في سوانح وحادثات، وفوق هذا التمكين في المملكة بإيصال قوم إلى منازل ومحال والله يحقق فيهم همهم بكل حال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ﴾ [الآية 86] أي الموضع الذي تغرب عنه الشمس آخراً من معمورة الأرض ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ [الآية 86] ذات حمأة وهي طين أسود منتن. وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائي وأبو بكر: حامية أي حارة ولا منافاة بينهما لاحتمال كون العين جامعة بينهما ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ [الآية 86] عند تلك العين قوماً كفاراً، ولعلهم كانوا من عَبَدَة الشمس لما توهموا أن لها أنواراً.

183/ ب وأفاد الأستاذ: أنه كما للشمس التي في السماء مطلعها / شروق وغروب فللشمس التي هي شموس التوحيد طلوع وغروب فطلوعها في أوقات غلبة العرفان وتحقيق الشهود والبيان على مقادير أربابها في الزيادة والنقصان وغروب هذه الشموس في ظلمات ليالي الغفلة باستتار أنوار التجلي ورد العبد

إلى أوصاف التفرقة والتفاوت التي لأصحاب القلوب فيما يجدونه من اختلاف أحوالهم توفي وتربى على تفاوت كثير من الناس في منازل قلوبهم واختلاف أوصافهم ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ [الآية 86] أي بالقتل على كفرهم وكفرانهم ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الآية 86] بالإرشاد إلى إيمانهم وإحسانهم ونداء الله سبحانه إياه إن كان نبياً فيوحى وإن ولياً فعلى لسان نبي.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ [الآية 87] أي استمر على ظلم نفسه بالكفر ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ [الآية 87] أي أنا وأتباعي بما نقدر عليه قهراً في الدنيا ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ [الآية 87] أي إلى حكمه ﴿فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ [الآية 87] في العقبى، فيه إيماء إلى أن الظلم في كل عصر كان وخيماً ومشربه ذميماً وأن العدل والإيمان طريقه قويماً كما أشار إليه بقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الآية 88] وهو ما يقتضيه كمال الإنسان من مباشرة الإحسان ﴿فَلَهُۥ﴾ [الآية 88] فله الدنيا والعقبى ﴿جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الآية 88] مثوبة فعلته الحسنى. وقرأ حمزة والكسائي وحفص جزاءً بالتنوين منصوباً على الحال، أي فله الحالة الحسنى مجزياً بها بالوصف الأسنى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الآية 88] سهلاً ميسراً لا صعباً منكراً. وفي الحديث: «يسروا ولا تعسرُّوا وبشِّروا ولا تنفِّروا»[1]. فإما للتخير بين القتل على ضلالتهم وبين الدعوة إلى هدايتهم أو للتقسيم أي فليكن شأنك معهم إما التعذيب وإما الإحسان، فالأول لمن أصرّ على الطغيان والثاني لمن أظهر الإيمان.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾﴾ [الآية 89] أي طريقاً يوصله إلى المشرق ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾﴾ [الآية 90] الغالب عليهم طول نهارهم وآخرون كانوا من أهل مغرب الشمس الغالب عليهم حال استتارهم، كذلك الناس في طلوع شموس التوحيد منهم مَن الغالب عليه طلوع شموسهم فالحضور نعتهم والشهود وصفهم والتوحيد حقهم وآخرون لهم من شموس التوحيد النصيب الأقل والقسط الأرذل.

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (69)، ومسلم في الصحيح (1734/ 8).

184/ أ / ﴿كَذَٰلِكَ﴾ [الآية 91] أمر ذي القرنين كما وصفناه في رفعة المكان وبسطة البرهان أو أمره فيهم كأمره في مقاتليهم من التخيير أو التقسيم بالإلهام والتعليم ﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ [الآية 91] من العُدد والعَدد ﴿خُبْرًا﴾ [الآية 91] علماً تؤلف بظواهرها وسرائرها.

﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ۝٩٢﴾ [الآية 92] طريقاً ثالثاً معترضاً بين المشرق والمغرب أخذاً من الجنوب إلى الشمال.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ [الآية 93] وقرأ ابن كثير وعمرو وحفص بالفتح وهما الجبلان المبني سد بينهما في منقطع أرض الترك ويأجوج ومأجوج وراءهما ﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الآية 93] لغرابة لغتهم وقلة فطنتهم. وقرأ حمزة والكسائي بضم الياء وكسر القاف أي لا يفقهون السامع كلامهم ولا يبينون له مرامهم.

﴿قَالُواْ﴾ [الآية 94] أي مترجمهم، وفي مصحف ابن مسعود: قال الذين من دونهم ﴿يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الآية 94] وقرأ عاصم بالهمزة فيهما وهما قبيلتان من ولد يافث ابن نوح ﴿مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 94] أي في أرضنا بالقتل والتخريب. قيل: كانوا يخرجون في الربيع فلا يتركون رطباً إلا أكلوه ولا يابساً إلا احتملوه ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الآية 94] جعلاً نُخرجه من أموالنا. وقرأ حمزة والكسائي خِراجاً ﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ [الآية 94] يحجز دون خروجهم علينا ويسد طرق ضررهم إلينا. وقرأ ابن كثير وأبو عمر وحفص بفتح السين.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّى﴾ [الآية 95] وقرأ ابن كثير مكنني أي ما جعلني ﴿فِيهِ رَبِّى﴾ [الآية 95] من المُلك والمال ﴿خَيْرٌ﴾ [الآية 95] مما تبذلون لي من الخِراج ولا حاجة لي إليه في الحال ولا في المآل ﴿فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ﴾ [الآية 95] أي بقوة فعله من العمال أو بما أتقوى به من آلات الأعمال ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الآية 95] حاجزاً حصيناً ومانعاً مبيناً.

﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الآية 96] ناولوني قطفه أو أعطوني زبره فإن إعطاء الآلة من الإعانة بالقوة ويؤيده قراءة أبي بكر: ردماً أئتوني بكسر التنوين بهمزة

الوصل على معنى جيئوني ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ﴾ [الآية 96] وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضمتين وأبو بكر بضم فسكون أي بين جانبي الجبلين بتنضيد ﴿قَالَ﴾ [الآية 96] للعملة ﴿انفُخُواْ﴾ [الآية 96] في أكوار الحديد ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ﴾ [الآية 96] أي المنفوخ فيه/ ﴿نَارًا﴾ [الآية 96] كالنار بالإحماء ﴿قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ [الآية 96] نحاساً مُذاباً وفيه تنازع الفعلان. 184/ ب

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ [الآية 97] بحذف التاء للتخفيف حذراً من تلاقي متقاربين. وقرأ حمزة بالإدغام ﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الآية 97] أن يعلوه بالصعود لارتفاعه ويلائمه ﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الآية 97] أي خرقاً لثخنه وصلابته.

﴿قَالَ هَٰذَا﴾ [الآية 98] أي السد والإقدار على هذا الصد ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ [الآية 98] على عباده ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾ [الآية 98] وقت وعده بخروج يأجوج ومأجوج أو بقيام الساعة بأن شارف يوم القيامة ﴿جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ﴾ [الآية 98] مدكوكاً مبسوطاً مسوى بالأرض. وقرأ الكوفيون دكّاً بالمد أي أرضاً مستوية ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ [الآية 98] كائناً لا محالة، وهذا آخر القصة.

وأفاد الأستاذ: أنهم ما كانوا يهتدون إلا إلى لسان أنفسهم وما كانوا يفقهون لغة غيرهم فقالوا بعبارتهم في شرح قصتهم بإشارتهم ورفعوا إليه في باب يأجوج ومأجوج مظلمتهم وضمنوا له خِراجاً فغواه إليه من جهتهم فأجابهم إلى سؤالهم وتحقيق بغيتهم في حسن مآلهم ولم يأخذ منهم ما ضمنوا له من العمالة لما رأى من الواجب عليه من حق الحماية ووجوب الرعاية على حسب المكنة واستعان بهم في الذي احتاج إليه من الآلة والقوة بقوله: ﴿ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ [الآية 96] فلما فعلوا ما أمرهم به ونفخوا فيه لما أضرم عليه النار جعل بينهم السد ثم أخبر أنه إنما يبقى ذلك إلى أن يأذن الله لهم بالخروج ويندفع عن الناس عائدة شرهم إلى الوقت المضروب لهم في التقدير، فبعد ذلك يكون من شأنهم ما يريد الله بهم. وبيَّن سبحانه أن خروجهم من وراء سدهم من أشراط الساعة وأن بعدهم من قريب ينفخ في الصور لقيام القيامة كما قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [الآية 99] أي بعض الخلق ﴿يَمُوجُ فِى بَعْضٍ﴾ [الآية 99]

ويضطربون ويختلطون إنسهم جهنّم حيارى كأنهم سكارى ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الآية 99] أي وقد نفخ فيه لقيام الساعة ﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الآية 99] للحساب والجزاء من الثواب والعقاب.

﴿وَعَرَضْنَا﴾ [الآية 100] أبرزنا وأظهرنا ﴿جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾ [الآية 100] أي غريباً وعجيباً كما أخبر عنه سبحانه بقوله: ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا/ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان:الآية 12]. 185/أ

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ﴾ [الآية 101] أعين بصيرتهم ﴿فِي غِطَاءٍ﴾ [الآية 101] غشاوة وغفلة ﴿عَن ذِكْرِي﴾ [الآية 101] عن النظر إلى ما يذكرهم معرفة ذاتي وصفاتي من الآيات الكونية.

قال ابن عطاء: أي أعين أنفسهم في غطاء عن نظر الاعتبار وأعين قلوبهم في غطاء عن مشاهدة الأعيان في الملكوت فإذا فتح عين قلبه بالمشاهدة فتح عين رأسه بنظر الاعتبار والمراقبة المورثة للمجاهدة ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [الآية 101] استماعاً لذكري وكلامي من الآيات القرآنية. وفيه إيماء إلى أنهم كانوا عارين عن الوصول إلى مقام المجتهدين في أمر الدين ليدركوا المعارف والعوارف بعقولهم الواصلة إلى زينة عين اليقين وعن الحصول في رتبة المريدين والمقلدين للمجتهدين في درك الحقائق والدقائق إلى منزلة علم اليقين. قيل: كانوا لا يستطيعون سمعاً لأن أذانهم مسدودة عن سماع الحق ومن لم يفتح له من قلبه سمع السماع كيف يسمع بظاهر سمعه وهو تبع لسمع قلبه.

وأفاد الأستاذ: أنهم نظروا بأعين رؤوسهم لكنهم فقدوا نظر القلب من حيث الاعتبار والاستدلال للتحقيق ولم يكن لهم سماع الإجابة لما فقدوا من التوفيق فيتوجه عليهم التكليف ولم يساعدهم التعريف وكانوا لا يستطيعون سمعاً لأنهم فقدوا من قبله سبحانه الإسماع فلم يستطيعوا سمع القبول مع حصول الإسماع.

﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية 102] الاستفهام للإنكار أي أفظنوا ﴿أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي﴾ [الآية 102] كالمسيح والملائكة ﴿مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ﴾ [الآية 102] معبودين

يتبعونهم أو يشفعون لهم ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ [الآية 102] ما يهيأ للتنزيل أول ما يدخل تحت الباب، وفيه تهكُّم وتنبيه على أن ما وراءنا من العذاب والحجاب ما يستحقر دونه هذا العقاب.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الآية 103] وفي جمع التمييز إيماء إلى تنوُّع أعمالهم واختلاف أحوالهم.

﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية 104] ضاع وبطل لكفرهم وعجبهم كالرهبانية فإنهم خسروا الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الآية 104] ولا يبعد أن يكون المعنى ضاع سعيهم في تحصيل الدنيا من الجاه والمال وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً في حصول مراتب الكمال ووصول مناقب/ المآل. 185/ب

وقال أبو بكر الوراق: هو الذي بطل معروفه بالمنة وطلب الشكر على تلك الصنعة ويبطل طاعاته بالرياء والسمعة وضيعوا أحوالهم بالعجب والغرّة وأبطلوا أنفاسهم بالملاحظة.

﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الآية 105] المتلوة ودلائله المنصوبة على التوحيد والنبوَّة ﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ [الآية 105] بالبعث كما هو حقه ولقاء عذابه ﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾ [الآية 105] مقداراً ولا نضيع لهم ميزاناً يوزن به أعمالهم لانحباطها غباراً.

وأفاد الأستاذ أنهم عموا عن شهود الحقيقة فبقوا في ظلمة الجحود والنكرة فتفرقت بهم الأوهام والظنون في أودية الحيرة ولم يكونوا على بصيرة ولم تستقر قلوبهم على عقيدة مقطوع بها فليس لهم في الآخرة وزن وخطر بسببها فاليوم هم كالأنعام وغداً واقفون ساقطون كتراب الأقدام.

﴿ذَٰلِكَ﴾ [الآية 106] أي الأمر ذلك ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾ [الآية 106] أي بسبب ذلك.

وأفاد الأستاذ: أنهم اليوم في عقوبة الجحد وغداً في عقوبة الرد، اليوم هم في ذل الفراق وغداً في ألم الاحتراق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الآية 107] ولو إجمالاً ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الآية 107] أي الدالة على إيمانهم إكمالاً ﴿كَانَتْ لَهُمْ﴾ [الآية 107] فيما سبق من حكم الله عدلاً ووعده إياهم فضلاً ﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الآية 107] والفردوس أعلا درجات الجنة وأصله البستان الذي يجمع الكرم والنخلة، ولعله يكون مختصاً بمن جمع بين المعرفة والعبادة.

وأفاد الأستاذ: أن لهم جنات معجلة سراً بسر وجنات مؤجلة جهراً بجهر، اليوم جنات الوصل وغداً جنات الفضل، اليوم جنات العرفان وغداً جنات الرضوان. قلت: كما قال تعالى مشيراً إلى هذا التبيان: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرَّحمٰن:الآية 46].

قال أبو بكر الوراق: من أنزل نفسه منزل الصادقين أنزله الله تعالى منزلة المقرّبين.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الآية 108] حال مقدّرة ﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ [الآية 108] لا يطلبون تحوُّلاً عنها ولا انتقالاً منها إذ لا يجدون حالاً أطيب منها حتى تنازعهم أنفسهم إليها.

قال ابن عطاء: منعمون بنعيم الأبد يتقلبون في مجاورته ويفرحون بمرضاته فأمنوا من كل مخوف ووصلوا إلى كلّ محبوب فلا يشتهون شيئاً إلا وجدوا إليه سبيلاً/ فكيف يطلبون عنه تحويلاً. 186/أ

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه عرفنا أن ما يخوله غداً من الإنعام يكون على وجه الدوام فيما لا ينفكون عن أفضالهم لا يخرجون عن أحوالهم فهم أبداً في الجنة ولا إخراج منها وأبداً لهم الرؤية ولا حجاب لهم عنها.

﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى﴾ [الآية 109] لمتعلقات علمه وحكمته أو لمباني كلماته ومعاني آياته ﴿لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ﴾ [الآية 109] أي جنسه بأسره لأن كل جسم متناهٍ في قدره ﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى﴾ [الآية 109] فإنها غير متناهية كعلمه وأمره. وقرأ حمزة والكسائي بالياء ﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ﴾ [الآية 109] بمثل البحر الموجود ﴿مَدَدًا﴾ [الآية 109] زيادة ومعونة في عالم الوجود إمداداً ولعل معنى

القبلية باعتبار كلمات العلمية محمولة على الحالة التصورية. والمعنى أن النفاد متصوره في هذا دون ذلك وليس المراد أنه يتصور نفاذ لما هنالك، وأما باعتبار معاني الكلمات في خواطر المخلوقات فالقبلية على بابها ولا إشكال في إيرادها.

وقد قال البيضاوي في التعليل: لكن لا على وجه التكميل فإن مجموع المتناهيين متناه بل مجموع ما يدخل في الوجود من الأجسام لا يكون إلا متناهياً للدلائل القاطعة على تناهي الأبعاد والمتناهي ينفذ قبل أن ينفذ غير المتناهي لا محالة، انتهى كلامه ولكن توجيه القبلية لا يفهم منه مرامه.

وكذا فيما أفاد الأستاذ بقوله: أي لا تنفد معاني كلمات الله، أي بالنسبة إلى علم الله لأنه لا نهاية لها لأن متعلقات الصفات القديمة لا نهاية لها كمعلومات الحق سبحانه وتعالى ومقدوراته وسائر متعلقات صفات ذاته، والذي هو مخلوق لا يستوفي ما هو غير متناه وإن كثر ذلك، انتهى.

ومما يؤيد ما قرّرنا ويقوّي ما حرّرنا سبب نزول هذه الآية حيث قال اليهود في كتابكم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البَقَرَة:الآية 269] وتقرأون: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسرَاء:الآية 85]، فالمراد بالحكمة العلم بمعاني القرآن على قدر ما يتصور من الإنسان وهو متناه في هذا الشأن ومع وجود كثرته قليل بالنسبة إلى علمه سبحانه لأن معلوماته غير متناهية عن شأنه وعظيم برهانه.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ / مِّثْلُكُمْ﴾ [الآية 110] لا أدّعي الإحاطة بما هنالك ﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الآية 110] وإنما تميّزت عليكم بنحو ذلك. 186/ ب

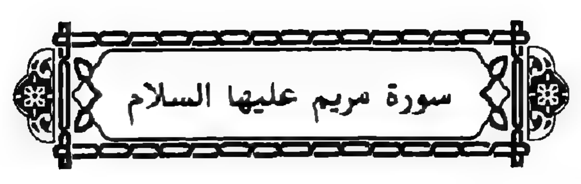
وقال الأستاذ: معناه أخبر أنك مثلهم من حيث الصورة والجنسية ومبانيهم من حيث السيرة والخصوصية فإنه سبحانه خصّه بالنبوّة والرسالة وترك غيره في بيداء الجهالة والضلالة. ويقال: إني وأنتم في الصورة أكفاء ووجه اختصاصي عنكم إيحاء ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الآية 110] يأمل حُسن لقائه أو يخاف سوء جزائه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الآية 110] يرتضيه الشرع ويقبله أبداً ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الآية 110] بأن يرائيه أو يطلب منه أجراً. وعنه

عليه السلام: «اتقوا الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر، قال: الرياء»[1].

وأفاد الأستاذ: إن حمل الرجاء في هذه الآية على خوف العقوبة ورجاء المثوبة حَسَن ولكن تَرْكُ هذا على ظاهره أولى لأن المؤمنين قاطبة يرجون لقاء المولى فالعارف بالله سبحانه يرجو لقاء الله والنظر إليه والعمل الصالح الذي بوجوده يصل إلى لقائه لديه إنما هو صبره على لواعج محرقات اشتياقه وزواعج احتراقه. ويقال: العمل الصالح بيننا اعتقاد جواز الرؤية وانتظار وقته للنظرة في الحضرة. ويقال: فليخلص في عمله بأن لا يلاحظ بغير الرضا عبادته ولا يستكثر من طاعته بناء على غروره وغفلته وليتبرأ من حوله وقوته. أقول: ويسأل سلامة قلبه في عاقبته بأن يموت على حُسن خاتمته.

---

(1) الكشاف (4/ 59)، وتفسير أبي السعود (5/ 252)، وتفسير البيضاوي (1/ 527).



سورة مريم عليها السلام

[مكيّة]

وهي ثمان وتسعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أي الذي يفتتح به كل مغلق عظيم، ويبدأ به كل أمر كريم، ويُطرد به كل شيطان رجيم، ويُبعد به كل خلق دميم وحال ذميم وصاحب لئيم.

وأفاد الأستاذ: أن بسم الله عزيز مَن عبده أَلِفَ سُهاده ومن طلبه ودع وساده، من عرفه أنكر أحبابه ومن صحبه ترك أصحابه، من ذكره نسي اسمه، من شهده فَقَدَ عقله ولبّه، اسم عزيز جُبِلَت القلوب على محبته ولكن لا كل قلب بل كل قلب ليس يوفّق على محبته فهو قلب ما اتصفت أشباح الأبرار إلا بعبادته وما اعتكفت أرواح الأحرار إلا على/ مشاهدته، عزيز مَن عرفه واعترف أنه وراء ما وصفه. 187/أ

﴿كٓهيعٓصٓ ①﴾ [الآية 1] لعل في الكاف إشارة إلى كفاية مهمات أوليائه وكف شرّ بليّات أعدائه، وفي الهاء إيماء إلى هويته وهيبته وهدايته وتنبيه على بدايته، وفي الياء إلى يد قدرته وتصرُّفه بحوله وقوّته، وفي العين إلى كمال عنايته وتمام رعايته وحمايته، وفي الصاد إلى صدق كلماته وصد المعرضين عن فهم آياته.

وأفاد الأستاذ: تعريف الأحباب بأسرار معاني الخطاب حروف خص الحق سبحانه الأحباب بفهم معانيها فللأغيار سماعها وذكرها وللرسول ﷺ فهمها وسرّها. ويقال: أشار بالكاف إلى أنه الكافي في الإنعام والانتقام والرفع والوضع على ما سبق به القضايا والأحكام. ويقال: في الكاف تعريف

كرمه مع أوليائه وتخويف بمكره بخفي بلائه. ويقال: في الكاف إشارة إلى كتابته الرحمة على نفسه وفق مراده قبل كتابة الملائكة الزلّة على عباده، والهاء تشير إلى هدايته المؤمنين إلى عرفان وتعريف هويته باستحقاق جلال سلطانه وتعريف هيبة المؤمن ما له عليه من الحق بحكم إحسانه، والياء إشارة إلى يسر نعمه بعد عسر محنه وإلى يده المبسوطة بالرحمة للمؤمنين من عباده، والعين تشير إلى علمه بأحوال عبده سرّه وجهره وقلّه وكثره وحاله وماله وقدر طاقته وحق فاقته، وفي الصاد إلى أنه الصادق في وعده.

قال إبراهيم بن شيبان: أما الكاف كاف لخلقه، والهاء هادٍ لخلقه، والياء يد الله على خلقه، والعين عالِم بإصلاح عبده، والصاد صادق في وعده.

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ [الآية 2] خبر محذوف، أي هذا المتلوّم عليك ﴿عَبْدَهُۥ﴾ [الآية 2] مفعول رحمة ﴿زَكَرِيَّآ﴾ [الآية 2] بدل أو بيان.

قال ابن عطاء: خص زكريا بالرحمة من بين الأنبياء لأنه وهب له يحيى الذي لم يعصِ ولم يهم بمعصية فهذا هو محل اختصاصه وكرامته ورحمة زكريا إجابة دعوته ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [الآية 3] لأن الإخفاء أشد إخباتاً وأكثر إخلاصاً مع أن الهجر والإخفاء عنده سبحانه عن السواء.

وأفاد الأستاذ: أنه إنما اختار الإخفاء في مقالة لئلا يطلع أحد على سر حاله فأخفى نداءه عن الأجانب ممن هنالك ولو أمكنه أن يخفيه/ عن نفسه لفعل ذلك. 187/ب

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [الآية 4] أي أضعف دعامة بدني وعمود جسدي ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [الآية 4] أي ظهر الشيب على شعر رأسي الدال على ضعف أساسي، والمُشعر إلى حال الانتقال من داري ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [الآية 4] في جميع عمري فكيف في آخر أمري بل كلما دعوتك استجبت لي فكذا أرجوا إجابة دعائي لحسن مآلي وتحسين حالي.

قال ابن عطاء: كيف يشقى مَن إليه مرجعه وإياه دعاؤه وبه قوّته وقُوته وعليه توكُّله ومنه تأييده ونصرته.

﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ﴾ [الآية 5] بني عمي ﴿مِن وَرَاءِي﴾ [الآية 5] بعد موتي أو لا يحسنوا خلافتي في أمتي ويبدلوا عليهم ديني وملتي لظهور فسادهم عندي ﴿وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ [الآية 5] لا تلد صبياً ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ [الآية 5] والياً لأمري من صلبي.

وقرأ بعد الأستاذ فيما إذا أفاد بقوله: إني خفت أن تذهب النبوة من آل يعقوب إطلاق الفتوة.

وقال أبو الحارث: سؤال الأنبياء لا يكون إلا بإذن في الأنبياء من أهل بيتي تنتقل إلى بني أعمامي فهب لي ولداً يعبدك ويكون من نسلي وأهلي.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [الآية 6] العلم والحال لأن الأنبياء لا يورثون المال. والجملتان مرفوعتان على أنهما نعتان لقوله ولياً، وجزمهما أبو عمرو والكسائي على أنهما جواب الدعاء.

وقال ابن عطاء: أي ولداً وليّاً يرزقني النبوَّة ويرث من آل يعقوب أخلاق الفتوة.

وقال ابن الحارث: سؤال الأنبياء لا يكون إلا بإذن في الإنباء ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [الآية 6] مرضياً قولاً وعملاً وحالاً ومآلاً أو راضياً منك في تدبيرك وتقديرك.

قال ابن عطاء: قام مقام معتذر لما وجد في نفسه من فترة العبادة لكبر السن فسأل الله من يعينه على عبادة ربه وينوب عنه فيما عجز عنه من حقه فقال: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [الآية 6].

وأفاد الأستاذ: أنه لم يرد الولد لشهوة الدنيا وأخذ الحظ منها وإنما طلب الولد ليقوم لحق المولى. وفي قوله: ﴿يَرِثُنِي﴾ [الآية 6] دليل على أنه كما سأل الولد سأل بقاء ولده فقال: ولداً يكون وارثاً لي، أي يبقى بعدي ويرث من آل يعقوب النبوَّة وتبليغ الرسالة.

/ ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى﴾ [الآية 7] جواب لندائه ووعد 188/أ

بإجابة دعائه وتولى تسميته تشريفاً مع الإيماء إلى إبقائه حتى يقوم بأمر الدين وإحيائه ويحيي نسب آبائه بحسب أبنائه ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [الآية 7] مشاركاً في اسمه ومساوياً في رسمه إذ لم يصدر عنه ارتكاب ذنب ولم يقع في همه.

وفي «تفسير السلمي» قال جنيد: سمي يحيى لأنه يحيي من يحيي بالطاعة والموافقة ولا يموت إلا بالمعصية والمخالفة وكان هذا صفته ونعته ولم يجر عليه وسم الخلاف ولا النسيان بحال بل كان محمود السيرة دائماً في أقوال وأفعال وأحوال وكذا قال ﷺ: «ما من أحد إلا أخطأ أو همَّ بخطيئة إلا يحيى بن زكريا فإنه ما أخطأ ولا همَّ»[1].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ﴾ [الآية 8] من أين أو كيف ﴿يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [الآية 8] يبوسة وقساوة في المفاصل المانعة من الولادة، ولعل استعجابه من حيث العرف والعادة وإلا فالمؤثر كمال القدرة والإرادة.

وأفاد الأستاذ: أنه أراد به من الذي يكون منه هذا الولد لي أهذه المرأة وهي عاقر أو امرأة أخرى أتزوجها أو مملوكة أستفرشها، فالسؤال إنما كان عن تعيين مَن يكون الولد منها. وقيل: إن بين السؤال وبين الإجابة مدة طويلة فكأنه سأل الولد في ابتداء شيبه واستجيبت دعوته بعدما تناهى في كبره.

﴿قَالَ﴾ [الآية 9] الله أو الملك ﴿كَذَٰلِكَ﴾ [الآية 9] الأمر ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [الآية 9] أو التقدير مثل ذلك ﴿قَالَ رَبُّكَ﴾ [الآية 9]، ويؤيده أنه قرىء ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [الآية 9] أي عليَّ سهل لديَّ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا﴾ [الآية 9] بل كنت معدوماً صرفاً.

﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ [الآية 10] علامة أعلم بها وقت وقوع ما

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (12/ 216) رقم (12933)، وأبو يعلى في المسند (4/ 418) رقم (2544)، وأحمد في المسند (1/ 291)، وابن أبي شيبة في المصنف (6/ 345) رقم (31907).

بشرتني به ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾ [الآية 10] أي لا تطيق كلامهم ﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ [الآية 10] بأيامها إلا رمزاً ﴿سَوِيًّا﴾ [الآية 10] أي حال كونك سوي اللِّسان من غير حدوث النقصان، ولعل أراد به التجرُّد للذكر والتفرُّد للشكر في هذا الإنعام والإحسان.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾ [الآية 11] من الغرفة أو المصلى ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ [الآية 11] أومأ ﴿إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟﴾ [الآية 11] / أي صلُّوا أو بأن نزِّهوا ربكم ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [الآية 11] طرفي النهار. 188/ب

وأفاد الأستاذ: أنه عرَّفهم عن طريق الإشارة أن آلة الكلام التي كانت يخاطبهم بها ليست الآن منطلقة.

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ [الآية 12] أي قلنا له ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الآية 12] التوراة ﴿بِقُوَّةٍ﴾ [الآية 12] بجد واجتهاد ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [الآية 12] يعني فهْمَ التوراة أو الحكمة أو النبوة أو الحكم بالصواب في القول أو إحكام الأمر في الفعل.

قال ابن عطاء: الحكم المعرفة، وقال بعضهم: الحكم إصابة الحق في الأقوال والأفعال والأحوال.

وقال يوسف بن الحسين: أوتي يحيى حكماً على الغيب وفراسة صداقة لا يخالطها ريب.

﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [الآية 13] أي آتيناه رحمة منا عليه أو تعطُّفاً في قلبه على والديه وعلى مَن انقاد إليه ﴿وَزَكَوٰةً﴾ [الآية 13] طهارة من وقوع المعصية لديه ﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ [الآية 13] مطيعاً وعن المخالفة نقياً مُعرِضاً عن ما سوانا مقبلاً علينا.

وقال الأستاذ: أي آتيناه رحمة من عندنا وطهارة وتوفيقاً لمجلوبات التقوى وتحقيقاً لموهوباتها فإن التقوى على قسمين: مجموع مجلوب يتوصل إليه العبد بتكلُّفه وموضوع من الله سبحانه موهوب منه يصل العبد إليه ببذله وفضله سبحانه.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ [الآية 14] أي باراً بوالديه ليس عقوقاً لهما ﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا﴾ [الآية 14] متكبِّراً متجبِّراً على الخلق ﴿عَصِيًّا﴾ [الآية 14] عاصياً للحق.

﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ﴾ [الآية 15] من الله ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ [الآية 15] من أن يناله الشيطان بما ينال به أفراد الإنسان ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ [الآية 15] وقت نزعه وشدة أمره وحين دفنه ﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [الآية 15] من قبره في مواقف الأهوال وشدائد الأحوال.

وأفاد الأستاذ: أنه له أمان يوم ولادته في البداية ويوم وفاته في النهاية ويوم أن يصونه عن الدفع والعوج في العقيدة بما يشهد على الدوام من حقية الإلٰهية وكذا له منه سبحانه الأمان في القيامة فهو في الدنيا معصوم عن الزلة محفوظ عن الآفة وفي الآخرة مصون عن البلاء والمحنة.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ [الآية 16] في القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾ [الآية 16] قصتها ﴿إِذِ انتَبَذَتْ﴾ [الآية 16] اعتزلت ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ [الآية 16] وتبعدت عن محلها حين أتت ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ [الآية 16] شرقي بيت المقدس مكان قرارها، أو شرقي دارها ولذلك اتخذ النصارى المشرق قبلة في أمر العبادة.

192/ أ / ومدارها ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ [الآية 17] سرمداً ستراً أو باباً ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [الآية 17] إضافة للتشريف، والمراد به جبريل ﴿فَتَمَثَّلَ﴾ [الآية 17] تصوَّر ﴿لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [الآية 17] سوي الخلق قوي الخلق.

وأفاد الأستاذ: أنها اعتزلت منهم لتحصيل تطهُّرها فاستترت من أبصارهم مبالغة في تستُّرها فلما أبصرت جبريل في صورة إنسان ولم تتوقعه في ذلك المكان والزمان أو حسّت في نفسها خيفة ولم يكن لها حيلة إلا تخويفه بالله ورجوعها إلى الله.

﴿قَالَتْ﴾ [الآية 18] أي من غاية مخافتها ونهاية عفّتها ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الآية 18] أي بالذي يرحمني ويعصمني ﴿مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [الآية 18] يتقي الله ويحتفل بمن يستعيذ إلى مولاه وأحذرك عقوبته إن عرفته أو إن كنت ممن يحب أن يتقي منك بأن يقصد صدور سوء عنك.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ١٩﴾ [الآية 19] طاهراً تقياً. والمعنى لأكون سبباً في هبته لك بالنفخ في جيب درعك، ويجوز أن يكون حكاية لقوله سبحانه، ويؤيده قراءة نافع بخلاف عن قالون وأبي عمر بالياء بدل الهمز.

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ [الآية 20] لم يباشرني رجل بالحلال ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [الآية 20] أي زانية في جميع الأحوال.

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾ [الآية 21] سهل كخلقك، أي أمر ولدك ﴿وَلِنَجْعَلَهُ﴾ [الآية 21] أي ونفعل ذلك لنجعله ﴿آيَةً لِلنَّاسِ﴾ [الآية 21] علامة لهم على قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ [الآية 21] بإظهار منتنا ونعمتنا ﴿وَكَانَ﴾ [الآية 21] في أمر ولدها ﴿أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ [الآية 21] تعلق به قضاء الله في الأزل كسائر الأحوال.

قال الأبهري: برحمته أنجى أمماً من الكفر وبرحمته أهلك أمماً في ترك الشكر. قال تعالى لعيسى ﴿رَحْمَةً مِنَّا﴾ [فُصّلَت:الآية 50]، فبتلك الرحمة أهلك الخلق حتى قالوا: ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المَائدة:الآية 73]، وحتى قالت اليهود ما قالوا في طريق الملامة.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾ [الآية 22] بأن نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها ﴿فَانْتَبَذَتْ﴾ [الآية 22] أي فاعتزلت به وهو في بطنها ﴿بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [الآية 22] بعيداً من أهلها.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ [الآية 23] فألجأها وجع الولادة ﴿إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ [الآية 23] تستتر إليه وتعتمد عند الولادة عليه ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [الآية 23] أي النفاس استحياء من الناس ﴿وَكُنْتُ نَسْيًا﴾ [الآية 23] وقرأ حفص بالفتح أي ما من شأنه/ أن ينسى في الجملة ﴿مَنْسِيًّا﴾ [الآية 23] متروك الذكر بالكلية، 189/ب فالجمع بينهما للمبالغة في القضية.

قال جعفر الصادق: لما لم تر في قومها موقفاً سديداً ولا محققاً رشيداً ولا صاحب فراسة يبرئها من قولهم جهراً قالت ما قالت.

وأفاد الأستاذ: أنه يحتمل أنها قالت شفقة على قومها ارتضيتم عقوبة بسببها لأنها علمت أنهم يبسطون لسان الملامة فيها وينسبونها إلى وقوع الفحشاء منها. ويقال: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [الآية 23] حتى لم أسمع ما قيل في الله بسببي من أن عيسى ابن الله وأن مريم زوجته. ويقال: ﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [الآية 23] في الوقت الذي كنت مرفوقاً ولم تستقبلني هذه الخشونة في الحال التي لحقتني.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ [الآية 24] عيسى ولدها، وقيل جبريل، على أن معنى تحتها أسفل مِن مكانها. وقيل الضمير في تحتها للنخلة لا لها. وقرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص من تحتها بالكسر والجر على أن في نادى ضمير أحدهما ﴿أَلَّا تَحْزَنِي﴾ [الآية 24] أي لا تحزني أو بأن لا تحزني ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [الآية 24] جدولاً، هكذا روي مرفوعاً فهو فعيل من السريان بمعنى الجريان. وقيل: سيداً من السرو بمعنى الشرف وهو عيسى. والمقصود تسكين ما بها من الوحشة بالإشارة إلى البشارة.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [الآية 25] أي هزي الثمرة بهزِّ الشجرة، والهز التحريك بالجذبة والدفعة ﴿تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ﴾ [الآية 25] أي تتساقط، فأدغمت التاء الثانية في السين تخفيفاً وحذف حمزة إحدى التائين، وقرأ حفص تساقط من تساقطت مبالغة سقطت ﴿رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [الآية 25] تمييز، ولعله تعالى ألهمها ذلك ليُريها من آياته ما هو تسكين لروعتها ويُطعمها الرطب الذي به تهوين لِلنفساء وشهوتها.

قال الأستاذ: وكان جذعاً يابساً أخرج الله في الوقت منه الثمرة وهي الرطب الجني وكان في ذلك آية ودلالة لها بأن الذي قدر على فعل مثل هذا قادر على خلق عيسى من غير أب، يعني ويكون براءة لساحتها فإن مثله لا يتصور لمن يُظهر الفاحشة منها. ويقال: ما دامت مجردة بلا علاقة كان زكريا يجد رزقها عندها من غير تكلُّف / كدّها، فلما جاء علامة الولد أُمِرَت بهز النخلة اليابسة وهي في أضعف حالها وزمان قرب وضع حملها ليعلم أن علاقة

190/أ

المحبة توجب العناء والمشقة. ويقال: لما لم يكن لها في هذه الحالة من يقوم بتعهدها تولى الله بكفايتها وقام برعايتها ليعلم العالمون أنه لا يضيع خواص عباده في حالة حاجتهم.

﴿فَكُلِي﴾ [الآية 26] من الرطب الجني ﴿وَاشْرَبِي﴾ [الآية 26] من ماء السري ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [الآية 26] وطيبي نفساً وارفعي عنك حزناً.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه كفاها ما احتاجت إليه من أسباب أكلها وشربها وأنعم عليها بتسكين خوفها وتطييب قلبها قائلاً لها بإلهامها ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ [الآية 26] أي فإن تري آدمياً مخاطباً لك ومعترضاً لأحوالك ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ [الآية 26] صمتاً وقرّي به أو صياماً وكانوا لا يتكلمون في صيامهم ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [الآية 26] بعد أن أخبرتكم بنذري وأعلمتكم بخبري وإنما أناجي ربي في أمري. وأمرها بذلك لكراهة المجادلة مع العامة والاكتفاء بكلام عيسى فإنه قاطع في قطع أصحاب الطعن والملامة.

وقال الأستاذ: فإما ترين من البشر أحداً فلا تخاطبيه بالعبارة وعرّفيه بالإشارة إني نذرت للرحمٰن صوماً صمتاً مع الخلق بترك المخاطبة والمجاورة اشتغالاً بذكر الحق.

﴿فَأَتَتْ بِهِ﴾ [الآية 27] مع ولدها ﴿قَوْمَهَا﴾ [الآية 27] راجعة إليهم ﴿تَحْمِلُهُ﴾ [الآية 27] حاملة إياه لديهم ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [الآية 27] فظيعاً بدعياً.

﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ﴾ [الآية 28] هو رجل صالح وقيل طالح ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [الآية 28] ذات بغي وفساد والأولاد غالباً يتبعون الطرفين في الصلاح والسؤدد فمن أين لك هذه الحالة الشنيعة والمعصية الفظيعة.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [الآية 29] إلى عيسى أرى أن تكلّموه ليجيبكم وبالجواب الشافي يطيبكم ﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ﴾ [الآية 29] صار ﴿فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [الآية 29] حال كونه طفلاً ولم يُعهد مِن مِثله الكلام أصلاً.

وأفاد الأستاذ: أنها في الظاهر أشارت إلى الولد وفي الباطن إلى الله الأحد ليُنطق الولد.

190/ب ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [الآية 30] أي مِن عبيده الخاص الواصل/ إلى مقام الاختصاص وإنما أنطقه الله به أو لأن العبودية أول مقامات الصوفية وللرد على مَن يزعم له بالربوبية.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أنطقه بقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [الآية 30] ليكون حجة على قومه فإنه كان المعلوم لله أنهم يقولون في حقه أنه ابن الله ونحوه فأجرى الله على لسانه ليكون حجة في برهانه فيقال لأتباعه: إن صدق عيسى أنه عبد الله بطل قولكم أنه ثالث ثلاثة، وإن كذب فالذي كذب لا يكون ابناً لله لا محالة وإنما يكون عبداً لله إذا لم يكن عبد هواه ولا في قيد شيء سواه فمن تحرر عن غيره فهو في الحقيقة عبده ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الآية 30] الإنجيل أو معرفة التوراة ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [الآية 30] التعبير بلفظ الماضي إما باعتبار ما سبق في قضائه أو بجعل المحقق وقوعه كالواقع في عطائه. وقيل: أكمله الله عقلاً واستنبأه طفلاً، واختاره الأستاذ كما بيَّنه بما أفاد في قوله: أتاني في سابق حكمه وجعلني نبياً من فضله. وفي الآية رد على من يقول إن النبوة بكثرة الطاعة لأنه تعالى قال ذلك في حال ما وُلِد عيسى ولم يوجد بعد منه العبادة وأخبر عنه أنه جعله نبياً.

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ [الآية 31] نفّاعاً معلِّماً للخير يُرشد الخلق إلى أمور دينهم ويمنعهم من ارتكاب أخلاف دينهم ﴿أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [الآية 31] حيث كنت وصرت.

قال جنيد: مباركاً على صحبني وتبعني في أن أدله على الإعراض عن الدنيا والإقبال على العقبى والتوجه إلى المولى.

وأفاد الأستاذ: أنه كان من بركاته إغاثة الملهوف وإعانة الضعيف ونُصرة المظلوم ومساواة الفقير وإرشاد الضال والنصيحة للخلق في إظهار الحق بحسن الخلق وكف الأذى عنهم وتحمُّله منهم ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الآية 31] وأمرني بالصلاة المتضمنة للصِّلات ﴿وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الآية 31] زكاة المال إن ملكته

أو تطهير النفس عن الرذائل وتحليتها بالفضائل.

قال ابن عطاء: أمرني بمواصلته وطهارة السر عما دونه بمقاطعته ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [الآية 31] لأن المقصود من حياة الدنيا هو عبادة المولى، فالدنيا مزرعة الأخرى.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ [الآية 32] أي وجعلني مبالغاً في البر للوالدة ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ [الآية 32] غير قابل للنصيحة ﴿شَقِيًّا﴾ [الآية 32] / تاركاً ما يجب عليه من الخدمة والشفقة. وقيل: الشقي من كُتِبَ عليه سوء الخاتمة. 191/أ

قال سهل: جباراً أي جاهلاً بأحكام ربه شقياً متكبراً عن ارتكاب أمره.

وقال ابن عطاء: الجبار الذي لا ينصح الخلق بالموعظة والشقي الذي لا يقبل النصيحة.

﴿وَالسَّلَامُ﴾ [الآية 33] أي سلام الله أو السلامة من الملامة ﴿عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ﴾ [الآية 33] أي في بدئ أمري ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ [الآية 33] آخر عمري وأوسط حالي ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [الآية 33] انتهى مآلي.

وأفاد الأستاذ: أن السلام بمعنى السلامة أي السلامة لي يوم الولادة بما نسب إليَّ من كلتي الحالة كمقالة النصارى في مجاوزة الحد في المدحة وملامة اليهود في الذمة، والسلامة يوم مماته حتى يكون بالسعادة وفاته وسلامته يوم بعثه من رؤية الأهوال وما يُبتلى به غير الوصال، وقد قال عيسى عليه السلام: السلام علي، وقد قال تعالى لنبينا ﷺ: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، فشتان ما هما.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [الآية 34] أي ذلك الذي تقدم هو أمره وخبره لا ما مدحه أو ذمه غيره ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ [الآية 34] أي هو القول الثابت أمره والمتحقق قدره. وقرأ ابن عامر وعاصم بالنصب على أنه مصدر مؤكد، أي قال القول الحق ﴿الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ [الآية 34] في أمره يشكون أو يتنازعون فرده على إطلافه قوم وقبله فوق استخفاف قوم فعدلوا عن الحق العدل الذي هو التوسيط بوقوعهم في

طرفي الإفراط والتفريط إلا أنه سبحانه أعرض عن كلام اليهود لظهور بطلانه ووضوح برهانه وبيَّن خطأ غلو بعض النصارى في شأنه بقوله:

﴿مَا كَانَ﴾ [الآية 35] ما صحّ ﴿لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ﴾ [الآية 35] قال الأستاذ: لا يجوز أن يكون له ولد على الحقيقة لأنه الواحد والولد بعض الوالد ولأنه لا داعي له إلى صحبة زوجة فيكون له ولد ولا يجوز عليه التبني لأحد لعدم الجنسية بينهما، انتهى. وقد يقال: لا يصح أن يكون له ولد حقيقة لأنه يلزم أن يكون محلاً للحادث صفة وهو محال ولأن الولد جزء من الوالد والله منزّه أن يكون مركباً أويصير كلاً مرتباً ولا يصح أن يكون له زوجة لعدم الجنسية والكفوية ولوجود الصفة الصمدية وهي الانتفاء /عن البرية بالكلية. ولعل هذا وجه امتناع 191/ب اتخاذ الولد والتبني مبالغة للتنزيه في القضية ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا﴾ [الآية 35] أي أراد قدر شيئاً ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [الآية 35]أي فيكون تحقق وجوده بأمره من أثر جوده. وقيل: هو كفاية عن سرعة تأثير الإرادة. وقرأ ابن عامر: فيكون بالنصب على الجواب.

﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ [الآية 36] من كلام عيسى عليه السلام وما بينهما جمل معترضة لتبيين المرام وهو عطف على إنّي عبد الله. وقرأ نافع وابن كثير وعمرو بالفتح أي واعلموا أن الله ربي وربكم فاعبدوه وحده ولا تشركوا به شيئاً ولا تخالفوه ﴿فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [الآية 36] دين قويم يترتب عليه نعيم مقيم.

﴿فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن بَيْنِهِمْ﴾ [الآية 37] اليهود والنصارى بأسرهم أو فرق النصارى بخصوصهم فإن النسطورية قالوا إنه ابن الله واليعقوبية قالوا هو ابنه هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء، والملكائية قالوا: هو عبد الله ورسوله ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية 37] أي منهم ومن غيرهم ﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الآية 37] أي من شهود يوم عظيم، هوله وعناؤه وحسابه وجزاؤه، وهو يوم القيامة.

وأفاد الأستاذ: أن من عجن بماء السعادة طينته أطاع في عاجله ثم ما أضاع في آجله، ومن أقصته القسمة السابقة لم تدنه الخدمة اللاحقة وسيبدو غب هذا الأمر حقيقة العاقبة.

وفي «تفسير السلمي»: من اشتغل بالله استولى عليه أنوار مولاه فلا يستعبده سواه ولا يسترقه هواه ولا دنياه ولا عقباه.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [الآية 38] أي يحضرون يوم القيامة موقفنا، وهما صيغتا تعجُّب، ومعناه أن أسماعهم وأبصارهم جدير بأن يتعجب منها في العقبى بعدما كانوا صماً عمياً في الدنيا، أو معناه التهديد بما سيسمعون ويبصرون يومئذ، وهذا المعنى أولى من الأول فتأمل لقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الإسراء:الآية 72]، ﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية 38].

وأفاد الأستاذ: أن معارفهم تصير ضرورية وأحوالهم كلها معكوسة لكن الحجة تتأكد عليهم لا تسمع منهم والرحمة لا تتعلق بهم فلا يرحم / شكواهم ولا يسمع ندائهم. 192/أ

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [الآية 39] حين يتحسر المسيء على كثرة عصيانه والمُحسن على قلّة إحسانه ﴿إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾ [الآية 39] بدل مما قبله، أي فرغ حساب الأبرار والفجار وتصادر الفريقان إلى الجنة والنار ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ [الآية 39] أي الآن على تصور ذلك الزمان ﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية 39] حتى يشاهدوا بالعيان.

وأفاد الأستاذ: أن الساعة تقوم بهم بغتة وتصادفهم القيامة فجأة وهم غير مستعدين لها بالطاعة فيتحسرون على ما فاتهم من الموافقة وعلى ما أصابهم من المخالفة ويقال: سبق لقوم الشقاوة وهم في محو العدم ولآخرين السعادة وهم بنعت القدم ولم يتقدم من هؤلاء وفاق ولا من أولئك شقاق.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ [الآية 40] لا يبقى لأحد غيرنا عليها وعلى أهلها مُلْك ولا مَلِك ﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [الآية 40] يُردُّون للجزاء على أعمالهم بحسب اختلاف أحوالهم.

وأفاد الأستاذ: أن المسلم إذا مات هان عليه أمره إذا كان ربه وارثه وقد قال مخلوق في صفة مخلوق:

فإن يكن عتاب مضى سبيله فما مات من يبقى له مثل خالد

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا﴾ [آل عِمرَان:الآية 169] لماذا لأن الله وارثهم وهو حي لا يفنى. قلت: ويلائمه ما ورد عند موته ﷺ على لسان الخضر والملائكة تعزية للأمة: «إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضاً من كل فانية وخلفاً من كل هالك»[1]، فإلى الله فأنيبوا وإليه فارغبوا ولله در من قال من أرباب الحال:

لكل شيء إذا فارقته عوض وليس لله إذا فارقت من عوض

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الآية 41] رئيس الموحدين وسائس المجردين ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا﴾ [الآية 41] ملازماً للصدق ومداوماً على التصديق على طريق المبالغة والتحقيق ﴿نَّبِيًّا﴾ [الآية 41] أي ورسولاً بمدد العناية والتوفيق.

وأفاد الأستاذ: أن الصديق هو الذي لا يشهد غير الله مثبتاً ولا نافياً. ويقال: هو المستجيب له فيما يطالبه جملة وتفصيلاً. ويقال: هو الواقف مع الحق في عموم الأوقات على قدم الصدق.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ﴾ [الآية 42] أي يا أبي، والتاء عوض عن ياء الإضافة وإنما يذكر للاستعطاف / واستجلاب الشفقة ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ [الآية 42] فيعرف حالك ويسمع مقالك ويرى استقبالك ﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [الآية 42] في جلب نفع وسلب ضر، دعاه إلى الهدى وبيَّن طريقة الردى وعرّفه أن العبادة لا تحق إلا لمن له الإنعام العام والاستغناء التام عن جملة الأنام وهو الموصوف بنعت الكمال المستجمع لصفات الجمال والجلال، وينبِّهه عن أن الشيء ولو كان صَبياً مميزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على ما يسمى نفعاً وضراً لكنه يكون ممكناً لا يستنكف العقل الصحيح والطبع الصريح عن عبادته وإن كان أشرف الخلق كالنبي والملائكة لا يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة فكيف إذا كان جماداً لما يسمع ولا يبصر. ثم دعى أباه إلى أن ينفعه ليهديه

192/ ب

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (3/ 59) رقم (4391)، والطبراني في المعجم الأوسط (8/ 109) رقم (8120)، والبيهقي في السنن الكبرى (4/ 60) رقم (6883).

الصراط المستقيم والدين القويم لما لم يكن محظوظاً من العلم الإلٰهي مستقلاً بالنظر السوي، فقال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ [الآية 43] وديناً قوياً.

وأفاد الأستاذ: أن الآية دلت على أن استحقاق المعبود الوصف بالسمع والبصر على الكمال دون نقصان له في جميع مراتب الأحوال، وكذلك القول في القدرة على الضرر والنفع بالأفعال، وإذا رجع العبد إلى التحقيق ورافقته العناية بالهداية والتوفيق علم أن كل الخلق لا يصلح قدرة واحد منهم للإبداع لاعتبار هيبة الأفراد ولا في كتيبة الإجماع فمن علق قلبه بمخلوق من الكائنات أو توهم شظية لهم من التقى والإثبات فقد ضاها عَبَدَة الأصنام من اللات والمناة. وفي الآية إشارة إلى الخلاص في الاتباع لأهل الحق والهلاك في الابتداع والتطوع في مغاليط الطرق ولهذا أمر أباه باتباعه إياه لما ترجح عليه جانبه في كون الحق معه وإن كان أكبر سناً منه وأسبق وجوداً له.

﴿يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ﴾ [الآية 44] بقبول طاعته حين حصول وسوسته ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ عَصِيًّا﴾ [الآية 44] والمطاوع للعاصي لا يكون إلا عاصياً ولذا قيل: أساس الأديان على هجران أرباب العصيان، وقد قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا/ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة:الآية 119]. 193/أ

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ﴾ [الآية 45] حال ارتكاب العصيان ﴿فَتَكُونَ لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا﴾ [الآية 45] قريباً في اللِّعان أو في العذاب أو موالياً به في مقام الحجاب فإنه أشد العقاب كما أن رضوان الله أكبر من الثواب، وذكر الخوف إما للمحاملة أو لخفاء العاقبة في المعاملة.

وأفاد الأستاذ: أنه لم يغادر الخليل عليه السلام شيئاً من الشفقة على والده لكن لم ينفعه جميل وعظه ولم ينجح فيه كثير نصحه فإن من أقصته سوابق التقدير لم يخلصه لواحق التدبير.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ [الآية 46] قابل استعطافه ولطفه بالإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد فناداه باسمه ولم يقابل يا أبت بيا بني ونحوه ثم

أشار إلى تهديده بقوله: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ [الآية 46] عن مقالك فيها أو الرغبة عنها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [الآية 46] بالحجارة حتى تنفد مني فاحذرني ﴿وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا﴾ [الآية 46] زماناً طويلاً.

﴿قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ﴾ [الآية 47] توديع ومتاركة مستحسنة ومخاطبة للسيئة بالحسنة لا أقول لك بما يسؤك من قبلي ولكن ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ [الآية 47] أي أطلب لك تحقيق المغفرة المرتبة على توفيق الإيمان والتوبة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [الآية 47] بليغاً في البر وباللطف خفياً.

قال أبو بكر الأبهري: لما بدا منه كلام الجهلة من الدعوة إلى الهيبة والوعيد على ذلك أن خالفه بالخيبة جعل جوابه جواب الجهالة كما في كلام المتعال: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفُرقان:الآية 63].

وأفاد الأستاذ: إن هذا قبل أن أيس من إيمانه وكان بعد في بقية من الرجاء في شأنه فلما تحقق أنه مختوم بالشقاوة في عنوانه قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الآية 48] بالمهاجرة بديني لما يحبه الله ويرضاه ﴿وَأَدْعُو رَبِّي﴾ [الآية 48] وأعبده وحدي ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [الآية 48] خائباً ضائعاً مثل حالتكم في دعاء آلهتكم. وفيه تنبيه على أن الإجابة والإثابة غير واجب وإن ملاك الأمر خاتمته وهو غائب.

قال القاسم: من أراد السلامة في الدنيا والآخرة في الأمور الباطنة والأحوال الظاهرة فليعتزل قرناء السوء / لئلا يقع في المخاطرة، ذكره السلمي. 193/ب

﴿فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الآية 49] بالهجرة إلى الشام ﴿وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ﴾ [الآية 49] ولده ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ [الآية 49] مِن الحَفَدَة بدل مَن فارقهم من الكَفَرَة كما أفاد الأستاذ بقوله: لما أيس من أصله آنسه الله بما بشّره به من نسله.

وقال أبو محمد الحريري: ما ترك أحد له سبحانه شيئاً إلا عوضه الله تعالى خيراً منه، ولعل تخصيصهما بالذكر لأنهما أبا الأنبياء أو لأنه أراد أن يفرد إسماعيل بذكره لفضله من حيث إنه جد سيد الأصفياء ﴿وَكُلًّا﴾ [الآية 49] منهما أو منهم ﴿جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [الآية 49] ويؤيده قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا﴾

[الآية 50] النبوّة والبركة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [الآية 50] ظاهراً يفتخر الناس بهم ويثنون عليهم استجابة لدعوتهم: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشُّعَرَاء:الآية 84].

قال ابن عطاء: الألسنة هي المعبرة عن الحق والصواب بجزيل إثباته وبجميل إنبائه والمذكرة على الدوام لنعمائه وحسن بلائه.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ [الآية 51] أخلص عبادته عن الشرك والرياء والسمعة أو أسلم وجهه لله وأخلص نفسه عما سواه. وقرأ الكوفيون بالفتح على أن المعنى أخلصه الله، وهذا المقام أعلى وأغلى في رضاه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [الآية 51] أرسله الله إلى الخلق فأنبأهم عن الحق ولذا قدم الرسول مع أنه أخص في مقام التكريم والأعم يستحق التقديم، أو روعي الفاصلة أو لأن النبوة وهي جمعة الولاية ونسبته أخذ القبض من الحق أعلى في الرتبة من جهة الرسالة وتبليغ الأحكام إلى الخلق.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ [الآية 52] من ناحيته اليمنى من اليمين وهي التي على يمين موسى أو من جانبه الميمون من اليمن بأن تمثّل له الكلام من جهة ذلك المقام ﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ [الآية 52] تقريب التعظيم والتكريم شبهه بأن قربه الملك للتكليم ﴿نَجِيًّا﴾ [الآية 52] مناجياً حال من الفاعل أو للمفعول.

وأفاد الأستاذ: أن للنجوى مزية على النداء في بدايته وقت السماع في نهايته فوفقه الحق وناداه ثم قرّبه وناجاه في جميع الحالين تولّاه.

194/أ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا﴾ [الآية 53] من أجلها أخاه معاضدة أخيه وموارثة / فيما يبغيه إجابة لدعوته: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾ [طه:الآية 29] هارون فإنه كان أكبر من موسى وهو مفعول لوهبنا، وقوله: ﴿هَارُونَ﴾ [الآية 53] عطف بيان له ﴿نَبِيًّا﴾ [الآية 53] حال منه ولعل الاقتصار على نعت النبوة لكونه كان تابعاً لموسى في أمر الرسالة.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ [الآية 54] وصدق الوعد دلالة حفظ العهد وقد وعد الصبر على الذبح فصبر حتى جاءه الفتح ﴿وَكَانَ رَسُولًا

نَبِيًّا﴾ [الآية 54] فيه دلالة على أن الرسول لا يلزم أن يكون صاحب شريعة مستقلة فإن أولاد إبراهيم عليه السلام كنوا على شريعته وتابعي ملته وطريقته.

﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ﴾ [الآية 55] أهل بيته أو جميع أمته ﴿بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ [الآية 55] بالعبادة البدنية والطاعات المالية فإنها من أصول المهمات الدينية ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [الآية 55] لاستقامة أقواله وأفعاله وأحواله وكان هذا أجمل صفاته وأكمل خصاله.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ﴾ [الآية 56] قيل لقب به لكثرة درسه وهو سبط شعيب وجد أبي نوح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [الآيتان 56،57] يعني شرف النبوة وفضيلة القربة وعظمة الرتبة. وقيل: الجنة، وقيل السماء السادسة أو الرابعة.

﴿أُولَـٰٓئِكَ﴾ [الآية 58] إشارة إلى المذكورين في صدر الصورة ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [الآية 58] بجمع النعم الدينية والدنيوية لديهم ﴿مِّنَ النَّبِيِّـۧنَ﴾ [الآية 58] بيان للموصولين ﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ [الآية 58] بدل منه ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا﴾ [الآية 58] أي ومن ذرية من حملنا ﴿مَعَ نُوحٍ﴾ [الآية 58] خصوصاً وهم من عدا إدريس فإن إبراهيم كان من ولد سام بن نوح عليهم السلام ﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الآية 58] الباقون ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية 58] عطف على إبراهيم، أي ومن ذرية إسرائيل وهو يعقوب وكان منهم موسى وهارون وداوود وسليمان وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾ [الآية 58] ومن جملة من هديناه إلى طريق الجنة ﴿وَاجْتَبَيْنَآ﴾ [الآية 58] للنبوة والكرامة ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ الرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [الآية 58] استئناف لبيان خشيتهم مع علو طبقتهم وكمال قربتهم. وقد ورد: «أتلوا القرآن وابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا»[1]. وبكياً جمع باك فعول بمعنى فاعل. وقرأ حمزة والكسائي / 194/ب بكسر الباء اتباعاً لما بعدها، ويعم ما قال ذو الحال:

وما في الدهر أشقى من محبٍّ وإن وجد الهوى حلو المذاق

(1) أخرجه أبو عوانة في المستخرج (4/ 461) رقم (3134)، وانظر تخريج الإحياء (2/ 369) رقم (869).

تـــراه بـــاكـــيـــاً أبـــداً حـــزيـــنـــاً لـــخـــوف تـــفـــرُّق أو لاشـــتـــيـــاق
فـــيـــبكـــي إن نـــأوا شـــوقـــاً إلـــيـــهـــم ويـــبكـــي إن دنـــوا خـــوف الـــفـــراق[1]

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أقامهم بشواهد الجمع وأخبر أن صرف المنة كان لله في تخصيصهم بأحوالهم وتأهيلهم لما رقّاهم إليه من حسن مآلهم وأنه بفضله اختارهم واجتباهم ومما ألبسهم من خصائص النعم ما اختصهم به من رقة قلوبهم إذ تتلى عليهم آيات ربهم وسجود ظواهرهم يدل على سجود سرائرهم فما حقق لهم من شواهد الجمع إمارة صحة ما وقفهم له من عين الفرق، فبوصف التفرقة قاموا بحق آداب العبودية وبنعت الجمع تحققوا بحقائق الربوبية، انتهى. وفيه تنبيه نبيه على أن مقام جمع الجمع بما هو بمشاهدة الكثرة في عين الوحدة وملاحظة الوحدة في عين الكثرة والقيام بآداب حقوق العبودية بحسب الظواهر والاشتغال بمراقبة الأحوال الناشئة عن شهود النعوت الربوبية بحسب السرائر فكل جمع بلا تفرقة يؤدي إلى ضلالة وزندقة.

﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الآية 59] فعقبهم وجاء بعدهم عقب سوء في الصفات ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ [الآية 59] التي هي أم العبادات بتركها أو بقلة مراعاتها وتأخيرها عن أوقاتها ﴿وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ [الآية 59] أي المنهيات والمحرمات أو الملهية المانعة عن الكمالات. فعن علي كرَّم الله وجهه: «اتبع الشهوات من بنى الشديد وركب المنظور ولبس المشهور»[2]، ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [الآية 59] عن طريق الجنة أو جزاء غيّه في الدنيا أو في الآخرة أو هو وادٍ في جهنم يستعيذ منها أوديتها.

والمعنى كما أفاد الأستاذ: فسيلقون عن قريب ما يستوجبونه ويُعامَلُون بما يستحقونه.

﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ [الآيـة 60] وقـرأ ابـن

---

(1) نسب هذا البيت إلى الجعدي. انظر شرح ديوان الحماسة (1/ 410)و ونسب إلى أحمد ابن يحيى، انظر أمالي الزجاجي (1/ 11) وإلى غيرهما.
(2) الكشاف (4/ 98) وتفسير القرطبي (11/ 125).

كثير وأبو عمرو وأبو بكر على البناء للمفعول من أدخل ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [الآية 60] أي لا ينقصون شيئاً من جزاء أعمالهم على / حسب أحوالهم. 195/ أ

وأفاد الأستاذ: أنه تعالى استثنى من الحائدين على الطريقة المثلى من ثبت على نهج الاستقامة والتجأ إلى الاعتصام بالله على نهج الاستدامة فأولئك الذين تداركهم الرحمة الأزلية وسيبقون في النعمة السرمدية.

﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [الآية 61] بالنصب على المدح ﴿ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [الآية 61] أي وعدهم إياها وهي غائبة عنهم أو هم غائبون عنها ﴿إِنَّهُۥ﴾ [الآية 61] إن الله ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ﴾ [الآية 61] موعوده الذي هو الجنة ﴿مَأْتِيًّا﴾ [الآية 61] يأتيها أهلها الموعود لهم لا محالة.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه سيجزي لهم عداتهم فيوصلهم إلى درجاتهم ويحقق لهم ما وعدهم من على حالاتهم. ثم قال: إنه كان وعده مأتياً أن ما أتيته فقد أتاك وما أتاك فقد آتيته.

﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ [الآية 62] فضول كلام ﴿إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [الآية 62] إلا تسليماً في ذلك المقام وهو غاية المرام فهو من باب: ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم، أوعد الدعاء بالسلامة وأهلها أغنياء عنه لغواً فهو من باب اللغو ظاهراً، وإنما فائدته الإكرام. وقيل: الاستثناء منقطع أي لكن يسمعون قولاً يسلمون فيه من العيب والنقص أو إلا تسليم الملائكة عليهم أو تسليم بعضهم على بعض منهم أو تسليم بهم.

وأفاد الأستاذ: أن آذانهم مصونة عن سماع الأغيار فلا يسمعون إلا من الله فإن لم يكن ذلك فلا يسمعون إلا بالله ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [الآية 62] على عادة المتنعمة والمتوسطة بين الزهادة والرغابة. أو المراد دوام رزقنا كما قال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ [الرّعد:الآية 35].

وأفاد الأستاذ: أنهم كانوا يعدون من عنده طعام بكرة وعشاء من جملة الأغنياء لأن فقراءهم إن وجدوا غداءهم عدموا في الغالب عشاءهم وإن وجدوا عشاءهم قلّ ما كانوا يجدون غداءهم، والذي كان له معلوم الغداء

والعشاء كان معدوداً من الأغنياء، فعبّر عن أحوال الجنة أن لهم رزقاً غداء وعشياً والمعنى أنهم أغنياء وإلا فليس في الجنة غداة ولا عشي، ويقال: لهم ما يشتهون بمقدار الغدو والعشاء من الزمان في الجنة ثم إن الأرزاق يختلف فيها فللأشباح رزق من مطعوم ومشروب وللأرواح رزق من سماع وشهود ولكل على ما قدر استحقاقه قسط / معلوم. 195/ ب

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الآية 63] أي نعطي منهم ﴿مَن كَانَ﴾ [الآية 63] في الدنيا ﴿تَقِيًّا﴾ [الآية 63] وعن المعاصي نقياً.

وأفاد الأستاذ: أن الجنة للأتقياء من العاملين معدّة والرحمة للعطاء من المسلمين مدخرة فالجنة لطف من الله والرحمة وصف لله وعيده بخصوصه من كان اليوم في قيد أمره ثم قوم يتقون المخالفات وقوم يتقون الشهوات وآخرون يتقون الغفلات وآخرون يتقون شهود غيره في الكائنات.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [الآية 64] حكاية قول جبريل عليه السلام حين استبطأه رسول الله ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف وذي القرنين ولم يدر ما يجيب ورجاء أن يوحى إليه فيه فأبطأ عليه خمسة عشر يوماً، وقيل أربعون، حتى قال المشركون: ودعه ربّه وقلاه، ثم نزل بيان ذلك واعتذر عن إبطائه فيما هنالك بقوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ [الآية 64]، ﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [الآية 64] من الأمكنة والأمر منه والمعنى لا ينتقل من مكان إلى مكان ولا يتنزل من زمان إلى زمان إلا بأمره ومشيئته على مقتضى حكمته ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [الآية 64] تاركاً لأمرك ولا لغيرك.

وأفاد الأستاذ: أن الملائكة أبداً يتنزلون بإذن الحق سبحانه بعضهم بإنجاء المظلومين وبعضهم بإغاثة المهلوفين وبعضهم بتدبير الجاحدين وبعضهم بنصرة المؤمنين وبعضهم إلى ما لا يحصى من أمور الناس أجمعين، والله سبحانه لا يترك جاحداً ولا عائذاً مِنْ حفظ وتربية وإنعام وإمهال واتصال وإكرام.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ﴾ [الآية 65] باستعانته ﴿وَٱصْطَبِرْ

لِعِبَادَتِهِۦ﴾ [الآية 65] على تحمُّل كفته ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [الآية 65] نظيراً أو كفياً أو مثلاً وشبيهاً يستحق أن يسمى إلٰهاً أو أحداً يسمى الله فإن المشركين وإن سموا الصنم إلٰهاً لم يسمُّوه الله أبداً كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمَان:الآية 25]، ويشير إليه قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزُّمَر:الآية 3]. وبهذا المعنى يتم مبنى كلمة التوحيد على ما قرّره أهل التأييد وذلك لظهور أحديته في صفاته وتعالي ذاته / عن المماثلة بمخلوقاً. والجملة تقرير للام والمعنى إذا صح أن لا أحد مثله ولا يستحق العبادة غيره لم يكن بد من التسليم لأمره والاشتغال لعبادته والاصطبار على حكمه وفق إرادته.

196/ أ

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الآية 66] أي جنسه أو بعضهم المعهود وهم الكفرة أو أُبي ابن خلف فإنه أخذ عظاماً بالية وقال: يزعم محمد أنَّا نُبْعَثُ بعد أن نموت إذاً. وعن ابن ذكوان: ﴿إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [الآية 66] من الأرض.

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الآية 67] وقرأ نافع وابن عامر وعاصم يذكر من الذكر بمعنى التفكر أي أيقول ما لا يذكر ويتذكر ولا يتفكر ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [الآية 67] بل كان عدماً صرفاً فإنه لو تأمل فيما هنالك لم يقل ذلك فإن خلقة الابتداء أعجب من جمع المواد بعد التفريق إعادة وإحياء في الانتهاء.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أبطل لهم كل دعوى صدرت عنهم حيث ذكرهم بهم وكونهم من العدم.

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [الآية 68] أي معهم ﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾ [الآية 68] جميعهم ﴿حَوْلَ جَهَنَّمَ﴾ [الآية 68] ليرى السعداء ما نجاهم الله منه فيزدادوا غبطة وسروراً وينال الأشقياء ما ادخروا لمعادهم عدة ويزدادوا غيظاً وحسرة من رجوع السعداء عنهم إلى دار الثواب وشماتتهم عليهم لبقائهم في دار العقاب والحجاب ﴿جِثِيًّا﴾ [الآية 68] على ركبهم لما يدهمهم من هول المطلع ويدهشهم أو لأنه من توابع التوافق للحساب. قيل: التواصل إلى الثواب والعقاب ونظيره الآية الآتية: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ [الجَاثيَة:الآية 28].

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ [الآية 69] أمة شاعت ملة ﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ [الآية 69] أي أكثر عصياناً وأكبر طغياناً فنطرحهم فيها بياناً وعياناً.

وأفاد الأستاذ: أن من تقدم اليوم عليهم في الضلال والإضلال ضوعف غداً عليه العذاب والإغلال.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾﴾ [الآية 70] أي أولي بالصلي أو صليهم أولى.

وأفاد الأستاذ: أن مَن كان في غفوة اليوم أشد علواً وإدلالاً كان في النار غداً أبعد من الله وأشد عقوبة وإذلالاً.

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾ [الآية 71] ما منكم من أحد أيها الإنسان ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [الآية 71] / واصلها أو حاضر دونها أو مار بجسرها فإنه ممدود على متنها يمر بها المؤمنون وهي خاوية ويُطرح فيها الظالمون وهي غائظة ﴿كَانَ﴾ [الآية 71] ورودهم ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [الآية 71] واجباً أوجبه الله على نفسه وقضى بأن وعد به وعداً من غير خلقه أو حلف به من غير تصور حنثه. وأما قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء:الآية 101] فالمراد عن عذابها لما ورد من أن بعض المؤمنين في الجنة يقولون: أليس قد وعدنا ربنا أن ندخل النار فيقال لهم: عبرتم وما شعرتم. وفي حديث تقول النار: «جز يا مؤمن فإن نورك أطفأ لهبي»[1].

196/ ب

﴿ثُمَّ نُنَجِّي﴾ [الآية 72] وقرأ الكسائي بالتخفيف أي نخلص ونبعد وننجي ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ [الآية 72] بحسب مراتب تقواهم من سابق ولاحق فيساقون إلى الجنة ونعمها ﴿وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [الآية 72] كما كانوا مع زيادة إحساس ألمها.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ [الآية 73] واضحات المباني ظاهرات المعاني مع الإيجاز المقرون بالإعجاز ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الآية 73] لأجلهم أو في حقهم ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ﴾ [الآية 73] من المؤمنين والكافرين ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ [الآية 73]

---

(1) سبق تخريجه.

مكاناً. وقرأ ابن كثير بالضم أي موضع إقامة ﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [الآية 73] مجلساً ومجتمعاً ومآباً أو قوماً ونفراً وأصحاباً وأحباباً، والمعنى أنهم لما سمعوا الآيات مع دلالتها على حقيقة الإيمان بها وعجزوا عن معارضتها والدخل عليها بمناقضتها أخذوا في الافتخار بما لهم حظوظ الدنيا وأنواع لذاتها والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم عند الله لقصور نظرهم على الحال وعدم تدبرهم في المآل أو يقيسون العقبى بتقدير وقوعها على الدنيا.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾﴾ [الآية 74] متاعاً ومتجراً ورئياً منظراً ومفخراً. وقرأ قالون وابن ذكوان بأن قدم رئياً، والمعنى أن هؤلاء ينخرطون في سلك من تقدمهم وسيلقون ما يستوجب عملهم فهم مغرورون بجاههم ومالهم في الدنيا الفانية وغافلون عن أحوال معادهم ومآلهم في العقبى الباقية وجاهلون بأن يمنعهم بمالهم من صورة إنعام استدراج وليس بإكرام كما بيَّنه بقوله:/ ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [الآية 75] فليزد له مدداً في أمره ومدداً في عمره ويمهله في طول أمله وسوء عمله. 197/أ

وأفاد الأستاذ: أن الله يمهل الكفار والفجار ليركنوا إلى أباطيل أفعالهم ويغتروا بسلامة أحوالهم فبينما هم في غفلة الإمهال واغترار بسلامة الأحوال إذ يغشاهم التقدير بصنوف الأهوال ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ [الآية 75] في الدنيا عاجلاً ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ [الآية 75] أي ساعة العقاب في العقبى آجلاً ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ [الآية 75] أي حينئذ ﴿مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [الآية 75] من الفريقين ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾ [الآية 75] من الطائفتين بأن عاينوا خلاف ما قدروه وعاد ما متعوا به عكس ما صوروه.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ [الآية 76] هداية ورعاية تنفعهم بداية ونهاية، وفيه إيماء إلى أن تمتيع الكافر وإمهال الفاجر كما أنه ليس بفضله فكذا قصور حظ المؤمن ليس لنقصه بل لأن الله أراد به خيراً في تقليل ماله لتحصيل كماله وفي زيادة فضائله لتحسين شمائله واستحسان ما له.

وأفاد الأستاذ: أن زيادة الهدى أن يصير علم يقينهم عين اليقين وعين

نفيهم حق اليقين ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾ [الآية 76] الطاعات التي تبقى عائداتها واستمرار مدتها في جميع الأوقات والساعات ﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾ [الآية 76] مرجعاً ومآباً مما مُتِّعَ به الكفرة والفجرة من النعم الناقصة الفانية لا سيما وأن مآلها النعيم المقيم ومآل هذه الحسرة العذاب الأليم.

﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [الآية 77] أي في الدنيا أو في العقبى على تقدير وقوعها لزعمه أنه إنما أوتي ما أوتي من النعم في الدنيا لاستحقاقها وكونه من أهلها. وقرأ حمزة والكسائي ولداً بضم فسكون وهو جمع ولد كأسد في أسداً ولغة فيه كغرب وعرب ولما كانت الرؤية أقوى مستند الإخبار استعمل أرأيت بمعنى الإخبار والفاء على أصلها للتعقيب فالمعنى أخبر بقصة هذا الكافر المكابر عقب حديث أهل المناكر.

﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ [الآية 78] أقد بلغ من عظمة شأنه / وقوة سلطانه أن ارتقى إلى علم الغيب الذي يختص بالرب ﴿أَمِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [الآية 78] بأن يعلِّمه الغيبيات أو يمنح عليه بجميع المرادات. 197/ب

﴿كَلَّا﴾ [الآية 79] ردع وزجر عن ذلك وتنبيه على أنه مخطىء فيما يتصور هنالك ﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ [الآية 79] السين بمجرد التأكيد في ثبوت الوعيد ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ [الآية 79] أي نزيده من أنواع العذاب زيادة أبداً.

﴿وَنَرِثُهُ﴾ [الآية 80] بموته ﴿مَا يَقُولُ﴾ [الآية 80] أي مفتخراً به من ماله وولده ﴿وَيَأْتِينَا﴾ [الآية 80] في القيامة الصغرى أو الكبرى ﴿فَرْدًا﴾ [الآية 80] لا يصحب مالاً ولا ولداً.

وقال الأستاذ في بيان المراد: أفرأيت الذي قابل آياتنا بالكفر بعد ظهور الحجة وقال بتمنيه من غير الحجة لأعطين مالاً وولداً أيرى أن يكون تمنيه تصديق ولمقصوده تحقيق اطلع الغيب من غيرَ الريب فقال ما قال بتفريق له منا أو اتخذ عهداً بذلك عنا أن يكون له مالاً وولداً أي ليس الأمر كذلك أبداً. ودليل الخطاب يقتضي أن المؤمن إذا ظن بالله ظناً جميلاً أو أمل منه شيئاً جزيلاً فالله يحققه له ويصدق ظنه لأنه على عهد من ربه والله غير مخلف

وعده. قلت: ويؤيده حديث: «أنا عند ظن عبدي بي»[1]، ويقويه أنه فسر بعضهم العهد بكلمة الشهادة والأعمال الصالحة.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾﴾ [الآية 81] ليتعززوا بهم حيث يكونون وصلة إلى القربة أو شفاعة عن الحرقة.

﴿كَلَّا﴾ [الآية 82] ردع ونفي عن حصوله أصلاً ﴿سَيَكْفُرُونَ﴾ [الآية 82] أي جميع آلهتهم ﴿بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [الآية 82] ويتبرؤون عن طاعتهم لقوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ [البَقَرَة:الآية 166]، وسينكر الكفرة تلك العبادة لما شاهدوا سوء العاقبة كما أخبر الله عنهم قولهم يوم الدين: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:الآية 23]. فمن تعزَّز بغير الله أذلّه الله.

وأفاد الأستاذ: أنهم ما أملوا نفعاً لهم عاد ضراً عليهم. ويقال: طلب العز من أماكن الذل فأخفقوا في الطلب ونفوا عن المطلب.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الآية 83] أي سلطناهم عليهم حتى اتخذوهم أولياء أو قضينا لهم قرناء ﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾ [الآية 83] أي تهزهم هزاً بأن تقويهم وتغريهم على الثبات/ بالتسويلات وتحبيب الشهوات واللهوات، فهذا سبب عدولهم عن قبول الآيات وقعودهم عن الطاعات والعبادات. 198/أ

وأفاد الأستاذ: أن معناه تزعجهم إزعاجاً فخاطر الشيطان يكون بإزعاج وظلمة وخاطر الحق يكون بسكون وراحة، وهذا أحد الدلائل الفارقة بينهما.

﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية 84] بإنزال العذاب عليهم ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ [الآية 84] أيام آجالهم ﴿عَدًّا﴾ [الآية 84] قدّرناه وفق أحوالهم وهو أيام محصورة وأنفاس معدودة.

وأفاد الأستاذ: أن الأنفاس لا تنفع بعد حلوله الحيل. وقيل: انقضاءه لا يزيد ولا ينقص بالعلل.

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (7405)، ومسلم في الصحيح (2675/ 2).

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ﴾ [الآية 85] نجمعهم ﴿إِلَى الرَّحْمَٰنِ﴾ [الآية 85] إلى ربهم الذي عمَّت رحمته بهم ولاختيار هذا الاسم في هذه السورة شأن عظيم الصورة، ولا يبعد أنه لكونها مسوقة لتعداد النعمة وازدياد الرحمة وشرح حال الشاكرين لها والكافرين بها ﴿وَفْدًا﴾ [الآية 85] وافدين عليه ومكرَّمين لديه وملتجئين إليه.

وأفاد الأستاذ: أنه قيل ركباناً على نجائب طاعاتهم وهم مختلفون بتفاوت حالاتهم فمن راكب على صور عملهم ومن راكب على مراكب هممهم ومن راكب على نجائب أنوارهم ومن راكب على مراكب أسرارهم ومن محمول يحمله الحق في عقباه كما يحمله اليوم في دنياه وليس محمول الحق كمحمول الخلق.

﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الآية 86] كما يُساق البهائم ﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ [الآية 86] هائمين ﴿وِرْدًا﴾ [الآية 86] عطاشاً.

وقال الأستاذ: فهؤلاء يساقون بوصف عزّه وهؤلاء يساقون بنعت الذلة فيجمعهم في السوق ولكن يغاير بينهم في معانيهما، فشتان ما بينهما، انتهى.

ولعل الأستاذ أخذ اشتراك السوق من محل آخر وهو سورة العزم حيث قال تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [الزُّمَر:الآية 71]، ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزُّمَر:الآية 73] وإلا ففي هذه السورة تغاير بينهما في العبارة بحسب الصورة حيث عبر عن المتقين بالحشر بين الجمع إيماء إلى وصولهم في العبارة إلى مقام الجمعية للمَعَزَّة وعن المجرمين بالسوق المشابه بسوق البهائم إشارة إلى أنهم بوصف التفرقة المقتضية للمذلة فينبغي أن يحمل ما في الذم / على طريق المشاكلة والمقابلة. 198/ ب

﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ [الآية 87] أي الخلائق أجمعون ﴿الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [الآية 87] إلا مَن أذن له الرحمٰن وقال صواباً أو لا يملكون الشفاعة لأحد إلا مَن اتخذ عند الرحمٰن عهداً بالإيمان أو لا يشفعون لأحد إلا من اتخذ عند الرحمٰن عهداً بالإحسان كقوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:الآية 28] أي اختارهم الرحمٰن.

وأفاد الأستاذ: إن ذلك العهد حفظهم في دنياهم ما أخذ عليهم يوم

الميثاق من القيام بالشهادة بوحدانية مولاهم.

﴿وَقَالُوا۟﴾ [الآية 88] أي بعض الخلائق الممنوعين عن الحقائق بالعلائق والعوائق ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [الآية 88] لتعلُّق قلوبهم بالولد وغفلتهم عن معرفة الأحد الصمد.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾﴾ [الآية 89] منكراً شديداً والالتفات للمبالغة في الذم بالجرأة على الله في هذه النسبة.

﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ [الآية 90] وقرأ نافع والكسائي بالتذكير ﴿يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [الآية 90] تتشقّق مرة بعد أخرى من أجله وبسببه. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحمزة وأبو بكر يتفطرن والأول أبلغ ﴿وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾ [الآية 90] أي أجزاؤها ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ﴾ [الآية 90] تسقط أجزاؤها ﴿هَدًّا﴾ [الآية 90] هدماً.

﴿أَن دَعَوْا۟﴾ [الآية 91] لأن ادعوا ﴿لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [الآية 91] وقال الأستاذ: عظم بهتانهم في قالتهم وكبرت جرأتهم في قبيح حالاتهم لكن الصمدية متقدسة عن عائد يعود إليها من رين بتوحيد موحد أو مين بإلحاد ملحد فما شاهت إلا وجوههم بما خاضوا فيه من حالهم وصاروا إليه من ضلالهم كما لو يتجمل بما قاله الآخرون إلا قائله وما اقتصر إلا عليه حاصله وآجله.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ [الآية 92] أي لا يصح له ولا يليق به أن يتبنى أحداً لاستغنائه عنه بكونه صمداً ولاستقلاله بكونه فرداً أحداً ولدوام بقائه أبداً سرمداً ولأن كل ما عداه بالنسبة إليه نعمة أو منعم عليه فلا يجانس من هو مبدأ النعم كلها أصولها وفروعها، وأما حقيقة حصول الولد فمن المستحيل عند كل أحد كما قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: الآيتان 3،4].

وأفاد الأستاذ: أنه في بيان المراد بقوله: أنّى يولد وهو أحد وأنّى بالولادة ولا جنس له / وجوداً ولا جوازاً. 199/أ

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [الآية 93]

مملوكاً له يأوي إليه بالعبودية وينقاد لديه تحت تصرف الربوبية ﴿لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ [الآية 94] أحاط بهم وحصرهم بحيث لا يشذ أحد منهم عن حياطة علمه وإرادته وحيازة قبضته وقدرته ﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ [الآية 94] أشخاصهم وأفعالهم وأنفاسهم فإن كل شيء عنده بمقدار لا يزيد ولا ينقص أبداً.

وأفاد الأستاذ: أنه لا يعزب عن علمه معلوم ولا ينفك عن قدرته ما يصح أن يقال حدوثه موهوم.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ۝٩٥﴾ [الآية 95] منفرداً لا يصحب أحداً ولا مالاً ولا ولداً.

وأفاد الأستاذ: أنه لا خدم يصحبهم ولا حشم يلحقهم كلٌّ بنفسه مشتغل وكلهم عن غيره منفرد مستقل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾ [الآية 96] سيُحْدِث لهم في القلوب مودّة من تعرض منهم لأسبابها ولا حصول مناسبة بين أربابها. ففي الصحيحين عن النبي ﷺ: «إذا أحب الله تعالى عبداً يقول لجبريل عليه السلام: أحببت فلاناً فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء: إن الله تعالى قد أحب فلاناً فأحبوه فيحبّه أهل السماء، ثم يضع المحبة في الأرض في صلحاء أهلها»[1].

وأفاد الأستاذ: أن المراد يجعل في قلوبهم ودّ الله سبحانه نتيجة أعمالهم الخالصة، وفي الخبر: «وما يزال عبدي يتقرَّب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»[2].

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾ [الآية 97] أي أنزلناه ﴿بِلِسَانِكَ﴾ [الآية 97] بلغتك أو سهّلناه ببيان سنّتك ﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الآية 97] الصابرين إلى التقوي

---

(1) أخرجه عبد الرزاق في المصنف (10/ 450) رقم (19673).

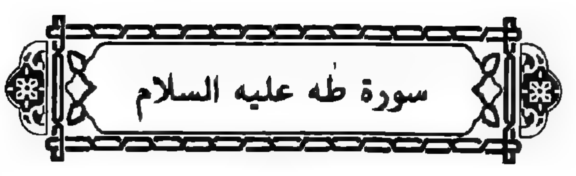
(2) أخرجه البخاري في الصحيح (6502)، وابن حبان في الصحيح (2/ 58) رقم (347).

بالحالة الحسنة في الدنيا والعقبى من الجنة المأوى وزيادة الحسنى ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [الآية 97] أشد الخصومة جحوداً وعناداً.

وأفاد الأستاذ: أن الكلام واحد والخطاب متحد وهو لقوم بشير ولآخرين نذير، فطوبى لمن بُشِّر بما وُفِقَ له والويل لمن خُوِّف بل خذله والقوم بين موفّق ومخذول أي وبين مردود ومقبول.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ [الآية 98] تشجيع لنبيه على إنذارهم وتخويف لهم على إنكارهم ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [الآية 98] هل تشعر بهم وترى لهم رمزاً ﴿أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [الآية 98] صوتاً / خفيفاً فضلاً عن أن يكون كلاماً جلياً. 199/ب

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أنبتهم وأحياهم وعلى ما شاء فطرهم وأبقاهم ثم بعد ذلك لما شاء أماتهم وأفناهم فبادوا بأجمعهم وهلكوا عن آخرهم فلا كبير منهم ولا صغير ولا جليل ولا حقير وسيطالبون يوم الحشر والنشر بالنقير والقطمير.



سورة طه عليه السلام

[مكيَّة]

وآياتها مائة وأربع وثلاثون آية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أفاد الأستاذ أنه اسم عزيز من تحقق بجلال عزّته في خلوص عبوديته فإذا وصل إلى ضياء صفوته نزل عن سماء تخوفه، عزيز مَن عرفه سمت همته فإذا سمت همته سقطت عن الدارين طلبته، اسم مَن عرفه زال كربه به طاب قلبه دينه حبه ربه حسبه عزيز من وسمه بعبوديته حرر عن رق شهوته وأعتقه عن أسر مطالبته فلا يهزه لمحبوب طلب ولا يستفزه لمجذوب هرب.

﴿طه ۝١﴾ [الآية 1] قيل معناها يا طاهراً يا هادي. وقيل طوبى لمن بك اهتدى، وقيل اجعله طأها بهمزة ساكنة أبدلت التاء والهاء كتابة على أنه أمر له ﷺ بأن يطأ الأرض بقدميه فإنه كان يقوم في تهجده على إحدى رجليه، ويلائمه في المعنى: ﴿مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢﴾ [الآية 2] لتتعب بكثرة الرياضة في الدنيا بل لتنال خدمة المولى والدرجات العلى في دار العقبى.

قال الواسطي: سمي القرآن قرآناً لأنه مقارن لِمتكلِّمه لا يبانيه كما يصل إلينا شعاع الشمس ولم يباين القرص ولا ينافيه. وقال ابن عطاء في قوله ﴿لِتَشْقَىٰٓ﴾: أي لتتعب في خدمتنا فكان جوابه من النبي ﷺ زيادة تعبُّد واجتهاد كأنه يقول: وهل يتعب أحد في خدمتك وأنت محل استرواح أهل معرفتك. فأما هذه الحركات فهو القيام بشكر ما أهلتني له من قربك ومناجاتك وخدمتك والدنو من حضرتك، ألا تراه عليه السلام لما قيل له: أتفعل هذا

---

(1) كذا في الأصل المخطوط.

وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»[1].

200/أ وأفاد الأستاذ: أن الطاء إشارة إلى طهارة قلبه / عن غير الله والهاء إشارة إلى هداية قلبه إلى مولاه. ويقال: طأ بسرك بساط القربة فإنك لا تهدي إلى غيرنا، أي بالقربة والحجبة. ويقال: طوينا عن سرك ذكر غيرنا وهديناك بنا إلينا، أي وإلى خيرنا.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣﴾ [الآية 3] أي لكن أنزلناه تذكيراً وموعظة لمن في قلبه خشية ورقة.

قال جعفر: القرآن تذكرة للخائفين ورحمة للمؤمنين وأنس للمحبين.

وقال الأستاذ: أي ليس المقصود من إيمائنا إليك تعبك لربك وإنما هذا الاستفتاح باب الوصلة وتمهيد بساط القربة، فالقرآن تبصرة لذوي العقول وتذكرة لأولي الوصول، فهؤلاء به يستبصرون فينالون راحة النفس في آجلهم وهؤلاء به يتذكرون فيجدون روح الأنس في عاجلهم.

﴿تَنزِيلًا﴾ [الآية 4] نصبه على المدح ﴿مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾ [الآية 4] جمع العليا تأنيث الأعلى، وفيه تنبيه على تفخيم شأن المنزِل بإظهار تعظيم المنزَل بذكر أفعاله وصفاته في مكنوناته من سفلياته وعلوياته، وقدم الأرض لأنه أقرب في نظر الحس من سماواته وأفاد الأستاذ أنه سبحانه جعل الأرض قرارَ العبادة في عامة بلاده ونفوس العابدين أرضاً وقراراً لطاعتهم وقلوب العارفين قراراً لمعرفتهم. أقول: ولعله جعل السماء محل أرواحهم كما جعل الأرض مكان أشباحهم إيماء إلى أن الإنسان ما بين الترقي إلى أعلى عليين وبين التنزيل إلى أسفل سافلين.

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [الآية 5] أي استوى ملكه على عرشه ومعظم خلقه ومنزل ظهور تدبيره ووضوح تقديره جسماً اقتضته حكمته

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (1130)، ومسلم في الصحيح (2819/ 79).

وتعلقت به مشيئته.

قال ابن عطاء: استوى إظهاراً لقدرته لا مكاناً لذاته، يعني لاستغنائه وعزته.

وقال ابن فارس: ليس على الكون من الله أثر ولا على الله من الكون أثر أي ولا خبر. وسئل مالك بن أنس: كيف استوى؟ فقال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به فريضة والسؤال عنه بدعة[1]، كذا في «حقائق السلمي».

وأفاد الأستاذ: أن عرش السماء قبلة دعاء الخلق وعرش القلب محل نظر الحق فشتان بين عرش وبين عرش، انتهى[2]. ويؤيده / ما ورد: «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن بي». 200/ ب

﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَمَا تَحۡتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾ [الآية 6] مِلكاً ومُلكاً ليدل بذلك على كمال قدرته وجمال إرادته ولما كانت القدرة تابعة للإرادة وهي لا تنفك عن العلم والإحاطة عقب ذلك بإحصاء علمه بجليات الأمور وخفياتها وكلياتها وجزئيتها فقال: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الآية 7] فاعلم أني غني عن جهرك ﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ [الآية 7] فضلاً عن الجهر ﴿وَأَخۡفَى﴾ [الآية 7] من سرك وهو ما خطر لك من حالك ثم ذهب عن وهمك وخيالك.

قال الواسطي: السر ما خفي على العباد والذي هو أخفى ما لم يقل له كن، انتهى. ففيه إيماء إلى أنه عالم بالموجودات والمعدومات سواء يكون من الممكنات أو المحالات.

وأفاد الأستاذ: أن النفس لا تقف على ما في القلب من الأنوار والقلب لا يقف على ما في الروح من الأسرار والروح لا سبيل له إلى حقائق السر

(1) الأسماء والصفات للبيهقي (2/ 410) رقم (836)، والاعتقاد له (1/ 76) رقم (55).
(2) تفسير النيسابوري (2/ 103).

والذي هو أخفى من السر فمما لا يطلع عليه إلا الحق. ويقال: الذي هو أخفى من السر لا يفسده الشيطان ولا يكتبه الملكان ويستأثر بعلمه الجبار ولا يقف عليه الأغيار.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ ٨﴾ [الآية 8] تأنيث الأحسن، وفضل سائر أسماؤه تعالى على سائر الأسماء في الحسن لصياغتها على مبانٍ هي ألطف المباني ولدلالتها على معانٍ هي أشرف المعاني.

﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ٩﴾ [الآية 9] عقب تمهيد نبوّته قصة موسى وغصة محنته ليأتم به نبينا ﷺ في تحمُّل أعباء نبوَّته والصبر على مقاساة شدائد أمته.

وأفاد الأستاذ: أن هذا سؤال في صيغة الاستفهام والمراد منه التقدير وإثبات المرام، انتهى. ولذا قيل: المعنى وقد أتاك حديث موسى.

﴿إِذۡ رَءَا نَارٗا﴾ [الآية 10] قيل: استأذن شعيباً عليه السلام في الخروج إلى أمه وخرج بأهله فلما وافى وادي طوى وفيه طور سيناء ولد له ابن في ليلة شاتية مظلمة مثلجة والأرض مسبعة كانت ليلة الجمعة وقد خفيت جادته وتفرقت ماشيته إذ رأى النور من جانب الطور وظن كونه ناراً ﴿فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ﴾ [الآية 10] مكانكم/ واغتنموا زمانكم ﴿إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾ [الآية 10] أبصرت إبصاراً ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ [الآية 10] بشعلة على حطب أو خرقة أو بجمرة تنتفعون منها وتستدفئون بها ﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الآية 10] أي عندها ﴿هُدٗى﴾ [الآية 10] أي هادياً يدلني على الطريق فإنه كان غاوياً وفي مقام الاستغراق نادياً وناجياً.

201/أ

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه ألاح له النار حتى أخرجه من أهله يطلبها وكان المقصود إخراجه من بينهم لتجلي نور ربها فكان يدنو موسى والنار تنادي، وفي القصة أنه لما أتاها وجد شجرة تشتعل من أولها إلى آخرها فجمع موسى حشائش تأخذ من تلك النار فلم تأخذها عرف أن هذه النار لا

تسمح نفسها بأن يعطى إلى أحد شعلة منها، كما قيل:

وقلن لنا نحن الأهلة إنما نضيء لمن يسري بليل ولا نقري[1]

يا موسى هذه النار تضيء ولكن شعلة منها لأحد ما تعطي، يا موسى هذه النار تحرق القلوب لا النفوس، ويقال: كان موسى في مزاولة قبس من النار وكان يحتال كيف يأخذ شيئاً منها لينتفع بها مع أهله، فبينما هو في حالة من القلق إذ سمع النداء المطلق من جانب الحق كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [الآية 11] قائلاً ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ [الآية 12] وفتحه ابن كثير وأبو عمرو أي أني. قيل: لما أتى النار وجد ناراً بيضاء تتقد في شجرة خضراء من أسفلها إلى أعلاها لا حرارة النار تضر الخضرة ولا رطوبة الخضرة تضرّها. وفيه إشارة إلى مرتبة جمع الجمع حيث لا تحجب الكثرة الوحدة ولا الوحدة تحجز الكثرة. ثم لما نودي قال: من المتكلِّم، قال: إني أنا ربك، فوسوس إليه إبليس على جهة التلبيس: لعلك تسمع كلام جني، فقال: عرفت أنه كلام الله لأني أسمعه من جميع الجهات وبجميع الأعضاء. وهو إشارة إلى أنه عليه السلام تلقى من ربه كلامه تلقياً روحانياً ثم بمثل ذلك الكلام لبدنه وانتقل إلى الحس المشترك فانتعش به من غير اختصاص بعضو وجهة توضحه على وجه يظهر توجيهه أن قوة إدراك كل حس من الحواس الخمس بعالم من العوالم مخصوصة وبمقتضى كمال الحكمة جعل قوة الحس المشترك/ في في ساحة دماغ الإنسان متعينة وجعل رئيس سائر الحواس مشتركاً مع كل حاسة بما أعطي من القوة الخاصة ليكون حاوياً للأخبار وجامعاً للأسرار جملة ودفعة. وبيانه أن لون الماء إنما يدركه البصر وصوته يدركه السمع وريحه يدركه الشم وطعمه يدركه الذوق وحره وبرده يدركه اللمس والحس المشترك يدركه جميعها كذا حققه السيد الهمداني. وحاصله أنه عليه السلام بجميع أجزائه صار سمعاً حتى سمع كلام ربه ولذا روي: أنه كلما بعد أو دنا لم يختلف ما كان يسمع من النداء. كما أن نبينا ﷺ صار بجميع

201/ ب

(1) نسب إلى علي بن الجهم. انظر الحماسة المغربية (1/ 102)، والزهرة (1/ 12)، ومحاضرات الأدباء (1/ 425).

أجزائه بصراً حتى رأى ربه في مقام دنا وليس الخبر كالمعاينة كما ورد في الرواية[1].

وأفاد الأستاذ: أنه إنما علم موسى عليه السلام أنه كلام الحق سبحانه بأنه لا يسمع فيه الترتيب والنظم والتركيب، ويقال: إنما عرف موسى إنه كلام الله تعالى بتعريف خصّه الحق سبحانه به من بين الخلق من حيث الإلهام الرباني دون نوع من الاستدلال البرهاني.

﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ﴾ [الآية 12] أمره بذلك لأن الحضرة تواضع وأدب مما يقتضي هنالك ولذلك طاف السلف حافين حول الكعبة طائفين، أو لتلطخ نعليه بخبث فإنهما كانتا من جلد حمار غير مدبوغ كما ورد في حديث[2]. وقيل: ليباشر الوادي بقدميه متبرّكاً بمساس رجليه. وقيل: معناه فرِّغ قلبك من الأهل والمال ليتم لك حال الكمال. وفيه إيماء إلى نفي الإثنينية وثبوت الوحدة اليقينية.

وقال ابن عطاء: أعرض بقلبك عن الكونين فلا تنظر إليهما بعد هذا الخطاب الزين، ذكره السلمي. وفيه إيماء إلى ما قيل: خطوتين وقد وصلت وأجمل من هذا المقال في مقام الإجمال ما قال بعض أرباب الحال: دع نفسك وتعال.

وأفاد الأستاذ: أن معنى اخلع نعليك تبقَّ عن نوعي أفعالك وامتح عن شهود جنسي أحوالك وقرب وبعد ووصل وفصل وارتياح واجتياح وبقاء وفناء، وكن دائماً بوصفنا، قائماً بحقنا، والمشتت في أحواله / وصفاته متى يكون كالمجرد عن حملته المصطلم عن شهوده الغائب عن وجوده. ويقال: اخلع نعليك وألقِ عصاك وأقم عندنا هذه الليلة ولا تبرح لما هنالك، انتهى. وقال بعضهم: سمع موسى كلام الحق بما لا يشبه كلام الخلق، فلما سمع ذلك الخطاب واستلذّ بذلك الباب وأخذ عن التمييز في الحساب رده الحق إلى

202/ أ

---

(1) تفسير القرطبي (19/ 4).
(2) تفسير أبي السعود (6/ 7)، وتفسير البغوي (5/ 266).

الخلق ليسكن ما به ويرجع إلى حاله في خطابه ﴿إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ﴾ [الآية 12] المنزَّه من أن يُداس بنعل طاهر أو نجس أو المطهر عن شهود الغير من جنس وإنسٍ، والمُظهر لوجود الأنس ﴿طُوًى﴾ [الآية 12] عطف بيان للوادي وصرف للعلمية وتأنيث البقعة. ونوّنه ابن عامر والكوفيون بتأويل المكان.

وأفاد الأستاذ: إنك بالواد المقدس عن الإعلال أي في الأعمال والأحوال وساحات الصمدية تَجِلُّ عن كل شينٍ وزين من زين بإيمان وشين كفران وزين بإحسان وشين بعصيان كلا إنها ربوبية سطوات عزها تقهر كل مسبوق في كل قضية، انتهى. وقيل في قوله ﴿طُوًى﴾: أطوِ عنك بساط المخالفة فمن حل في هذا الوادي ووطئه طوي عن قلبه ما لا يكون مقدساً من حبه.

﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ﴾ [الآية 13] اصطفيتك على الناس بالرسالة والتكليم. وقرأ حمزة: وإنا اخترناك بصيغة التعظيم والتكريم ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [الآية 13] إليك ويُلقى عليك ويُملى لديك.

﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ [الآية 14] بيان لما يوحى وإشعار بأنه مقصور على تقدير التوحيد الذي هو منتهى العلم والأمر بالعبادة التي هي كمال العمل ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [الآية 14] خصها بالذكر وأفردها بالأمر للحكمة التي أناط بها إقامتها المفيدة إدامتها وهو تذكُّر المعبود وشكره وشغل للقلب واللّسان والأركان بذكره، أو لذكري خاصة من غير شائبة بذكر غيري عامة.

وقال الأستاذ: أي على علم مني بك اصطفيتك وجرّدتك عن كل نعت هو فيك وبك ونقيتك عن دنس أوهام كل ما يأتيك. ويقال: بعدما اخترتك فأنت بي وأنت لي وأنت محو عنك في قيامي. وقوله: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ﴾ [الآية 14] إلى آخره، تقدّست عن الإعلال/ في آزالي وتنزّهت عما يجوز عن الامتثال 202/ب والأشكال باستحقاقي لِجلالي وجمالي. ويقال: الأغيار في وجودي فَقْدٌ والأطلال والرسوم عند ثبوت حقي محو. وقوله: ﴿فَاعْبُدْنِي﴾ [الآية 14] أي تذلَّل لحكمي وانفذ لأمري واخضع لجبروت سلطاني ثم إقام الصلاة من غير ملاحظة مجراها

ومنتهاها تورث الإعجاب وهو مما يوجب الحجاب ويقتضي العتاب، وإذا أقام العبد صلاته على نعت الشهود والتحقيق بأن مجراها غيره في الوجود كانت الصلاة فتح باب المواصلة والوقوف في محل التجويز والتحقق بخصائص القرب والزلفة.

﴿إِنَّ السَّاعَةَ﴾ [الآية 15] القيامة ﴿ءَاتِيَةٌ﴾ [الآية 15] كائنة لا محالة فكن متهيئاً لها في كل حالة لما ورد: «الدنيا ساعة فاجعلها طاعة»[1]، و«الدنيا مزرعة الآخرة»[2] ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [الآية 15] أقرب أن أخفيها فلا أقول إنها آتية بما فيها ولولا ما في الأخبار من اللطف والأعذار لما أخبرت بها واخترت الإسرار لأنها من جملة الأسرار، أو أكاد أخفيها عن نفسي كما قرىء بها، أي لو كان ممكناً إخفاؤها. وفي الجملة أظهر إتيانها وأخفى زمانها ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾ [الآية 15].

وأفاد الأستاذ: أن الفائدة في تعريف العباد قرب الساعة ليستفيقوا من غفلات التفرقة في الطاعة فإذا حضروا بقلوبهم ففي حالة استدامة الذكر ما هو موعود في الآجل أكثره للحاضرين موجود في العاجل فالحاضرة لهم كالآخرة ولذا جعلوا من أمارات الاستقامة شهود الوقت قيامه.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا﴾ [الآية 16] أي لا يمنعك عن تصديق الساعة أو تحقيق الطاعة ﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ [الآية 16] ويغفل عن قيامها وعن الاهتمام بأمرها ﴿وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ [الآية 16] تبع مَيل نفسه إلى اللذات وترك خدمة مولاه بتحسين الطاعات ﴿فَتَرْدَىٰ﴾ [الآية 16] فتهلك وتقوى وتطرح في مقام الردى.

وأفاد الأستاذ: أنه إذا أكرم الله عبداً بحسن التنبيه في عالم الوجود وأحضره بنعت الشهود فلا ينبغي أن ينزل عن سماء صفاته المؤدية إلى الجنة

---

(1) انفرد به الملا علي القاري رحمه الله تعالى، ولكن ذكر بلفظ: «الدنيا ساعتان» انظر أخبار مكة للفاكهي (5/ 105).

(2) المقاصد الحسنة (1/ 351) رقم (497)، وكشف الخفاء (1/ 412) رقم (1320)، والفوائد الموضوعة (1/ 133) رقم (178).

والحضرة والقربة إلى جحيم أهل الغفلة ومنزلة أرباب الحرقة ومرتبة تطرحهم في أودية الفرقة.

﴿وَمَا/ تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [الآية 17] استفهام صورة وإعلام بما يريد فيها معجزة. 203/ أ

﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ [الآية 18] أعتمد عليها وأستند إليها وأتقوى بها ﴿وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى﴾ [الآية 18] أخبط بها الورق على رؤوس غنمي ﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [الآية 18] حاجات أخر معلومة عند أهلها منها أنها تدفع عني عدوي وتحرس غنمي وتسمعني في حال وجدي وتضيء لي بالليل إذا أظلم عليّ وإذا أعييت في الطريق أركبها فتحملني وأعظم مآربها أنك قلت لي بسببها: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [الآية 17]. ويقال: إنما قال تعالى ذلك لأنه عليه السلام صحبته هيبة المقام عند فجأة سماع الكلام فسكن بعض ما كان به من بوادر الإجلال بأن رده إلى سماع ذكر تلك العصا بسبب ذلك السؤال وإلى إيرائه ما فيها من الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة. ويقال: لما بسطه الحق بسماع كلامه أخذته أريحية الخطاب فأجاب عما سئل وعما لم يسأل بطريق الإطناب. ويقال: جميع ما عد من المنافع في العصي كان من قِبَل الله تعالى فكيف جاز له أن ينسبها ويضيفها إلى نفسه. ولقد قالوا:

يا جنة الخلد والهدايا أفأهدي إليكِ ما منكِ يُهدى[1]

انتهى كلام الأستاذ.

وفي «تفسير السلمي» قال ابن عطاء: انفرد الله تعالى بعلوم الغيب جميعها فللخلق من الأشياء ظاهرها وعند الله حقيقتها وسرائرها، فقال: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝١٧﴾ [الآية 17] ليعرفه بذلك مقدار علمه وإن حقائق العلوم مختصة بربه، فقال: ﴿هِىَ عَصَاىَ﴾ [الآية 18] فقال له: بل محل لإظهار قدرتنا فيه.

وقال جنيد في قوله ﴿عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا﴾ [الآية 18]: قال له الحق

(1) ذكره القشيري في تفسيره (4/ 493).

كلما يعتمد عليه قلبك وتسكن إليه نفسك فإن الكل محل العلل وإن كل ما تسكن إليه ستهرب عن قليل عنه وعما لديه.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الآيتان 19،20] قيل: انقلبت حية صفراء بغلظ العصا فكذلك سماها جاناً باعتبار المبتدأ ثم تورمت وعظمت فسماها ثعباناً باعتبار المنتهى.

وأفاد الأستاذ: أنه لا عبرة بما يوهم ظواهر الأشياء من الأمور المركبة والأجزاء فقد يوهم/ الشيء بظاهره ما سيبدو في المستقبل بخلافه أُري موسى عصاه ثم كان المقصود آيته ومعجزته لا محنته وفتنته. 203/ب

﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [الآية 21] فإنه لما رآها حية تسرع والحجر والشجر تبتلع فخاف عنها وهرب منها، وقد قيل: كان بين لحييها أربعون ذراعاً فلما رأى ذلك الأمر العجيب الهائل ملكه من الفزع ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف.

قال ابن عطاء في قوله عصاي: أضافها بالملك إلى نفسه ولم يكن له في الحقيقة أن يرى لنفسه ملكاً وهو بين يدي الحق فلما أضافها إلى نفسه قال ألقها فألقاها فإذا هي حية تسعى فخاف وتبرأ من إضافتها ملكاً لنفسه فتعطف الحق عليه فقال: خذها ولا تخف فلا تهرب مما ادعيت فيه المُلك فإنها لن تضرك.

قال الواسطي في قوله ألقها يا موسى: اطرح عن نفسك السكون إلى العصا والاعتماد عليها والركون إليها وعد المنافع فيها فلما ألقى وحكى سره منها قال خذها ولازمها على شرط أن ترى أن النافع والضار لا الأسباب والأغيار ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ﴾ [الآية 21] هيأتها وحالتها المتقدمة. قيل: لما قال له ذلك اطمأنت نفسه هنالك حتى أدخل يده في فمها وأخذ بلحييها.

وفي «تفسير السلمي» قيل: الحكمة في انقلاب العصا حية في وقت الكلام أنه جعلها آية ومعجزة لموسى عليه السلام ولو ألقاها بين يدي فرعون ولم يشاهد منه قبل ذلك ما شاهد من ظهور آياتها فهرب منها كما هرب فرعون حين دهشته رؤيتها.

وقال الواسطي: خوف موسى من العصا أنه شاهد أثر سخطه فيها فلم يأمن مكره تعالى، انتهى. وقد جاء في دعاء بعض العلماء الإلْهي: اللهمَّ أرنا الأشياء كما هي.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أشهده بانقلاب العصا من حال إلى حال مرة عصا ومرة ثعباناً ثم بعد ذلك عصا أنه يثبِّت عباده في حالة التلوين مرة ومرة فمن أخذ ومن رد ومن جمع ومن فرق.

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ [الآية 22] أي جنبك تحت عضدك ﴿تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ [الآية 22] عاهة وعائبة، وهو/ كناية عن البرص ككناية السوأة عن 204/ أ العورة ولم يصرح باسمه لأن الطباع تكرهه وتنفر عن رسمه ﴿آيَةً أُخْرَىٰ﴾ [الآية 22] معجزة ثانية بينهما غاية المباينة فهذا بمنزلة تعدد البينة لتأكد ثبوت الحجة ووضوح المحجة.

وقد أفاد الأستاذ: أنه سبحانه كما أراه آية من خارج عن بدنه وهي العصا أراه آية من نفسه وهو قلب يده بيضاء إذا أدخلها في جيبه من غير برص لها، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فُصّلَت:الآية 53]. قيل: وإنما قال في جيبك ولم يقل في كمك إذ لم يكن للباسه كم.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾﴾ [الآية 23] أفاد الأستاذ: أن الآية الكبرى هي ما كان يجده في نفسه من الشهود والوجود شوقاً وما لا يكون بتكلف العبد وتصرفه من فنون الأحوال التي يدركها صاحبها ذوقاً.

﴿اذْهَبْ﴾ [الآية 24] بهاتين الآيتين ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ [الآية 24] وادعه إلى العبادة على وفق العبودية ﴿إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [الآية 24] تكبَّر وعصى في دعوى الربوبية وفيه تنبيه نبيه على النبوة قبل الرسالة وأن التكميل بعد كمال الولاية ولو لم يقدر فيه السراية بالهداية.

وأفاد الأستاذ: أنه بعدما أسمعه بلا واسطة كلامه وشرف مقامه وأعجب إكرامه وأتم مرامه أمره بالذهاب لدعائه إلى الله مع علمه تعالى بأنه لا يؤمن

ولا يجيب ولا يسمع ولا غرو أن يشق على موسى ذهابه إلى فرعون وسماع جحده منه بعدما سمع من الله كلامه ولكنه آثر أمره سبحانه على مراد نفسه وحفظ شأنه. ويقال: لما أمره بالذهاب إلى فرعون سأل الله أهبة النقلة وما يتم به تبليغ ما حمل من الرسالة وذلك قوله: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ [الآيتان 25، 26] يعني لما أمره سبحانه بأمر عظيم وخطب جسيم سأله أن يشرح صدره ويفتح قلبه لتحمل أعبائه والصبر على مشاقه وبلائه ويسهل أمره بإيجاد أسباب حصوله ورفع الموانع عن أبواب وصوله وزيادة إلى تأكيد للمبالغة في الخصوصية.

﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾﴾ [الآيتان 27،28] كلامي وقت بياني فإنه يحسن التبليغ من البليغ.

وفي «تفسير السلمي»: رب اشرح لي صدري حتى لا أشاهد غيرك ويسر لي أمري حتى لا أنطق إلا بمعرفتك/ واحلل عقدة الإنسانية من لساني حتى لا أتكلم إلا بما أتلقنه منك.

204/ب

قال ابن عطاء: أراد به العقدة النفسانية. وقال أيضاً: اشرح لي صدري بنور القربة وأحلل عقدة من لساني أي عقدة الاختيارية الإنسانية حتى يكون كلامي عنك وبك.

وقال الأستاذ: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾﴾ [الآيتان 26،25] حتى أطيق أن أسمع كلام غيرك بعد أن سمعت منك كلامك ﴿وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ حتى ينطق بمخاطبة غيرك وقوّني حتى أرى ما أرى بك لا بهم.

﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾﴾ [الآيتان 30،29] يعينني على ما كلّفتني ويساعدني فيما حمّلتني.

قال جنيد في قوله رب اشرح لي صدري الآيات: ما سأل الله تعالى موسى إلا الأخلاق أي تحسين الأحوال وتزيين الأعمال.

وقال أبو علي الروزباري في سؤال موسى من ربه شرح صدره وتيسير

أمره وإطلاق لسانه ومعازرة أخيه في بيانه ولم يسأل ضعفاً من التبليغ والتبيين فإن الله تعالى أيده بالثبات والتمكين ولكنه عليه السلام وقف مقام الحق بين يدي الحق وسأل بلسان الحق لما قد سبق به من علم الحق إلى الخلق.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ [الآية 31] قوتي وطاقتي ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ [الآية 32] نبوَّتي ورسالتي. وقرأهما ابن عامر بلفظ الخبر وجزمهما على أنه جواب الأمر.

قال الأستاذ: ضاق قلبه عن الاتساع لشهود الخلق ومخاطبتهم فسأل الخرجة عما كان به من القبض في مباسطتهم فقال: ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾﴾ [الآيتان 25، 26] ثم لما كان ذهابه إلى فرعون سأل أن يصحب أخاه معه بقوله: ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ [الآية 32] ولما ذهب لسماع كلام الله حين قال تعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: الآية 142] لم يستصحبه لأن الذهاب إلى الخلق يوجب الوحشة فطلب الصحبة ليخف عليه كلفة المشقة. ويقال: إن المحبة توجب التفرُّد والانفراد إذ ليس للغير مع الحب مساغ في الفؤاد ففي ذهابه إلى فرعون استصحب أخاه ولما كان الذهاب إلى الميقات لم يكن للغير سبيل إلى صحبته لما كان المقصود من ذهابه ما كان موسى مخصوصاً به من حالته.

205/ أ ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الآيتان 33، 34] فإن التفاوت يهيّج الرغبات ويؤدي إلى تكاثر الخيرات وتزايد المبرات ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ [الآية 35] ناظراً بأفعالنا وعالماً بأحوالنا وبأن التعاون مما يصلحنا وأن هارون نِعْمَ المعين لي فيما أمرتني.

وقال الأستاذ: بيَّن الله أنه سأل مشاركة هارون إياه لحق ربه لا لحظ نفسه حيث قال: ﴿كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الآيتان 33، 34].

﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ [الآية 36] مسؤولك ﴿يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [الآيتان 36، 37] أنعمنا عليك في وقت آخر يسع لجميع المنن الأخر.

قال جعفر: قيل لموسى استكثرت تسبيحك وتذكيرك ونسيت بدايات

فضلنا عليك في حفظك في اليم وردك إلى الأم وتربيتك في حجر عدوك وأكبر من هذا خطابنا معك وكلامنا لك وأكبر من هذا إخبارنا باصطفائنا إياك.

وأفاد الأستاذ في تحقيق المراد أعطيناك ما سألت وتناسيت ابتداء حالك حين حفظناك في اليم ونجينا أمك من الغم وربيناك في حجر عدوك فإن كان سؤالك واختيارك ودعاؤك وأثبتنا في قلب امرأة فرعون شفقتك وألقينا عليك محبة مني حتى أحبك عدوك ورباك بعدما قتل بسببك ما لا يحصى من الولدان فالذي بدأك بهذه المنن هو الذي أتاك سؤلك وحقق لك مأمولك.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾﴾ [الآية 38] بالإلهام أو في المنام ما يوحى ما لم يعلم إلا بالإلهام ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ﴾ [الآية 39] أي اطرحيه عن حجر قلبك ﴿فِى ٱلتَّابُوتِ﴾ [الآية 39] أي الصندوق التنبيه بقربك ﴿فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الآية 39] أي يم الهم وهو بحر النيل على ما قيل ﴿فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ [الآية 39] أمر بمعنى الخبر مبالغة في الأمر ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى﴾ [الآية 39] أي في منازعته الألوهية ﴿وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾ [الآية 39] في مخالفة العبودية أو زوال الأمور الملكية أو تكرير عدو للمبالغة أو الأول باعتبار ما وقع والثاني باعتبار ما يتوقع ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى﴾ [الآية 39] أي محبة كائنة مني قد زرعتها في قلوب العباد بحيث لا يكاد يصبر عنك مَن رآك من أهل البلاد فلذا أحبك فرعون مع ما كان يقتل من الأولاد، / 205/ب ويجوز أن يتعلق مني بألقيت أي أحببتك ومن أحبه الله أحبه ما سواه.

وأفاد الأستاذ: أنه يقال في لفظ الناس فلان ألقى محبته على فلان أي أحبه، ويقال: وألقيت عليك محبة مني طرحت في قلوب الناس محبة لك فإن الحق إذا أحب عبد فكل مَن شاهده أحبه. ويقال: جعل ملاحة في عينيه فكان لا يراه أحد إلا أحبه. ويقال: ألقيت محبة مني أي أنبت في قلبك محبتي فإن محبة الله لا تكون إلا بإثبات الحق سبحانه ذلك في قلبك. وفي معناه:

إنَّ المحبة أمرها عجب تُلْقى عليك وما لها سبب[1]

(1) ذكره القشيري (5/ 1) وانظ شرح ديوان المتنبي (1/ 171)، والزهرة (1/ 4).

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه رباه في حجر عدوه وكان قد قتل ألوفاً من الولدان بسببه وبلاء كل أحد كان بعده إلا بلاء موسى فإنه كان بسنين قبله فاليوم الذي أخذ موسى في حجره كان قد أمر بقتل كثير من الولدان من حذره ثم إنه رأى من هلاك ملكه على يده ليعلم أن أسرار الأقدار لا يعلمها إلا الجبار. ويقال: كان فرعون يسمي والد موسى وأباه ولم يكن في الحقيقة أباه وكان يقال لأم موسى ظِئر موسى ولم تكن في الحقيقة كذا فحيث الدعوى بالأبوة والنبوة لم يكن لها تحقيق وحيث كان اللقب تحقيق وحيث كان المعنى والحقيقة لم يكن عن ذلك خبر ولا عنه أحد من ذلك معرفة وأثر، هكذا الحديث والقصة أي مما يوجب حدوث القصة. ولقد جاء في الأخبار: أن النهر ألقاه على الساحل فحُمِل إلى فرعون فلما وقع بصر امرأة فرعون عليه باشر حبه قلبها وكذلك وقعت محبته في قلب فرعون ولكنها كانت أضعف فسبقت بقولها: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ [القصص:الآية 9] ولولا إنها علمت أنه أخذ شعبة من قلب فرعون كما أخذ من قلبها لم تقل ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ﴾ [القصص: الآية 9]. ثم حكي أن موسى لما وُضِعَ في حجر فرعون لطم وجهه فقال فرعون: إن هذا من أولاد الأعداء، فقالت امرأته: إنه صبي لا تمييز له وتشهد له أنه لا يميز بين النار وبين غيرها من الجوهر والدنيا وأرادت أن تصدق قالتها وتحقق حالتها فاستحضرت شيئاً من النار وشيئاً من الجواهر / والدينار فأخذ جبريل يده 206/ أ من الميل إلى الجواهر والدينار وصرفها إلى صوب النار فأخذ جمرة بيده وقربها من فمه فأحرقت لسانه وعظم شأنه. ويقال: إن العقدة التي كانت على لسانه إنما كانت من ذلك الاحتراق في زمانه. ويقال: إنهم شاهدوا ولم يشاهدوا إذ العجب أنه لم تحترق يده من أخذ الجمرة واحترق لسانه من أثر الشعلة ليعلم أن هذا الأمر ليس بالقياس المقتضي شأنه بل فعال لما يريد سبحانه، انتهى.

ولا يخفى أنه لا دلالة على عدم احتراق يده غايته أنه على عادة الصغار أمال الجمرة إلى فمه فأثر في لسانه لكمال لطافته ولا يبعد أن يقال ما احترقت يده مجازة لحرها لحية فرعون أو لطمها وجهه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [الآية 39] ولتتربى حال كونك بمرأى مني ويحسن إليك عني وأنا راعيك ومراقبك

بعيني عنايتي ويمن رعايتي وحسن حمايتي.

وقال الأستاذ: أي لا أمكِّن غيرك ليستميلك عني. ويقال: أحفظك من كل غير وحديث سوى حديثنا. ويقال: ما وكلنا حفظك أي أحد سوانا.

﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ﴾ [الآية 40] لكم وذلك أنه كان لا يقبل ثدي المراضع فجاءت أخته مريم وقيل كلثوم متفحصة خبره ومتجسسة أمره فصادفتهم يطلبون مرضعة له يقبل ثديها فقالت: هل أدلكم على متكفلة به لكم، فقالوا: بلى، فجاءت بأمه فقبل ثديها ﴿فَرَجَعْنَاكَ﴾ [الآية 40] فرددناك ﴿إِلَىٰ أُمِّكَ﴾ [الآية 40] وفاء بقولنا: ﴿إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القَصَص:الآية 7]، ﴿كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [الآية 40] بلقائك وبقائك ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ [الآية 40] هي بفراقك أو أنت على فراقها وفقد إشفاقها.

وأفاد الأستاذ: أن البلاء على حسب قوة صاحبه وضعفه فكل ما كان المرء قوياً كان بلاؤه أوفى وكل ما كان أضعف كان البلاء أخف وقد كانت أم موسى ضعيفة فرد إليها ولدها بعد أيام قليلة، ويعقوب لما قوي في حاله لم يصل إليه يوسف إلا بعد سنين طويلة، انتهى. ويؤيده ما ورد في الحديث من هذا المعنى: «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل»[1] من الأولياء والأصفياء ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾ [الآية 40] أي نفس القبطي الذي استغاثه عليه السبطي.

206/ ب قال الواسطي: ألقاه/ في أعظم الأسوأ حتى يجد طعم الأصفى ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ [الآية 40] غم قتله خوفاً من عقاب ربه ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [الآية 40] ابتليناك ابتلاء كبيراً أو أنواعاً كثيرة وخلصناك مرة بعد أخرى وهو إجمال لما ناله في سفره من الهجرة عن وطنه ومفارقة إلفه ومشيه راجلاً عن حذره وفقد زاده وإيجاد نفسه مع ما سبق له من وضع أمه في تابوت الهم وقذفه في اليم وما لحق في رجوعه من ضلاله طريقه وتفرق غنمه وتشتت حاله مع أهله وكل منهما فتنة وبلية ومحنة، وقد قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:الآية 35].

---

(1) أخرجه ابن حبان في الصحيح (7/ 160) رقم (2900)، والنسائي في السنن الكبرى (4/ 352) رقم (7482).

وقال أبو الحارث: فتناك بك عما سوانا.

وأفاد الأستاذ: أنه أجرى عليه ما هو في صور كثيرة من قتل النفس بغير حق هنالك، ثم بيَّن أنه لم يضره ذلك فليست العبرة بفعل العبد وقلبه بل العبرة بعناية الحق لشأن أحد وعدوانه لآخر، ويقال: كم من أناس لا يموتون وقد ضربوا ألوفاً من السوط والخشبة ومقتول موسى مات بالوكزة، فما الذي أوجب من وفاته لو أنه أراد به فتنة موسى وشدة بليته. وروي في بعض الكتب: أن أقام سبحانه موسى كذا وكذا مقاماً يسمعه كلامه كل مرة بإسماع آخر نوعاً وجنساً وفي كل مرة يقول له: ﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ [الآية 40] أريناك عين الجمع حتى رآك عنك ما داخلك من الغم بصيغة مقتضى التفرقة فلما أريناك سر جريان التقدير نجيناك من الغم في التدبير وفتناك فتوناً وأخلصناك لنا حتى لا تكون لغيرنا. ويقال: جئنا عليك البلاء ونوعنا العناء حتى جردناك من كل اختيار وإرادة ثم حينئذ رقيناك إلى ما استوجبته من المقام الذي خلقناك له من النبوة والرسالة.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ﴾ [الآية 40] قضاء لأوفى الأجلين وهو عشر سنين ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ [الآية 40] بينه وبين مصر ثماني مراحل ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ [الآية 40] على مقدار معين من الزمان قدّرته لأن أكلمك وبالرسالة أكمِّلك غير مستقدم عن أوانه ولا مستأخر عن إبانه، أو على مقدار مبين من السن يوحى فيه غالباً إلى الأنبياء ويكمل عنده حال أكثر الأولياء وهو أربعون سنة / ﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ [الآية 40] في تكرير النداء إيماء إلى كمال الاعتناء. 207/ أ

وأفاد الأستاذ: أن الأجل إذا جاء للأشياء فلا تأخير فيه ولا تقديم. وأنشدوا في قريب من معناه:

بينما خاطر المنى بالتلاقي ... سانح في فؤاده وفؤادي
جَمَعَ الله بيننا فالتقينا ... هكذا بغتة بلا ميعاد[1]

---

(1) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 2)، (7/ 31).

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ۝٤١﴾ [الآية 41] اخترتك لكلام قدسي ومرام أنسي حتى لا تختار غيري.

وقال الأستاذ: استخلصتك لي حتى لا تصبح لأحد غيري ولا يتأتى منك شيء غير تبليغ رسالتي وما هو مرادي منك، أي من إشاعة حكايتي وروايتي. ويقال: أفردت سرّك لي وجعلت إقبالك عليَّ دون غيري وحلت بينك وبين كل أحد ممن هو دوني.

﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ﴾ [الآية 42] أصالة ﴿وَأَخُوكَ﴾ [الآية 42] تبعاً ﴿بِـَٔايَٰتِي﴾ [الآية 42] بمعجزاتي ﴿وَلَا تَنِيَا﴾ [الآية 42] لا تقصرا ﴿فِي ذِكۡرِي﴾ [الآية 42] في تبليغ أمري أو لا تفترا عن الاشتغال بذكري.

قال سهل: لا تكثرا الذكر باللسان وتغفلا عن مراقبة الجنان.

﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣﴾ [الآية 43] تجاوز عن حد العبودية بدعوى الربوبية.

قال ابن عطاء: اذهبا إلى فرعون بعبارة النذارة في الطريقة وهما مبعوثان إلى السحرة بإشارة البشارة في الحقيقة لأن الأعداء ليس لهم عنده من الخطر ما يرسل إليهم الأنبياء ولكن يبعث إليهم بعض أنبيائه ليخرج أولياءه من بين أعدائه.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا﴾ [الآية 44] بيِّنا له أمراً هيناً مثل هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى أو عداه شباباً لا يهرم بعده وملكاً لا يزول له ونظيره قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾ [النحل:الآية 125]، ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ﴾ [الآية 44] الأحوال السابقة ﴿أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [الآية 44] الأهوال اللاحقة والمعنى باشر أمر الدعوة على رجائكما أنه يثمر النتيجة ولا يخيب سعيكما في الأخيرة والفائدة في إرسالهما والمبالغة عليهما في اجتهادهما مع علمه سبحانه بأنه لا يؤمن إلزام الحجة وقطع المعذرة وإظهار القدرة.

قال النهرجوري: هذا رفقك بمن جحدك فكيف رفقك بمن عبدك. وقال

أيضاً: لأنه أحسن إليك في ابتداء أمرك فلم تكافئه فأحببت أن أكافيه / عنك. 207/ ب

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ [الآية 45] أي يعجل علينا بالعقوبة ولا يصبر إلى إتمام الدعوة وإظهار المعجزة ﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ [الآية 45] يزداد طغياناً في النعمة وكفراناً بالنعمة، وفي الآية إشارة إلى أن الخوف الذي يميل جبلّية الإنسان إليه لإيلام صاحبه عليه.

وأفاد الأستاذ: أنهما لم يخافا على أنفسهما شفقة عليهما ولكن قالا: إنا نخاف أن يحل بنا مكروه من جهته فلا يحصل منا ما تأمرنا به من القيام بأمر دعوته فكان ذلك الخوف لأجل الله لا لأجل حظوظ أنفسهما ولا لغرض سوى رضاه. ويقال: لم يخافا من فرعون على أنفسهما ولكن خافا من تسليط الله إياه عليهما وإنما راعيا حسن الآداب في فصل الخطاب.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ﴾ [الآية 46] من غيري أن يضرّكما ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ [الآية 46] بالحفظ والنصرة لكما ﴿أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [الآية 46] ما يجري بينه وبينكما فأحدث في كل حال ما يصرف شره عنكما.

وأفاد الأستاذ: أنهما تلطفا في استجلاب هذا القول من الحق سبحانه بقولهما: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ﴾ [الآية 45] وكان المقصود لهما أن يقول الحق ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ وإلا فأنى بالخوف من غير الحق لمن هو مخصوص بالنبوة والرسالة. ويقال: سكن الخوف منهما بقوله: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ [الآية 46] فقويا على الذهاب إليه من جهة دعوة الدين إذ من شرط التكليف التمكين ولذا قالا بعدما قال لهما لا نبالي الآن بغيرنا بعدما أنت معنا.

﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ [الآية 47] بالدعوة إلى التوحيد والنبوة كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النَّازعَات: الآيتان 18، 19]، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية 47] الذين هم من ذرية الأنبياء ومن جملة المؤمنين والأولياء ﴿وَلَا تُعَذِّبْهُمْ﴾ [الآية 47] بالتكاليف الصعبة في أيدي الأعداء.

وأفاد الأستاذ: أنه طال البلاء ببني إسرائيل من جهة فرعون اللعين فقد

أدركهم الحق سبحانه ولو بعد حين وهذه عادته بإجراء سنّته في بريته يرخي عنان الظالم اللئيم لكن إذا أخَذَهُ فَأَخْذه شديد أليم ﴿قَدْ جِئْنَكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الآية 47] بعلامة هي معجزة مصدقة لدعوى / الرسالة. وفيه إشارة إلى أن وحدة الحجة كفاية في وضوح المحجة. 208/ أ

وأفاد الأستاذ: أنه ما نفعتهم تلك الآية البينة وإنما تأكدت عليهم الحجة فإذا عمي بصر القلب فأنى تنفع بصيرة الحجة. وفي معناه قالوا:

وفي نظر الصادي إلى الماء حسرة   إذا كان ممنوعاً سبيل الموارد[1]

﴿وَالسَّلَـٰمُ﴾ [الآية 47] أي سلام الله أو سلامنا أو السلامة في الدنيا والعقبى ﴿عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [الآية 74] قال الواسطي: من سبقت له العناية اتبع الهداية في البداية والنهاية.

وأفاد الأستاذ: أنه إنما يتبع الهدى من كحّل عين قلبه بنور العرفان فأما مَن كان على قلبه غشاوة الجهل وقساوة النسيان فمتى يتبع الهدى الثابت بالبرهان.

﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ الْعَذَابَ﴾ [الآية 48] أي في الدنيا والعقبى ﴿عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [الآية 48] أعرض عن الهدى وأقبل على الردى.

وأفاد الأستاذ: أن قسوة القلب نوع عقوبة وكذا الفترة في الطاعة وكذا خسران نصيب الكمال في الأنفس والأموال والأحوال.

﴿قَالَ﴾ [الآية 49] أي بعدما أتياه وقالا ما أُمِرا به ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ [الآية 49] هذا من باب الاكتفاء أو لأنه الأصل في الخطاب فكذا في الموانع النداء مع ما فيه من مراعات رؤوس الآي.

﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾ [الآية 50] صورته وسيرته ومما خلق لأجله ويطابق حاله ويوافق كماله ﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [الآية 50] ثم عرفه كيف يرتفق بإعطائه وكيف يتوصل به إلى كمال بقائه اختياراً وطبعاً وهو عبارة في غاية البلاغة

(1) نسب إلى الأخطل. انظر محاضرات الأدباء (1/ 374).

مع اختصارها على إعرابها عن الموجودات بأسرها مفتقراً إليه ومنعم عليه في حد ذاته وصفاته وأفعاله وأن الغني القادر بالذات المنعم على الإطلاق هو الله لا سواه.

وأفاد الأستاذ: أنه إنما أجاب موسى عن هذا السؤال بالحوالة على فعله ليعلم أن الدليل على إثباته سبحانه ما عليه من أفعاله عزّ شأنه.

﴿قال فما بال القرون الأولى ۝﴾ [الآية 51] فما حال الأمم الماضية بعد الإماتة من السعادة والشقاوة.

﴿قال علمها عند ربي﴾ [الآية 52] لا عند غيره ﴿في كتاب﴾ [الآية 52] / مثبت 208/ب في اللوح المحفوظ أو في كتاب الحفظة ﴿لا يضل ربي﴾ [الآية 52] لا يخطئه ﴿ولا ينسى﴾ [الآية 52] فإنهما محالان على العالم بالذات.

وقال الأستاذ: أي إنما يمكنني أن أخبركم بما أخبرني به ربي فما عرفني عرفت وما ستره عليّ وقفت.

﴿الذي جعل لكم الأرض مهداً﴾ [الآية 53] بساطاً وفراشاً. وقرأ الكوفيون مهداً أي كالمهد مبسوطاً وممهداً.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه جعل الأرض مستقراً لأبدانهم وجعل أبدانهم مستقرة لعبادته وقلوبهم مستقرة لمعرفته وأرواحهم مستقرة لمحبته وأسرارهم مستقرة لمشاهدته ﴿وسلك لكم فيها سبلاً﴾ [الآية 53] بين الجبال والأودية والفلوات والبرية تسلكونها من أرض إلى أرض لتبلغوا منافعها وتضلوا منابعها هذا وعند أرباب الحقائق الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق ﴿وأنزل من السماء ماء﴾ [الآية 53] مطراً لإحياء نباتكم وقد يكون في الماء من الإيماء إلى نزول ما به العلم والمعرفة من عالم السماء في أودية قلوب العلماء ﴿فأخرجنا﴾ [الآية 53] التفات ﴿به﴾ [الآية 53] أي بسبب الماء النازل من السماء ﴿أزواجاً﴾ [الآية 53] أصنافاً ﴿من نبات شتى﴾ [الآية 53] متفرقة في الصورة والسيرة ومختلفة بحسب المنفعة المعدّة لأنواع البرية كما يشير إليه قوله: ﴿كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى ۝﴾ [الآية 54] لذوي العقول الناهية عن ارتكاب القبائح واتباع الفضائح.

﴿مِنۡهَا﴾ [الآية 55] من الأرض ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ [الآية 55] فإن التراب أصل خلقة أول آبائكم وأول قطرة مواد أبدانكم وأعضائكم ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ [الآية 55] أي بإماتتكم وتقليب أجزائكم ﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾ [الآية 55] بتأليف أجزائكم المتعفنة المختلطة بالتراب على الصورة السابقة ورد الأرواح إليها في الدار اللاحقة، والإخراجة الأولى هي الخلق منها وإدخال الأرواح عليها. وكأنه أشير إلى هذا الباب في قول بعض أولي الألباب: ما للتراب ورب الأرباب.

وأفاد الأستاذ: أن الأجساد قوالب والأرواح ودائع، فالقوالب نسبتها التربة والودائع صفتها القربة والقوالب يربيها بأفضاله والودائع بكشف جلاله ولطف جماله، وللقوالب / اليوم اعتكاف على بساط عبادته وللودائع اتصاف بدوام معرفته. 209/ أ

﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ﴾ [الآية 56] فرعون ﴿ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا﴾ [الآية 56] أنواعها وأصنافها من الآفاقية والأنفسية والآيات التسع المعلومة في القضية ﴿فَكَذَّبَ﴾ [الآية 56] بجنس الآية ﴿وَأَبَىٰ﴾ [الآية 56] عن قبول الإيمان والطاعة.

وأفاد الأستاذ: بجحده، وأعماه عن شهود ذلك بسره فمن نجح فيه من كلامه وما انتفع بما حذّره من انتقامه وبشّره به من إنعامه.

﴿قَالَ أَجِئۡتَنَا لِتُخۡرِجَنَا مِنۡ أَرۡضِنَا﴾ [الآية 57] وطننا ﴿بِسِحۡرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [الآية 57] هذا تعلُّل وتحيُّر ودليل على أنه علم كونه محقاً في أمره حتى خاف منه على ملكه فإن ساحراً لا يقدر أن يُخرج ملكاً مثله من محله.

﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ﴾ [الآية 58] للمعارضة ﴿بِسِحۡرٍ مِّثۡلِهِۦ﴾ [الآية 58].

وقال الأستاذ: دعاهم موسى إلى الله تعالى وخاطبهم من حديث العقبى بتبشير ثواب وتخويف عقاب فلم يجيبوه إلا من حديث الدنيا دلالة وضلالة وما زادهم تذكيراً وموعظة إلا ازدادوا غفلة وجهالة، كذلك غفلة من وسمه الحق بإبعاده عن باب مراده ولم يكن له عرفان ولا بما يقال له إيمان ولا يتأسف على ما يفوته من معضلة إذ لا تصديق له بحقيقة ما هو بصدده ﴿فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدًا﴾ [الآية 58] وعداً ﴿لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا﴾ [الآية 58] بدل

من موعداً على تقدير مكان إيجاز وعد ﴿سُوًى﴾ [الآية 58] منتصفاً يستوي مسافته إليك وإلينا وهو إظهار غاية الاتصاف ونهاية الانتصاف. وقرأ ابن عامر وعاصم وحمزة بالضم وكلهم نونه إلا الحسن البصري.

وأفاد الأستاذ: أنهم تأهبوا لمناصبة الحقيقة وتشمروا في مخالفة الطريقة فقصتهم المشيئة وكبستهم القدرة، وكما قال بعضهم:

إِسْتَقْبَلَنِي وسيفه مسلول وقال لي واحدنا معذول[1]

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [الآية 59] أي مكان إنجاز وعدكم مكان اجتماع يوم زينتكم، وهو يوم عيد لهم في قريتهم أو ملتهم وإنما عيّنه سبحانه ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد ويشيع ذلك في أقطار البلاد ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [الآية 59] أي وقت ظهور العباد فصار/ يوم عيدهم وقت وعيدهم. 209/ ب

وأفاد الأستاذ: أنهم تواعدوا أن يجتمعوا إلى يوم كان يوم عيد لهم وقصدهم أن يقلبوا موسى بمشهد من الناس في أمرهم، وأرادوا أن يصبح للناس في امتداحهم، فكان في ذلك افتضاحهم.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾ [الآية 60] أي أدبر على نيّته وأعرض عن ربه وأقبل على مكره ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾ [الآية 60] أي ما يكاديه من السحرة وآلاتهم من جبلاتهم وعصيانهم بحسب تخيلاتهم وتمثيلاتهم ﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ [الآية 60] بالمكان بالسواء والموعد المنوي وقد حسر الناس ضحى وتقدم السحرة في مقام المعارضة.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ﴾ [الآية 61] أي من المولى ﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الآية 61] بأن تدعوا آياته سحراً وصاحب معجزاته ساحراً ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾ [الآية 61] يستأصلكم ﴿بِعَذَابٍ﴾ [الآية 61] ويهلككم بحجاب. وقرأ حمزة والكسائي وحفص بالضم من الإسحاق وهو بعض اللغات ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [الآية 61] أي خسر من كذّب على رب الأرباب كما خاب فرعون في هذا الباب.

وأفاد الأستاذ: أنه كاد فرعون فكيد وأراد فأُريد وادعى الاستعلاء فأذل

(1) ذكره القشيري في تفسيره (1/ 241).

وأذيق البأساء ولم يغادر فرعون شيئاً من البله والحمق ولم يدع موسى شيئاً من الوعظ والرفق فقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الآية 61] واعلموا أنه لا طاقة لأحد مع الله إذا عذّب أبداً.

﴿فَتَنَازَعُوا﴾ [الآية 62] أي فرعون وقومه لِتَحَيرهم ﴿أَمْرَهُم﴾ [الآية 62] أي في أمرهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ [الآية 62] فيما بينهم ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [الآية 62] أي أخفوا تناجيهم عن غيرهم.

﴿قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ﴾ [الآية 63] اسم أن على لغة من جعل الألف للتنبيه في الأحوال الثلاثة، أو اسمها ضمير الشأن وخبرها هذان الساحران واللام زائدة ولهما في مقام التأكيد فائدة. وقرأ أبو عمرو: إن هذين وهو ظاهر. وابن كثير وحفص: إن هذان، على أنها هي المحققة واللام هي الفارقة أو النافية واللام بمعنى إلا الاستثنائية ﴿يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ﴾ [الآية 63] بالاستيلاء عليها ﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ [الآية 63] من جهة ميلهما إليها ﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ [الآية 63] بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب وأكمل المراتب فيبطلاه بإظهار مذهبهما وإعلاء دينهما لقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر:الآية 26].

210/أ وأفاد الأستاذ: أنهم / قالوا إن هذان لساحران في دعوتهما كاذبان وقصدهما إخراجكم عن بلدكم والتشويش عليكم في معتقدكم.

﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ﴾ [الآية 64] من الإجماع أي فاعزموا إليه واجعلوه مجمعاً عليه لا يتخلف واحد منكم لديه. وقرأ أبو عمرو: فأجمعوا بهمز الوصل وفتح الميم ﴿ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا﴾ [الآية 64] مصطفين لأنه أهيب في صدور الرائين. قيل: كانوا سبعين ألفاً مع كل واحد منهم حبل وعصا فأقبلوا عليه إقبالة واحدة ﴿وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى﴾ [الآية 64] فاز بالمطلب من استولى وغلب.

﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65)﴾ [الآية 65] أي اختر إلقاءك أولاً أو إلقاءنا، أو الأمر إلقاؤنا أو إلقاؤك ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [الآية 66] مقابلة أدب بأدبهم وعدم مبالاة بسحرهم وإنجاح إلى ما أوهموه من ميلهم إلى البدء بذكر الأول في شقهم فليس ذلك إذناً لهم في عمل سحرهم ولن يبرزوا ما معهم

ويظهروا ما في وسعهم فيقذف الله سبحانه بالحق على الباطل فيدمغه ويذهب شأنه ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ﴾ [الآية 66] أي فألقوا فإذا حبالهم فهي للمفاجأة ﴿وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [الآية 66] وذلك بأنهم لطخوها بالزئبق فلما ضربت عليها الشمس اضطربت فخُيِّل إليهم أنها تحركت. وقرأ ابن ذكوان على إسناده إلى ضمير الحبال والعصي وإبدال أنها تسعى منه بدل الاشتمال.

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾﴾ [الآية 67] فأضمر فيها خوفاً من مفاجأته في القضية على ما هو مقتضى الحيلة البشرية ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ [الآية 68] من الأمور الوهمية والأحوال الخيالية ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الآية 68] من المراتب الجلية والمناقب العلية لأنك في الطريقة الحقيقية والجادة السوية.

قال ابن عطاء: قلنا لا تخف من غيرنا فإنك بمرأى منا وإنك القائم بالمسبب وهم المعتمدون على الأسباب، أي فأنت على الباب وهم المبعودون بالحجاب وهم على التوهم وأنت في صوب الصواب.

﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ [الآية 69] فإنها شاهدة صدق يقينك في حق دينك ولا تبال بما في أيديهم من حبالهم وعصيهم ﴿تَلْقَفْ﴾ [الآية 69] أي تبتلع عصاك ﴿مَا صَنَعُوٓا۟﴾ [الآية 69] في إبطال / هداك وأصله تتلقف وحذف إحدى التائين. وقرأ حفص بالتخفيف من لقف بمعنى تلقف. وقرأ ابن ذكوان بالتشديد، والرفع على أن الجملة مستأنفة استئنافاً بيانياً أو حال مقدرة من فاعل (ألقِ) ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟﴾ [الآية 69] أي صوّروا وزوّروا ﴿كَيْدُ سَٰحِرٍ﴾ [الآية 69] مكر ماكر ماهر. وقرأ حمزة والكسائي سحر بمعنى ذي سحر وإنما وجد الساحر لأن المراد به جنس المطلق، ولذا قال: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ﴾ [الآية 69] أي هذا الجنس المحقق ﴿حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [الآية 69] حيث كان وأين أقبل أو حيث فعل أو لم يفعل.

210/ ب

﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [الآية 70] أي فألقى عصاه فتلقفت ما عداه فتحقق عند السحرة أنه ليس بسحر ومكيدة وإنما هواية ومعجزة أكيدة فألقاهم ذلك على وجوههم سُجّداً لله توبة عما صنعوا لغير رضاه. وقد روى عكرمة أنهم رأوا في سجودهم الجنة وما لهم من منازل القربة ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾ [الآية 70]

آخر لرؤوس الآية.

﴿قَالَ﴾ [الآية 71] أي فرعون ﴿ءَامَنتُمْ﴾ [الآية 71] وقرأ حفص وقنبل آمنتم ﴿لَهُۥ﴾ [الآية 71] أي أسلمتم لموسى أو آمنتم بالله لأجل موسى ﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ [الآية 71] في إيمان له ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ [الآية 71] في فنكم ﴿الَّذِى عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ [الآية 71] وقد تواطأتم على هذا الأمر ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ [الآية 71] أي اليد اليمنى والرجل اليسرى منهما ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ النَّخْلِ﴾ [الآية 71] أي عليها ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ﴾ [الآية 71] يريد نفسه وموسى أو رب موسى بناء على قول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ [النَّازعَات:الآية 24]، ﴿أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [الآية 71] أدوم عقاباً.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾ [الآية 72] لن نختار أمرك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَٰتِ﴾ [الآية 72] الدلالات الواضحات ﴿وَالَّذِى فَطَرَنَا﴾ [الآية 72] أي ونحلف على ذلك بالله الذي خلقنا ﴿فَاقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [الآية 72] له أي حاكم به أو قاضيه أي صانعه وفاعله.

قال ذو النون: من آثر الله على الأشياء مما سواه هان عليه ما يلقى في ذات الله.

وأفاد الأستاذ: أنهم لما خيلوا للناس بإلقاء الحبال والعصي أنها حيات وأوهموا أنها ذوات حياة وابتلع عصا موسى جملتها حين حملتها تحقق للسحرة أن هذا أمر سماوي وحكم إلٰهي حيث تلاشى غير ما كان معهم من أوتار الحبال والعصي وصار الثعبان عصا كما هي فسجدوا لله مؤمنين / تائبين 211/أ وانقلب فرعون وقومه خائبين وتوعدهم بالقتل والصلب وفنون من العذاب الصعب فبعدما كانوا يقسمون بعزة فرعون كانوا يحلفون بالله فيقولون: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ الْبَيِّنَٰتِ﴾ [الآية 72]. ولما طلع في أسرارهم شموس المعرفة وانبسط عليهم أنوار العناية أبصروا الحق سبحانه بأسرارهم وانكشف الأمر بأنوارهم فنطقوا ببيان التصديق وتكلموا ببرهان التحقيق وسجدوا بقلوبهم لمشهودهم وسقطوا على وجوههم لمعبودهم ولم يحتشموا مما توعدهم به من

العقوبة لما تحقق لهم سواطع المعرفة ولوامع القربة ورأوا كل ذلك من الله في الحقيقة فاستعذبوا البلاء وتحملوا الأذى وكانوا بالغداة كفاراً سحرة فأمسوا أخياراً بررة ﴿إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [الآية 72] إنما تصنع ما تهواه أو تحكم بما تراه في هذه الدنيا والآخرة خير وأبقى لأهل التقوى علموا أن البلاء في الدنيا سيقضى وإن تمادى وينتهي وإن تقاضى.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا﴾ [الآية 73] من الكفر والمعصية ﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾ [الآية 73] في معارضة المعجزة ﴿وَٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ [الآية 73] ثواباً ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ [الآية 73] عذاباً.

وأفاد الأستاذ: إن أهم الأشياء على أهل معرفته مغفرة الخطيئة، هذا آدم عليه السلام لما استكشف عن حاله وحلّ به ما حل من حسن مآله قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:الآية 23]. وهذا نوح عليه السلام بعد مقاساته طول البلاء قال في حال النداء: ﴿وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود:الآية 47]. وهذا موسى عليه السلام قال: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص:الآية 16] فغفر له وقال لنبينا ﷺ: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر:الآية 55] ومنَّ عليه بقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:الآية 2]. وقد قال ﷺ: «وإنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم سبعين مرة»(1) انتهى.

وحاصله أن مقام التوبة مرتبة عظيمة ومنقبة جسيمة ولا يستغني عنها طالبون كاملون فضلاً عن قوم هم عاصون غافلون، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:الآية 31].

211/ب ﴿إِنَّهُۥ﴾ [الآية 74] أي الأمر والشأن ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا﴾ [الآية 74] بأن يموت على كفره وكفرانه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ﴾ [الآية 74] لعدم توبته عن عصيانه ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ [الآية 74] فيستريح بالفناء ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [الآية 74] منها بالبقاء.

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 691) رقم (1882)، والطبراني في المعجم الكبير (1/ 302) رقم (887)، والنسائي في السنن الكبرى (6/ 116) رقم (10277).

﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الآية 75] في الدنيا ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [الآية 75] المنازل العلية في العقبى.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ [الآية 76] بدل مما قبله، أي جنات إقامة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الآية 76] أبداً لا يبغون عنها حولاً ﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [الآية 76] تطهر من أدناس الكفر وأجناس المعاصي. والآيات الثلاث يحتمل أن تكون من تتمة كلام السحرة وأن يكون ابتداء كلام من الله موعظة لهذه الآية.

﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [الآية 77] أي من مصر إلى الأرض المقدسة من بلادي ﴿فَٱضْرِبْ﴾ [الآية 77] أي اجعل واتخذ ﴿لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ [الآية 77] يابساً ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ [الآية 77] جملة حالية أي أمناً من أن يدركك العدو. وقرأ حمزة: لا تخف على أنه جواب الأمر ونهي بحذف العاطف واستئناف على قراءة حمزة، أنت ﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [الآية 77] أي عطف وألفه للإطلاق أو على لغة من يثبت حرف العلة مطلقاً.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ﴾ [الآية 78] الباء للمصاحبة أي فأتبعهم معهم ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [الآية 78] الضمير له ولهم وفيه مبالغة من حيث الإبهام ووجازة من جهة بنية الكلام، أي غشيهم ما سمعت من قصته ولا يعرف إلا الله كنه حقيقته.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾ [الآية 79] على طريق الردى ﴿وَمَا هَدَىٰ﴾ [الآية 79] ما دلهم على سبيل الهدى.

وأفاد الأستاذ: أنه لما عبر موسى ببني إسرائيل البحر وقرب منه فرعون ورآه منفلقاً والطريق فيه يابساً غرقوه بتلبيسه ووسوسة إبليسه فقال هذا لحشمتي تعلق، فقال: أنا ربكم الأعلى، فلما حصل دخوله بعسكره البحر حتى دخل آخرهم وهمّ أن يخرج أولهم أمر الله البحر حتى انتظم أمواجه فأغرقهم بجملتهم وأمر فرعون لما ظهر اليأس من عمره وبقاء أمره فلم ينفعه إقراره وتداركته الشقاوة التي سبقت له من القضاء والقدر بحكم الكتابة.

﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية 80] خطاب لهم بعد إنجائهم وإهلاك أعدائهم أو

لإنبائهم بما فعل بآبائهم ﴿قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ﴾ [الآية 80] فرعون / وقومه 212/ أ ﴿وَوَاعَدْنَاكُمْ﴾ [الآية 80] أي نبيكم ﴿جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ﴾ [الآية 80] لنجاة موسى وإنزال كلام المولى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ﴾ [الآية 80] أي في التيه عند حلول البلوى.

﴿كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [الآية 81] حلالاته أو متشبهاته، وقرأ حمزة والكسائي: أنجيتكم وواعدتكم ورزقتكم بالتاء، وأبو عمرو ووعدناكم ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [الآية 81] فيما رزقناكم بالإخلال بشكره وبالتجاوز عن حكمه كالسرق والبطر والادخار والمنع عن أرباب الاضطرار ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [الآية 81] فيلزمكم عذابي ويجب لكم حجابي ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾ [الآية 81] هلك وتردى. وقرأ الكسائي يحل ويحلل بالضم من حل إذا ترك.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يذكرهم آلاءه ويعد عليهم نعماءه ويأمرهم بالتزام الطاعة والقيام بالشكر لما أسبغ عليهم من فنون النعمة ثم ذكرهم ما منَّ به على سلفهم من إنزال المن والسلوى وصرف المحن وصنوف البلوى ثم الطيب من الرزق ومراقبة الخالق وهو ما يأخذه العبد من الله فما لأهل الجنة مؤجل في عقباهم جهراً معجل لأصفيائه في الدنيا سراً. قال تعالى: ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الذاريات:الآية 16] أي قانعين وراضين. ويقال: السرى من يد الحبيب أرى والأرى من يد الأجنبي شرى، والأرزاق مختلفة بجماعة مؤتلفة فلقوم حظوظ النفس ولآخرين حقوق القلب ولأقوام شهود الأسرار ولآخرين وجود الأنوار فرزق النفوس التوفيق ورزق القلوب التصديق ورزق الأرواح التحقيق. وقوله: ﴿وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾ [الآية 81] بمجاوزة الحلال إلى الحرام أو بالزيادة على الكفاف والكفاية في المرام وما لا بد منه مما زاد على سد الرمق في هذا المقام، أو بالأكل على الغفلة ونسيان النعمة. وقوله: ﴿فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾ [الآية 81] بالخذلان التابعة المذلة بعد الزلة أو بفقدكم التأسف على ما فاتكم أو بالرضا بما هم فيه من نقصان الحال وتشتت البال.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ [الآية 82] عن الشرك أو عن المعصية أو عن الغفلة

212/ب أو عن الزلة ﴿وَءَامَنَ﴾ [الآية 82] بما يجب الإيمان وثبت في مقام الإيقان / ومرتبة الإحسان ومنزلة العرفان ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الآية 82] مما في وسع الإنسان ﴿ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [الآية 82] استقام على الهدى أو اهتدى إلى مشاهدة المولى.

وأفاد الأستاذ: أن مَن سمع قوله وأني ما يقول في عمره وإني أنا الغفار ومنه ألف خطوة ومنك الفعل مرة ومنه الفضل ألف كرة ومنك ندم ومنه ألف كرم ومنك يسير خدمة ومنه كثير نعمة ومنك قليل طاعة ومنه جليل رحمة ويقال: كثير المغفرة لمن تاب مرة فيغفر له أنواعاً من ذنوبه التي لم يتب منها سرها وجهرها كبيرها وصغيرها وما يذكره وما لا يذكره منها. ويقال: مَن شغله سماع قوله: وإني، استهلك في استيلاء ما غلب عليه من ضياء القربة فإذا جاءت المغفرة صادفته وهو بعين المحو في حال السكرة فيتعلق بذنوب أصحابه وأحبابه وإخوانه وكل مَن يعتني هو بشأنه كما قالوا:

إني على جفواتها بَرٌّ بها ... وبكل متصل بها متوسل
وأحبها وأحب منزلها الذي ... نزلت به وأحب أهل المنزل[1]

ويقال لمن آمن في المآل كما هو مؤمن في الحال وعمل صالحاً لاحظ عمله بعين الاستغفار وحالته بعين الاستقدار. ويقال: آمن بأن جميع الحوادث من الله ومن عمل صالحاً ألمّ بالحق بحسب الإرادة تجلى بالفريضة عن العبادة واهتدى للسنَّة والجماعة. ويقال: ثم للتراخي أي آمن في الحال ثم اهتدى في المآل، ويقال: بنا إلينا.

﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾﴾ [الآية 83] سؤل عن سبب العجلة بتضمن إنكارها من حيث إنها تقتضيه في نفسها وانضم إغفال القوم إليها وإيهام التعظيم عليهم فيها فأجاب موسى عنها وقدم جواب الإنكار لأنه أهم منها ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى﴾ [الآية 84] ما تقدمتهم إلا بخطى يسيرة وليس بيني وبينهم مسافة كثيرة ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [الآية 84] شرفاً إلى الوفاء بوعدك وذوقاً

---

(1) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 25).

إلى القيام بعهدك ومسارعة إلى امتثال أمرك واحتمال طاعتك ابتغاء لمرضاتك.

وأفاد الأستاذ: أنه أخرجهم مع نفسه فيما/ استصحبهم ثم تقدمهم 213/أ بخطوات وأخّرهم فقيل له في ذلك لمعاتبتهم مراعاة لحق صحبتهم. ويقال: قوم يعاتبون لتقدمهم وآخرون لتأخرهم فشتان ما بينهم، فقال: ما خلفتهم لتضييعي إياهم ولكن عجلت إليك رب لترضى عني وعنهم، فقال: يا موسى رضاي في أن تكون معهم ولا تسبقهم فكونك مع الضعفاء الذين استصحبتهم في معنى حصول رضاي عنك وعنهم أبلغ من تقدمك عليهم.

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ﴾ [الآية 85] ابتليناهم وهم الذين خلفتهم مع هارون في محلهم ﴿مِنۢ بَعْدِكَ﴾ [الآية 85] بعد خروجك من بينهم وكانوا ستمائة ألف وما نجا منهم من عبادة العجل إلا اثني عشر ألفاً منهم ﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [الآية 85] باتخاذ العجل وتهيئة صورته والدعاء إلى عبادته.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه عرّفه حقائق توحيده ودقائق تفريده في أن الحدثان كله حاصل بقدرته وواصل بمشيئته حيث أضاف إلى نفسه فتنة قومه وفتنتهم ضلالتهم وعبادتهم العجل وجهالتهم، فأخبر الحق سبحانه بأنه منه تقديراً يعني ومنهم كسباً وتقريراً وفي هذا تكذيب من جحد القول بالقدر فتأمل وتدبر. ويقال: طلب موسى رضى ربه وقدر الحق فتنة قومه ثم إن الحكم لله ولم يكن بد لموسى من الرضا بقضاء الله وترك الاعتراض على الله والعلم بحسن ما منَّ الله به من حيث له أن يفعل ما يشاء فيما سواه، وأنشدوا:

أُريد وِصاله ويُريد هجري فأتركُ ما أُريد لِمَا يُريد[1]

وكان من السامري نوع من التعزير ولكن حصل ما حصل وظهر ما ظهر من التغيير بحسب التقدير ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الآية 86] بعدما استوفى الأربعين، وأخذ التوراة بالوجه المبين ﴿غَضْبَٰنَ﴾ [الآية 86] عليهم لله وطلباً لرضاه ﴿أَسِفًا﴾ [الآية 86] متأسفاً على فرط منهم ومتحزناً على ما يلحقهم.

(1) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 28)، والدميري في حياة الحيوان (2/ 56) من دون نسبة.

وفي «**تفسير السلمي**»: قيل غضبان على نفسه في ترك قومه حتى ضلوا من بعده وأسفاً على ما فاته من مناجات ربه.

وأفاد الأستاذ: أنه رجع عن ميقاته إلى قومه بوصف القبض لما صدر منهم من الزلة الموجبة للمذلة ورجع نبينا ﷺ عن معراجه / بنعت البسط لما أكرمه وقومه من الأمر بالصلاة وما يترتب عليها من الصلة والقربة ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ [الآية 86] بأن يعطيكم التوراة نوراً وهدى وإحساناً ﴿أَفَطَالَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡعَهۡدُ﴾ [الآية 86] في مفارقتي لكم وأوان غيبتي عنكم ﴿أَمۡ أَرَدتُّمۡ أَن يَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ﴾ [الآية 86] يجب عليكم ﴿غَضَبٞ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الآية 86] بعبادة ما هو مثل للغاية في الغباوة ﴿فَأَخۡلَفۡتُم مَّوۡعِدِي﴾ [الآية 86] وعدكم إياي بالثبات على الإيمان والقيام بأركان الإسلام وشرائط الإحسان. 213/ ب

وأفاد الأستاذ: أنهم ظنوا بنبيهم ظن السوء في خلف الوعد فلحقهم شؤم ذلك حتى زاغوا عن العهد وأشركوا في العقد وكذا يكون إذا انتشر على حد العقد لم يبق خرزة لم تنخرط من سلك العقد.

﴿قَالُواْ مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ [الآية 87] بأن ملكنا أمرنا إذ لو خلينا وحالنا ولم يسول لنا السامري ما أخلفنا. وقرأ نافع وعاصم بفتح الميم، وحمزة والكسائي بالضم وثلاثتها في الأصل لغات في مصدر ملكت الشيء ثم صار بالضم اسم للسلطة وبالكسر لما يملك ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ﴾ [الآية 87] وقرأ الحرميان والشامي وحفص بصيغة المجهول مشدداً ﴿أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ [الآية 87] أثقالاً من حلي القبط التي استعرنا منهم باسم العرس أو العيد حين هممنا بالخروج من بينهم ولم يردوا لهم مخافة أن يعلموا بخروجهم ولعلهم سموا أوزاراً لأنها آثام فإن الغنائم لم تكن تحل بعد أو لأنهم كانوا مستأمنين وليس للمستأمن أن يأخذ مال الحربي ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا﴾ [الآية 87] أي في الغار ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [الآية 87] أي ما كان معه منها مع تراب ألحقه بها. روي أنهم لما حسبوا أن العدة قد كملت قال لهم السامري: إنما أخلف موسى ميعادكم لما معكم من حلي القوم وهو محرم عليكم فالرأي أن نحفر حفيرة ونسجر فيها ناراً ونقذف كل ما معنا فيها، ففعلوا.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ [الآية 88] من تلك الحلي المذابة ﴿لَّهُ خُوَارٌ﴾ [الآية 88] صوت العجل ﴿فَقَالُواْ﴾ [الآية 88] السامري ومن افتتن به ﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ [الآية 88] أي فنسيه موسى وذهب يطلبه عند طور سيناء.

وأفاد الأستاذ: أنهم قالوا لم نكن في ابتداء حالنا قاصدين إلى ما حصل منا ولا عالمين بما آل إليه عاقبة حالنا وكذا الحرام / من حطام الدنيا 214/أ لا يخلو من شوبه من أثره على العقبى ولقد كانت الغنيمة وأموال المشركين حراماً فآل إليهم ما كان لديهم فكذا من انهمك في طلب الدنيا من غير وجهه يكون على خطر من رقة دينه. قال الله: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان:الآية 43]. ويقال: إنهم لما أمروا على قوم يعبدون أصناماً لهم حيث قالوا لموسى: اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة، كان ذلك الصنم على صورة العجل فكان ميلهم إلى عبادته مستكناً في قلوبهم من جهة محبته في طاعته فصاغ السامري العجل على تلك الصورة وفي هذا إشارة إلى أن دقائق الهوى إذا استكنّت في النفس وتمكنت في القلب فما لم ينقش ذلك النقش بمنقاش المنازلة يخشى أن يلقى صاحبه يوماً معقبة المزاولة. ويقال: إن موسى عليه السلام غاب أربعين يوماً عن قومه فرضوا بعبادة العجل بعد ذهابه عند ربه ونبينا ﷺ خرج من بين أمته إلى سنين كثيرة مضت على أهل ملته فلو ذكر وجه من جماعته عند المخلصين في حق الله ووحدته حديث التشبيه لأحلوا به من النكير ما لا يكون له منه محيص إلا بالتنزيه وذلك أنهم استخفوا بكتابهم فبدلوه تبديلاً وضمن الحق سبحانه إعزاز هذا الدين بقوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر:الآية 9]، وقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ [التوبة:الآية 33] فما حولوا عنه تحويلاً.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ [الآية 89] أي أفلا يعلمون ﴿أَلَّا﴾ [الآية 89] أن الشأن لا ﴿يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ [الآية 89] لا يرد العجل إليهم كلاماً لا خطاباً ولا جواباً ﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [الآية 89] أي لا يقدر على ضرهم ونفعهم أصلاً.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه بيّن أنَّ مَن لا قول له يتكلم به ولا يملك الضر والنفع لعابده يستحق العبادة من أصله وفيه رد على من لم يثبت القول

له في الأزل ولم يصفه بالقدرة على الخير والشر من العمل.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾ [الآية 90] أي قبل رجوع موسى إليهم ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ [الآية 90] أي بالعجل وحبه ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الآية 90] أي بكم وبي ﴿فَٱتَّبِعُونِى﴾ [الآية 90] في التوحيد ﴿وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ [الآية 90] بالثبات على التفريد.

214/ ب وأفاد الأستاذ: أن / الإشارة في هذه العبارة إلى أن من لم يحفظ أمر من هو أعلى مرتبة كيف يراعي أمر من هو أدنى منزلة فمن ترك أمر الحق كيف يطمع فيه أن يحترم الشيوخ والأكابر من الخلق ولذا قيل: لا حرمة للفاسق أنه إذا ترك حق الخالق متى يحفظ حق الخلق.

﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ﴾ [الآية 91] لن نزال على حب العجل وعبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾ [الآية 91] مقيمين على طاعته ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [الآية 91] ويبين لنا طريق الهدى عن طريق الردى.

وأفاد الأستاذ: أن ذلك كان تعللاً منهم بالباطل لأنهم ما كانوا عازمين على ترك عبادة العجل لا في العاجل ولا في الآجل إذ قد تحققوا أن موسى عليه السلام دعاهم إلى التوحيد وترك عبادة غير الله على وجه التأبيد ولكن كل مبطل مستند إلى ما ينجح إليهم من الباطل ولو لم يكن من الأمر الطائل.

﴿قَالَ﴾ [الآية 92] أي موسى بعدما رجع رأى ما رأى على وفق ما سمع من المولى ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ [الآية 92] بعبادة العجل ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ [الآية 93] أي ما حملك على أن لا تتبعني في الغضب لله والمقاتلة مع من عبد سواه ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ [الآية 93] بالصلابة في الدين والمحاماة عن الحق اليقين ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ [الآية 94] حض الأمر استعظاماً له واستلطافاً ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ﴾ [الآية 94] أي بشعر رأسي فإنه قبضهما ومن شدة غيظه وفرط غضبه لله جرهما ﴿إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الآية 94] لو قلت فارقت بعضهم ببعض ﴿وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [الآية 94] حين قلت اخلفني في قومي وأصلح فيما بدا من خلافي، فإن الإصلاح كان في حفظ الجماعة والمداراة بهم إلى أن

ترجع إليهم فتدارك الأمر بما يقتضي رأيك عليهم هذا ولا يخفى أن رأي موسى أعلى فإن تليين هارون في تمكين قومه أولاً ومهلتهم مع قلتهم جراً إلى كثرتهم الموجبة لعدم مقاومتهم ولذا ورد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرضاً على العلماء عند قدرتهم ولو بأيديهم حالة قوتهم.

وأفاد الأستاذ: أنه لما ظهر بموسى عليه السلام ما ظهر من ضيق القلب عند مشاهدة عبادة غير الرب أخذ هارون يقابله بالرفق والتلطف وحسن المداراة على وفق الأدب، وكذا الواجب/ في مجاوزة من ظهر منه الحدة لئلا 215/أ يرتقي الأمر إلى الوحشة والشدة. ويقال: لما ضاق قلب موسى عليه السلام لما شاهد من قومه بالمعاينة عبادة العجل الذي هو من جملة الأصنام ولقد كان سمع من الله أن السامري أضلهم وقال: ﴿فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [الآية 85] ولكن قيل: ليس المخبر كالمعاين، انتهى. ولا يخفى أن إخبار الله تعالى أقوى من معاينة موسى وإنما وقعت مطابقة رؤيته على وفق سماع قضيته ولذا قال بعض أرباب الحال: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً في أمر المآل. وأما الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة»[1] على ما رواه الطبراني في الأوسط عن أنس والخطيب عن أبي هريرة فمحمول على خبر الخلق على أنه قد يقال إن علم اليقين ليس كعين اليقين لتقوي العلم القلبي بالعلم العيني فكأنه علمان وهما خير من علم واحد في عالم البيان ومقام العيان، ولعل هذا مجمل كلام الأستاذ فيما أفاد ويؤيده ما رواه أحمد في مسنده والطبراني في أوسطه والحاكم في مستدركه عن ابن عباس بلفظ: «ليس الخبر كالمعاينة إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فأنكرت هذا[2] ولا يبعد أن يقال إنه وقت سماع الخبر كان في مقام الجمع من حال السكر والمحو والسكوت تحت الأمر بحضرة الرب في نعت التمكين وفي زمان معاينة الأثر كان في مقام التفرقة من حال الشعور والصحو والحركة والتصرف بالحكم على

---

(1) سبق تخريجه.

(2) تفسير ابن كثير (3/ 477)، وتفسير القرطبي (7/ 288)، وتفسير الرازي (7/ 255)، وجمع الجوامع (18/ 246) رقم (19324).

وصف التلوين والله أعلم بحقائق الدين ودقائق اليقين.

﴿قَالَ﴾ [الآية 95] أي موسى ملتفتاً إلى السامري منكراً عليه مما ظهر لديه ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ [الآية 95] ما شأنك وما برهانك ﴿يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ [الآية 95] على ما ضللت وأضللت.

وأفاد الأستاذ: أن موسى عليه السلام سأل كل أحد بنوع آخر من الكلام في مقام التغيير ومعاتبة مع قومه ومطالبته لأخيه وتغيره في نفسه لم يغير التقدير ولم يؤخر المحكوم عليه من عالم التدبير.

215/ ب ﴿قَالَ﴾ [الآية 96] أي السامري ﴿بَصُرْتُ/ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ [الآية 96] وقرأ حمزة والكسائي بالخطاب أي علمت بما لم يعلموا وفطنت لما لم يفطنوا به أو رأيت ما لم تروا وهو أن جبريل جاء على فرس الحياة حين ذهابك إلى الطور لمناجاة الله وهو روحاني محض لا يمس أثره شيئاً إلا أحياه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ [الآية 96] أي من تربة موطىء حافر فرسه على وجه القبول وفي حين الوصول ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ [الآية 96] أي تلك القبضة من التراب في الحلي المذاب ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [الآية 96] زينته وحسنته إلى من في هذا الباب.

وأفاد الأستاذ: أن يخصصه من بينهم حتى عرف جبريل بعلامته وقبض التراب من موضع حافر دابته وما ألقي في روعه من أن ذلك سبب حياة العجل وموجب العبادة كل ذلك أشياء ناقضة للعادة وقعت على وفق الإرادة ثم كان سبب هلاكه في التدبير لئلا يأمن أحد خفي مكر التقدير ولا يركن إلى ما هو في الصورة رفق، فلعله في الحقيقة مكر وخرق ولقد أنشدوا:

فأمنته فأتاح لي من مأمني مكراً كذا من يأمن الأحبابا[1]

﴿قَالَ﴾ [الآية 97] موسى ﴿فَٱذْهَبْ﴾ [الآية 97] أي من باب الرب ﴿فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ﴾ [الآية 97] عقوبة على فعلك ﴿أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ [الآية 97] خوفاً

(1) ذكره القشيري في تفسيره (1/ 42، 300) و(5/ 37).

من أن يمسك أحد فتأخذك الحمى وكذا من مسك فتحامي الناس ويتحاموك فيكون كالوحش النافر طريداً وحيداً وعن أهل التوحيد بعيداً وهذا ما دمت في الدنيا ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ [الآية 97] لن يخلفك الله بنجزه لك في العقبى. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر اللام أي لن يخلف الواعد ذلك الموعد.

وأفاد الأستاذ: أنه لا يخلف على موسى عليه السلام تأثير التقدير وانفراد الحق بالإبداع والتقدير، ولذا خاطب الحق بقوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف:الآية 155] في مقام التقدير ثم لم يدع مع ذلك إخلال العقوبة بالسامري على ما استحقه من التقدير ليعلم أن الحكم في الإيجاد والإبداع وإن كان للعليم الخبير فالمطالبة والمعاتبة تتوجب على الخلق في مقتضى التكليف عليهم وإجراء الحق ما يجزيه ليس بحجة للعباد ولا بعذر مسموع / لديه ﴿وَانظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا﴾ [الآية 97] دمت على عبادته مقيماً وصرت لأجلها عند الحق والخلق مليماً ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ [الآية 97] بالنار حتى يصير رماداً ﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾ [الآية 97] لنذرينه ﴿فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [الآية 97] فلا يصادف شيء أصلاً، والمقصود من ذلك زيادة عقوبته وإظهار كمال عبادته وجهالة جماعته. 216/أ

وأفاد الأستاذ: أن كل ما تعلق به القلب من دون الرب يبين الحق سبحانه محقه ولهذا يلقي الأصنام غداً في النار مع الكفار وليس لها جرم ولا ألم ولا خبر ولا أثر.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ [الآية 98] المستحق لعبادتكم ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية 98] إذ لا أحد يماثله في ذاته أو يدانيه في صفاته ﴿وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الآية 98] أي لا نهاية لمعلوماته بخلاف العجل فإنه مثل في الغباوة حال حركاته وسكناته.

وقال الأستاذ: أي لا مثل الذي هو جماد لا يعلم ولا يقدر ولا يسمع ولا يبصر ويمكن أن يستحق ويحرق يعني وثم يغرق ويمحق.

﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ [الآية 99] من أخبار الأمور الماضية وأحوال الأمم الدارجة تبصرة لك وزيادة في علمك وتكثيراً لمعجزاتك وتذكيراً

للمستبصرين من أمتك.

وقال الأستاذ: نعرِّفك أحوال الأولين والآخرين لئلا يلتبس عليك شيء من طرف العالمين فتنادي بآدابهم ويجتمع فيك متفرقات مناقبهم ولكن تعلم أنا لم نبلغ أحداً مبلغك ولم يكن لأحد منا ما لك ونحفظ سرك ونخفي أمرك ونطلعك على أحوال الكافة ولا يطلع أحداً على أسرارك الخاصة ﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾ [الآية 99] أي ذكراً جميلاً وصيتاً جزيلاً.

ويؤيده ما أفاد الأستاذ: بقوله: أثبتنا لك من عندنا شرفاً وفخراً لم يشركك فيه أحد وذكرناك بالسلف لك من العهد معنا وجددنا لك قديم تخصيصنا إياك وكريم إقبالنا عليك أو كتاباً مشتملاً على هذه الأخبار حقيقاً بالتفكُّر والاعتبار، ويقويه قوله: ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ [الآية 100] أي عن الدين، هو القرآن الجامع لوجوه السعادة والنجاة أو من أعرض عن الله واشتغل بما سواه ﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾ [الآية 100] حملاً وخيماً وإثماً عظيماً.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ﴾ [الآية 101] في حمل وزره وتحمُّل أمره ﴿وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾ [الآية 101] / أي بأس حملاً وزرهم وساء حالاً أمرهم. 216/ ب

وأفاد الأستاذ: أن المعرضين عنه شركاء وجهلاء يحملون غداً وزراً وثقلاً أولئك بعدوا عن محل الخصوصية فعقوبتهم لا تزيد على آلام نفوسهم وإحراق أشباحهم يعني لغفلة نسبة أرواحهم وأما أهل الخصوص فلو غفلوا عنه ساعة أو نسوه لحظة أدار في الحال على رؤوسهم البلاء وأنزل على نفوسهم العناء بحيث تتلاشى في جنبهم عقوبة كل أحد من غيرهم انتهى. وأشار بهذا المعنى إلى قولهم: الحجاب أشد العذاب وأن عتاب الأكابر فوق عذاب الأصاغر كما يستفاد من قوله سبحانه: ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء:الآية 75]، وقوله تعالى: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:الآية 30].

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الآية 102] وقرأ أبو عمرو بالنون على إسناد النفخ إلى الأمر تعظيماً له في المآثر ﴿وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [الآية 102] زرق العيون أو

زرق البدن أو الوجه وهو سواده أو عمياً فإن حدقة الأعمى تزرق.

وأفاد الأستاذ: أن يوم القيامة لهم مؤجل وهو بعد النفخ في الصور على ما ورد الخبر المأثور، ولآخرين قيامة معجلة معهم محاسبة وعليهم مطالبة وثواب واصل وعذاب حاصل فكما يرد على ظواهر قوم في الآخرة يرد على سرائر آخرين عقوبة في الحياة الحاضرة.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية 103] يخفضون أصواتهم لما يملأ صدورهم من هول حالاتهم ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ [الآية 103] في الدنيا ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ [الآية 103] يستقصرون مدة لبثهم فيها لزوالها وسرعة انتقالها وخيالات أحوالها.

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الآية 104] وفيما يختلفون ﴿إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً﴾ [الآية 104] أعدلهم علماً ومعرفة ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ [الآية 104] ما مكثتم ﴿إِلَّا يَوْمًا﴾ [الآية 104] فيه استرجاح لقول مَن يكون منهم أشد أثقالاً كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ [الأحقاف:الآية 35].

وأفاد الأستاذ: أن من تفرّغ لعد الأوقات والتمييز بين اختلاف الحالات فهو غير مستوف في بلائه ولا مستقص في عنائه، ومن كان مراداً بمعنى من حديثهم في مقام / الكمال لا يتفرغ إلى نعت الحال فإن الأحوال تخبر عنه وهو لا يسأل عن الخبر. 217/أ

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ﴾ [الآية 105] أي حال أمرها في الاستقبال ﴿فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا﴾ [الآية 105] أي يجعلها كالرمال ثم يرسل عليها الرياح فتفرقها في عالم الأشباح ﴿فَيَذَرُهَا﴾ [الآية 106] فيتركها قعارها ﴿قَاعًا﴾ [الآية 106] خالياً ﴿صَفْصَفًا﴾ [الآية 106] مستوياً ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ [الآية 107] انخفاضاً ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ [الآية 107] ارتفاعاً.

وأفاد الأستاذ: أنه كما أن في القيامة الموعودة تغير الجبال عن أحوالها ففي القيامة الموجودة قد تحرك الأبدال الذين هم كالرواسي ثباتاً فيدخل عليهم من الأحوال ما يمحقهم عن شواهدهم ويأخذهم عن قواهم وقواعدهم.

﴿يَوۡمَئِذٖ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِيَ﴾ [الآية 108] داعي الله إلى المحشر ﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ [الآية 108] لا يعدل عنه مدعواً إذ لا مفر ﴿وَخَشَعَتِ ٱلۡأَصۡوَاتُ لِلرَّحۡمَٰنِ﴾ [الآية 108] خُفِضت لمهابته وخضعت لجلالته طلباً لرحمته وعنايته ﴿فَلَا تَسۡمَعُ إِلَّا هَمۡسٗا﴾ [الآية 108] صوتاً خفياً ومشياً خفياً من هيبة عظمته.

وأفاد الأستاذ: أن في ذلك المقام تنقطع الأوهام وتقف الأفهام وتنحبس العلوم وتندرس الفهوم وتتغير المعارف وتتحير العوارف ويتلاشى ما هو نعت الخلق ويستولي سلطان الحق فعند ذلك لا عين ولا أثر ولا رسم ولا غير، وفي الحضور خرس وبلاء وعلى البساط فناء وللرسوم امتحاء وإنما الصيحة على الباب أي وإنما على الباب قرأ لأولي الألباب.

﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ [الآية 109] أي إلا شفاعته وإلا من أذن له الرحمٰن في أن يشفع له فإن الشفاعة تنفعه ﴿وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا﴾ [الآية 109] رضي لمكانه عند الله قوله في الشفاعة أو رضي لأجله قول الشافع في حقه.

قال الواسطي: وعلامة رضا قوله في مقام أنسه أن لا ينسب شيئاً إلى نفسه.

وأفاد الأستاذ: أن دليل الخطاب في مفهوم هذا الباب أن من أذن له الرحمٰن في الشفاعة تنفع شفاعته فشفاعة الأكابر مسموعة مقبولة في الأصاغر في المؤجل وكذا في المعجل، فإن الحق سبحانه يُشفع الشيوخ في مؤيديهم اليوم وهم على قسمين، فالذين/ هم أصحاب السلوك فبزيادة التوفيق وإفادة 217/ب التحقيق، والذين هم أصحاب التخبط والفترة فبالتجاوز عنهم بالمغفرة وعلى هذا يحمل قولهم:

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم   وتُذْنِبُون فنأتيكم فنعتذرُ(1)

وحكايات من الشيخ مع مريديهم في أوقات فترتهم معروفة وهي مشاكلة

---

(1) نسب إلى المؤمل بن أميل. انظر نهاية الأرب (1/ 276)، وربيع الأبرار (1/ 2406).

لهذه الحالة، ثم إن شفاعتهم لا تكون إلا بتعريف من قبل الله في باطنهم ويكون ذلك أدباً لهم في ظاهرهم.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الآية 110] ما تقدمهم من الأفعال ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [الآية 110] ما بعدهم مما يستقبلونه من الأحوال والأهوال ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [الآية 110] ولا يحيط علم الخلق بمعلوماته ولا بحقيقة ذاته ودقائق صفاته.

قال الواسطي: كيف يحيط به أحد وهو لا يحيط بنفسه علماً ولا بالسماء وهو يرى جوهرها جرماً.

وقال فارس: ما علمه غيره ولا ذكره غيره فهو العالم على الحقيقة والذاكر في الحقيقة.

وقال ابن عطاء: المعرفة معرفتان: معرفة حق ومعرفة حقيقة، فمعرفة الحق معرفة الوحدانية على ما برز للخلق من الأسامي والصفات الفردانية، ومعرفة الحقيقة أن لا سبيل إليها لامتناع الصمدية وتحقيق الربوبية لقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [الآية 110].

وقال الأستاذ: لا يخفى على الحق شيٌ من ماضي أحوالهم ومن انتهاء آمالهم ثم الكناية في قوله به يحتمل أن يعود إلى ما بين أيديهم وما خلفهم ويحتمل أن يعود إلى الحق سبحانه وعزّ شأنه وهو طريقة السلف يقولون: نعلم الله ولا نحيط به العلم كما قالوا: إنه يُرى ولا يُدرك.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾ [الآية 111] ذُلّت وجوه المجرمين وخضعت وجوه المطيعين ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [الآية 111] أي وقد خسر من كان من الظالمين.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الآية 112] بعض الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا﴾ [الآية 112] بزيادة في السياق ﴿وَلَا هَضْمًا﴾ [الآية 112] بنقص في الحسنات. وقرأ ابن كثير: فلا يخف بالتمني وهو بمعنى النفي.

وأفاد الأستاذ: أن العمل الصالح ما يصلح لقبوله ويصح كونه وسيلة

لوصوله وهو المتجرد عن الآفات الموافق بحقيقة الأمر في الطاعات. ويقال: العمل الصالح ما لم يستعجل فاعله / عليه أجراً. وقوله: وهو مؤمن أي في المآل كما هو مؤمن في الحال، أو هو مؤمن مصدق لربه أنه لا يعطي المؤمن شيئاً لأجل إيمانه ولكن بفضله وإحسانه وإنما إيمانه أمارة ذلك لا موجب لما هنالك.

218/أ

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الآية 113] أي الكتاب الجامع لفصل الخطاب ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الآية 113] مقروءاً جلياً ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ [الآية 113] وقررنا فيه النوع الأكيد من جنس الوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الآية 113] العصيان الأكيد أو العذاب الشديد ﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ [الآية 113] موعظة توجب لهم طاعة وشكراً.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه سهَّل عليهم حديث القرآن من حيث إنه أقرّ لهم بخطابهم ولسانهم في البيان وصعب عليهم حيث عجزهم عن الإتيان بمثله في معرض البرهان. وقوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾ [الآية 113] أتبعنا دليلاً بعد دليل وبعثنا رسولاً بعد رسول وحذرناهم بوجوه من التعريفات وإظهار كثير من الآيات.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ [الآية 114] في ذاته وصفاته وإحسانه عن مماثلة مخلوقاته فلا يماثل كلامه كلامهم في مقام تعيناته ﴿ٱلْمَلِكُ﴾ [الآية 114] النافذ أمره ونهيه ﴿ٱلْحَقُّ﴾ [الآية 114] الحقيق بأن يخشى وعيده ويرجى وعده ويراعى عهده.

وأفاد الأستاذ: أن علوه كبرياؤه وسناؤه وعظمته وعلاؤه مجده ورفعته والكل بمعنى واحد في المآل وهو استحقاقه لأوصاف الجلال ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ [الآية 114] نهي عن الاستعجال في تلقي الوحي من جبريل ومساومته في القراءة حتى يتم وحي التنزيل. وقيل: نهي عن تبليغ ما أجمل شأنه قبل أن يأتي بيانه.

وأفاد الأستاذ: أنه عليه السلام كان يتعجل بالتلقف من جبريل مخافة النسيان بالبرهان وعرف أن الذي يحفظ عليه ذلك هو الذي أنزل عليه القرآن، فالآية تشير إلى طرف من الاحتياط في القضايا بالظواهر وفي العموم قبل عرضها على الأصول، ثم إن لم يوجد ما يوجب التخصيص جرى على

مقتضى العموم بحق اللفظ بخلاف أهل الوقف على المأمور به من قضية الاحتياط.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [الآية 114] أي سل الله زيادة العلم بالأحوال بدل المعالجة بالاستعجال، فإن ما أوحي إليك يتبين لا محالة / لديك. قال بعضهم: 218/ ب اجعلني عالماً بك جاهلاً بغيرك، كذا في تفسير السلمي.

وأفاد الأستاذ: أنه إذا كان أعلم البشر وسيد العرب والعجم ومن شهد الحق بخصائص العلم بقوله: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:الآية 113] فقال له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [الآية 114] علم أن ما يخص به الحق أصفياءه وأولياءه من لطائف العلوم لا يتصور إحصاؤه ولا انتهاؤه. ويقال: لما قال ﷺ: «أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له»[1] قيل له: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [الآية 114] ليعلم أن أشرف خصال العبد الوقوف في مقام الافتقار والالتجاء والاتصاف بنعت الدعاء دون التوقف في معرض الدعوى. ويقال: أحاله سبحانه على نفسه في استزادة العلم وأحال موسى عليه السلام على الخضر حتى قال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:الآية 66] فشتان بين عبد أُحيل على شخص في استزادة العلم، ثم قال له: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ [الكهف:الآية 72] ثم بعد كل ذلك التلطُّف قال له في آخر الأمر من غير التوقف: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف:الآية 78]، وبين عبد أمْره عند استزادة العلم بأن يطلبه من ربه، فقال: وقل يا محمد رب زدني علماً.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [الآية 115] أي أوصينا بما أوحينا إليه بأن لا تقرب الشجرة المعهودة حتى لا يترتب عليه القضية الموعودة ﴿مِن قَبْلُ﴾ [الآية 115] أي قبل عهد الحق إلى سائر الخلق ﴿فَنَسِيَ﴾ [الآية 115] عهدنا جزماً وترك أمرنا حتماً ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [الآية 115] ثباتاً على أمره وتصميماً على رأيه. وفيه تنبيه نبيه على أن أساس بني آدم على العصيان وعرقهم راسخ في النسيان ولذا قال بعض

(1) أخرجه ابن خزيمة في الصحيح (3/ 252) رقم (2014)، والشافعي في المسند (1/ 104) رقم (474).

أهل البيان: أول الناس أولى الناس. وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه موقوفاً ولو كان حكمه مرفوعاً: لو وزنت أحلام بني آدم بحلم آدم لرجح حلمه[1] وقد قال تعالى: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [الآية 115] في حقه.

وقال جعفر: عهدنا إلى آدم أن لا ينسانا في حال ما فتناه واشتغل بالجنة فابتلي بارتكاب المنهي منا وذلك لأنه ألهاه النعيم عن المُنعم فوقع من النعمة في البلية فأُخرج من الجنة ليعلم أنَّ النعيم هو مجاورة المُنعم.

219/ أ وقال الواسطي: فنسي أي جهل / قدر عهده وفرق بين من نسي بالحضرة وبين من نسي في الغيبة ولذا قال ﷺ: «رُفِعَ عن أمتي الخطأ والنسيان»[2]. قلت: في الآية والحديث دليلان على أن النسيان لم يكن مرفوعاً عن جنس الإنسان وإنما اختص رفعه عن هذه الأمة كرامة لنبي الرحمة.

وأفاد الأستاذ: أنه عاتبه بقوله ﴿فَنَسِيَ﴾ [الآية 115] ثم أظهر مثل ما عذره فقال: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [الآية 115] في القصد على خلاف الرحمٰن بل كان ذلك بمقتضى النسيان. ويقال: لم نجد له عزيمة في الإصرار على المخالفة. ويقال: شرح قصة آدم وغصة بليته على جهة التسكين لقلوب ذريته حتى لا يقنطوا من فضل الله ورحمته ولا ييأسوا حال ارتكاب غفلتهم من مغفرته، ثم بيَّن كمال آدم وحاله في مقام قربته وعلو رتبته بقوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾﴾ [الآية 116] أي أظهر الإباء عن المطاوعة والاستكبار عن الطاعة ولم يرجع عن حال المعصية إلى مقام التوبة فبعُد عن الرحمة واستحق اللعنة.

وأفاد الأستاذ: أنه لم يتقدم من آدم عليه السلام طاعة ولا عبادة فخلقه الحق بيده وأمره برفع سريره بعدما أجلسه عليه وحمل إلى الجنة وأمر ملائكة كل سماء أن يسجدوا له تكريماً وينقادوا له تعظيماً ابتلاء لهم واختباراً، فسجدوا

(1) تفسير النيسابوري (5/ 333)، وتفسير أبي السعود (6/ 45)، وتفسير البيضاوي (1/ 72).
(2) أخرجه الحاكم في المستدرك (2/ 216) رقم (2801)، وابن أبي شيبة في المصنف (4/ 172) رقم (19051).

بأجمعهم اختياراً وامتنع إبليس من بينهم استكباراً فلقي من الهوان والتعزير ما سبق له في حكم التقدير. والعجب ممن يخفى عليه أن مثل هذا يجري من دون إرادة الحق ومشيئته وهو عالم بأنه كذلك يجري في خليقته واعتبروا الحكمة في أفعاله وأحكامه ويزعموا أنه علم ما سيكون من حال إبليس وذريته وكثرة مخالفة أولاد آدم ووساوس الشيطان لهم وخطواته ثم يقولون الحق سبحانه كان عالماً بما سيكون ثم خلق إبليس ومكّنه وجنده من هذه المعاصي مع إرادته أن لا يكون ذلك ويدعو حسن ذلك في الفعل اعتباراً بما هو الحكمة من هنالك فسبحان من أعمى بصائرهم وعمى حقيقة التوحيد على سرائرهم.

﴿فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ [الآية 117] حسداً لعلو مقامكما ورفع/ مرامكما ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الآية 117] فلا يكون سبباً لإخراجكما عنها، فالمراد بهما من أن يكونا بحيث ينتسب الشيطان إلى إخراجهما منها ﴿فَتَشْقَىٰٓ﴾ [الآية 117] أنت بالأصالة وزوجك بالتبعية، أو هو من باب الاكتفاء مع مراعاة فواصل الآي. 219/ب

وأفاد الأستاذ: أن النصح ما ينفعهم حيث أراد بهم ما حذرهم وعلم أنهم سيلقون ما خوّفهم.

﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُاْ فِيهَا﴾ [الآيتان 118، 119] لا تعطش فيها ﴿وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [الآية 119] من جهة البروز من البناء، والمعنى لا تحترق ولا تبرد من جهة الهواء. وفي الآية تذكير لما له في الجنة من أسباب الكفاية الموجبة للقناعة حيث كان مستغنياً عن اكتساب أمور المعيشة القديمة وهي الشبع والري والكسوة والمسكن التي هي من ضروريات الطبيعة البشرية. وقرأ نافع وأبو بكر: وإنك لا تظمأ بكسر الهمزة.

وأفاد الأستاذ أنه لا تصديق أتم من تصديق آدم ولا واعظ أشد رحمة من رب العالم ولكن ما قاسى آدم قبل ذلك الشقاء فلما استقبله الأمر وذاق ما خوف به من الكد والكدر ندم وأطال البكاء، ولكن بعد انبرام التقدير في العناء. ويقال: أو من بكل وجه فلم يعرف قدر العافية والسلامة إلى أن جرى

ما هو المحكوم به من سابق القسمة. ويقال: عرّفه قدره فلم يعرف شكره حتى استولى عليه الجوع والعطش نحوهما من كل فتن الدنيا وكان آدم عليه السلام إذا تجدد له نوع من البلاء أخذ في البكاء، وجبريل عليه السلام يأتي يقول: ربك يقرئك السلام ويقول: لم تبكي في هذا المقام. فكان يذكر لجبريل ما عنده من المراد وهو يقول له هذا الذي قلت: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [الآية 119].

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ [الآيــة 120] من أكل منها خلد في الجنة ودام فيها ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [الآية 120] لا يزول ولا يحول ولا يفنى.

وقال الأستاذ: وكان الحق يعلم تلك الوسوسة هنالك ولم يذكره في الحال ذلك بأن هذا من نزغات من قلت لك أنه عدو لك. ويقال: سمي الشيطان شيطاناً لبُعده من طاعة الله فكل بعيد من طاعة الله ويبعد غيره / من طاعة مولاه فهو شيطان ولذا يقال شياطين الأنس شر من شياطين الجن. ويقال: لما طمع آدم في الخلود والبقاء وجد الشيطان سبيلاً إليه بالوسوسة والإلقاء. ويقال: إن الشيطان ظهر لآدم بعد ذلك فقال له آدم: يا شقي تلعب بي وصنعت معي، فقال: إن كنت شيطانك فمن كان شيطاني[1]. قلت: وهذا نظير قوله ﷺ: «فمن أعدى الأول»[2] فتأمل. والناس تكلموا في الشجرة المنهية والصحيح أن يقال كانت شجرة المحنة، ويقال: لو لم يخلق في الجنة تلك الشجرة لما كان بعصيان رتبة الجنة. ويقال: لولا أنه أراد بآدم البلية وإلا لطالت تلك الشجرة حتى لا تصل يده البتة، كما في القصة أنه كانت لا تصل يده بعد الزلة إلى أوراق أشجار الجنة حين كان يريد الأخذ منها ليستر بها العورة.

220/ أ

﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الآية 121] فظهرت لهما عوراتهما بعدما ظهر سيئاتهما ﴿وَطَفِقَا﴾ [الآية 121] أي أخذا وشرعا ﴿يَخْصِفَانِ﴾ [الآية 121]

(1) أورده القشيري في تفسيره (5/ 55).
(2) أخرجه البخاري في الصحيح (5717)، ومسلم في الصحيح (2220/ 101).

يمزقان ويلصقان ﴿عَلَيْهِمَا﴾ [الآية 121] على سوآتهما لسترهما ﴿مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الآية 121] وهو ورق التين أو غيره.

وأفاد الأستاذ: أنه لما ارتكبا المنهي عنه ظهر ما يستحيي من ظهوره ولكنه سبحانه لطف بهما في هذه الحالة حيث قال: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [الآية 121] ولم يقل فبدت سوآتهما مطلقاً فلم يطلع على سوآتهما غيرهما. ويقال: لما تجرّدا عن لباس التقوى من جهة الباطن تباشر عليهما لباسهما الظاهر. ويقال: أول الحِرَف والصناعات خياطة الرقاع بعضها على بعض من جهة ستر العورات فهو ميراث من أبينا آدم عليه السلام لأولاده الفقراء من بين الأنام. ويقال: كان آدم أصبح وعليه من حلل الجنة وفنون لباس النعمة ثم لم يمس حتى كان يخصف على نفسه بالمحنة هكذا كان في الابتداء أو ذلك موروث في أولاده من أهل الابتلاء ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [الآية 121] بأكل الشجرة ﴿فَغَوَىٰ﴾ [الآية 121] فضلّ عن الطريقة وخاب حيث طلب الخلد في الجنة. وفي النداء عليه بالعصيان والغواية مع صغر زلته تعظيم للجناية وزجر بليغ / لأولاده عن المخالفة. 220/ ب

وأفاد الأستاذ: أنه لما وقع عليه سمة العصيان وهو أول أفراد الإنسان كان في ذكر هذا تنفس لأولاده أن يجري عليهم الزلة وهم في السجن بوصف الغيبة في حين الفترة. ويقال: كانت تلك الأكلة شيئاً واحداً من الزلة ولكن بسببها ينادي عليه الصبيان إلى يوم القيامة ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [الآية 121] ليعلم أن عظمة الذنوب لمخالفة الآمر عظم قدرها لا لكثرة المخالفة في نفسها.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الآية 122] اصطفاه وقرّبه بالحمل على التوبة والتوفيق له بالأوبة ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [الآية 122] فقبل منه التوبة ﴿وَهَدَىٰ﴾ [الآية 122] إلى الثبات على الأوبة والتعلق بعروة العصمة.

قال أبو عطاء: اسم العصيان مذمة على الإنسان إلا أن الاجتباء والاصطفاء منعا أن يلحق آدم اسم المذمة على الزلة ببركة التوبة.

وقال جعفر: طالع آدم الجنان ونعيمها بعينه فنودي عليه إلى يوم القيامة ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ﴾ [الآية 121]، ولو طالعها بقلبه لقوي عليه بالهجران أبد الأبد، ثم

عطف عليه ورحمه بقوله: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [الآية 122].

قال الواسطي: لم يتأثر العصيان في اجتبائه وقوله: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [الآية 121] أي أظهر خلافه ولو أدركه الاجتبائية أزالت عنه مذمة العصيان حتماً، ألا ترى كيف أظهر عذره بقوله: ﴿فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [الآية 115] وكيف يعزم على المخالفة مَن هو في ستر العصمة وخصوصية الاجتبائية والاصطفائية كذا في «تفسير السلمي».

ومن كلام السيد الشاذلي: اللهم اجعل سيئاتي سيئات من أحببت ولا تجعل حسناتي حسنات من أبغضت.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أخبر أنه عصى آدم ربه وكل قال لعله لا ينتعش بعده فقال: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الآية 122] أي الذي اصطفاه أولاً من غير العلة اجتباه ثانياً بعد الزلة، فتاب عليه بغفران ذنبه وهدي إلى ربه حتى اعتذر واستغفر ووصل إلى مقام قربه وحال حبه.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا﴾ [الآية 123] الخطاب لآدم وحواء أو له ولإبليس، ولما كانا أصل الذرية خاطبهما مخاطبتهم في القضية/ فقال: ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [الآية 123] للأمور الدنيوية والأخروية من التجاذب والتحارب بمقتضى الطباع البشرية. 221/ أ

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أوقع العداوة بين آدم وإبليس والحية ولقد توالت أنواع المحنة على آدم وحواء بعد خروجهما من الجنة وهي سمة المعصية ومفارقة الجنة ودخول الدنيا وعداوة الشيطان والابتلاء بالشهوات ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [الآية 123] كتاب ورسول ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ﴾ [الآية 123] في الدنيا ﴿وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [الآية 123] لا يتعب في العقبى.

قال سهل: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [الآية 123] أي الهداية بملازمة الكتاب والسنَّة فلا يضل عن طريق الهدى ولا يشقى في الآخرة والأولى.

وقال الأستاذ: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [الآية 123] وترك هواه ولم يعمل

بوسوسة عدو الله فله كل خير ولا يلحقه ضير.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ [الآية 124] عن الهدي الذاكر لذاتي وصفاتي والداعي إلى عباداتي وطاعاتي ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [الآية 124] ضيقة وذلك لأن مجامع همه وفكره ومطامح نظره في أمره يكون إلى أعراض الدنيا وأغراضها متهالكاً على ازديادها خائفاً على انتقاصها وانتقاضها بخلاف المؤمن الطالب للأخرى والقائم بوظيفة خدمة المولى وقد فسر ﷺ المعيشة الضنك بعذاب القبر[1] على ما صححه الحاكم ورواه غيره، فذهب إليه جمهور السلف خلافاً لبعض الخلف.

وأفاد الأستاذ: أن الكافر إذا أعرض عن ذكر ربه في هذه الدار فله المعيشة الضنك في الدنيا وفي القبر وفي النار وبالقلب من حيث وحشة الفكر وبالوقت من حيث انغلاق الأمر. ويقال: مَن أعرض عن الانحراز في قضايا الوفاق تتالت عليه فنون الخذلان وصنوف الشقاق ومن أعرض عن استدامة ذكر الرب توالت عليه من تفرقة القلب ما يسلب عنه كل روح وراحة من روائح الحب ومن أعرض عن الاستئناس بذكره انفتح عليه وساوس الشيطان في فكره وهواجس النفس في أمره بما يوجب له وحشة الضمير وانسداد أبواب الراحة والبسط والرضا بالتقدير. ويقال: مَن أعرض عن ذكر الله في الخلوة قيض الله له في الظاهر من القرين / السوء في الجلوة ما يوجب رؤيته له قبض القلوب واستيلاء الوحشة. 221/ب

﴿وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [الآية 124] أعمى البصر أو البصيرة ولا منع من الجمع ويؤيد الأول ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾﴾ [الآية 125] في الدنيا ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾ [الآية 126] أي مثل ذلك فعلت معك في العقبى جزاء لما صدر عنك في الأولى بتقصير خدمتك للمولى ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ [الآية 126] واضحة نيرة في ذاتها ودلالتها ﴿فَنَسِيتَهَا﴾ [الآية 126] فعميت عنها وتركتها غير

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 537) رقم (1405)، وابن حبان في الصحيح (7/ 388) رقم (3119)، وابن أبي شيبة في الصنف (7/ 144) رقم (34837).

منظور إليها ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ [الآية 126] أي مثل تركك إياها في الدنيا ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ [الآية 126] في العقبى ﴿تُنسَىٰ﴾ [الآية 126] تترك في العذاب والعمى جزاءً وفاقاً.

وأفاد الأستاذ: أن في الخبر مَن كان بحالة لقي الله بها فمن كان في الدنيا أعمى القلب يُحشر على حالته يعيش على جهل ويُحشر على جهل. قلت: وقد قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمۡ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:الآية 29]، وورد كما تعيشون تموتون وكما تموتون تحشرون، ولذلك يقولون: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرۡقَدِنَاۜ﴾ [يس:الآية 52] إلى أن تصير معارفهم ضرورية وكما يتركون اليوم التدبير في آياتهم يتركون غداً في العقوبة من غير رحمة على وصف حالاتهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي مَنۡ أَسۡرَفَ﴾ [الآية 127] بالإعراض عن الآيات والانهماك في الشهوات ﴿وَلَمۡ يُؤۡمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ﴾ [الآية 127] مع أنها من الواضحات ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الآية 127] المشتملة على حشرهم بالعمى ودخولهم في نار العقبى ﴿أَشَدُّ وَأَبۡقَىٰٓ﴾ [الآية 127] من ضنك العيش ومجرد العمى.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه جرت سنَّته ومضت مشيئته بأن يجازي كلاً بما يليق بحالته في أسفله لنفسه وقدمه سيلقى جزاءه عنه على الخير خيراً وعلى الشر شراً.

﴿أَفَلَمۡ يَهۡدِ لَهُمۡ﴾ [الآية 128] أي أفلم يبيِّن لهم وهو مسند إلى الله كما يدل عليه القراءة الشاذة بالنون أو إلى ما دل عليه ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا﴾ [الآية 128] أي ألم يَهْدِ لهم كثرة إهلاكنا ﴿قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ يَمۡشُونَ فِي مَسَٰكِنِهِمۡۚ﴾ [الآية 128] ويشاهدون آثار هلاكهم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾ [الآية 128] لذوي العقول الناهية عن التغافل والتعامي في الأحوال الماضية والآتية.

وقال الأستاذ: أفلا ينظرون فيتفكرون فيستبصرون ثم إذا استبصروا أفلا يعتبرون وإذا اعتبروا أفلا يرتدعون أم على وجوههم في ميادين غفلاتهم يركضون وعن سوء معاملاتهم لا يرجعون ألا ساء ما يعملون.

222/ أ ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ/ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ﴾ [الآية 129] وهي الحكم بإيمان بعض الأمة في الأزمنة الآتية، أو هي العدة بتأخير عذاب هذه الأمة إلى الآخرة ﴿لَكَانَ﴾

[الآية 129] عذاب الاستئصال كما نزل بالأمم المكذبة ﴿لِزَامًا﴾ [الآية 129] لازماً لهؤلاء الكفرة ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الآية 129] أي ولولا مقدار معين لأعمارهم في الدنيا أو لعذابهم في العقبى لكان العذاب لازماً لهم في الدنيا.

وأفاد الأستاذ: أن المعنى لولا أن الكلمة سبقت بتأخير العقوبة عن هذه الأمة أن جماعة من أوليائه في أصلاب أعدائه لعجّل عقوبتهم في الدنيا ولكن لما ذكر من الحالة ما يمهلهم المدة المعلومة ثم لا يمهلهم أصلاً في القضية، وإذا كانت الكلمة بالسعادة لقوم مضت وبالشقاوة لآخرين سبقت والعلم في اللوح المحفوظ بجميع ما هو كائن فالسعي والجهد والانكماش في الحدّ متى تقع المنفعة وله أيضاً ما ظهر من القسمة.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ [الآية 130] في كتابنا ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ [الآية 130] وصلِّ وأنت حامد له على هدايته وتوفيق عبادته أو نزِّه ذاته وصفاته مع الاقتران بإثبات كمالاته ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الآية 130] يعني الفجر ﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [الآية 130] يعني الظهر والعصر أو العصر وحده ﴿وَمِنْ ءَانَآيِ ٱلَّيْلِ﴾ [الآية 130] ومن ساعاته فسبِّح، يعني المغرب والعشاء، وقيل: الفاصلة أو تقديره إما من آناء الليل فسبِّح وإنما قدم الزمان وكرر الأمر اهتماماً لاختصاصه بمزيد الفضل والعذر فإن القلب فيه أجمع والنفس لميلها إلى الاستراحة أمنع فتكون العبادة فيه أحمز وفي البُعد عن الرياء والسمعة أميز، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ [المُزمّل:الآية 6] أي كلفة ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المُزمّل:الآية 6] أي قرارة ﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾ [الآية 130] أي طرفيه فهو تكرير لصلاتي الصبح والمغرب اهتماماً بشأنهما أو المراد بهما صلاة الظهر فإنه نهاية النصف الأول وبداية النصف الأخير أو صلاة التطوع وسائر النوافل في أجزاء النهار ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾ [الآية 130] أي سبِّح في هذه الأوقات طمعاً في أن تنال عند الله ما به ترضي نفسك من الحالات والكمالات. وقرأ أبو بكر والكسائي بالبناء للمفعول أي يرضيك ربك.

وأفاد الأستاذ: أن سماع الأذى يوجب المشقة/ ويوقع السالك في 222/ب الوحشة، والمعنى إن كان سماع ما يقولون يوحشك فتسبيحنا الذي ننشىء به

علينا يروحك قبل طلوع الشمس أي في صدر النهار لينعم صباحك وليبارك لك في طول عمرك ونهارك. وقيل: غروبها عند انقضاء النهار ليتم رواحك ويطيب ليلك ومن آناء الليل أي في الساعات الخالية فإن كمال الصفوة ذكر الله في حال الخلوة وأطراف النهار أي استدم على ذكر ربك في جميع أحوالك من إدبارك وإقبالك.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الآية 131] أي لا تطمح نظرهما ولا تطرح بصرهما ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ [الآية 131] استحساناً له أو تمنياً أن يكون لك مثله ﴿أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ﴾ [الآية 131] أصنافاً من الكفرة والفجرة لأن من علم أن مولاه ذخيرته لم يلتفت إلى ما سواه ببصيرته ﴿زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية 131] أي صورة بهجتها وزينتها عند أرباب غفلتها ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [الآية 131] لنبلوهم به أو لنعذبهم بسببه.

وأفاد الأستاذ: أن الرؤية فيما لا يحتاج إليه لا يخلوا عن علة كفضل الكلام ولغو الحركة والذي له عند الله قدر ومنزلة فللحق على جميع أحواله غيره لا يرضى منه أن يبذل شيئاً من حركاته وسكناته وسائر حالاته فيما ليس يدخل تحت أمر الله ومرضاته. وفي معناه أنشدوا:

أتتني تؤنبني في البكاء ... فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفي قولها حشمة ... أتبكي بعين تراني بها
فقلت إذا استحسنت غيركم ... أمرت الدموع بتأديبها[1]

والفتنة فيما يشغل قربه عن الرب ويستولي حبه على القلب ويحسر وجوده على العصيان ويجمل الاستمتاع به على البطر والطغيان.

﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ﴾ [الآية 131] أي ما أعدّ لك من النعيم المقيم في العقبى أو ما رزقك من الهداية والكفاية والقناعة ﴿خَيْرٌ﴾ [الآية 131] أحسن مما منحهم في الدنيا ﴿وَأَبْقَىٰ﴾ [الآية 131] فإنه لا ينقطع أبداً من النعيم المقيم.

---

(1) نسب إلى ابن المعتز. انظر المحب والمحبوب (1/ 12)، والإيضاح في علوم البلاغة (1/ 344).

قال أبو بكر ابن طاهر: هو القناعة بما يملكه والذهول عما لا يملكه. وقال بعضهم: من رزق/ الثقة بالله والرضا عن مولاه فيما منعه وأعطاه فقد 223/أ أعطي أفضل الرزق في دنياه وأخراه، ذكره السلمي.

وأفاد الأستاذ: أن القليل من الحلال وفيه رضى الرحمٰن ولطفه خير من كثير الحرام والحطام ومعه سخطه. ويقال: قليل يشهدك ربك خيره من كثير ينسيك ربك. وفي الحديث: «قليل يكفيك خير من كثير يطغيك»[1].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ﴾ [الآية 132] أي تابعيك من أهل بيتك أو متابعيك من أمتك ﴿بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ [الآية 132] أي وسائر الطاعات الموجبة للصلاة وخصت لأنها أم العبادات الناهية عن السيئات ليتعاونوا على الاستعانة بها على الفاقة ولا يهتموا بأمر المعيشة ولا يميلوا إلى الدنيا كميل أهل الردة ﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [الآية 132] أي بالغ في طلب الصبر بثبات القدم والمداومة للوصول إليها.

قال جنيد: وأمر أهلك بالاتصال بنار الاصطبار على تلك المواصلة معنا أي بالانقطاع عن غيرنا والاكتفاء بما عندنا.

وأفاد الأستاذ: إن الصلاة استفتاح باب الرزق وعليها أحال في تسيير الفتوح عند وقوع الحاجة إلى الرزق. ويقال: الصلاة رزق القلب وإذا استأخر قوت النفس قوي قوت القلب بذكر الرب وللاصطبار مزية على الصبر وهو أن لا يجد صاحبه به ألماً بل يكون محمولاً مروحاً، انتهى. ولا يخفى أن الظاهر من الاصطبار هو زيادة المبالغة بالجد والجهد في تحصيل الصبر وإن كان فيه تحمُّل مرارته وتكلُّف مشقته ﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾ [الآية 132] أي لا ترزق نفسك ولا أهلك بكسبك ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ [الآية 132] وأتباعك تبعاً لك ففرِّغ بالك وحسِّن حالك وانظر مآلك ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ [الآية 132] المحمولة عند أهل التمني ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الآية 132] لذوي التقى أو للمتقي مبالغة كما لا يخفى. وقد ورد أنه

---

(1) لم يرد بهذا اللفظ وإنما ورد بلفظ: «قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه». انظر ما أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (8/ 218) رقم (7873)، والبيهقي في شعب الإيمان (4/ 79) رقم (4357).

ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة[1]. وروي أنه إذا أصاب أهله حيرة أمرهم بالصلاة[2] وتلا هذه الآية.

وأفاد الأستاذ: إنهما شيئان: وجود الأرزاق وشهود الرازق، فوجود الأرزاق يوجب قوة النفوس وشهود الرازق يوجب قوة القلوب. ويقال: استقلال / العامة بوجود الأرزاق واستقلال الخاصة بشهود الرازق. ويقال: خفف على الخلق مقامات أمر الرزق وتأخر ذلك عن وقت الرفق بقوله: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [الآية 132] أي العاقبة الحسنى لأهل التقوى.

223/ب

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [الآية 133] أي بآية مقترحة تدل على صدقه في دعوى الرسالة ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم﴾ [الآية 133] وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص بالتأنيث أي أما جاءتهم ﴿بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الآية 133] من التوراة والإنجيل وسائر الكتب السماوية، فإن اشتمال القرآن على زبدة ما فيها من العقائد الدينية والأحكام الكلية مع أن الآتي بها أُمي لم يرها ولم يتعلم من علمها إعجاز بَين لمن اكتحلت عين بصيرته فرأت ظهور حجته ووضوح بينته ولائحة إبانته ولامعة معجزته.

وأفاد الأستاذ: أنه عميت بصائرهم وأظلمت سرائرهم فادعوا أنه لا برهان مقدر ولا بينة ولم تكن القصور في الأدلة ولو جمع الله لهم كل آية مقترحة ثمَّ لم يرد الله أن يؤمنوا بها لم يزدادوا إلا طغياناً وضلالة ثم أخبر أن سنَّة آبائهم في تكذيب أنبيائهم مثل سنَّة أبنائهم في تكذيب نبيهم فقال: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الآية 133].

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾ [الآية 134] قبل محمد أو القرآن ﴿لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [الآية 134] أي أحكامك ﴿مِن

(1) أخرجه ابن قانع في معجم الصحابة (4/ 251) رقم (1052).
(2) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (1/ 272) رقم (886)، والبيهقي في شعب الإيمان (3/ 153) رقم (3180).

﴿قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ﴾ [الآية 134] بالقتل والسبي في الدنيا ﴿وَنَخۡزَىٰ﴾ [الآية 134] بدخول النار في العقبى.

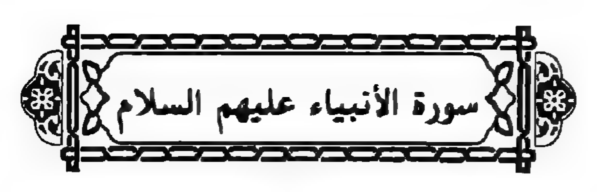
وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يقول إنهم إن أرسلنا إليهم الرسل قابلوهم بفنون من الجحد ووجوه من العلل فمرة يقولون ما بال هذا الرسول وهو كونه بشراً وهلا أرسل إن كان يرسل ملكاً ولو أرسلنا ملكاً لقالوا هلا أرسل إلينا مثلنا بشراً ولو أظهرنا عليهم آية لقالوا هذا سحر مفترى ولو أخليناهم عن رسول نذير وعاملناهم بما استوجبوه من نكير لقالوا هلا أرسل إلينا رسولاً حتى كنا نؤمن ونتبع، فليس ينقطع إعلالهم ولا ينفك عن أمر لا يرضون بدأ أحوالهم. وكذلك سبيل من لا يجنح إلى الوصال ولا يرغب في الوداد، وفي معناه:

وكذا الملول إذا أراد قطيعة مل الوصال وقال كان وكانا[1]

/ ﴿قُلۡ كُلّٞ﴾ [الآية 135] منا ومنكم ﴿مُّتَرَبِّصٞ﴾ [الآية 135] منتظر لما يؤول 224/ أ إليه أمرنا وأمركم ﴿فَتَرَبَّصُواْۖ﴾ [الآية 135] أي وقرأ فتمتعوا ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾ [الآية 135] المستقيم القوي ﴿وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ [الآية 135] من الضلالة والردى.

وأفاد الأستاذ: إن الكل واقفون على التجويز غير حاصلين بتوفيقه من التميز ينتظرون ما سيبدو في المستأنف من التقدير إلا أن أرباب التفرقة ينتظرون نوّاب الأيام وصنّاع الأحكام بارتكاب الآثام، وكيف يقتضيه حكم الأفلاك على الأنام وما الذي توجبه الطبائع والنجوم في الليالي والأيام من أرباب الجمعية المسلمين ينتظرون ما يبدو من المقادير فهم في روح التوحيد والباقون في ظلمات الشرك وأوهام التدابير.

(1) ذكره القشيري في تفسيره (1/ 26) و(2/ 426) و(3/ 102) و(4/ 204) و(6/ 54).



سورة الأنبياء عليهم السلام

[مكيَّة]

وهي مائة واثنتا عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الذي تشبثت به الأنبياء ابتداءً، وتعلّقت به الأولياء انتهاءً.

وأفاد الأستاذ: أنه اسم عزيز مَن توصل إليه بطاعته تفضّل عليه بجميل نعمته إن أطاع فضّله وإن أضاع أمهله، ثم إن آب وأقرّ شكره وإن عصى وغاب ستره، فإن تنصّل رحمه وإن تكبّر قصمه. اسم عزيز ما استنارت الظواهر إلا بآثار توفيقه ولا استضاءت السرائر إلا بأنوار تحقيقه، فبتوفيقه وصل العابدون إلى مجاهدتهم، وبتحقيقه وجد العارفون كمال مشاهدتهم، وبتمام مجاهدتهم وجدوا آجل مثوبتهم، وبدوام مشاهدتهم نالوا عاجل قربتهم.

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ [الآية 1] عما فيه خطابهم وعتابهم وعقابهم ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ [الآية 1] عمَّا يترتب عليه عقابهم مما بيَّنه كتابهم. وقال بعضهم: دنا وقت الانتباه وهم في غفلة عن طريق التوبة معرضون عن اليقظة.

وقال يحيى بن معاذ: حان لك أن تحاسب نفسك وقد مضى أكثر عمرك وتنزجر عن الغفلة وقد نوديت ودعيت إلى الانتباه واليقظة فرحم الله عبداً حاسب نفسه قبل أن يُحاسب عمله ووزن عمله قبل أن ينزع أجله وانتبه من غفلته قبل أن يقع في حفرته.

وقال الأستاذ:/ اقترب للناس حسابهم وقرب إلينا إيابهم فالمطيعون 224/ب

منهم عظم لدينا ثوابهم والعاصون منهم حق منا عقابهم. ويقال: الغفلة على قسمين: غافل عن حسابه لاستغراقه في دنياه أو متابعة هواه، وغافل عن حسابه لاستهلاكه في مولاه أو متابعة رضاه. فالغفلة الأولى همَّة أرباب الهجرة والتفرقة والغفلة الثانية صفة أصحاب الوصل والجمعية، فالأولون لا يستفيقون عن غفلتهم إلا في عسكر الموتى وهؤلاء لا يرجعون من غيبتهم أبداً لفنائهم في وجود الحق سبحانه وتعالى.

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ﴾ [الآية 2] كتاباً وسنَّة نبيهم عن سنَّة الغفلة والجهالة ﴿مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ [الآية 2] تنزيله قديم تأويله ﴿إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الآية 2] يستهزؤون به ويسخرون منه لفناء غفلتهم وفرط غباوتهم وإعراضهم عن التدبُّر في عاقبتهم والتنكُّر في أمر آخرتهم.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه لم يجدد إليهم نذيراً إلا ازدادوا نفوراً ولم ينزل عليهم خطاباً إلا ردوه جحداً أو كذباً وما زدناهم فضلاً إلا عدوه هزلاً وما جددنا لهم نعمة إلا فعلوا ما استوجبوا نقمة، وكأن الذي به أكرمناهم محنة بها بلوناهم، هذا صفة من سامع الله خلقه وخسر عند الله حقه.

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية 3] أي استمعوه جامعين من الاستهزاء به والتلهي عنه والذهول عن التفكر فيما فيه الوصول، فالقلوب اللاهية هي الغافلة عن الأحكام الإلٰهية.

قال أبو بكر الوراق: اللاهي المشغول بزينة الدنيا وزهرة أموالها الغافل عن قضية العقبى وأحوالها.

قال ابن عطاء: معرضة عن طريق رشدهم.

وقال الأستاذ: عمية بصائرهم وغائبة أفهامهم وسرائرهم فهم في غباوة لا يستبصرون وفي أكنة فما أقيم لهم البرهان فهم لا يعلمون ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَى﴾ [الآية 3] بالغوا في إخفائها ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الآية 3] في إبدائها والموصول بدل من واو أسروا للإيماء بأنهم ظالمون فيما أصروا ﴿هَلْ هَٰذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الآية 3] فيذهب بسحرة غفلكم ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾ [الآية 3] أتقبلونه وتقبلون

عليه ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ [الآية 3] تنظرون إليه وتتحيرون لديه. وهذه المقالة مبنية منهم على أن غير الملك ليس له / دعوى الرسالة وقد نشأ من غاية الضلالة ونهاية الجهالة. 225/ أ

وأفاد الأستاذ: أنهم لما عجزوا عن معارضته وسقطوا عند تحديهم وظهر عليهم وضوح حجته وجمعوا فيه الفكر وسموا فيه الظن فمرة نسبوه إلى فعل السحر ومرة وصفوه بقول الشعر ومرة رموه بالجنون، وهكذا إلى كل فن من الفنون وقبل ذلك كانوا يقولون له: محمد الأمين المأمون. وأنشدوا:

أشاعوا لنا في الحي أشنع قصة وكانوا لنا سلماً فصاروا لنا حربا[1]

﴿قَالَ﴾ [الآية 4] وقرأ حمزة والكسائي وحفص قال، أي الرسول ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ﴾ [الآية 4] سراً وجهراً ﴿فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية 4] سواء ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ [الآية 4] لأقوالكم ﴿الْعَلِيمُ﴾ [الآية 4] بأحوالكم فلا يخفى عليه ما تسرُّون وما تعلنون وما تُظهرون وما تُضمرون.

وأفاد الأستاذ: أن الأقاويل التي يسمعها الحق سبحانه من الخلق متفاوتة في المرتبة ومختلفة في المنزلة، فمن خطاب بعضهم مع الخلق ومن خطاب بعضهم مع الحق، والذين يخاطبون الحق فمن سائل يسأل الدنيا ومن طالب يطلب العقبى، ومن مثني يثني على المولى من غير انقضاء شيء من الدنيا والأخرى. ويقال: يسمع أنين المذنبين سراً من الخلف حذاراً أن ينفضحوا ويسمع مناجاة العابدين بنعت التسبيح إذا تهجدوا ويسمع شكوى المحبين إذا مسهم البرحاء من شدة الاشتياق فيضجوا. ويقال: يسمع خطاب مَن يناجيه بقلبه في أمره وكذا تسبيح من يمدحه ويبقي عليه بلسان سره وبيان شكره.

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ﴾ [الآية 5] أي تخاليط الأحلام من عالم المنام ﴿بَلِ افْتَرَاهُ﴾ [الآية 5] أي هذا الكلام على الملك العلَّام ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الآية 5] أي يخيّل إلى السامع معاني في مباني لا حقيقة لها وترغّب الخلق إليها،

---

(1) ذكره القشيري في تفسيره (2/ 224) و(3/ 64) و(5/ 71).

وكل ما قالوه باطل ليس تحته طائل. أما كونه أحلاماً فلأنه مشتمل على مغيبات كثيرة طابقت الواقع في وقائع عزيزة من أنباء الأولين وأخبار الآخرين، وأما كونه افتراء فلأنهم جربوه نيفاً وأربعين سنة وما سمعوا منه قط كذبة، وأما كونه شعراً فإن كلامه مشحون بالحقائق والحِكَم / الدقائق الخارجة من مناسبة قواعد الشعر 225/ ب أو أوزان قوافي الخطب ولذا عجز عن معارضته جميع الفصحاء والبلغاء.

وأفاد الأستاذ: أنهم نوعوا ما نسبوا إليه وشاقوا وكل تراءى له الأمر من حيث كانوا ولم يشاهدوه ﷺ على الوصف الذي كان به من الصدق في الحال والثبات في القال ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ﴾ [الآية 5] أي بمعجزة ظاهرة وعلامة باهرة ﴿كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الآية 5] بها مثل اليد البيضاء والعصا وإبراء الأكمه وإحياء الموتى.

﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ [الآية 6] من أهل قرية ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الآية 6] باقتراح الآية لما جاءتهم ولم يؤمنوا في تلك الحالة ﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية 6] لو جئتهم بالآية المقترحة وهم أعتى منهم. وفيه تنبيه على أن عدم الإتيان بالاقتراح للإبقاء عليهم والترحم بهم إذ لو أتي به ولم يؤمنوا استؤصلوا كمن قبلهم.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أجرى سنَّته في أزل الآزال بأنه لا يعذِّب إلا مَن كان المعلوم من شأنه أنه لا يؤمن لا في الحال ولا في المآل وإن هؤلاء الذين كانوا في عصر الرسول ﷺ أمثلتهم في الكفران في حكم الحق لهم بالحرمان والخذلان.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ [الآية 7] من جنس البشر لا مَلَكاً ولا إنساً ﴿نُوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [الآية 7] وقرأ حفص بالنون ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ﴾ [الآية 7] أهل العلم بالأنبياء والرسل والأمم كمؤمني أهل الكتاب وأصحاب السير وتواريخ الخطاب ﴿إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الآية 7] هذه المقدمة لتزول عنكم الشبهة.

وأفاد الأستاذ: أنهم لما قالوا ﴿لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الفُرقان:الآية 21] أخبر أنه لم يرسل إلى الناس رسولاً إلا بشراً فيما سبق من الأزمان الماضية والقرون الخالية وذكر أن الخصوصية كان بإرسال الله إياهم في تلك القضية، ثم

قال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل:الآية 43] والخطاب للكل، والمراد منه الأمة وأهل الذكر العلماء الأئمة من أكابر هذه الأمة، والذين آمنوا بنبينا محمد ﷺ بالرسالة. ويقال: هم أهل الفهم من الله أصحاب الإلهام الذين هم في محل الإعلام من الملك العلّام وإنما يحسن الإفهام للخلق من يحسن الفهم عن الحق. ويقال: / العالِم يرجع إليه في العبادات والمعاملات إذا أشكلت الواقعة فيخبر عن اجتهاده في تلك الحالة وشرطه أن لا يكون مقلداً ويكون من أهل الاجتهاد محققاً فإذا لم يخالف النص وأدى اجتهاده إلى شيء بحسب معرفته فإنما يقبل قوله ولم يخالف أصلاً مقطوعاً بصحته وجب قبول فتواه، وإنما الحكيم إذا تكلم في المعاملة فإنما يقبل قوله إذا سبق منه المنازلة لما يغني به فإن لم يتقدم له من قبله المنازلة ففتواه في هذا الطريق عن وجده فإن كان وإلا لم يقبل فتواه ولا يسمع قوله.

226/ أ

﴿وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ﴾ [الآية 8] أي الرسل الكرام ﴿جَسَدًا﴾ [الآية 8] أي أشباحاً تتضمن أرواحاً ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [الآية 8] كسائر الأنام.

وأفاد الأستاذ: أنهم لما عيّروا النبي ﷺ بقوله: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان:الآية 7] لتحصيل المعاش والارتفاق أخبر أن أكل الطعام ليس بقادح في المعنى الذي يختص به الأكابر الكرام إذ لا منافاة بين أكل الطعام وما تستكنه القلوب والسرائر من وجوه التعريف والإعلام. ويقال: النفوس لا خبر لها مما به القلب والقلب لا خبر له مما تحقق به الروح من قرب الرب وفوق الروح وألطف منه السر وبينهما البون الكثير والفرق العزيز. وقوله: ﴿وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ﴾ [الآية 8] أي إنهم كغيرهم على ممر ومعبر ولا سبيل اليوم لمخلوق إلى الخلد بعمر معمر.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ [الآية 9] أي الرسل في وعدهم بإنجاء أتباعهم وإهلاك أعدائهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ﴾ [الآية 9] ممن هديناهم واجتبيناهم ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الآية 9] في كفرهم وكفرانهم.

وأفاد الأستاذ: أن الحق سبحانه يحقق أمر وعده وإن تباطأ الوقت بتحقيقه فما أخبر أنه يكون فلا محالة أن يكون، والموعود من نصرة الله لأهل

الحق واليقين إنما هو بإعلاء كلمة الدين وإرغام من نابذ الحق من الجاحدين وتحقيق ذلك بالبيان والجحد وإيضاح وجه الدلالة وبيان خطأ أهل الشبهة.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الآية 10] حياتكم / وشرّفكم في 226/ ب دينكم ودنياكم كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف:الآية 44]، أو فيه ما يذكركم من وعظكم بوعدكم ووعيدكم وسائر أحكامكم ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الآية 10] فتؤمنون وتعملون.

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا﴾ [الآية 11] أهلكنا ﴿مِن قَرْيَةٍ﴾ [الآية 11] أي من أهلها ﴿كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ [الآية 11] في حالها ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا﴾ [الآية 11] بعد إهلاك أهلها ﴿قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الآية 11] مكانهم.

قال أبو بكر الوراق: في الظلم خراب العمر وقد قال ﷺ: «الظلم ظُلُمات يوم القيامة»[1]، فإذا أظلم القلب عن المعرفة والإخلاص خرب وعلامة خراب القلب عصيان الجوارح وميلها إلى ما فيه إهلاكها.

وأفاد الأستاذ: إن الله يمهل الظالم حيناً لكنه يأخذه أخذ قهر وانتقام وحكم الله بخراب مساكن الظالمين حتى في الخبر «لو كان الظلم بيتاً في الجنة لسلّط الله عليه الخراب»، فإذا أظلم العبد نفسه خربها الله بأن يعطلها من مساكن التوفيق للعرفان وجعلها مواطن الخذلان، وإذا أظلم قلبه بالغفلة سلّط عليه الخواطر الردية التي هي وساوس الشيطان ودواعي الفجور والطغيان، وعلى هذا القياس في القلة والكثرة. والروح إذا خربت زايلها الحقائق والمنحات واستولى عليها العلائق والمساكنات.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ [الآية 12] أدركوا شدة عذابنا وحِدَّة عقابنا ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ [الآية 12] يهربون مسرعين راكضين دوابهم أو مشبهين بها من فرط إسراعهم.

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (2447)، ومسلم في الصحيح (2579/ 57).

وأفاد الأستاذ: أنهم لما ذاقوا وبال أفعالهم اضطربوا في أحوالهم فلم ينفعهم ندمهم ولم يعدوا إلى محلها قدمهم، وبعد ظهور الخيانة لا تقبل دعوى الأمانة.

﴿لَا تَرْكُضُوا۟﴾ [الآية 13] أي يقال بلسان القال أو ببيان الحال لا تسرعوا في الهرب من المحنة والذلة ﴿وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ [الآية 13] أي أعطيتم من النعمة واللذة، والمعنى إلى دنياكم ومهواكم ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ [الآية 13] أي وإلى بيوتكم ومأواكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ [الآية 13] عن أعمالكم أو تقصدون سؤال الفقراء من أموالكم، وفي هذا توبيخ وتقريع لهم.

وأفاد الأستاذ: أن للجناية سراية فإذا حصلت الجناية لم تقف السراية، فإذا غرقت السفينة فليس بيد الملّاح/ إلا إظهار الأسف، وهيهات أن يجدي هنالك. 227/ أ

﴿قَالُوا۟﴾ [الآية 14] لما رأوا العذاب ولم يروا وجه النجاة في الباب ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الآية 14] فما تنفعهم حيث صاروا في غير محلهم نادمين.

وأفاد الأستاذ: أن للإقرار زمان معين ينفعه فإذا فات فات حكمه كما في المثل: وضع القوس بعد إرسال السهم إمساك في غير محله.

﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ [الآية 15] المنازل ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ [الآية 15] دعوتهم وموعدهم فكان كلاً منهم يدعو الويل ويقول يا ويل يقال: قد ظهر شأنك فهذا أوانك ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا﴾ [الآية 15] مثل الحصيد وهو النبت المحصود ﴿خَٰمِدِينَ﴾ [الآية 15] ميتين يابسين آيسين.

وأفاد الأستاذ: أن من البلاء أن يشكو فلا يسمع ويبكي فلا ينفع ويدنو فيقضي ويمرض فلا يُعاد ويقتدي فلا يقبل وغاية البلاء التلف والفناء.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الآية 16] بل خلقناهما مشحونة بضروب من الحكم البديعة تبصرة للنظار وتذكرة لذوي الاعتبار وتنبيه لما ينتظم به أمور العباد في المعاش والمعاد، فينبغي أن يتوصلوا بها إلى تحصيل

الكمال ولا يغتروا بزخارفها فإنها سريعة الزوال وموجبة للنكال في الحال والمآل.

وأفاد الأستاذ: أن اللعب نعت من زال عن حد الصواب واستجلب بعقله الالتذاذ وانجرّ في حبل السفه وحق الحق متقدِّس عن هذه الجهة.

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ [الآية 17] ما نتلهى ونلعب في ساحتنا ﴿لَّاتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ﴾ [الآية 17] ممن عندنا مما يليق بحضرتنا من المجردات الروحانية لا من الذوات الجسمانية كالأجسام المرفوعة والأجرام المبسوطة كعادتكم في رفع السقوف وتزويقها في تثبيتها وتسوية الفرش وتزيينها ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الآية 17] ذلك، ويدل على جوابه ما تقدم هنالك. وقيل إن نافية، والجملة كالنتيجة للشرطية كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأٓتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السَّجدَة:الآية 13]. وقيل اللهو الولد والزوجة والمراد الرد على النصارى من الكفرة.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه خاطبهم على حسب أفهامهم وعلى مقدار أوهامهم وإلا فالذي لا يعتريه سهو لاستفزه/ لهو والحق لا يعتريه سهو ولا يضاهيه لغو. 227/ب

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ [الآية 18] إضراب عن اتخاذ اللهو وتنزيه لذاته عن اللعب والسهو، أي بل من شأننا أن نغلب الحق الذي من جملته الجد والصدق والعدل والعمل على الباطل الذي من عداده اللهو واللعب والهزل ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ [الآية 18] فيمحقه ويزهقه بتغليب الحق وتعليته على الباطل وتبعيته ﴿فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الآية 18] هالك مستأصل زائل ماحق ﴿وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ [الآية 18] أي مما تصفونه به مما لا يجوز عليه.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يدخل نهار التحقيق على ليالي الأوهام فينقشع سحاب الغيبة وينجلي ضباب الأوهام عن الأفهام وتبرز شموس اليقين عن خفاء الظنون وتصحو سماء الحقائق عن كل غبار للشبه ساطع وينكشف عن وجه كل وجيه حجاب هو في صورة الظاهر مانع.

﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 19] ملكاً ومُلكاً ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ [الآية 19] من الملائكة المنزلين منه لكرامتهم عليه منزلة المقربين عند الملوك والسلاطين ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ [الآية 19] لا يتعظمون عنها ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الآية 19] لا يعيبون منها ولا يتعبون فيها.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه له الحادثات ملكاً والكائنات حكماً وتعالى أن يتجمل بوفاق أو ينتقص بخلاف وشقاق وبالقدر ظهر الجميع وعلى حسب الاختيار تصرف الكل.

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الآية 20] ينزهونه ويعظمونه دائماً من غير فتور ولا قصور.

وأفاد الأستاذ: أن المطيع المختار تسبيحه بالقول الصدق من الكلمة والكل من المخلوقات تسبيحها بدلالة الخلقة وبرهان البينة.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟﴾ [الآية 21] بل اتخذوا، وبل للانتقال والهمزة لإنكار اتخاذهم ﴿ءَالِهَةً﴾ [الآية 21] كائنة ﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 21] أي من جنسها مع كونها من السفليات وفائدتها التحقير دون التخصيص ولا يجوز اتخاذ الآلهة أيضاً من العلويات ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ [الآية 21] أي تلك الآلهة تحيي الموتى ثانياً وهذا وإن لم يصرحوا بذلك إلا أنه لزم بادعائهم لها الإلٰهية هنالك فإن من لوازمها الاقتدار على جميع الكائنات بأسرها ابتداء وانتهاء، والمراد/ به تجهيلهم والتهكم بهم 228/أ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [النّحل:الآية 21] ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النّحل:الآية 21] وللمبالغة في ذلك الأمر المهم زيد ضميرهم الموهم لاختصاص الإنشاء بهم وفيه إيماء إلى أنه لا ينشر الموتى إلا من خلقهم ونشرهم ابتداء وهم معترفون بخلق الله إياهم أولاً كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمَان:الآية 25] فيتعين أن يكون هو محييهم آخراً.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه تفرّد بالإبداع والإيجاد وتقدّس عن الأمثال والأنداد فالذين من دونه يعبدون أمواتاً غير أحياء وهم بالضرورة يعرفونه فلا يعتبرون ولا ينزجرون.

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الآية 22] أي غيره بإلا حيث تقدر الاستثناء لعدم شمول ما قبلها لما بعدها، وفي التلويح إذ لو كان استثناء لوجب نصبه ﴿لَفَسَدَتَا﴾ [الآية 22] لبطلتا لما يكون بينهما من التنازع والتمانع في وجودهما وعدمهما. والمعنى لو كان مدبراً أمر السماء والأرض آلهة شتى غير الواحد الذي فطرهما لخربتا وخرجتا عن نظامهما لأنه سبحانه هو قيوم السموات والأرض وما بينهما ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ [الآية 22] المحيط بجميع أجسام العالم البسيط الذي هو محل نزول التدابير ومنشأ ظهور التقادير ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الآية 22] من اتخاذ الشريك وقبول التغير والتغيير.

وفي «تفسير السلمي» قال بعضهم: حثك في هذه الآية على الرجوع إلى الله تعالى وعدم الاعتماد على ما سواه.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه بيَّن أن كل أمر يناط بجماعة إن لم يجر على النظام يجري بينهم النزاع والخلاف على الدوام، ولما كانت أمور العالم في التركيب منسقة على وجه قويم دل على أنها حاصلة بتقدير مدبر حكيم فالسماء في علو سمكها تدور على النظام أفلاكها وليس يعهد إمساكها، والأرض مستقرة بأقطارها وعلى ترتيب تعاقب ليلها ونهارها والشمس والقمر والنجوم السائرة تدور في بروج ورقعة السماء تتسع من غير فروج ذلك لتقدير العزيز علامة وعلى وحدانيته دلالة.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الآية 23] لعظمته وقوة سلطنته وظهور شوكة قدرته ورفعة هيبته وتفرُّده بألوهيته وتوحُّده في ربوبيته واستحقاق عبوديته ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الآية 23] لأنهم مملوكون/ مستبعدون مخلوقون مربوبون. 228/ ب

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه لا يسأل أنه ليس من أحد عليه حجر ولا أمر ولا حظر ولا زجر فهو مالك الأعيان ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ [الآية 23] لوجه الحجة عليهم وقيام الحجة بهم. ويقال: لا يسأل لكون الخلق له بأجمعهم وهم يسألون للزوم حقه عليهم.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً﴾ [الآية 24] أعاده استعظاماً لكفرهم واستقباحاً

لأمرهم وتكبيتاً لقمعهم وإظهاراً لجهلهم أو ضمناً لإنكار ما يكون لهم سنداً من النقل إلى إنكار ما يكون لهم دليلاً من العقل ويؤيد ذلك أنه رتب على الأول ما يدل على فساده عقلاً وعلى الثاني ما يدل على بطلانه نقلاً ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ [الآية 24] حجتكم على ذلك إما من جهة العقل أو من طريق النقل، فإنه من غير دليل لا يصح القول كيف وقد تطابقت الحجج باباً وفصلاً على بطلانه عقلاً ونقلاً ﴿هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي﴾ [الآية 24] من الكتب السماوية المشحونة بالأدلة القطعية فانظروا هل تجدون فيها إلا الأمر بالتوحيد والنهي عن الإشراك على طريق التوكيد. والمراد بمن بمعنى معي أمته الموجودة وبمن قبلي واللاحقة الأمم المتقدمة السابقة ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ﴾ [الآية 24] لا يميزون الباطل والصدق ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الآية 24] عن التوحيد واتباع أهل التفريد.

وأفاد الأستاذ: أن الآية دلت على فساد القول بالتقليد ووجوب إقامة الحجة والدليل على التوحيد، ودلت الآية على إثبات الكسب للعبيد إذ لولاه لم يتوجه عليه اللوم والعتب وكل من علق قلبه بمخلوق أو توهم من غير الله حصول شيء من مرزوق فقد دخل في غمار هؤلاء الجمادات لأن الإله من يصح منه الإيجاد وكذلك الإمداد، وفي هذا الإشارة إلى توحيد الحق وإفراد الرب بوصف الفردانية ونعت الوحدانية وإنما عد من العلم لإعراضهم عن النظر وإغراضهم في الفهم ولو وضعوا النظر محله لوجب لهم العلم لا محالة. والآية تدل على وجوب النظر في مقدمات العلوم اليقينية وأن العلوم الدينية كلها كسبية.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ﴾ [الآية 25] قرأ حفص وحمزة/ والكسائي نوحي بالنون وكسر الحاء ﴿أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الآية 25] فاعرفوني ووحّدوني وأطيعوني ولا تخالفوني. 229/أ

وأفاد الأستاذ: أن التوحيد في كل شريعة واحد لازب والتقيد بما أرسل به الرسول واجب فالأفعال للنسخ والتبديل معرضة فأما التوحيد فهو طريقه الأصل الأكيد الأصيل فلا يجوز فيه النسخ والتبديل.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ﴾ [الآية 26] حيث قالت بنو خزاعة: الملائكة بنات الله، سبحانه تنزيه له عن ذلك وأمثاله ﴿بَلْ عِبَادٌ﴾ [الآية 26] أي بل هم عباد من حيث إنهم مخلوقون لا أولاد ﴿مُكْرَمُونَ﴾ [الآية 26] بأنهم مقرّبون لأنهم متقرّبون ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ [الآية 27] لا يقولون شيئاً حتى يقوله فهم عبيد مؤدبون ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الآية 27] كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:الآية 6].

قال الواسطي: ذكر الأنبياء وسائر الخلق بصفاتهم ونعوتهم قبل أن خلقهم كي يؤمنوا ويعلموا أنه لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وأفاد الأستاذ: أن في الآية رحمة في ذكر أقاويل أهل الضلالة والبدعة على وجه الرد عليهم وكشف عوارهم لديهم والتنبيه على موضع خطابهم لكن إن وسوس الشيطان إلى أحد بشيء من ذلك كان عنده حجة الانفصال عنه هنالك.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [الآية 28] أي ما قدّموه وأخّروه، والجملة كالعلة لما قبله والتمهيد لما بعده، فإنهم لعلمهم بذلك يضبطون أقوالهم ويراقبون أحوالهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الآية 28] أن يشفع لهم ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ﴾ [الآية 28] عظمته ومهابته ﴿مُشْفِقُونَ﴾ [الآية 28] خائفون مرتعدون.

وأفاد الأستاذ: أن علمه القديم سبحانه لا يختص بمعلوم دون معلوم فيحق شموله لجميع المعلومات لا يعزب عن علمه موجود ولا معدوم. وقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الآية 28] دل على أنهم يشفعون لقوم وأن الله سبحانه يقبل شفاعتهم. وقوله: ﴿وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الآية 28] ليس لهم ذنب ثم إنهم خائفون، ففي الآية دليل على أنه سبحانه لو عذبهم لكان ذلك جائزاً إذ لو لم يجز أن يعذب البريء لكانوا لا يخافونه لعلمهم أنهم لم يرتبكوا زلة، انتهى. ولا يبعد أن / خوفهم إنما كان من تقليبهم إلى حالة تقع منهم الزلة 229/ ب الموجبة للزلة ومع هذا لو عذبهم من غير ظهور العصيان عنهم لكان عدلاً كما أنه لو لم يعذب الكفار والفجار لكان فضلاً إذ لا يجب عليه سبحانه شيء أصلاً.

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ﴾ [الآية 29] من الملائكة أو من الخليقة ﴿إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الآية 29] يريد به نفي النبوة وادعاء ذلك عن الملائكة وتهديد المشركين بتهديد مدعي الألوهية ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الآية 29] من ظلم على نفسه بادعاء الألوهية أو بالإشراك في الربوبية.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أخبر أنهم معصومون عن الزلة بكل وجه ثم قال: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ [الآية 29] وقد علم أنهم لا يقولونه ولكن علم لو كان ذلك كيف يكون حكمه هنالك، والحق سبحانه علم ما يكون كيف يكون مما جاز وأنه لو كان كيف كان يكون، انتهى. وحاصله أن علمه سبحانه يتعلق بالموجود والمعدوم وأن القضية الفرضية الذهنية غير لازمة الوقوع في الهيئة الخارجية.

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [الآية 30] أي ألم يتفكروا ولم ينظروا ولعل الاستفهام للإنكار وحمل النظار على الاعتبار. وقرأ ابن كثير بغير واو أي ألم يعلموا ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الآية 30] أي جماعة العلويات وجماعة السفليات ﴿كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الآية 30] بجعلهما متنوعة متميزة.

وأفاد الأستاذ: أن المشركين على عهد رسول الله ﷺ كانوا قائلين بأن الله خلق السموات والأرض وإنما داخلتهم الشبهة في إعادة الخلق من الحشر والنشر في القيامة فأقام الله سبحانه عليهم الحجة بأن قال: أليس قد علموا أنه سبحانه سمك السماء ورفعها وبسط الأرض ووضعها، فإذا قدر على هذه البداية فكيف لا يقدر على الإعادة بعد الإبادة.

﴿وَجَعَلْنَا﴾ [الآية 30] خلقنا ﴿مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الآية 30] أي كل حيوان كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النُّور:الآية 45] وذلك لأن الماء من أعظم مواده أو لفرط احتياجه إليه في أمر معاشه ومعاده وانتفاعه بعينه في تمام مراده، أو صيرنا كل شيء حي بسبب الماء لا يحيا دونه من بين / الأشياء ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية 30] مع أن هذه الأمور يشاهدون.

230/ أ

وأفاد الأستاذ: أنه خلق كل شيء حي من الماء فإن أصل الحيوان الذي

يحصل بالتناسل النطفة وهي من جملة الماء وحياة النفوس بماء السماء من حيث الغذاء وحياة القلوب بماء الرحمة وحياة الأسرار بماء العظمة وأقوام حياتهم بماء الحياة وعزيز ما هم أي وقليل ما هم.

﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ [الآية 31] جبالاً ثوابت ككراسي ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الآية 31] كراهة أن تضطرب وتميل بهم ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا﴾ [الآية 31] في الأرض أو الرواسي أو كل منهما ﴿فِجَاجًا سُبُلًا﴾ [الآية 31] مسالك واسعة لهم ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الآية 31] إلى مصالحهم وإلى معرفة منعمهم فيقومون بحق شكرهم.

وأفاد الأستاذ: أن الأولياء هم الرواسي الثوابت والخلق بهم يرزقون وينصرون وبهم يدفع عنهم البلاء ويتفرع عليهم العطاء، وكما أنه لولا الجبال الراسيات لمالت بهم الأرض باضطراب الحركة والزلزلة كذلك لولا الشيوخ الذين هم أوتاد الأرض لنزلنا بهم اللواء والشدة ثم كما في الأرض سبل يسلكونها يصلون إلى مقاصدهم في دنياهم كذلك جعل السبل إلى مولاهم وأمور عقباهم مسلوكة بما يبين على ألسنتهم من هداية المريدين وإرشاد السالكين فيسري بهداهم في سيرهم إلى مولاهم.

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الآية 32] عن الوقوع بإمساك قدرته أو عن الانحلال إلى الوقت المعلوم بمشيئته ﴿وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا﴾ [الآية 32] علامتها الدالة على وجود الصانع ووحدته وكمال قدرته وتناهي حكمته ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [الآية 32] لا يتفكرون ولا يتدبرون ولا ينظرون ولا يتغيرون.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه خلق في ظاهر الكون سماء مسموكة مرفوعة والأرض مفروشة موضوعة كذلك سماء القلوب التي هي أماكن الحالات وأدنى أرض النفوس التي هي مساكن الطاعات وفي سماء القلوب نجوم العقل وقمر العلم وشمس التوحيد ومعرفة الذات والصفات وكما جعلت النجوم رجوماً للشياطين جعلت نجوم المعارف رجوماً للشياطين، وكما أن الناس عن آيات الكائنات معرضون لا يتفكرون فيها فالعوام عن آيات القلوب

230/ب مما فيها من الأنوار/ والأسرار غافلون لا يكاد يعرفها إلا الخواص المختصون بها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ [الآية 33] بيان لبعض تلك الآيات الظاهرات على صفائح وجوه وجود الكائنات ﴿كُلٌّ﴾ [الآية 33] أي كل واحد منها ﴿فِى فَلَكٍ﴾ [الآية 33] من أفلاك السماء ﴿يَسْبَحُونَ﴾ [الآية 33] يسرعون إسراع السابح على وجه الماء.

وأفاد الأستاذ: أن الحق سبحانه كما أن في الظاهر يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل فكذلك يدخل نهار البسط على ليل القبض ويدخل ليل القبض على نهار البسط، وكما أن النهار يزيد وينقص فكذلك الليل فهكذا صفة القبض والبسط في الزيادة والنقصان، وأن الشمس أبداً في بروجها لا تزيد ولا تنقص والقمر مرة في المحاق ومرة في الإشراق فصاحب التوحيد بنعت التمكين ارتقى عن حد تأمل البرهان إلى روح البيان ثم هو متحقق بما هو كالعيان، وصاحب العلم مرة يرد إلى تحديد نظره وتذكره في فطرته بفطنته ومرة يغشاه غير في حال غفلته فهو صاحب تلوين في حالته.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ﴾ [الآية 34] أي ولو من الأنبياء الكرام ﴿مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الآية 34] أي الدوام والبقاء في هذا المقام ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الآية 34] نزلت حين قالوا: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور:الآية 30]. وفي معناه قيل:

فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا[1]

قال جنيد: من كان حياته بنفسه يكون مماته بذهاب روحه ومن كان حياته بربه فإنه ينقل من حياة الطبع إلى حياة الأصل وهو الحياة على الحقيقة.

وقال الأستاذ: أي إنك في هذه الدنيا عابر سبيل والمقبل إلينا لكنا لحقك لم نتركك فرداً في الدنيا وكذلك قال ﷺ للصديق في الغار: «ما ظنك

(1) نسب إلى الفرزدق. انظر عيون الأخبار (1/ 319)، وشرح ديوان المحاسبة (1/ 371).

باثنين الله ثالثهما»[1].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ [الآية 35] تذوق مرارته مفارقة جسدها من غير الفوت ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ [الآية 35] نعاملكم معاملة المختبر ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ [الآية 35] بالمحنة والنعمة ﴿فِتْنَةً﴾ [الآية 35] ابتلاء بهذه الكلفة ﴿وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الآية 35] فنجازيكم حسب ما يوجد منكم من الصبر في المحنة والشكر على النعمة والمنحة. وفيه تنبيه على أن المقصود من هذه الحياة الدنيا هو/ الابتلاء في الأبواب والتعريض للثواب والعقاب. 231/أ

وفي «تفسير السلمي» قيل: الشر الإعراض والمصائب والخير هو الأمن والعافية والدعة وكل هذا فتنة لأنها تشغل صاحبها عن الحق وتقطعه عن طريق الصدق.

وأفاد الأستاذ: أن الموت فيه آفة قوم وراحة قوم، لقوم انتهاء مدة الاشتياق ولآخرين افتتاح باب الفراق، لقوم وقوع في فتنتهم ولآخرين خلوصهم من محنتهم، لقوم بلاء وقيامة ولآخرين شأناً وسلامة. قلت: مصائب قوم عند قوم فوائد.

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الآية 36] ما يتخذونك إلا مهزؤاً به فيستهزؤون ويقولون: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الآية 36] أي بسوء في التعبير والإشارة للتحقير ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الآية 36] على وجه ينزَّه شأنه عنه سبحانه ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [الآية 36] فهم أحق بأن يهزأ بهم من غيرهم.

وأفاد الأستاذ: أنهم لما شاهدوا نبيهم على ما هو به من أوصاف التخصيص ونعوت القربة وما رقّاه إليه من المنزلة والرتبة لظلوا خاضعين لمقامه وحالته ولكنهم حجبوا عن معانيه وسريرته من سيرته وعاينوا منه ظاهر جسمه وصورته.

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (3653)، ومسلم في الصحيح (2381/ 1).

﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الآية 37] أي كأنه خلق منه لفرط عجلته وقلة تؤدته، ومن استعجاله مبادرته إلى الكفر وإعراضه عن التوحيد وجرأته على طلب الوعيد، إذ روي أنها نزلت في النضر بن الحارث حين استعجل إنزال العذاب الشديد ويؤيده أيضاً قوله: ﴿سَأُورِيكُمْ آيَاتِي﴾ [الآية 37] أي نقماتي في الدنيا كوقعة بدر ونحوها، وفي العقبى عذاب النار وغيرها ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الآية 37] بها، والنهي عما جبلت عليه نفوسهم ليبعدوها عن مرادها ويعقدوها عن إيرادها.

وفي «تفسير السلمي» قال بعضهم: زجرهم عما عليه جبلهم.

وقال الواسطي: فيه إظهار لعجزهم وتعريف بقدرهم.

وأفاد الأستاذ: أن العجلة مذمومة والمسارعة محمودة والفرق بينهما أن المسارعة البدار إلى الشيء في أول وقته والعجلة استقباله قبل وقته، والعجلة نتيجة الشيطان والمسارعة قضية توفيق الرحمٰن.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ﴾ [الآية 38] وقت وعد العذاب أو يوم القيامة وزمان الحساب ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الآية 38] يعنون/ النبي ﷺ والأصحاب. ويستفاد من كلام الأستاذ أن الخطاب للرُّسل ولعله على تغليب في الباب حيث قال: اعتقدوا تكذيب الأنبياء عليهم السلام فيما وعدوهم من الكائنات في الأيام فاستعجلوا حصول ما توعدون ولو علموا ما ينالهم لكان السكون منهم والفرع بدل استعجالهم.

231/ب

﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الآية 39] لو يعلمون الوقت الذي يستعجلون وهو حين تحيط بهم النار من جميع جوانب الدار بحيث لا يقدرون كفها ودفعها ولا يجدون ناصراً فيها ومنها لما استعجلوا بها ولا استهزؤوا منها، فالجواب محذوف وقدر الاستناد فيما أفاد بقوله: لأمسكوا اليوم عن الانجرار في عذار الظنون والاغترار بمواعيد الشيطان وأتباعه من الفجار.

﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ [الآية 40] العدة أو الساعة أو النار ﴿بَغْتَةً﴾ [الآية 40] فجأة

﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ [الآية 40] فتحيِّرهم ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ [الآية 40] عن أنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ [الآية 40] يمهلون في أجلهم.

وفي «تفسير السلمي» قال بعضهم: من يهمه شيء من الكون فهو لمحل عزة وغفلة من مكوِّنه ومن كان في قبضة الحق وحضرته لا يهمه شيء من خليقته لأنه قد حمل في محل الهيبة في منازل القدس ومحافله.

وأفاد الأستاذ: أن العقوبة إذا أتت فجأة كانت أنكأُ وأشد محنة وسنَّة الله في النقمة أن يلوح ظلال ألسنة الفتنة في جلال تقايس النعمة والمنة.

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الآية 41] فيه تسلية للنبي ﷺ ووعد بأن ما يفعله به الأعداء يحيط بهم كما أحاط بالمستهزئين بالأنبياء جزاء ما فعلوه من الاستهزاء.

﴿قُلْ﴾ [الآية 42] يا محمد للمستهزئين ونحوهم من المنكرين ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ [الآية 42] يحفظكم ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الآية 42] من بأسه إن أراده بكم، وفي لفظ الرحمٰن إيماء إلى أنه لا حافظ غير رحمته وأن اندفاع بأسه بمهلته ﴿بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الآية 42] لا يخطرونه ببالهم فضلاً أن يخافوا بأسه في مآلهم وذلك علامة سوء أحوالهم.

وأفاد الأستاذ: أن هذا تقرير عليهم أن ليس بيد أحد/ من المخلوقين 232/أ نجاتهم وإذا عرفوا ذلك بما جربوا في حال محنتهم وبلياتهم فكيف لا يتبرؤون ممن ليس به شيء من خير وشر وممن ليس منه نفع ولا ضر، وتنبيه للمؤمنين بأن ما بهم من نوعي النفع والدفع فهو من ربهم فالواجب دوام اعتكافهم بقلوبهم بساحة كرمه وجوده المتوالي عليهم.

﴿أَمْ لَهُمْ﴾ [الآية 43] عند الكوفيين أن الميم زائدة، وقال البصريون: المعنى بل ألهم ﴿ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الآية 43] أي من غيرنا أو من عذاب يكون من عندنا ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ [الآية 43] استئناف يبين إبطال ما اعتقدوه فإن ما لا يقدر على نصر نفسه ولا يصحبه نصر من خالقه فكيف يرجى منه نصر غيره. وما أحسن من قال من أرباب الحال:

مَن لم يقدر دفع المحنة عن رأسه في حال المحنة وبأسه
كيف يُتوقّع منه ثبات مِنْ أساسه[1]

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه بسط القول وكرره في تعريفهم استحالة حصول الضر والنفع ووقوع العطاء والمنع من الجمادات وأصنامهم التي اختاروها للعبادات، انتهى. ولا يخفى أن فيه من التنبيه أن من لا يصلح للعطاء والمنع وإيصال الضر والنفع لا يصلح له الألوهية ولا يليق له دعوى الربوبية، وأن جميع الكائنات في هذا المعنى بمنزلة الجمادات.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ [الآية 44] أي أسلافهم في مقام الكفر وترك الشكر ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ [الآية 44] فحسبوا أن لا يزالوا على وفق ذلك الأمر ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ [الآية 44] أي سنّتنا وعادتنا ﴿أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ﴾ [الآية 44] أي نقضّ أرض الكفرة وأهلها ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الآية 44] بتسليط المؤمنين على تصرفها ﴿أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الآية 44] أو حزبنا المقرّبون.

وأفاد الأستاذ: أن طول التمتيع بالنعمة والسعة إذا لم يكن مقروناً بالتوفيق على الطاعة ومشفوعاً بالعصمة على الدناءة يكون مكراً واستدراجاً في زيادة العقوبة، والحق كما يعاقب بالآلام والأهوال يعاقب بالإملاء والإمهال ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ [الآية 44] ننقضها من أطرافها بتوالي القسوة حتى لا يبقى أثر من الصفوة ويتعاقب الخذلان حتى يتواتر العصيان/ ويتأدى ذلك إلى الحرمان الذي فيه ذهاب الإيمان. ويقال: تنقص بذهاب الأكابر والأماثل فيبقى الأراذل وينقرض الأفاضل. وفيه إشارة إلى سقوط قوى العبد بمرور السنين بتطاول العمر في أواخر الأمر كما قيل: 232/ب

آخر الأمر ما ترى اللحد والقبر والثرى[2]

وكما قيل:

طوى العصران ما نشراه مني فأبلى جدتي نشر وطي

---

(1) لم يعثر عليه من المصادر المتوفرة.
(2) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 112) و(6/ 178).

أراني كل يوم في انتقاص ولا يبقى على النقصان شي[1]

﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾ [الآية 45] أي بما أوحي إليّ وبما أُلقي لدي ﴿وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ﴾ [الآية 45] وقرأ ابن عامر: ولا يسمع على الخطاب من الإسماع، ونصب الصم على أنه مفعول أول ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الآية 45] أي حين يوعظون ويخوَّفون. وفيه دلالة على المبالغة في تصامهم وعدم انتفاعهم بسماعهم وتحقق إصرارهم في تجاسرهم.

وقال الأستاذ: بأمر من الله أعلمكم بمواضع المخافة أو بوحي إليّ في بابكم أخوّفكم بمواقف العقوبة لكن الذي عدم سماع التوفيق أنى ينفعه تكرار الأمر وتبيان التحقيق.

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ﴾ [الآية 46] أصابهم أدنى شيء من مصيبة ﴿مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾ [الآية 46] أي مما وقع للإنذار به على لسانك ﴿لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا﴾ [الآية 46] يا هلاكنا أحضر حولنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الآية 46] على أنفسنا في جميع عمرنا إلى آخر أمرنا.

وأفاد الأستاذ: أي أنهم لا يصبرون ساعة على أقل محنة من العقوبة فإن الحق سبحانه إذا شاء إيلام أحد فلا يحتاج إلى مدد وعون وعضد.

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الآية 47] أي الميزان العدل أو لإظهار العدل وإفشاء الفضل، وجمع باعتبار الموزونات للأشخاص والرجال حيث يوزن بها صحائف الأعمال ويعرف بها شرائف الأحوال ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [الآية 47] أي لجزائه أوفاه أو لأهله ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ [الآية 47] من حقه بنقصه أو شيئاً من الظلم بنقص من ثواب أو زيادة في عقاب بحسب ما يقتضي لك من حساب ﴿وَإِن كَانَ﴾ [الآية 47] أي حقه أو ظلمه ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ [الآية 47] أي مقدار أدنى حبة، ورفع نافع مثقال على كان التامة ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ [الآية 47] أي أحضرناها، وضميرها للمثقال وتأنيثه إضافة إلى الجنة ﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾

---

(1) ذكره القشيري في تفسيره (4/ 21) و(5/ 112) و(6/ 390).

[الآية 47] لثبوت علمنا وتحقق عدلنا.

وأفاد الأستاذ: أنه يورث الأعمال بميزان الإخلاص فما فيه الرياء فلا يُقبل ويوزن الأحوال/ بميزان الصدق فما يكون فيه الإعجاب فلا يقبل، ويوزن الأنفاس فما فية الحظوظ والمساكنات فلا يقبل ويقال بطريق الإجمال ما كان لغير الله من الأعمال والأحوال لا يصلح قبوله. ويقال: كل يكافأ بما يليق بعمله فمن لم يرحم عباد الله في دنياه لا يرحمه الله في عقباه ومن ظلم على غيره جوزي بسوء فعله على وفقه، فهو سبحانه يجازي المظلومين وينتقم من الظالمين ينصف المظلوم في مثقال الذرة ومقياس الحبة. 233/ أ

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الآية 48] الكتاب الجامع لكونه فارقاً بين الهداية والضلالة، ونوراً يستضاء به في بيداء الحيرة وظلمات الجهالة، وموعظة وبياناً لما يحتاج إليه المتقون، ففي الشرائع نهياً وأمراً وما يترتب عليهما صبراً وشكراً، والمتقي هو المجانب لهواه ومما يشغله عن الله ويحجبه عن ذكر مولاه.

﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [الآية 49] حال من الضمير أو الرب ﴿وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الآية 49] أي من إتيانها ﴿مُشْفِقُونَ﴾ [الآية 49] خائفون عنها.

وأفاد الأستاذ: أن من واقعهم في هذه الصفة وهي الخشية من الله في حال الغيبة شاركهم في استحقاق هذه البصيرة والخشية بالغيب إطراق السريرة في أوان حضور الرب باستشعار الرجل من جريان سوء الأدب والحذر من أن يبدو من الغيب بغتان التقدير مما يوجب حجة العبد والتغيير والإشفاق من الساعة خوف قيام الساعة الموعودة عند العامة وخوف قيام الساعة هي قيامة هؤلاء القوم من الطائفة الخاصة وما يستأهل للكافر في الحشر والنشر مستعجل لهم في الوقت من حصول الأمر من تقريب وتبعيد ومحو وإثبات وإطلاق وتقييد.

﴿وَهَـٰذَا﴾ [الآية 50] القرآن ﴿ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الآية 50] كثير خيره ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ [الآية 50] على أبرك مَنْ خلقنا ﴿أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [الآية 50] وعن الإيمان به مستكبرون.

قال السلمي: مبارك على مَن آمن وسمعه واتعظ به وحفظه وتنبّه فمن لم ير على نفسه وقلبه آثار بركات القرآن فليعلم بُعده عن مراتب قرب الرحمٰن.

وأفاد الأستاذ: أن وصف القرآن بأنه مبارك إخبار عن ثباته من قولهم برك الطير على الماء أي دام، وهذا الكتاب دائم لا يأتيه/ الباطل من بين يديه ولا من خلفه وما لا ابتداء له وهو كلامه القديم فلا انتهاء للكتاب الدال عليه بوصف الحميد الحكيم. 233/ ب

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ﴾ [الآية 51] أي اهتدى لوجوه الصلاح وإلى طريق الفلاح ﴿مِن قَبْلُ﴾ [الآية 51] أي قبل وجود موسى وهارون أو قبل ظهور محمد عليهم السلام أو قبل بلوغه واستنبائه ﴿وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾ [الآية 51] أي علمنا أنه أهل لما آتيناه من محاسن الكمال ومكارم الخصال. وفيه إشارة إلى أن فعله تعالى باختيار وحكمة وأنه عالم بالجزئيات كما أنه مطلع بالكليات.

وفي «تفسير السلمي»: سئل جنيد متى رشده أتى، فقال: حين لامني.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أراد برشده ما يعرف به إليه من الهداية والقبول حتى لم يقل بما يجوز عليه الزوال والأقوال ولولا أنه خصه في الابتداء بتعريفه وإلا متى اهتدى إلى التمييز بينه وبين خلقه. ويقال: ذلك ما أضاء عليه من أنوار وتوحيد الحق قبل ما حصل منه من النظر إلى الخلق. ويقال: هو ما كشف روحه وقلبه قبل إيداعه قالبه من تجلي الحقيقة المورثة لأنوار الشريعة وأسرار الطريقة.

﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الآية 52] واقفون لطاعتها ومقيمون على عبادتها، والإشارة لتحقير شأنها وحالها ومآلها، وتوبيخ على تعظيمها وإجلالها فالتمثال لا روح فيه بل هو كصورة الخيال لا يضر ولا ينفع لا في الحال ولا في الاستقبال.

وأفاد الأستاذ: أنه خاطب قومه وأباه ببيان التنبيه الموجب للاستنباه طمعاً في استفاقتهم من سكرة الغفلة ورجوعهم في ظلمة الغفلة وخروجهم من ضيق الشبهة، ثم سأل الله إغاثتهم وطلب منه هدايتهم فلما تبين له أنهم لا

يؤمنون وعلى كفرهم يصيرون تبرأ منهم واعتزل عنهم.

﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ۝٥٣﴾ [الآية 53] فقلدناهم وذهبنا على آثارهم تابعين ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٥٤﴾ [الآية 54] قال الأستاذ: ما استراحوا في الجواب إلا إلى التقليد المجرد فكان من جوابه الحكم عليهم بالتسوية بينهم في الضلال والرد.

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية 55] أي بالأمر الجد والصدق ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الآية 55] الهازلين/ الكاذبين بالبرهان استبعاداً لِتضليل آبائهم وإبطال من أسس أمره على إنبائهم. 234/ أ

قال الأستاذ: فطالبوه بالبرهان على ما دعاهم إليه من الإيمان.

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ [الآية 56] أي خلقهن من غير زيادة لهن ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ [الآية 56] أي ما ذكر لكم من توحيد ربكم ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [الآية 56] المحققين والمبرهنين في أمر الدين.

قال الأستاذ: فأحالهم على النظر والاستدلال والتعرف من حيث أدلة العقول بحدوث الكائنات لأن إثبات الصانع لا يعرف إلا بالمعجزات، وإنما المعجزات علم لصدق الأنبياء وذلك فرع لمعرفة صانع الأشياء.

﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الآية 57] إلى عيدكم. قيل: ولعله قال ذلك سراً والأظهر أنه كان جهراً ووقاه الله عن تعرضهم له قهراً.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ [الآية 58] وقرأ الكسائي بالكسر أي قطعاً وحطاماً وفُتاتاً ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ﴾ [الآية 58] للأصنام حيث كسر غيره واستبقاه وجعل الفأس على عنقه في مأواه ﴿لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ [الآية 58] أي إلى الله وتوحيده بحسب فطرتهم عند تحققهم عجز آلهتهم فيعلمون أن ما عبدوه من دون الله غير مستحق لعبادتهم. وفيه الإيماء إلى أنه لم يحتفل بما يصيبه من البلاء ثقة بأن الله منفرد بالإبداع والإبداء ومتوحِّد بإيصال الضرر والنفع والمنع والعطاء.

﴿قَالُوا۟﴾ [الآية 59] بعد رجوعهم عما نالوا ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِن

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية 59] بجرأته على ما يسيء إلى آلهتنا ﴿قَالُواْ﴾ [الآية 60] أي قائل منهم أو بعضهم ﴿سَمِعۡنَا فَتًى يَذۡكُرُهُمۡ﴾ [الآية 60] بالسوء ويعيبهم فعله فعلة ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الآية 60]، ﴿قَالُواْ فَأۡتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعۡيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ [الآية 61] بمرأى منهم بحيث تتمكن صورته في أعينهم ﴿لَعَلَّهُمۡ يَشۡهَدُونَ﴾ [الآية 61] بفعله أو قوله أو بعقابنا في حقه.

﴿قَالُوٓاْ﴾ [الآية 62] أي حين أحضروه ﴿ءَأَنتَ فَعَلۡتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ [الآية 62] ﴿قَالَ بَلۡ فَعَلَهُۥ﴾ [الآية 63] أي مَن فعل ﴿كَبِيرُهُمۡ هَٰذَا فَسۡـَٔلُوهُمۡ﴾ [الآية 63] أي كبيرهم وصغيرهم عن كاسرهم ﴿إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ﴾ [الآية 63] أي يميِّزون بين كاسرهم وناصرهم. وقيل: كبيرهم فاعل فعله أسند الفعل إليه لأن غيظه لما رأى من زيادة تعظيمهم له حمله عليه أو لقصد تعريض وتبكيت لعجزه لديه ويؤيده حديث ابن ماجه أنه عليه السلام قال: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات»[1]: تسميته للمعاريض كذباً لما شابهت صورتها/ صورته في العبارات. 234/ ب

﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ [الآية 64] فتراجعوا إلى عقولهم وترددوا في مقولهم ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ [الآية 64] أي بعضهم لبعض ﴿إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الآية 64] بهذا السؤال أو بعبادة ما لا يضر ولا ينفع في الحال ولا في المآل.

﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ﴾ [الآية 65] انقلبوا إلى المجادلة بعدما استقاموا بالمراجعة فقالوا: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الآية 65] فكيف تأمرنا بسؤالها وأنت عارف بحالها.

﴿قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ٦٦﴾ [الآية 66].

قال ابن عطاء: دعا لله وأقطعهم عما سواه بقوله: كيف تعتمدون على عاجز مثلكم في دفع الضر وجلب النفع ولا تعتمدون على مَن إليه المرجع في العطاء والمنع.

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (3358)، ومسلم في الصحيح (2371/ 154).

﴿أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [الآية 67] أي قبحاً ونتناً لمن يعبد مَن سواه، وكذا مَن خاف غيره ورجاه ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الآية 67] فترجعون إلى طريق رضاه.

وأفاد الأستاذ: أنهم قالوا كيف ننسب الذنب إليه وتحيلنا في السؤال عليه وهو جماد ليس أمر ما يبديه ولا تصرف وتحرك لديه، فقال: وأنتم كيف تسخرون عبادة الجماد وتشركونه برب العباد وخالق البلاد. ثم لما توجهت عليهم الحجة ولم يكن لهم جواب في المحجة وداخلتهم الأنفة والحمية أصروا على عزيمة الأذية فقالوا: سبيلنا أن نقتله شر القتلة وأن نعامله بما يخوفنا به من العقوبة.

﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ [الآية 68] وأظهروا نقمتكم ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الآية 68] عداوتكم ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا﴾ [الآية 69] ذات برد وسلام ﴿عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الآية 69] عليه السلام.

قال ابن عطاء: سَلِم إبراهيم من النار بسلامة صدره الكريم كما قال تعالى: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾ [الصَّافات:الآية 84] أي خالٍ عن جميع أسباب الدنيا وعوارض العقبى ويرد علمه لصحة توكُّله وتبرد قلبه عن غير ربه حيث ناداه جبريل فقال: هل لك حاجة، قال: أما إليك فلا، فقال: فسئل ربك، قال: حسبي من سؤالي علمه بحالي[1]. فجعل الله ببركة هذه الكلمة حظيرة النار له كالروضة. قيل: وكان إذ ذاك ابن ست عشر سنة. قيل وفي الجمع بين قوله برداً وسلاماً إيماء إلى أنه لو لم يقيد بالسلامة لمات إبراهيم من البرد البتة في تقييده بقوله على إبراهيم إشارة إلى أنه لولاه لبردت النار على غيره وفقدت/ 235/أ من العالم لكماله، ولكن هذا إنما يتم لو كان الخطاب لمطلق النار الحاضرة والظاهر أنه مختص بالنار الحاضرة. وفي الجملة رد على الحكمة الفلسفية والطائفة الطبيعية الخارجة عن الطريقة الحنيفية فهذه القضية نظير قضية غرق

---

(1) كشف الخفاء (1/ 257) رقم (1136).

فرعون وأشياعه ونجاة موسى وأتباعه بالماء، وكذا إهلاك قوم عاد بالريح العقيم وجعلها على هود ومن آمن به كالروح النسيم، وكذا خسفه سبحانه بقارون الأرض وسلامة غيره هنالك في الطول والعرض. فهذه العناصر الأربع كلها ليس لها تصرف بطبعها وإنما هي يتوقف فعلها على أمر خالقها بإظهار صنعها.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه لو عصمه من يد نمرود المبعود ولم يمكّنه من رميه في النار لكان في الظاهر أقرب من أنواع الانتصار لكن حفظه في النار من غير أن يمسه ألم منها أتم في باب النصرة وإظهار المعجزة والكرامة. ويقال: إن إبراهيم عليه السلام كثيراً ما كان يقول: أواه من النار فإنه عذاب أليم. قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:الآية 114]، فلما رمي في النار وجعل الله عليه النار برداً وسلاماً في هذه الدار قيل له: لا تقل بعد هذا أواه من النار بل استعذ بالله من الله لا من غيره فإنه العزيز الغفار. وقوله: وسلاماً، أي وسلامة عليه وله من غير ملامة فإذا كان للعبد السلامة في الميدان فالنار والبرد عنده سيان. ويقال: إن الذي يحرق في النار مَن في النار يقدر على حفظه في النار مِن النار.

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ [الآية 70] مكراً في إضراره ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ [الآية 70] أي الأذلين عند اقتداره لدلالة القضية على حقيقة دعوته وثبوت نبوّته ومن بدء درجته ومن بطلان كل معاند له في حجته وعدول كل مكابر عن محجته.

وأفاد الأستاذ: أن من حفر لأوليائه وقع فيما حفر ومن كان مشغولاً بالله لم يتول الانتقام منه غير مولاه.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الآية 71] أي من العراق إلى الشام وبركاته العامة أن أكثر الأنبياء عليهم السلام بعثوا في ذلك المقام فانتشرت في العالمين شرائعهم الجلية العلية التي هي مبادىء الكمالات العلمية والعملية/ والخيرات الدينية والدنيوية. روي أنه نزل بفلسطين ولوط بالمؤتفكة وبينهما مسيرة يوم وليلة. 235/ ب

وأفاد الأستاذ: أنه مضت سنَّته سبحانه في أرباب نبوّته وأصحاب صفوته في أنه إذا نجّى واحداً منهم أشرك في نجاته من كان مساهماً له في محنته ومقاساة مشقته.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾ [الآية 72] أي عطية زائدة أو هبة تستعقب فائدة ﴿وَكُلًّا﴾ [الآية 72] أي من الأربعة ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾ [الآية 72] أي عاملين بما كانوا عالمين فصاروا بتوفيقنا كاملين. وقيل: الصلاح هو القيام بأمر الله ونهيه وبالشفقة على خلقه.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ [الآية 73] يقتدى بهم أمة ﴿يَهْدُونَ﴾ [الآية 73] الخلق إلى الحق ﴿بِأَمْرِنَا﴾ [الآية 73] لهم بالإرشاد إلى طريق الصدق على وفق الرفق حتى صاروا مكملين للمسترشدين ومفيدين للمتعلمين من المؤمنين ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الآية 73] أي أن يتعلموا المبرات ويحثوا غيرهم على الطاعات ﴿وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الآية 73] خصتا لأنهما أمّا العبادات البدنية والمالية ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾ [الآية 73] موحدين وفي العبادة مخلصين.

وأفاد الأستاذ: أن الإمام مقدم القوم والقبيلة واستحقاق رتبة الإمامة باستجماع الخصال الحميدة التي في الأمة فيه التنبيه فمن لم يستجمع فيه متفرقات الخصال الجيدة في الأمة لم يستحق منزلة الإمامة.

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ [الآية 74] حكمة أو نبوّة أو حكومة في الخصومة ﴿وَعِلْمًا﴾ [الآية 74] بما ينبغي علمه لأهل الرسالة ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الآية 74] أي من إهلاك أهلها ﴿ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ [الآية 74] كاللواطة ونحوها.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أكمل عليه الإنعام بعصمته عليه السلام من مثل ما امتحن به قومه في تلك الأيام ثم بخلاصه منهم بإخراجه مما بينهم فهو منزّه ظاهراً وباطناً عنهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ [الآية 74] في الأحوال ﴿فَٰسِقِينَ﴾ [الآية 74] في الأفعال.

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ [الآية 75] في جنتنا أو في أهل رحمتنا ﴿إِنَّهُۥ مِنَ

ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الآية 75] الذين سبقت لهم سعادة عنايتنا وحمايتنا ورعايتنا.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه بيَّن أنه أدخله في رحمته ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الآية 75] في خدمته ولا محالة من أدخله في رحمته كان صالحاً في حضرته، فقوله/ ﴿وَأَدْخَلْنَـٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ [الآية 75] إخبار عن عين الجمع، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [الآية 75] إعلام عن عين الفرق. 236/ أ

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ﴾ [الآية 76] ربه وشكا قومه ودعا خلاصه ﴿مِن قَبْلُ﴾ [الآية 76] قبل المذكورين ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الآية 76] دعاءه وأهلكنا أعداءه ﴿فَنَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥ﴾ [الآية 76] من تبعه ﴿مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الآية 76] أي من الطوفان الأليم أو أذى قومه اللئيم.

﴿وَنَصَرْنَـٰهُ﴾ [الآية 77] أي جعلناه منتصراً ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ [الآية 77] وحرموا من بركاتنا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ [الآية 77] في اعتقادهم ﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الآية 77] جزاء لعنادهم.

وأفاد الأستاذ: أن في القصة أنه كان يضرب في اليوم سبعين مرة وكان الرجل الهرم يحمل حافده إليه ويقول: لا تقبل قول هذا الشيخ وما عليه وكان يصبر على مقاساة الأذى ويدعوهم إلى الله تعالى فلما آيسه الله عن إيمانهم وإيمان أولادهم وقال له إنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن دعا عليهم بأجمعهم.

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ [الآية 78] في الزرع ﴿إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ [الآية 78] رعته ليلاً ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ﴾ [الآية 78] عالمين حاضرين.

﴿فَفَهَّمْنَـٰهَا﴾ [الآية 79] الحكومة أو التقوى في القضية ﴿سُلَيْمَـٰنَ﴾ [الآية 79] وهو ابن إحدى عشر سنة. قيل: القصة أن داود عليه السلام حكم بالغنم لصاحب الحرث فقال سليمان: لعل غير هذا أرفق بهما، وهو أن يدفع الغنم إلى أهل الحرث فينتفعون بألبانها وأولادها وأشعارها والحرث إلى أرباب الغنم يقومون عليه حتى يعودوا إلى ما كان ثم تترادان. والظاهر أنهما قالا اجتهاداً لقوله ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الآية 79] وفيه تنبيه على أن الخطأ المجتهد لا يقدح فيه.

قال جنيد: ألهم الله بعلمه سليمان من العلم فمنَّ الله بذلك الحكم وأعطاه الله الملك فلم يمنَّ عليه بل قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ﴾ [ص:الآية 39] ﴿أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص:الآية 39]، ثم أراه حقارته في ثلاثة مواضع من حالاته: حين سأل الملك واختاره عرف له ملكه وخسته بأن ألقى على كرسيه جسداً، وحين قال: ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ [ص:الآية 36] فأراه أن الملك الذي أعطاه الريح حيث لا يدوم له الملك وهذا صريح، وحين قال: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ [ص:الآية 39] الآية، أي أعط مَن شئت لحقارته وخسته.

236/ ب وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أشركهما في حكم النبوة وإن كان/ بين درجتيهما تفاوت في الربوبية، ثم في هذه المسألة الواحدة أثبت لسليمان جهة الخصوصية وفي المسألة دلالة على تصويب المجتهدين فإن اختلفوا إذا كان في فروع الدين حيث قال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيۡنَا حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ [الآية 79]، ولمن قال بتصويب أحدهما وتخطئة الآخر منها أن يتعلق بقوله: ﴿فَفَهَّمۡنَٰهَا سُلَيۡمَٰنَۚ﴾ [الآية 79]. أقول: وهذا أظهر فتدبر وعليه الأكثر.

﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ﴾ [الآية 79] يقدِّسْنَ الله معه إما بلسان الحال أو ببيان القال، والظاهر الثاني إذ لا مزية في الأول فتأمل ﴿وَٱلطَّيۡرَۚ﴾ [الآية 79] معطوف على الجبال أو مفعول معه ﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الآية 79] لأمثاله من تسخيرنا فليس ببدع منا وإن كان عندكم عجيباً وفي نظركم غريباً.

قال محمد بن علي: خلق الله في الجبال تسلية للمحزونين وأنسة للمكروبين. قال بعضهم: الأنس الذي في الجبال هو أنها خالية من صنع الخلائق والعمال ولا أثر فيها لمخلوق فتوحش بها الأحوال بل الآثار التي فيها هي آثار الصنع الحقيقي من غير تحويل ولا تبديل. أقول: ولعل تخصيص الطير من سائر الوحوش كثرة نفرتها عن الخلق وقوة اعتمادها على رزق الخالق.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أمن الجبال وسخّرها لتساعد داوود عليه السلام في التسبيح وكذا الطير لتوافقه باللسان الفصيح ففي الأثر كان داوود

عليه السلام يمر وصفائح المُرَحاء تجاوبه وكذلك الطيور كانت تساعده عند تأويبه.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ [الآية 80] عمل الدرع وهو في الأصل اللباس بمعنى الملبوس، كما قيل:

البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بؤسها[1]

قيل: كانت الدروع قبل داوود صفائح فحلقها وسردها أي نظّمها وركّبها ﴿لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ [الآية 80] بدل من لهم بدل الاشتمال بإعادة الجار لتأكيد الحال والضمير لله أو للبوس أو لداوود. ويؤيد الأول رواية أبي بكر بالنون ويقوي الثاني قراءة ابن عامر وحفص بالتاء أو بالصنعة أو للبوس بتأويل الدرع فإنه مؤنث سماعي في اللغة ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الآية 80] ما ذكر من الصنعة وغيرها من النعمة وهو أمر أخرجه في صورة الاستفهام للمبالغة، والمعنى فاشكروا البتة، كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:الآية 91] أي فانتهوا من غير/ المهلة. 237/ أ

وأفاد الأستاذ: أنه كان داوود عليه السلام سخّر الله له الحديد الشديد وألانه في يده كالشمع المذاب، فألهمه نَسْجَ الدروع ليحصن من سهام الحروب حال الشروع، وقال تعالى: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ:الآية 11] أي أوثق مساميرها وأحكم الصنعة في مقاديرها ولكن لما قصدته سهام التقدير ما أصاب إلا حدقته من غير التغيير حين نظر إلى أمره أو رأى من غير قصد في المكان فكان ما كان في ذلك الزمان، ولقد خلا عند ذلك عما هنالك وأغلق على نفسه باب الفرقة بقصد الخلوة والعزلة وأخذ يصلي ساعة ويقرأ التوراة مرة والزبور كرّة حتى يمضي ذلك اليوم بالسلامة وينتهي ذلك الوقت من غير الملامة. وكان قد أوحي إليه أنه يوم فتنته ووقت بليته وساعة محنته فأمر الحجاب والنوّاب أن لا يؤذن عليه أحد بالدخول من الباب فوقع في كوة البيت طير لم ير في الحُسن

(1) نسب إلى بيهس الفزاري. انظر خزانة الأدب (3/ 30)، وزهر الأكم (1/ 152).

نظيره فهمَّ أن يأخذه فتباعد عنه ولم يطر منه كالمُطمع له في أخذه، فتبعه فلم يستأخر قليلاً قليلاً من عنده حتى طار من كوة البيت إلى خارجه فتبعه داوود عليه السلام ينظر إليه فخرج من الكوة ونظر داوود من زاوية عليه فوقع بصره على امرأة أوريا وكانت قد تجرّدت عن ثيابها لما لم يكن عنده أحد من الورى لإقدامها وأوريا تتفتل في بستان خلف البيت الذي فيه داوود عليه السلام فحصل في قلبه ما حصل من الخواطر الموهمة للإلهام وأصاب سهم التقدير حدقته وكان مما يقتضي ابتلاؤه ومحنته ولم تنفعه صنعة اللبوس التي كان يعملها ليحصنه من بأسه في حال البؤس.

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ [الآية 81] أي وسخرنا له الريح ﴿عَاصِفَةً﴾ [الآية 81] شديدة الهبوب بحيث إنها تذهب بكرسيه في مدة يسيرة من الدهر كما. قال تعالى: ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [سبأ:الآية 12]، ومع هذا كانت رخاء في نفسها طيبة لا تكسر سنبلة ولا تغير نملة وأولها عاصفة إذ محط سليمانماية فرسخ في ماية أو كانت رخاء تارة وعاصفة مرة بحسب إرادته ويؤيده قوله: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [الآية 81] أي بإذنه على وفق مشيئته ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا/ فِيهَا﴾ [الآية 81] وهي الشام صباحاً بعدما سار منها إلى اصخر أو اليمن رواحاً ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ [الآية 81] فتجري الأشياء في محلها بمقتضى الحكمة المتعلقة بها على قدر ما سبقت المشيئة المقدّرة لها. 237/ ب

قال الأستاذ: سخّر الله له الريح غدوها شهر ورواحها شهر فلو أراد أن يزيد على مسافة الشهر شبراً لما استطاع به قهراً تعريفاً بأنه موقوف على حكم التقدير من غير تصور التغيير، فشهود التقدير كان يمنعه عن العجب والغرور بما أُكْرِمَ به من التسخير. ولقد نبّه من حيث الإشارة تحت العبارة أن الذي ملك كالريح شأنه إذا مرّ وفات أو أنه لا يبقى باليد منه شيء زانه أو شانه. وفي القصة أنه لاحظ ذلك يوماً فوقع في الغصة حيث مالت الريح ببساطة قليلاً عن الاستقامة فقال سليمان للريح: استوي ولا تسوّي، فقالت له الريح: استوِ أنت فإن المدار عليك وأنا لديك وراجع إليك وإنما ميلي ببساطك لميلك بقلبك إلى ملاحظة انبساطك فإذا استويت أنت في الضمائر استويت أنا في الظواهر.

﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ [الآية 82] في البحار ويخرجون نفائسه من أنواع المرجان واللآلىء الكبار ﴿وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ﴾ [الآية 82] أي غير ذلك من بناء المدن والقصور واختراع الصنائع البديعة هنالك ﴿وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ﴾ [الآية 82] أن يحيدوا عن أمره ويميلوا عن حكمه.

وأفاد الأستاذ: أن هذا المراد إنما كان ذلك أياماً قليلة في الحقيقة ثم إنه أراد يوماً أن يعود إلى مكانه في الطريقة فجاءه ملك الموت وطالبه بروحه من غير الفوت فقال: أخرني إلى أن أرجع إلى مكاني، فقال: لا وجه للتأخير عن زماني، فقبضه وهو قائم متكىء على عصاه وبقي بحاله ولم تعلم الجن حيث أطاعه في خدمته وما عصاه إلى أن أكلت دابة الأرض من ساءته بمعنى عصاه فلما خرّ سليمان علمت الجن حينئذ مماته وتحققوا أن الذين بالمنسأة قيامه وتحققه فقهر الموت يلحقه.

﴿وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي﴾ [الآية 83] أي بأني ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83] بدني ﴿وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الآية 83] بي حتى من أمي وأبي، واكتفى بذلك المقال عن تصريح عرض المطلوب/ لطفاً في السؤال، وليس هذا من باب الشكاية بل ورد على طريق الحكاية وقصد به الكناية ليتحقق الرعاية. ونظيره أن يعقوب قال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف:الآية 86] فالمذموم شكوى العبد إلى غير مولاه وكان رومياً من ولد عيص بن إسحاق استنبأه الله وأكثر ولده وماله فابتلاه الله بهلاك أولاده بهدم بيت عليهم وإذهاب أمواله بإلقاء الهلاك إليهم وإيقاع المرض في بدنه ثماني عشر سنة أو ثلاث عشر أو سبعاً وسبعة أشهر وسبع ساعات. روي أن امرأته من نسل يوسف قالت له يوماً: لو دعوت الله، فقال: كم كانت مدة الرخاء، فقالت: ثمانين ساعة، فقال: أستحيي من الله تعالى أن أدعوه وما بلغت مدة بلائي مدة رخائي.

238/أ

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾ [الآية 84] بالشفاء من مرضه ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ [الآية 84] بأن وُلِدَ له ضعف ما قبله أو بأن أحيا أولاده وولد له منهم أحفاده ﴿رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا﴾ [الآية 84] عناية من لدنا ﴿وَذِكۡرَىٰ

لِلْعَٰبِدِينَ﴾ [الآية 84] أي وتذكرة لهم ليصبروا كما صبر فيظفروا بما ظفر.

قال الحسين بن علي: ذكر الله على الصفاء ينسي العبد عن إراءة البلاء. وقال جعفر الصادق: لما سلّط الله البلاء على أيوب وطال به الأمر أتاه الشيطان فقال: تريد أن تتخلص من هذا البلاء فاسجد لي سجدة تلقى فيها الشفاء من العناء، فلما سمع ذلك قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:الآية 41]، ومسني الضر حين طمع في أن أسجد له.

وقال ابن عطاء: تبدد همّه وليس من العقوبات عندهم أشد من تبدُّد الهم لهم، فمرة كان يطالع في بلائه العقوبة والملامة ومرة يطالع الكرامة ومرة يطالع الاستدراج في المدة فلما تشتت عليه الخواطر قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83] لأن فيه شبه التحيُّر.

وقال جنيد: عمل الدود في جسده فلما وصلوا إلى قلبه غار عليه لأنه محل معرفة ربه فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83] افتقاراً إلى الله بالنصر.

وأفاد الأستاذ: أنه سمي أيوب لكثرة إيابه إلى الله في ذهابه وإيابه وسائر أحواله من السراء والضراء والشدة والرخاء ولم يقل ارحمني بل / حفظ أدب الخطاب فقال: ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف:الآية 151] يعني لأن التلويح أبلغ من التصريح ولما ورد «أنَّ مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين»(1). ويقال: إخباره سبحانه عنه أنه قال مسني الضر لم يسلبه اسم الصبر حيث خبّر الله عنه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ [ص:الآية 44] لأن الغالب كان من أحواله الصبر فنادر قالته لم يسلب عنه الغالب من خالقه والإشارة من هذا أن الغالب من حال المؤمن المعرفة والإيمان بالله الذي هو مستغرق بجميع أوقاته لا يخلوا منه لحظة ونوادره لأنه في دوام إيمانه وطاعاته نادرة والنادر من الطالب لا يزاحم الوصف الغالب. ويقال: لم يكن قوله ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83] على وجه الاعتراض على القضاء والقدر بل كان على إظهار

238/ب

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (1/ 413) رقم (572)، وابن أبي شيبة في المصنف (6/ 34) رقم (29271).

العجز بضعف القوة والقدر لم يكن ذلك منافياً لصفة الصبر. ويقال: استخرج من هذه النميمة ليكون فيه تنفيس لضعفاء هذه الأمة لكن إن ضجوا في حال البلاء لم يكن ذلك منافياً منهم لصفة الصبر ونعت الولاء. ويقال: لم يكن هذا القول منه على وجه الضجر وقلة الصبر وإنما كان من حيث الشكر ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83] الذي يختص به أولياؤك ولا يخلوا عنه أصفياؤك ولولا أنك أرحم الراحمين لما خصصتني ولكن برحمتك ألهمتني. ويقال: لم يكن هذا القول من أيوب ولكنه استغاث البلاء منه في ضيق الكروب فلم يطق البلاء صحبته فضج منه البلاء لا أيوب ضجّ من البلاء لأنه من أهل الوفاء في باب الولاء، وفي معناه أنشدوا:

صابر الصبر فاستغاث به الصبر فصاح المحب بالصبر صبراً[1]

ويقال: همزة الاستفهام فيه مضمرة، ومعناه: أيمسني الضر وأنت أرحم الراحمين. ويقال: إن جبريل أتاه فقال: لم سكت، فقال: ماذا أصنع، قال: إن الله سيان عنده بلاؤك وشفاؤك فسل الله العافية، فقال أيوب: إني مسني الضر.

قال الله: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الآية 84] والفاء تقتضي التعقيب كأنه قيل: فعافيناه في الوقت، فكأنه قال له:/ يا أيوب لو طالبت العافية قبل هذا لاستجبنا لك بلا مهلة. ويقال: سقطت على الأرض دودة مما كانت تأكل بعض بدنه فرفعها أيوب فوضعها في موضعها فعقرته عقرة عيل معه الصبر فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83] فقيل له: يا أيوب أتتصبّر منّا ولولا أنا ضربنا تحت كل شعرة من شعراتك كذا خيمة من الصبر ما صبرت ساعة عن الجزع والفزع من شدة الضجر. ويقال: كانت الدودات الواقعة على نفسه أكلت كل ما على بدنه فلم يبق منه إلا لسانه وقلبه فقصدت دودة لسانه وأخرى جنانه فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83] لم يبق إلا لسان به أذكرك وقلب به أعرفك فإذا لم يبق لي ذلك لا يمكنني أن أعيش وأصبر وأذكر وأشكر. ويقال: استعجم عليه جهد البلاء واستبهم عليه طريقة الولاء فلم يعلم أنه يصيبه ذلك تأديباً أو تقريباً أو تمحيصاً أو

239/ أ

---

(1) نسب إلى الشبلي. انظر تفسير القشيري (5/ 137) وتفسير الآلوسي (9/ 164).

تخصيصاً فلذلك كانت ضجته ودامت محنته وقيل له ما أشد ما لقيت في أيام البلاء، قال: شماتة الأعداء.

وفي القصة أن تلامذة أيوب كسروا أقلامهم وحرقوا ما كتبوا منه وجلود إعلامهم وقالوا: لو كان لك عند الله منزلة لما ابتلاك بكل هذه البلية. ويقال: إنها بقيت امرأته معه في قيام الوفاء لأنها كانت من نسل الأنبياء ومن ذرية يعقوب رئيس أهل البلاد وأنيس أهل العناء. ويقال: إن الشيطان قال لها: إن أردت أن يشفى مريضك فاسجدي لي، ولم تعلم أنه إبليس وإنما ظهر لها في صورة إنسان بالتلبيس فأخبرت أيوب بذلك الخبر فقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83]. ويقال لما ظهر به البلاء اجتمع قومه في الخفاء وقالوا لها: أخرجي هذا المريض من قريتنا فإنا نخاف أن تعدي علينا علته وتمسنا بليته، فأخرجته إلى باب القرية فقالوا: إنا إذا أصبحنا ومررنا عليه وقع أبصارنا عليه فنتشائم إليه فأبعديه عن الأبصار، فأخرجته إلى أرض قفار وكانت امرأته تدخل البلد تستأجر للخبز والعمل في الدور فتأخذ الأجر وتحمله إليه فاستقذروها ولم يستعملوها ولم يدخلوها. ويقال: إنها كانت ذات ذوائب وكان أيوب يأخذها / 239/ ب وعند نهوضه يتعلق بها فباعته برغيف أخذته لتحمله إليه فوسوس إليه الشيطان بأنها عملت الفحشاء وإن شعرها جُزّ في تلك الجزاء فحلف أيوب أن يجلدها إذا صح جدالها، فكانت المحنة على قلب تلك المرأة أشد مما على بدن أيوب. وقيل: إن امرأته غابت فعافى الله أيوب وعاد شيئاً طرياً كما في القصة في قوله تعالى: ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص:الآية 42] فلما رجعت ولم تره حسبته أنه أكله سبع أو أصابته آفة فأخذت تبكي وتولول وتتردد وتنوح فقال لها أيوب: ما لك، فقالت: كان لي هنا مريض ففقدته، فقال لها: كيف كان، فنظرت إليه فقالت: كان يشبهك صريحاً إذا كان شاباً صحيحاً، فقال أيوب: أنا ذلك المطلوب. ويقال: إن أيوب كان مكاشفاً بالحقيقة ملحوظ عنه في الطريقة فكان لا يحس بالبلية فستر مرة عليه وردحاً له إليه فقال مسني الضر لديه. ويقال: أدخل على أيوب تلك الحالة واستخرج منه هذه القالة ليظهر عليه إقامة العبودية للقيام بحق الربوبية. وقيل: أوحى الله إلى أيوب إن هذا البلاء قد اختاره قبلك سبعون

من الأنبياء فما اخترته إلا لك من بين الأصفياء، فلما أراد الله كشفه عنه قال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83] منه. وقيل: كوشف بمعنى من معاني الولاء فلم يجد ألم البلاء فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83] لفقدي ألم الضر. ويقال: إنما قال ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الآية 83] لما لحقه من الضعف بقيام الطاعة فاستجاب له بأن رد عليه قوته ليقوم بحق العبادة. ويقال طلب الزيادة في الرضا فاستجيب له بكشف ما كان به من العناء. ويقال: إن الضر الذي شكا منه أنه بقيت عليه قبليته كانت بغيته فلما أخذ عليه كليته زال عنه بليته. ويقال: رد عليه السلامة والعافية والأهل في الظاهر كما في القضية لأنه لما صار مأخوذاً منه بالكلية ومنفي عن كل بقية استوى حينئذ عنده البلاء والرخاء والوجد والنقد.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ﴾ [الآية 85] يعني إلياس، وقيل يوشع، وقيل زكريا، وقيل نبي مستقل سمي به لأنه كان ذو حظ عظيم/ من رب كريم أو له ضعف عمل أنبياء زمانه لقوة فساد أمته في أوانه ﴿كُلٌّ﴾ [الآية 85] من هؤلاء ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الآية 85] على التكاليف الشديدة والمحن العديدة. 240/ أ

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ [الآية 86] أي تحت ظل حمايتنا وكنف كفايتنا ﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الآية 86] الكاملين في الصلاح والعاملين بالفلاح.

وأفاد الأستاذ: أن الحكم صبرهم على البلية وصلاحهم في الطاعة والمعنى إدخالهم في الرحمة.

﴿وَذَا ٱلنُّونِ﴾ [الآية 87] وصاحب الحوت يونس بن متى ﴿إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ [الآية 87] لقومه حين سئم من طول دعوتهم وشدة مخالفتهم وتمادي إصرارهم في مدتهم مهاجراً عنهم قبل أن يؤمر بالتبعد منهم والمغاضبة من بناء المغالبة للمبالغة لا للمشاركة.

وأفاد الأستاذ: أنه ذهب مغاضباً على نفسه أي شديد المخالفة لهواه وتهديد الأعداء مولاه ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الآية 87] لن نضيق عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطّلَاق:الآية 7].

وقال جنيد: فظن أن لن نريه قدر نفسه في سخطه على عبادنا من قومه

﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الآية 87] البليات الشديدة أو الظلمات العديدة من بطن الحوت والبحر والليل.

وأفاد الأستاذ: أنه يحتمل أن يراد بظلماته ما التبس عليه من أوقاته واستبهم عليه من حالاته ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الآية 87] أن مصدرية أو تفسيرية ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ [الآية 87] أن يعجزك شيء من العالمين ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية 87] بالمبادرة إلى المهاجرة أو بظن عدم المطابقة وقد ورد ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له.

وفي «تفسير السلمي»: أي إني كنت من الجاهلين أنك لا تقرب بطاعة ولا تبعد بمعصية.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ [الآية 88] بأن قذفه الحوت بعد أربع ساعات أو ثلاثة أيام أو أربعين يوماً إلى ساحل اليم ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ﴾ [الآية 88] أي غم الالتقام أو غم الخطيئة والانتقام.

وأفاد الأستاذ: أنه لم يجز منه دعاء بالتصريح إلا أنه في ضمن كلامه بالتلويح حيث قال: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الآية 87] فلم يقر بصدور الظلم عنه إلا وهو يستغفر منه ﴿وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الآية 88] وقرأ ابن عامر وأبو بكر: نجي بتشديد الجيم مع نون واحدة مضمومة فهو ماض مجهول أسند إلى ضمير المصدر أي نجي النجاء / كما في قراءة أبي جعفر لنجزي قوماً أي نجزي الجزاء وسكن آخره تخفيفاً كما في رواية ذروا ما بقي من الربا على قراءة شاذة. وقيل: أدغم النون في جيم على أنه لغة شاذة، والمعنى كما في نجينا ذا النون وسائر النبيين ننجي المؤمنين من البلوى في الدنيا والعقبى. 240/ب

وأفاد الأستاذ بقوله: يعني كل من قال من المؤمنين إذا أصابه غم أو استقبله هم مثل ما قال نجيناه في الحال أو المآل، وفي القضية أنه لما ركب السفينة فاضطرب البحر وتلاطمت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق وأخذ الناس في إلقاء الأمتعة تخفيفاً للسفينة وطلباً للسلامة قال: لا تلقوا أمتعتكم في البحر وأخرجوني فإني المجرم بينكم، فنظروا إليه فقالوا: إنَّا نرى عليك

سيم الصلاح وليس تسمح نفوسنا بإلقائك في البحر من غير ظهور الجناح، فقال تعالى مخبراً عنه: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصَّافات:الآية 141] أي ففارقهم فاستهموا ووقعت القرعة عليه فكان من المغلوبين. وقيل: أتى إلى حرف السفينة فإذا بالحوت فاغراً فاه فحاد إلى جانب آخر فحاد الحوت إليه وهواه وكذلك حتى دار كل جانب مما يلقاه ثم إنه لما علم أنه مراداً بالبلاء ألقى نفسه في الماء وأوحى الله إلى السمك بأن لا تخدش منه لحماً ولا تكسر عظماً وهو وديعة عندك وليس بطُعْمَة لك. وقيل: إن السمك الذي ابتلعه أمر بأن يطوف به في البحر وخلق الله له إدراك ما فيه إلى القعر. ويقال: يونس صحب الحوت أياماً قليلة فيقال له ذو النون إلى يوم القيامة ولم تبطل عنه هذه النسبة فما ظنك بعبد عبد الله سبعين سنة ولازم قلبه معرفته وداوم محبته.

﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا﴾ [الآية 89] أي فريداً بلا ولد يرثني فأكون وحيداً ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الآية 89] فإن لم ترزقني مَن يرثني فلا أبالي فإنك خير عوض تخلفني وتدفع عني ما ينوبني.

قال ابن عطاء: أي خالياً عن عصمتك.

وقال جنيد: أي غافلاً عن حضرتك مشتغلاً بشيء عن خدمتك.

وأفاد الأستاذ: أنه عليه السلام سأل الولد ليكون مُعيناً له على عبادة ربه وليقوم في النبوة مقام مرامه ولئلا تنقطع بركة النبوَّة من أهله. ولقد قاسى/ 241/أ زكريا من البلاء ما قاسى حتى قطع بالمنشار لما التجأ إلى شجرة من الكفار فانشقت له وتوسطها فالتأمت وفطن ذلك هؤلاء الفجار فقطعوا الشجرة بالمنشار وصبر لله ولم يصعد منه آه ولا واه، وانشقاق الشجرة كانت له معجزة، وفي الظاهر حفظاً منهم عن الأذية بل لو لم يطلعهم عليه لكان في ذلك سبب سلامته وإنما المعنى فيه أن انشقاق الشجرة كانت له معجزة فقوي بذلك يقينه في المعرفة لما رأى عجيب الأمر فيه من نقض العادة. ثم البلاء لهم بالقتل ليس ببلاء في التحقيق ولقد قال قائلهم: إنما يستعذب الأولياء البلوى للمناجاة مع المولى.

﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ﴾ [الآية 90] قيل وسمي به لأنه حي به عقر أمه ﴿وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ﴾ [الآية 90] أي أصلحناها للولادة بعد عقرها.

وأفاد الأستاذ: أنه أصلحها ليكون له في ذلك معجزة ولزوجه آية وكرامة لأنه فعل ناقض عادة ولئلا يستبد زكريا بفرح الولد دونها مراعاة لحقها وهذه سنَّة الله في باب إكرام أوليائه وإنعام أصفيائه. وفي معناه أنشدوا:

إن الكرام إذا ما أَخْصَبُوا ذكروا مَن كان يألفهم في الموطن الخشن[1]

﴿إِنَّهُمۡ﴾ [الآية 90] أي المذكورين من الأنبياء والمشهورين من الأصفياء ﴿كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [الآية 90] يبادرون إلى أبواب المبرات وأنواع الطاعات وأصناف العبادات ﴿وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ﴾ [الآية 90] أي رغبة في الثواب ومخافة من العقاب وخشية من الحجاب. وقال بعضهم: رغبة فينا ورهبة عما سوانا.

وأفاد الأستاذ: أن في هذا بشارة لجميع العباد لأن المؤمن لا يخلو في حالة من الرغبة والرهبة إذ لو لم يكن رغبة لكان قنوطاً والقنوط كفر ولو لم يكن رهبة لكان أمناً والأمن كفر ﴿وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الآية 90] خاضعين متذللين مخلصين.

قال الواسطي: أمر الله الأنبياء بالخشوع والمسكنة وهو الوقوف بين الرغبة والرهبة.

وقال أبو يزيد: الخشوع خمول القلب عن الدعاوى في قرب الرب. وقال بعضهم: الخشوع زمام الهيبة إذا أردت أن تعرف الخاشع فخالفه في قضية فإن كان خاشعاً زاده ذلك/ رأفة وشفقة وإن لم يكن خاشعاً انتقم لنفسه وغضب لحظه. 241/ب

وأفاد الأستاذ: أن الخشوع هو قشعريرة القلب عند اطلاع الرب وكان

---

(1) نسب إلى دعبل بن رزين الخزاعي. انظر الحماسة البصرية (1/ 114)، وخزانة الأدب (1/ 456).

لهم عليهم السلام هذا الإلمام بوصف الدوام.

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الآية 91] من الحلال والحرام، وهي مريم أم عيسى عليهما السلام ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ [الآية 91] أي في ولدها الكائن في بطنها، والمعنى أحييناه في جوفها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ [الآية 91] أي من الروح الذي هو بأمرنا ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا﴾ [الآية 91] أي قصتهما أو حالهما أو كلاً منهما ﴿ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الآية 91] فإن من تأمل في حالهما تحقق كمال قدرة الصانع في جمالهما.

وأفاد الأستاذ: أن من نظر في أمرهما ووضع النظر موضعه لاهتدى بقدرهما، ومن أعرض عنه ولم ينظر فيه فالآية لا تخرج عن كونه حجة ودلالة بتقصير المقصر في بابه جهالة أو كسالة.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ [الآية 92] أي ملة التوحيد والملة الموروثة عن جميع الأنبياء عليهم السلام ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ [الآية 92] ملتكم التي يجب عليكم أن تكونوا عليها في مرور حالتكم ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الآية 92] ملة متحدة غير مختلفة في أمم الأنبياء المتفرقة ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ﴾ [الآية 92] لا رب سواي لكم ﴿فَاعْبُدُونِ﴾ [الآية 92] فوحدوني وأطيعوا أمري ولا تخافوا ولا ترجو غيري.

وقال الأستاذ: أي وكلكم خلقته مفتقراً إلي فاعتمدوا في جميع أموركم عليَّ.

﴿وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [الآية 93] أي وتفرقوا وجعلوا أمر دينهم قطعاً موزعة فيما بينهم بقبيح فعلهم وفي الكلام التفات من المؤمنين إلى غيرهم أو من الناس كلهم إلى بعضهم ﴿كُلٌّ﴾ [الآية 93] من الفرق المتحزبة المختلفة في أعمالهم ﴿إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الآية 93] فنجازيكم بحسب أحوالكم.

وأفاد الأستاذ: إنهم لما اختلفوا في أعمالهم وتنازعت أقوالهم فاضطربت أحوالهم واستأصلتهم البلايا. قال تعالى: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ [الآية 93] وكيف لا وما تقبلون إلا في قبضة التقدير والقضايا.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ [الآية 94] أي ما يوافق الشريعة من الطاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ [الآية 94] بالله ورسوله والآيات ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الآية 94] فلا تضييع لسعيه في الحالات ﴿وَإِنَّا لَهُ﴾ [الآية 94] لسعيه وعمله ﴿كَاتِبُونَ﴾ [الآية 94] مثبتون في صحيفة عمله.

قال أبو بكر الوراق: العمل الصالح الذي لا رياء فيه ولا سمعة ولا يكون فيه طلب الثواب والغدر بل تكون معاملته في مشاهدة الأمر.

242/ أ وقال/ الأستاذ: من تعفف على الله لم يخسر على الله، ومن تحمّل مشقة لله وجب حقه على الله. وقوله: وهو مؤمن أي في العاقبة والمآل إذ لا عبرة بظاهر الحال.

﴿وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ﴾ [الآية 95] وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بكسر الحاء وسكون الراء أي وممتنع على أهلها غير منظور منهم في حالها ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الآية 95] ثم حكمنا بإهلاكها ﴿أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [الآية 95] أي عدم رجوعهم إلينا لجزاء عملهم لدينا.

وقال الأستاذ: أي لا نهلك قوماً وإن تمادوا في العصيان إلا إذا علمنا أنهم مصرون على ترك الإيمان.

﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ [الآية 96] أي يستمر امتناعهم أو إهلاكنا لهم أو عدم رجوعهم إلى قرب قيام الساعة ووقت ظهور أمارات القيامة وهو فتح سد يأجوج ومأجوج وحتى هي يحكى الكلام بعدها المسماة بالابتدائية والمحكي هي الجملة الشرطية ﴿وَهُم﴾ [الآية 96] أي يأجوج ومأجوج أو الناس كلهم ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ [الآية 96] أي مرتفع من الأرض ﴿يَنسِلُونَ﴾ [الآية 96] يسرعون.

وأفاد الأستاذ: أنه يحق القول عليهم ويتم الأجل المضروب لهم فعند ذلك تظهر أيامهم وإلى القدر المعلوم من التقدير لا يجعل نجاة الناس من شرهم وآثامهم.

﴿وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ [الآية 97] وقت القيامة وساعة الملامة ﴿فَإِذَا هِىَ﴾ [الآية 97] أي القصة ﴿شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الآية 97] أي مرتفعة الأجفان لا تكاد تطرف من هول ما هم عليه من الأحزان ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ [الآية 97] أي يقولون يا هلاكنا أدركنا ﴿قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [الآية 97] الذي شاهدنا وأدركنا ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ [الآية 97] لأنفسنا بالإخلال في النظر وعدم الإجلال بالنذر.

وأفاد الأستاذ: أن القيامة تأخذهم بغتة ويظهر اشتراط الساعة فجأة ويقرّ الكافرون بأن الذنب لهم جملة ولكن في وقت لا يقبل المعذرة.

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 98] يحتمل الأوثان وإبليس والأعوان لأنهم بطاعتهم في حكم عبادتهم لما روي أنه عليه السلام لما تلا الآية على المشركين.

قال له ابن الزبعري قبل أن يدخل في سلك المؤمنين: قد خصمتك أي غلبتك في الخصومة والحجة ورب الكعبة، أليست اليهود عبدوا عزيراً والنصارى المسيح وبنو مليح[1] الملائكة، فقال عليه السلام:/ بل هم عبدوا 242/ب الشياطين التي أمرتهم بذلك[2]، فأنزل الله تعالى هنالك: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الآية 101] الآية، فعلى هذا يعم الخطاب ويكون مأمولاً بمن أو بما يعمه وهو الأولى كما لا يخفى، ويدل عليه ما روي أن ابن الزبعرى قال: هذا شيء لآلهتنا خاصة أو لكل من دون الله عامة، فقال: بل لكل عبد من دون الله، ويكون حينئذ قوله: إن الذين، بياناً للتخصيص في الحصول تأخر عن الخطاب في النزول ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الآية 98] أي حطبها كما قرأ بها علي ﴿أَنتُمْ﴾ [الآية 98] أي كلكم ﴿لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الآية 98] أي داخلون فيها أو مارون عليها.

وأفاد الأستاذ: أن الأصنام جمادات ولا جرم لها واحتراقها ليس عقوبة في حقها ولكنه على جهة براءة ساحتها تبين أن الذنب كان لعبدتها.

---

(1) حي يقال لهم بنو مليح من خزاعة. انظر تفسير القرطبي (14/ 309).
(2) أورده الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (2/ 370) رقم (805).

﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ﴾ [الآية 99] أي الأصنام وغيرها ﴿ءَالِهَةً﴾ [الآية 99] مستحقة لأن يعبدوها ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الآية 99] ما دخلوها لأن المهان بالإلقاء والإحراق فيها لا يكون إلٰهاً ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الآية 99] دائمون لا خلاص لهم عنها.

﴿لَهُمْ﴾ [الآية 100] أي لأهلها ﴿فِيهَا زَفِيرٌ﴾ [الآية 100] شدة أنين وتنفس حزين ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الآية 100] من شدة عذابهم أو لا يسمعون ما يسرهم من خطابهم.

وأفاد الأستاذ: أن لعبدة الأصنام في النار زفير لحسرتهم على ما فاتهم من طاعتهم وهم فيها لا يسمعون نداء من يبشرهم بانقضاء عقوبتهم بخلاف عصاة المسلمين فإنهم وإن عذبوا حيناً لمعصيتهم فيسمعون قول من يبشرهم يوماً بانقضاء عقوبتهم ولو بعد طول مدتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الآية 101] الخصلة الحسنى وهي السعادة أو التوفيق للطاعة والعبادة أو البشرى بالجنة بعد حصول المحنة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الآية 101] فإن مقامهم عليُّون.

قال الحسين بن فضل: سبقت العناية وظهرت الخيانة.

وقال جنيد: من سبق من الحق إليه إحساناً فإنه لا يزال يتقلب في ميادين المحسنين إيماناً وإيقاناً إلى أن ينقلب إلى أعلى مراتب أهل الإحسان من أرباب الإرادة لقوله سبحانه: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:الآية 26]. وقال بعضهم: إذا سبقت للعبد من الله سعادة ففعلته كلها أذكاراً وعبادة وإذا سبقت للعبد من الله الشقاوة فأذكاره كلها عناء ومحنة وغفلة. وأنشد في معناه:

243/ أ / مَن لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوب[1]

وأفاد الأستاذ: أن المعنى سبقت لهم الكلمة الحسنى والمشيئة والإرادة

(1) نسب إلى نظام الملك الحسن بن علي بن إسحاق الوزير. انظر بغية الطلب في أخبار حلب (2/ 475)، والبداية والنهاية (12/ 173)، والمنتظم (9/ 66).

بالحالة التي هي صفته تعاقبت بهم في معنى الإخبار عنهم بالسعادة. ثم قال: ﴿مُبۡعَدُونَ﴾ [الآية 101] ولم يقل متباعدون ليعلم أن المدار على التقدير وسبق الحكم من الله به لا على تباعد العبد وتقرُّبه. أقول: وفي الحديث «لا مقرِّب لما باعدت ولا مُبعد لما قرَّبت، ولا مقدِّم لما أخّرت ولا مؤخِّر لما قدَّمت»[1].

﴿لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الآية 102] ما يحسُّ به فيها ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ [الآية 102] من الشهوات الحسية واللذات المعنوية ﴿خَٰلِدُونَ﴾ [الآية 102] دائمون.

قال الواسطي: أهل الحقائق لا يحسون ضجيج أهل الدنيا لأنهم منصرفون عنها لما ورد على أسرارهم من وهج حقائق المولى فهم مترددون في منازلهم العلية ومراتبهم الجلية لا يقطعهم عن ذلك قاطع في الطريقة لانغماسهم في بحور الحقيقة.

وقال ابن عطاء: للقلوب شهوة وللأرواح شهوة وللنفوس شهوة وقد جمع لهم ذلك كله في الجنة، فشهوة القلوب القرب والرؤية، وشهوة الأرواح المشاهدة، وشهوة النفوس الالتذاذ بالراحة.

وأفاد الأستاذ: أن الآية تدل على أنهم لا يعذَّبون فيها بكل وجه منها والمراد منهم السادة المؤمنون الكاملون فيهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون دائمون.

﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الآية 103] أي النفخة الأولى أو الأخيرة أو انصراف الفجار إلى عذاب النار أو حين يطبق على النار من الكفار أو حين يذبح الموت وينادي يا أهل الجنة خلود ولا موت ويا أهل النار خلود ولا فوت. واقتصر عليه السلمي.

وأفاد الأستاذ: فيما زاد أنه قيل: قول الملك ﴿لَا بُشۡرَىٰ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الفُرقان:الآية 22]، ويقال: إذا قيل ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [يٰس:الآية 59] وقيل

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 686) رقم (1868).

إذا قيل: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:الآية 108]، وقيل: ﴿الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء:الآية 103] هو الفراق وهو اليأس من رحمة الخلاق ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [الآية 103] أي عند نزع أرواحهم الطيبة كما. قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [فصلت:الآية 30] ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:الآية 30] الآية، وتستقبلهم مهنئين على أبواب الجنة ويقولن: ﴿هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الآية 103] أي اليوم الواقع في العقبى / 243/ب يوم ثوابكم الموعود في الدنيا.

وأفاد الأستاذ: أن منهم من يتلقى الملك في بشارة الثواب ومنهم من يرد عليه الخطاب بغير واسطة من رب الأرباب.

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ﴾ [الآية 104] أي نجمعها أو نمحوها أو طيّها تكرير نجومها ومحو رسومها ويؤيد الأول قوله: ﴿كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الآية 104] كطي الطومار لأجل الكتابة، يعني ليكتب فيه أو لما يكتب فيه لما كتب فيه، ويدل عليه قراءة حمزة والكسائي وحفص على الجمع أي للمعاني الكثيرة المكتوبة فيه. وهذه أقوال الخلف وقول الأكثر من السلف أن السجل ملك يطوي كتب الأعمال إذا رفعت إليه في الأحوال أو كما صح عن ابن عباس أنه كاتب كان لرسول الله ﷺ فالكتاب هذا اسم الصحيفة المكتوب فيها، وطي مضاف إلى الفاعل وعلى ما سبق إلى المفعول.

وأفاد الأستاذ: أنه إنما كان السماء سقفاً مرفوعاً حين كان الأولياء تحتها والأرض كانت فراشاً إذا كانوا فوقها، فإذا تجلى الأحباب عنها تخرب ديارهم على العادة فيما بين الخلق من تخريب الديار وذهاب الآثار بعد مفارقة أصحاب الدار. ويقال: نطوي السماء التي عرضت منها بدواوين العصاة من المسلمين لئلا تشهد عليهم بالأجرام للمذنبين وتبدّل الأرض التي عصوا فيها غير تلك الأرض حتى لا تشهد عليهم. أقول: ولعل هذا بعد شهادتهم على بعضهم وإخبارها حيث قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: الآيتان 4،5]. ويقال: نطوي السماء والأبواب

ليقرب قطع المسافة على الأحباب.

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ﴾ [الآية 104] أي نعيد ما خلقناه مبتدأ إعادة مثل بدئنا إياه في الإيجاد والإبقاء بعد العدم والعناء والإفناء، والمراد بيان صحة الإعادة بالمقايسة على البداءة لتناول القدرة القديمة لهما على التسوية. وما كافة أو مصدرية وأول مفعول لبدأنا ﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ [الآية 104] أي وعد وعداً كائناً إنجازه فلا محالة من رجوعكم إلينا ﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الآية 104] أي محققين ذلك الوعد حيث لا خلف لدينا.

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ [الآية 105] وهو كتاب داوود ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الآية 105] أي التوراة أو المراد الزبور جنس الكتب المنزلة، فالزبور/ بمعنى المزبور أي المكتوب، وبالذكر اللوح المحفوظ لأن الكل أخذ منه ودليله قراءة حمزة بضم الزاي على جمع الزبر بمعنى المزبور ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الآية 105] أي أرض الجنة أو الأرض المقدسة أو أرض الكفرة ﴿يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الآية 105] يعني عامة المؤمنين أو الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها أو أمة محمد ﷺ أجمعون.

244/أ

وأفاد الأستاذ: أن الذكر هنا بمعنى التوراة وكتب بمعنى خبر و﴿ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ أمة محمد ﷺ وهم بجمعهم قوم صالحون لنعمته وهم المطيعون وآخرون صالحون لرحمته وهم العاصون. والمعنى أخبرنا موسى عليه السلام وقومه وداوود عليه السلام وأمته أني اخترت أمة محمد ﷺ و﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الآية 105] هم الذين يرثونها، أي بوجه الكمال في الدنيا وبحسن الكمال في العقبى والكل من فضل المولى.

﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ [الآية 106] أي القرآن أو فيما ذكر في هذه السورة من الأخبار والموعظة ﴿لَبَلَٰغًا﴾ [الآية 106] لكفاية أو لسبب بلوغ إلى البغية ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ [الآية 106] هممهم العبادة دون العادة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الآية 107] مفعول له أو حال بتقدير ذا رحمة أو لإرادة المبالغة وذلك لأن ما بعثت به سبب لإسعادهم

وموجب لصلاح معاشهم ومعادهم، وهو لا ينافي أن الرحمة تتعلق بالرحمة للكفار والنعمة تبدل بالنقمة للفجار. وقيل: كونه رحمة للكفار وأمنهم به من الخسف والمسخ وعذاب الاستئصال في هذه الدار.

واختاره الأستاذ فيما أفاد حيث قال: أما من أسلم فيك ينجو وأما من كفر فلا نعذبهم ما دمت فيهم فأنت رحمة منا على الخلائق أجمعين.

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الآية 108] أي في ذاته وصفاته وأفعاله في مخلوقاته ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [الآية 108] أي مخلصون له في عبادته منقادون في قبول طاعته.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ [الآية 109] عن التوحيد في الألوهية والتفريد في الربوبية ﴿فَقُلْ آذَنتُكُمْ﴾ [الآية 109] أعلمتكم بما أمرت أني أبلّغكم ﴿عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الآية 109] مستوين في الإعلام به ولم أخصص بعضكم بتبليغه. وفيه بطلان مذهب الباطنية / وبعض الرافضة من الباطنية. 244/ب

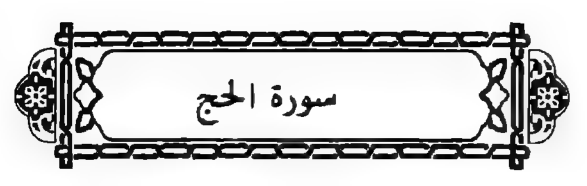
وقال الأستاذ: إن أعرضوا أو لم يؤمنوا فقل إني للإلزام أعلمتكم ولكن للإكرام ما ألهمتكم فتوجهت عليهم الحجة واستنبهت عليكم المحجة ﴿وَإِنْ أَدْرِي﴾ [الآية 109] وما أدري ﴿أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ [الآية 109] من غلبة المسلمين أو من ظهور يوم الدين لكنه كائن باليقين.

وأفاد الأستاذ: أن علمي متقاصر عن تفصيل أحوالكم في مآلكم ووقت ما توعدون به في القيامة من تحصيل آمالكم ولكن حكم الله غير مستأخر عنكم إذا أراد شيئاً من تغير أفعالكم.

﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الآية 110] كالطعن في الإسلام ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾ [الآية 110] من الأحقاد للنبي عليه السلام وأصحابه الكرام ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ [الآية 111] وما أدري لعل تأخر جزائكم استدراجٌ لشأنكم وزيادة في افتتانكم أو امتحانٌ لينظر كيف تعملون في أمر الأديان ﴿وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [الآية 111] وتمتيع لكم إلى أجل مقدر من الأحيان.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه لا يخفى عليه سركم ونجواكم وحالكم ومآلكم وظاهركم وباطنكم وعلى قدر استحقاقكم يجازيكم وبموجب أفعالكم يحاسبكم ويكافيكم، وليس يحيط علمي إلا بما يعلمني، وإعلامه إياي ليس باختياري ولا هو مقصود على حسب مرادي وإيثاري.

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ [الآية 112] أي اقض بيننا وبين أهل مكة بالعدل المقتضي لأن تعجل عليهم العقوبة. وقرأ حفص قال على الحكاية من امتثال الطاعة ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الآية 112] كثير الرحمة والمنة ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ [الآية 112] المطلوب منه المعونة ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [الآية 112] من أن الشوكة تكون لكم في العاقبة.



سورة الحج

[مكيَة]

وهي ثمان وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أي بسم إلٰه هو المطلوب بالحج، والمقصود بالحج، والمراد بالحج، فلا يُحج إلا إليه ولا يُلبّى إلا إليه، ولا يُنادى إلا عليه، ولا يُذبح إلا لديه.

وأفاد الأستاذ: إن سماع بسم الله يوجب الغيبة والغيبة قضية إلٰهية وذلك وقت محوهم، وسماع الرحمٰن الرحيم يوجب الأنس والقربة وذلك وقت صحوهم. فسماع بسم الله يوجب انزعاج القلوب وبه يحصل شفاء فتونهم، فعودة فتونهم في لطف جماله كما أن موجب جنونهم في كشف جلاله.

245/ أ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ [الآية 1] أي مخالفته أو معاقبته وقابلوا الربوبية بما يقتضيه من العبودية. قيل: معناه يا بني النسيان والجهل في العرفان.

وقال جعفر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كونوا من الناس فلا تغفلوا عن الله أي بالاستئناس بما سواه فمن عرف أن من الإنسان الذي خص خلقته بما خص به كبرت همته عن دنيّ المنازل وسمت به الرفعة حتى يكون للحق بعنايته ثم إلى ربك المنتهى.

وقال أبو يزيد: التقوى كل التقوى من إذا قال قال الله ولم يقل لغيره وإذا نوى نوى لله ولم ينو لغيره هكذا في جميع ما يبدأوا منه. ويروى عن أبي سعيد الخدري أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أوصني، فقال: اتقِ

الله فإنها جماع كل خير[1]، ذكره السلمي.

وأفاد الأستاذ: أن ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ نداء علامة و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ نداء كرامة وبكل واحد من القسمين في الصور يفتتح الحق خطابه في الصورة وذلك لانقسام خطابه إلى صفة التحذير مرة وصفة التبشير كرة، والتقوي هو التحرز والانتهاء وتجنُّب المحظورات فرض وتجنُّب الفضلات والشواغل وإن كانت من جملة المباحات نفل، فثواب الأول أكثر لكنه مؤجل وثواب النفل أقل ولكنه معجل. ويقال: خوفهم بقوله: اتقوا، ثم سكن ما بهم من الخوف بقوله: ربكم، فإن سماع التربية يوجب الاستقامة وجميل الكفاية.

﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الآية 1] تحريكها للأشياء جميعها على الاستواء والمجاري فإن الأشياء تتحرك بسببها وتحريك الأشياء فيها ﴿شَيْءٌ﴾ [الآية 1] أي باعتبار مآله ﴿عَظِيمٌ﴾ [الآية 1] لشدة أهواله علّل أمرهم بالتقوى في الطاعة لفظاعة الساعة ليتصوروها في نفوسهم ويعلموا بقلوبهم أنه لا ينفعهم في دار العقبى إلا التذرُّع بلسان التقوى فيبقوا على أنفسهم في الدنيا ويبتغوها بملازمة التقوى. وقيل: هي زلزلة تكون قبيل طلوع الشمس من مغربها وإضافتها إلى الساعة لأنها من أشراطها، ويؤيده ظاهر قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ﴾ [الآية 2] أي تنشغل بنفسها ﴿عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الآية 2] من ولدها لكثرة هولها وشدة نكدها ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ [الآية 2] أي تُسقط جنينها في غير/ محلها ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾ [الآية 2] أي كأنهم سكارى ﴿وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ﴾ [الآية 2] أي على الحقيقة بل حيارى ﴿وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الآية 2] فتغير الأحوال حينئذ ليس ببعيد. وقرأ حمزة والكسائي: سَكرى.

245/ ب

قال جعفر: سكرهم لما شاهدوا من بساط العز وسلطان الجبروت وسرادق الكبرياء والعظموت حتى كل نبي يقول نفسي نفسي.

---

(1) أخرجه أبو يعلى في المسند (2/ 283) رقم (1000).

وأفاد الأستاذ: أن منهم من سكره لما يصيبه من الأهوال ومنهم من سكره لاستهلاكه في عين الوصال كما أن اليوم منهم من سكره سكر الشراب ومنهم من سكره سكر المحاب وشتان بين سكر أهل الغفلة وبين سكر أهل الوصلة.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ [الآية 3] في توحيد ذاته وتفريد صفاته أو في أمر دينه من جميع جهاته ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الآية 3] أي بكتابه وآياته ﴿وَيَتَّبِعُ﴾ [الآية 3] في مجادلته أو عموم حالته ﴿كُلَّ شَيۡطَٰنٖ مَّرِيدٖ﴾ [الآية 3] متجرد للفساد ومريد لضلال العباد.

قال سهل: يخاصم في الدين بالهوي والقياس بالأهواء دون الاقتداء بالأنبياء والأولياء فعند ذلك يضل ويضل ويبتدع ويدخل في سلك السفهاء.

وأفاد الأستاذ: أن المجادلة لله مع أعداء الحق من موجبات القربة والمجادلة في الله بالمهاداة مع أوليائه والإصرار على الباطل بعد ظهور دلائل الحق من أمارات الشقاوة.

﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ﴾ [الآية 4] أي على الشيطان المريد ﴿أَنَّهُۥ﴾ [الآية 4] أي الشأن أو الشيطان ﴿مَن تَوَلَّاهُ﴾ [الآية 4] تبعه ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الآية 4] أي ويدله إلى ما يجره إلى عذاب يستحقه بحسب التقدير.

وأفاد الأستاذ: أن من وافق الشيطان بمتابعة دواعيه من العصيان فالشيطان لا يهديه إلا إلى الضلال والطغيان ثم إنه يتبرأ من موافقته ويلعن أصحاب مرافقته فتعوذوا بالله من الشيطان ونزعاته ومن درك الشقاء وشؤم فجاءته.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ﴾ [الآية 5] من إمكان الإعادة ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم﴾ [الآية 5] حال البداءة ﴿مِّن تُرَابٖ﴾ [الآية 5] بخلق آدم منه أو الأغذية التي يتكون منها المني ﴿ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ﴾ [الآية 5] وأريد به جنسه ﴿ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ [الآية 5] قطعة من الدم جامدة ﴿ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ﴾ [الآية 5] قطعة من اللحم كأنها ممضوغة ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [الآية 5] تامة وناقصة ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡ﴾

246/ أ [الآية 5]/ قدرتنا وصنعتنا وحكمتنا ﴿وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الآية 5] أي نقرّه ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الآية 5] وهو وقت الوضع وأدناه بعد ستة أشهر وأقصاه سنتان عند الحنفية وأربع عند الشافعية ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الآية 5] حال كون كل منكم طفلاً، أو المعنى أطفالاً على إرادة الجنس ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ [الآية 5] كمالكم في القوة والفعل ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ﴾ [الآية 5] عند بلوغ الأشد وقبله ﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾ [الآية 5] الهرم والخرف ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الآية 5] ليعود كهيئته الأولى في أوان الطفولية من سخافة الغفلة وقلة الفهم في الأمور الكلية والجزئية.

وأفاد الأستاذ: أن أرذل العمر الذلة في مشيب الزمان أو الإقامة في منازل العصيان أو التعريج في أوطان المذلة أو العيش مع الأضداد أو عيش المرء بحيث لا يعرف قدره أو أن يوكل إلى نفسه أو التطوح في أودية الحسبان إن شيئاً بغير الله كان أو هو الإخلاد إلى تدبير النفس والخلق والغفلة عن شهود تقدير الخلق.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً﴾ [الآية 5] ميتة يابسة وجامدة ساكنة ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ [الآية 5] تحركت واضطربت ﴿وَرَبَتْ﴾ [الآية 5] انتفخت وارتفعت ﴿وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الآية 5] من كل صنف حسن ونوع مستحسن.

﴿ذَٰلِكَ﴾ [الآية 6] ما ذكر من خلق الإنسان في أطوار مختلفة وتحويله عن أحوال متضادة وإحياء الأرض بعد موتها بأشكال مؤتلفة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الآية 6] أي بسبب أنه الثابت في ذاته ويتحقق بإيجاده جميع مكوّناته ﴿وَأَنَّهُۥ يُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ [الآية 6] كما أحيا النطفة والأرض الميتة فهو حق وكلامه صدق.

وفي تفسير السلمي: يحيي الموتى بالعلوم في الدنيا وبالأرواح في العقبى.

وأفاد الأستاذ: أن الأرض التي أصابتها وحشة الشتاء يحييها وقت الربيع وحسن الهواء. ويقال: يحيي النفوس بتوفيق العبادة ويحيي القلوب بتحقيق المشاهدة. ويقال: يحيي أحوال المريدين بحسن إقباله عليها. ويقال:

يحيي الأوقات بموافقة الأمر ثم بجهل الرضا وسكون الجأش عند جريان التقدير بحكم القضاء ﴿وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الآية 6] من إيجاد وإمداد وإفناء وإبداء وتيسير وتفسير.

246/ ب ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا﴾ [الآية 7] ومن مات فقد قامت/ قيامته[1] ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الآية 7] على أشكالهم الأولية وهيآتها كما يعيشون يموتون وكما يموتون يُحشرون.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ [الآية 8] كرّر الآية لما أنيط به من الدلالة بقوله: ﴿وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [الآية 8] لا سبيل العقل ولا طريق النقل أو من غير الكتاب والسنَّة لحديث: «خير الهدي هدي محمد»[2] فالمراد بالعلم العلم الفطري الضروري ليصح عطف العلم النظري. كذا قيل والأظهر أنه من قبيل العطف التفسيري وأن المراد بالعلم هو الإجمالي وبما بعده التفصيلي.

﴿ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ﴾ [الآية 9] أي لاوي عنقه متكبِّراً ومعرضاً عن الحق متحيراً ﴿لِيُضِلَّ﴾ [الآية 9] أي غيره متحيراً ﴿عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 9] وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، وفيه تنبيه على أن علة الجدال هو الإقبال على الإضلال لغيره والخروج عن الهدى إلى الضلال بنفسه والمعنى ليصير ضالاً مضلاً في جداله ﴿لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ﴾ [الآية 9] أي هوان ومذلة ﴿وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ﴾ [الآية 9] عقاب الحرقة وحجاب الفرقة.

﴿ذَٰلِكَ﴾ [الآية 10] الجزاء والتعذيب مما لحقك ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ﴾ [الآية 10] بسبب ما عملته من الكفر والمعاصي هنالك ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [الآية 10] وإنما هو مجاز لهم على أعمالهم وفق أحوالهم وصيغة المبالغة لإرادة إفادة الجمعية الدالة على المقابلة أو المعنى ليس بذي ظلم فعّال للنسبة ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖ﴾ [الآية 11] على طريق من الدين لا ثبات له فيه لعدم اليقين

(1) هذا اللفظ ورد في حديث في كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال رقم (42123) باب ذكر الموت.
(2) أخرجه أبو يعلى في المسند (4/ 90) رقم (2119).

كمن وقف على جانب من عسكر المجاهدين ﴿فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ﴾ [الآية 11] من مطلوبه ﴿ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ﴾ [الآية 11] وسكن قلبه بسببه ﴿وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ﴾ [الآية 11] محنة وبلية امتحاناً من ربه ﴿ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الآية 11].

قال الواسطي: على رهن ارتهنه هنالك فاطمأن إليه لذلك ﴿خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ [الآية 11] لذهاب عصمته في الدنيا وهبوط عمله في العقبى ﴿ذَٰلِكَ﴾ [الآية 11] أي الجمع بين الخسرانين ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الآية 11] الظاهر أمره عند أرباب اليقين. قيل الخسران في الدنيا ترك الطاعات ولزوم المخالفات والخسران في العقبى كثرة الخصومة والتبعات.

وقال يحيى بن معاذ الرازي: الناس من مخافة فضيحة الدنيا وقعوا في فضائح الأخرى ومن أجل نفوسهم/ أهلكوا نفوسهم. 247/ أ

وأفاد الأستاذ: أن المعنى يكون على جانب غير مخلص لا شهوداً يوجب الوفاق ولا جحوداً يقتضي الشقاق فإن أصابه خصب وأمن وسعة سكن إليه وإن أصابته فتنة وتالفة محنة ارتد على عقبه وسار ناكصاً وصار لما أظهر من وفاقه عاكساً.

﴿يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ [الآية 12] ما لا يقدر على مضرة ومنفعة لنفسه ولا لغيره ﴿ذَٰلِكَ﴾ [الآية 12] أي دعاء من هذا وصف حاله ومآله ﴿هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ﴾ [الآية 12] عن مقصد آماله.

قال ابن عطاء: مَن ركن إلى شيء سوى ربه فقد ركن إلى ما يضره ولا ينفعه ومن اعتمد على الله فيما عبده ودعاه فقد اعتمد على الضار النافع الذي منه الكل على وفق ما قضاه.

﴿يَدْعُوا۟﴾ [الآية 13] يزعم ﴿لَمَن ضَرُّهُۥٓ﴾ [الآية 13] أي لا بنفسه بل بنسبه بكونه معبوداً لأنه يوجب القتل في الدنيا والعذاب في العقبى ﴿أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [الآية 13] الذي يتوقعه عابده بعبادته من حصول شفاعته ووصول التوسل إلى الله وقربته ﴿لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ﴾ [الآية 13] الناصر النافع ﴿وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ﴾ [الآية 13] الصاحب الشافع هو.

وقال الأستاذ: مَن المضرة في عبادته أكثر من المنفعة بل ليس في عبادته المنفعة البتة، وهو بيان ركاكة عقلهم ورؤية الناس خطأ فعلهم وأن النفع الذي يتوقعونه من عبادة الأصنام ليس له حقيقة في اليقظة ولا في المنام، لبئس الناصر الصنم لهم ولبئس القوم هم للصنم ولم لا ولأجله وقعوا في عقوبة الأبد ونهاية الألم وغاية البلاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الآية 14] أي بفضله وكرمه وتوفيقه للإيمان وعمله ﴿جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ﴾ [الآية 14] أي من تحت الأشجار المنتجة للأزهار والأثمار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [الآية 14] من إثابة الأبرار وعقوبة الفجار من غير دافع ومانع في الدار حيث ليس في الدار غيره ديار.

وأفاد الأستاذ: أنهم صدقوا ثم حققوا فالإيمان ظاهره التصديق وباطنه التحقيق ولا يصل العبد إليهما إلا بالتوفيق. ويقال: الإيمان ما يوجب الأمان ففي الحال يجب الأمان وفي المآل يوجب الأمان، فمعجل الأمان من عقوبة المسلمين ومؤجله بالخلاص من صحبة الكافرين/ والفاجرين والعمل الصالح ما يصلح للقبول ويصح للثواب والوصول وهو أن يكون على الوجه الذي تعلق به الأمر في الحصول والجنان منها مؤجلة بأحوال قربة ومعجلة بإيصال مثوبة. قال تعالى: ﴿وَلِمَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية 46] أي جنة في الدنيا وأخرى في الأخرى.

247/ ب

﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ﴾ [الآية 15] أي لن ينصر رسوله أو لن يرزقه ولن يقبل سؤله ﴿فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الآية 15] فليمت من غيظه كما عبر عنه بقوله: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ﴾ [الآية 15] إلى حبل ممدود ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية 15] سقف بيته ﴿ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ [الآية 15] نفس نفسه به باختناق حلقه ﴿فَلۡيَنظُرۡ﴾ [الآية 15] فليتصور وليتفكر ﴿هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ﴾ [الآية 15] أي هل يدفع عند فعله غيظه.

وأفاد الأستاذ: أن الحق سبحانه يرغم أعداء رسوله فمن لم يطلب نفسه

بشهود تخصيص الله سبحانه بما أفرده ليقتل نفسه من الغيظ خنقاً ثم لا ينفعه ولذلك قيل:

إن كنت لا ترضى بما قد ترى فدونك الحبل به فاختنق[1]

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ [الآية 16] ومثل ذلك الإنزال ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الآية 16] أي القرآن بالكمال ﴿ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ﴾ [الآية 16] حال كونه مشتملاً على دلالات واضحات ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى﴾ [الآية 16] أولاً ويثبت على الهداية ثانياً ﴿مَن يُرِيدُ﴾ [الآية 16] هناءه وثباته. والتقدير وأنزله كذلك مبيناً مجمله.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه نصب لعباده دلالات وعلامات فمنها ما هو قضية الفعل ومنها ما هو نتيجة النفل، ومنها ما هو تعريفات في أوقات المعاملات مما يجده العبد في اختلاف الحالات من انفلات وقت واستعداد قبض وحصول خسران ووجوه امتحان لا شك ولا مرية إذا أخل بمأمور أو ألمّ بمحظور. ومن زيادة بسط وحلاوة طاعة وتيسير عسير من أمور عاداته وتجديد أنعام عند حصول شيء منه من طاعاته ثم قد يكون آيات هي في الإسرار خطاب من الحق ومحادثة معه في الحال المطلق كما في الخبر لغة «[لقد] كان في الأمم محدثون فإن يك في أمتي فعمر»[2]. ثم يقال: الآيات ظاهرة والحجج زاهرة ولكن الشأن فيمن يستبصر البرهان ويشاهد البيان على وجه العيان.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ [الآية 17] أي وسائر/ المشركين والكافرين ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الآية 17] بإظهار الحق منهم عن المبطل بالحكومة أو بالجزاء والمثوبة فيجازي كلاً بما يليق به ويدخله المحل المُعد لمثله، ودخلت إن على كل من الاسم 248/ أ

(1) ذكر من دون نسبة لأحد. انظر تفسير القشيري (5/ 178)، والكشكول (1/ 129)، والمستطرف (1/ 72).

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك (3/ 92) رقم (4499)، والترمذي في الجامع الصحيح (5/ 622) رقم (3693)، وابن حبان في الصحيح (15/ 317) رقم (6894).

والخبر لمزيد التأكيد في الأثر كقول بعضهم: إن الخليفة إن الله فضله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [الآية 17] مطلع على أعماله ومراقب لأحواله.

وأفاد الأستاذ: أن لأصناف الناس على اختلاف مراتبهم من المولي والعدو والموحد والجاحد يجمعون يوم الحشر لدى الواحد الماجد ثم الحق سبحانه يعامل كلاً بما وعدهم إما بوصال بلا مدى أو بأهوال بلا منتهى، الوقت واحد وكل واحد لما أُعد له واجد، وعلى ما خلق له وارد.

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسۡجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الآية 18] ينقاد لقدرته ويتسخر لعظمته، وأورد من تغليباً لذوي العقول على غيره إيماء إلى أنه أولى به، ولذا قال: ﴿وَٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلۡجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ﴾ [الآية 18] إفراداً بالذكر لسحرتها ولشهرتها أو استبعاد ذلك منها لبعض ذوي العقول القاصرة عنها ﴿وَكَثِيرٞ مِّنَ ٱلنَّاسِۖ﴾ [الآية 18] أي يسجدون له سجود طاعة تورث الثواب ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيۡهِ ٱلۡعَذَابُۗ﴾ [الآية 18] بكفره وإبائه عن طاعة ربه ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ﴾ [الآية 18] بالشقاوة ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ﴾ [الآية 18] يكرمه بالسعادة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الآية 18] من الإهانة والإكرام لمن يشاء من الأنام.

قال السياري: مَن قدر الله عليه الإهانة في السبق لا يقدر على كرامته أحد من الخلق.

وأفاد الأستاذ: أن أهل العرفان يسجدون سجود عبادة وأرباب الجحود يسجد كل جزأ منهم سجود دلالة وشهادة كما قيل:

وفي كل شيء له شاهد ... يدلّ على أنه واحد

﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ﴾ [الآية 19] أي فوجان مختصمان ولذا قال: ﴿ٱخۡتَصَمُواْ﴾ [الآية 19] حملاً على المعنى وهو أولى من رعاية المبنى، والمراد بهم المؤمنون والكافرون ﴿فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ [الآية 19] أي في ذاته وصفاته أو في دينه ومتعلقاته ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الآية 19] فصل لخصومتهم وعدل وفضل في رتبتهم ﴿قُطِّعَتۡ لَهُمۡ﴾ [الآية 19] قدرت على مقادير جثتهم ﴿ثِيَابٞ مِّن نَّارٖ﴾ [الآية 19] قطع من نار تحيط بهم وفيه تنبيه على تفاوت مراتب عقوبتهم ﴿يُصَبُّ مِن فَوۡقِ رُءُوسِهِمُ ٱلۡحَمِيمُ﴾

[الآية 19] الماء الحار الأليم.

﴿يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ/ وَٱلْجُلُودُ﴾ [الآية 20] يُذاب به بواطن أحشائهم كما 248/ ب يذوب به ظواهر أعضائهم ﴿وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الآية 21] مضارب شديد ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا﴾ [الآية 22] من قعرها إلى ظهرها ﴿مِنْ غَمٍّ﴾ [الآية 22] أي من أجل غم يغم أهلها ﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ [الآية 22] أي في مكان أول أو محل أسفل منها ﴿وَذُوقُواْ﴾ [الآية 22] أي وقيل لهم لهذا الفريق ﴿عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الآية 22].

وقال الأستاذ: أما الذين كفروا فلهم اليوم لباس الشرك والكفران وطرازه الحرمان ثم صدارة العصيان وحيازة الخذلان وفي الآخرة لباسهم القطران وطرازه الهجران. وأما الذين آمنوا في الدنيا وآمنوا في العقبى فلباسهم اليوم التقوى وينقسم إلى اجتناب الشرك ثم مجانبة المخالفة ثم مباينة الغفلة ثم محاذرة السكون إلى غير الله والاستشعار إلى ما سواه. وفي الآخرة لباسهم على حسب أوقاتهم في الدنيا وحالاتهم في العقبى، فالعباد لباسهم فيها حرير الجنة وآخرون لباسهم صديد المحنة، وآخرون لباسهم الانفراد بهم في الخلوة والحضرة، والآخرون هم أصحاب التجريد التام، فلا حال ولا مقام ولا منزلة ولا محل ولا مرام وهم القرباء وهم الطبقة العليا أحرار عن رق كل ما لحقه التكوين من الإفناء والإبداء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الآية 23] وغيَّر الأسلوب للإشارة إلى التفنن في العبارة ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ﴾ [الآية 23] أي حلياً منها ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ [الآية 23] بيان لها ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ [الآية 23] عطف عليها ونصبه نافع وعاصم عطفاً على محلها ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [الآية 23].

وأفاد الأستاذ: أن التجلية تحصين لهم وستر لأحوالهم فهم للجنة وليس لهم بالجنة زينة.

وإذا الـدر زان حـسـن وجـوه كان للدر حسن وجهك زينا[1]

﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ [الآية 24] أي كلمة التوحيد في الدنيا ونحو قولهم الحمد لله الذي صدقنا وعده في الأخرى ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [الآية 24] المحمود ذاته أو عاقبته أو الحميد الكريم وصراطه القويم والطريق المستقيم.

قال ابن عطاء: الطيب من القول ذكر الله.

وقال جعفر: هو الأمر بالمعروف. وقال بعضهم: هو نصيحة المسلمين. وقيل: هو قراءة القرآن، كذا في «تفسير/ السلمي». 249/ أ

وأفاد الأستاذ: أن الطيب من القول ما صدر عن قلب خالص وسر صاف مما رضي به علم التوحيد الذي لا اعتراض عليه لأصول التفريد. ويقال: الطيب من القول ما يرضاه الحق سبحانه أو هو ما يخاطب الله به على وجه الثناء دون الحاجة والدعاء، أو هو إرشاد المرشدين ووعظ المسترشدين. ويقال: الدعاء للمسلمين، ويقال: هو بيان للاستغفار والعبد يرى من الذنوب والإصرار وأما صراط الحميد فهو ما شهد له الشريعة بالصحة ولا يكون للحقيقة عليه النكرة أو ما كان طريقة الاتباع دون الابتداع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 25] أي يعرضون عن دينه وحصوله أو يمنعون الناس عن دخوله ووصوله ﴿وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ [الآية 25] أي عن الحرم نفسه أو عن سبيله ﴿ٱلَّذِي جَعَلۡنَٰهُ لِلنَّاسِ﴾ [الآية 25] أي لدخوله للواردين ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ﴾ [الآية 25] المقيم فيه ﴿وَٱلۡبَادِۚ﴾ [الآية 25] الطارىء، وسوى خبر معدم، والجملة مفعول ثان لجعلناه للناس حال من الهاء ونصبه حفص على أنه المفعول والعاكف مرتفع به لأنه مصدر في معنى اسم الفاعل، أي مستوٍ فيه القاعد والوافد والغني والفقير والحقير والأمير والصغير والكبير والقريب لأنه بيت الرقيب المجيب ومنزل الحبيب الطبيب.

---

[1] نسب إلى عدّة شعراء منهم كثير بن عزة، وإلى الأحوص، ومالك بن أسماء.

قال محمد بن علي الترمذي: الفتوة أن يستوي عندك الطارىء والمقيم يعني فإنها من صفة الكريم ونعت الحليم.

وأفاد الأستاذ: أن الصد عن المسجد الحرام بإضافة السبل على قاصدي هذا المقام وبنصب المال الذي لو بقي في يد صاحبه لوصل به إلى المشعر الحرام. وقوله: ﴿سَوَآءً ٱلۡعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلۡبَادِۚ﴾ [الآية 25] يشير إلى أنه يعتبر به السبق للمرام والتقدم في ذلك المقام فمنى مناخ من سبق من الأنام ومشهد الكرام يستوي فيه الإقدام فمن وصل إلى ذلك المحل فلا ترتيب ولا رد وبعد الوصول فلا زجر ولا صد، وفي أثناء الطريق ربما يعتبر التقدُّم والتأخر في الفريق. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَقۡدِمِينَ مِنكُمۡ وَلَقَدۡ عَلِمۡنَا ٱلۡمُسۡتَـٔۡخِرِينَ ٢٤﴾ [الحجر: الآية 24] ولكن لا تباين في الوصول ولا تباين في الحصول. ثم إذا اجتمعت النفوس/ فيها فالموضع الواحد يجمعهم لها ولكن لكل حال يعود بها. 249/ ب

﴿وَمَن يُرِدۡ﴾ [الآية 25] أي أيَّ مراد ﴿فِيهِ بِإِلۡحَادِۭ﴾ [الآية 25] أي ميل عن العدل أو عدول عن الفضل ﴿بِظُلۡمٖ﴾ [الآية 25] كالشرك بالأصنام واقتراف الآثام ﴿نُّذِقۡهُ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ [الآية 25] ينسي سائر الآلام.

﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا﴾ [الآية 26] عيَّنّا وهيَّأنا ﴿لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [الآية 26] الكريم لنا. قيل: رفع البيت الذي بناه الملائكة إلى السماء أيام الطوفان فأعلمه الله مكانه في ذلك الزمان ﴿أَن لَّا تُشۡرِكۡ﴾ [الآية 26] أي ناديناه فإن مخففة أو مفسرة أي لا تشرك ﴿بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ﴾ [الآية 26] من الأقذار والأوزار ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ﴾ [الآية 26] أي العاكفين من المقيمين والمعتكفين ﴿وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الآية 26] أي المصلِّين.

قال ابن عطاء: وفقناه لبناء البيت وهديناه إليه وأعنا عليه وجعلناه مسكناً له ولمن بعده من الأنبياء والأولياء والصدِّيقين إلى يوم الدين وأمرنا الخليل عند بنائه أن لا يرى فعله ولا بناءه ولا عمله ولا يشرك بنا في ذلك شيئاً من أمره وحوله.

وأفاد الأستاذ: في قوله طهر بيتي يعني الكعبة، وهذا على لسان العبارة

وعلى بيان الإشارة فرِّغ قلبك عن الأشياء سوى ذكره سبحانه بالدعاء والثناء. وفي بعض الكتب أوحى الله إلى بعض الأنبياء: فرِّغ لي بيتاً أسكنه، فقال: إلٰهي أي بيت يسعك، فقال تعالى: ذلك قلب عبدي المؤمن. قلت: وهذا معنى ما ورد في الحديث القدسي والكلام الأنسي: «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[1].

ثم قال الأستاذ: وتفريغ القلب على أقسام، أوله: من الغفلة والنسيان ثم من توهم شيء من الحدثان من غير الرحمٰن. ويقال: قد تكون المطالبة على قوم بصون القلب عن ملاحظة الأعمال وتكون المطالبة على الآخرين بحراسة القلب عن المساكنة إلى الأحوال. ويقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الآية 26] أي قلبك عن التطلع والاختيار لأن يكون لك عند الخلق نوع من الجاه والاعتبار بل ولا يكون لك عند الله جاه في الدنيا أو حظ في العقبى حتى تكون عبداً له بكمال القيام لحقائق العبودية كما يقتضيه كمال النظام من حقوق الربوبية. ويقال: 250/أ ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الآية 26] أي قلبك بإخراج كل/ نصيب في الدنيا والأخرى من تطلع إكرام أو تطلُّب إنعام أو إرادة مقام أو طلب حال من اختيار واستقلال. ويقال: طهِّر قلبك للطائفين بها من موارد الأحوال على ما يختاره الحق المتعال والعاكفين وهي الأشياء المقيمات من مستوطنات المعرفة في القلب من الأمور الغيبية وتطلعه بما هي حقائق البيان التي هي كالعيان كما في الخبر: «أعبد الله كأنك تراه»[2]. والرُّكع السجود ما هي أركان الأحوال المتوالية من الرهبة والرغبة والرجاء والمخافة والقبض والبسط والمحو والصحو والفناء والبقاء. وفي معناه أنشدوا:

لست من جملة المحبين إن لم ... أجعل القلب بيته والمقاما
وطوافي إجالة السر فيه ... وهو ركني إذا أردت استلاما[3]

ويقال في قوله: ﴿لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الآية 26] لا تلاحظ البيت ولا

(1) سبق تخريجه. (2) سبق تخريجه.
(3) نسب إلى الشبلي. انظر مختصر تاريخ دمشق (8/ 309).

بنائك للبيت. ويقال: هو شهود البيت والاستغراق في شهود رب البيت.

﴿وَأَذِّن﴾ [الآية 27] أي نادِ ﴿فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾ [الآية 27] أي بأن يحجوا بيت ربهم ويقصدوا شعائر دينهم. روي أن إبراهيم عليه السلام صعد أبا قبيس أو المقام فقال: يا أيها الناس حجوا بيت ربكم، فأسمعه الله مَن في أصلاب الرجال وأرحام النساء فيما بين المشرق ممن سبق في علم الله[1] أن يحج فلبى روحه بلسان القال أو ببيان الحال أو الخطاب لنبينا ﷺ أمر بذلك في حجة الوداع سنة ست من الهجرة والله أعلم.

وجاء رجل إلى جنيد يستأذنه في الحج على التجريد فقال: جرِّد أولاً قلبك من السهو ونفسك من اللهو ولسانك من القول ثم استأذن حيث شئت ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الآية 27] مشاة جمع راجل كقائم وقيام ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الآية 27] أي وركباناً على كل بعير مهزول أتعبه بعدُ السفر وهزله. وفي تقديم المشاة إشارة إلى أن فضلهم أظهر وأجرهم أكثر لأن تعبهم أكبر.

وقال الأستاذ: لأن الحمل على المركوب أكثر ولتلك الجمال على سائر الجمال خصوصية أي في زيادة الجمال لأنها مركب الأحباب أي إلى عتبة الأبواب، وفي قريب من معناه أنشدوا ما مبناه:

/ وإن جمالاً قد علاها جمالكم وإن قطعت أكبادنا لحبائب[2] 250/ ب

﴿يَأْتِينَ﴾ [الآية 27] أي الجمال الضامرة ﴿مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الآية 27] أي طريق بعيد.

وأفاد الأستاذ: إن هذا على جهة المدح لهم وسبيل الشكر منهم وإلا فكم مقدار مسافة الدنيا بجملتها في مدة سيرهم ولكن لأجل قدر فعلهم وتعظيم صنعهم يقول ذلك إظهاراً لفضله وكرمه بهم.

﴿لِّيَشْهَدُوا﴾ [الآية 28] ليحضروا ﴿مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ [الآية 28] دينية ودنيوية.

---

(1) تفسير النيسابوري (5/ 398).

(2) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 187).

قال ابن عطاء: ما وعد الله لهم من القربة والزلفة.

وأفاد الأستاذ: أن أرباب الأموال منافعهم أموالهم وأرباب الأعمال منافعهم حلاوة طاعاتهم وأرباب الأحوال منافعهم صفاء أنفسهم وأهل التوحيد منافعهم رضاهم باختيار الحق ما يبدو من الغيب لهم ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ [الآية 28] عند إعداد الضحايا وإمداد الهدايا فإن العطايا على قدر المطايا ﴿فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ﴾ [الآية 28] هي أيام ليالي عشر ذي الحجة وهذا مذهب أبي حنيفة والشافعي أو أيام النحر وهو قول أبو يوسف ومحمد ﴿عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا﴾ [الآية 28] أي بعضها أمر إباحة إزاحة لما عليه الجاهلية من التحرُّج فيه أو نداء إلى مواساة الفقراء أو مساواتهم، وهذا في المتطوع به دون الواجب إلا دم القران والتمتع عند الحنفية ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ﴾ [الآية 28] أي ذا بأس وشدة يأس ﴿الْفَقِيرَ﴾ [الآية 28] المحتاج الكسير، والأمر فيه للوجوب عند الشافعية وللندب عند الحنفية، وقد قيل بالوجوب في الأكل أيضاً.

قال أبو عثمان: أدّب الله عباده أن لا يطعموا الفقير إلا ما يأكلون ولا يجعلون لله ما يكرهون وهو أن يشاركوهم في مآكلهم ومشاربهم وملابسهم ومنازلهم.

وقال ابن عطاء: البائس الذي تأنف بمجالسته ومؤاكلته والفقير من لم تعلم حاجته إلى طعامك إن لم تسأل حالته.

وأفاد الأستاذ: أنهم يذكرون اسم الله على ما رزقهم من بهيمة الأنعام عند التقرُّب بقرابينهم وسوق هديهم وآخرون يذكرون عند ذبحهم أمانيهم واختيارهم بسكاكين البأس حتى يقوموا لله بالله بمحو ما سوى الله فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير شاركوا الفقراء في ذبيحتكم الذي ليس بواجب عليكم لتلحقكم بركات الضعفاء، والإشارة فيه/ أن ينزلوا ساحة الخضوع والتواضع ومجانبة الزهو والتكبُّر والخيلاء. 251/ أ

﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ﴾ [الآية 29] ليزيلوا وسخهم ويميطوا شعثهم عند فراغ عملهم ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الآية 29] من البر في حجهم وسائر قصدهم

﴿وَلْيَطَّوَّفُوا﴾ [الآية 29] طواف الركن أو طواف الوداع إن كان آفاقياً ﴿بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الآية 29] القديم لأنه أول بيت وُضِع للناس أو المعتق من تسلُّط الجبابرة عليه، فكم من جبَّار على قصد هدمه سار إليه فمنعه الله وحماه لديه.

قال السلمي في تفسيره: سئل الجورجاني ما الإشارة في شعر المحرم، فقال: ترك التصنع لما شهد الحق منك والإعراض عن العناية بنفسك أي للاهتمام بأمرك.

وقال الأستاذ: ليقضوا حوائجهم ويحققوا عهودهم وليوفوا نذورهم فيما عقدوه مع الله بقلوبهم فمن كان عقده التوبة فوفاؤه أن لا يرجع إلى العصيان، ومن كان عهده اعتناق الطاعة فشرط وفائه ترك تقصيره في باب الإحسان، ومن عقده أن لا يرجع إلى طلب مقام وتطلع إكرام فوفاؤه استقامته. وعلى الجملة التي دخل في هذا الطريق بأن لا يرجع إلى استعجال نصيب أو اقتضاء حظ والله ولي التوفيق. ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الآية 29] الإشارة أن يطوف بنفسه حول البيت وبقلبه في سماء الملكوت وبسره في ساحة الجبروت.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ اللَّهِ﴾ [الآية 30] أي محرماته من نحو البيت الحرام والمسجد الحرام ونفس الحرم والإحرام وسائر أحكام الإسلام ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الآية 30] أي فتعظيمه محض خير ونفع له عند ربه من جهة ثوابه وأجره وتقرُّب أمره.

قال الواسطي: هو أن لا يلامس محرماً في دينه ولا يخالف أمراً ولا نهياً في فعله. وقيل: أن لا يلاحظ شيئاً من كونه.

وأفاد الأستاذ: إن تعظيم الحرمات بتعظيم أمره وتعظيم أمره بترك مخالفته لحكمه. ويقال: من طلب العناء بغير رضا الله لم يبارك له فيما آثر من هواه على رضاه مولاه ولا محالة سيلقى سريعاً غبة جزاءه. ويقال: تعظيم حرماته بالغيرة على إمائه وما فَجَرَ صاحب حرمة قط. ويقال: ترك الخدمة يوجب العقوبة وترك الحرمة يوجب الفرقة. ويقال: كل شيء من المخالفات/ 251/ب

فللعفو فيه مساغ وللأمل إليه طريق وترك الحرمة على خطر أن يغفر وذلك بأن يؤدي شؤمه بصاحبه إلى أن يحتل ركن دينه وتوحيده.

﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية 30] من الأحكام ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الآية 30] أي الرجس الذي هو الأوثان، فمن بيانية. أو فاتقوا العذاب من أجل عبادة الأوثان، فمن ابتدائية. والمعنى الأول هو المعول فإنه يفيد غاية المبالغة في النهي عن طاعتها والتنفير عن عبادتها ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الآية 30] وهو الافتراء على الله بأن له ولداً ونحو ذلك. وقيل: المراد به شهادة الزور.

وأفاد الأستاذ: أن من جملة ذلك قول اللسان بما لا يساعده الجِنان ومن عاهد الله بقلبه ثم لا يفي بأمره فهو من جملة أقوال زوره.

﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ﴾ [الآية 31] مخلصين لديه ما يلين عن غيره إليه متوكلين في أمورهم عليه ﴿غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ﴾ [الآية 31] أي من جلي الشرك وخفيه ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ [الآية 31] أحداً مما سواه ﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية 31] لأنه سقط من أوج الإيمان والعرفان إلى حضيض الكفر والكفران ﴿فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ﴾ [الآية 31] فإن الأهواء المردية توزع الأفكار الردية في تعلق الغير من غير جلب النفع ولا دفع الضر.

وقال الأستاذ: تجاذبه ملائكة العذاب إلى نار السعير وعذاب الحريق ﴿أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الآية 31] بعيد عميق، فإن الشيطان قد رُمِيَ به في تيه الضلالة بعيداً عن الفريق، وأو للتنويع، فإن منهم من لا خلاص له أصلاً ومنهم من يمكن خلاصه بالتوبة فصلاً.

﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ﴾ [الآية 32] أي شرائع دينه أو فرائض حجه أو مواضع نسكه أو هدايا نحره وتعظيماً أن يختار الحسان السمان غالية الأثمان فقد أهدى ﷺ ماية بدنة فيها جمل لأبي جهل أخذ في غنيمة بدر في أنفه برة من ذهب وأهدى عمر رضي الله عنه نجيبة طلبت منه بثلاثمائة دينار ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الآية 32] فإن تعظيمها نشأ من أحوال ذوي تقوى القلوب من الذنوب والعيوب.

قال سهل: تقوى القلوب هو ترك الذنوب.

252/ أ

وقال الحريري: تقوى النفوس ظاهر/ وتقوى القلوب باطن.

وأفاد الأستاذ: أنه يقف المؤمن على تعيين شعائر الله وتفاصيلها بشهادة العلم جهراً وبخواطر الإلهام سراً وكما لا يجوز مخالفة شهادة الشرع لا يجوز مخالفة شهادة خواطر الحق، فإن خاطر الحق لا يكذب وعزيز من له عليه وقوف، وكما أن النفس لا تصدق فالقلب لا يكذب فإذا خولف القلب عمي في المستقبل وينقطع عنه تعريفات الحقيقة. فالعبادة والشرع يتقاصر عن هذا على التعيين والتفسير. وتقوى القلب بتحقيق المنازلة فإذا خرست النفوس وزالت هواجسها فالقلوب تنطق بما يكاشف بها من الأمور ومن الفروق بين ما يكون طريقه العلم وما طريقه من الحق. إن الذي طريقه العلم يعلم صاحبه أولاً ثم يعمل مختاراً، وما كان من الحق يجري ويحصل ثم بعده يعلم من جرى عليه ذلك معناه، ولا يكون الذي يجري عليه ما يجري مضطراً إلى ما يجري وليس يمكن أن يقال إنه ليس له اختيار بل يكون مختاراً ولكن سببه عليه مشكل والمتعجب من هذا لأن العبارة عن هذا كالبعيد.

﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ [الآية 33] من درها ونسلها وصوفها وظهرها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الآية 33] إلى أن تنحر ﴿ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ﴾ [الآية 33] وقت نحرها أو مكان ذبحها منته إلى ما يليه من الحرم.

وأفاد الأستاذ: أن لكل من تلك الجملة منفعة بقدره وحدّه لأقوام بركات في دفع البلايا عن نفوسهم وعن أموالهم ولآخرين في بذاذات بسطهم وأحوالهم، ولآخرين في حلاوة طاعاتهم وأعمالهم، ولآخرين في أنس أنفاسهم وآمالهم.

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ﴾ [الآية 34] من أهل دين ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الآية 34] متعبداً يعبدون فيه أو ما يتعبد به أو قرباناً يتقربون به إلى الله. وقرأ حمزة والكسائي بكسر السين أي موضع نسك بمعنى عبادة أو ذبيحة ﴿لِّيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ﴾ [الآية 34] دون غيره ويجعلوا نسكهم خالصاً لوجهه ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الآية 34] عند ذبحها.

وأفاد الأستاذ: أن الشرائع مختلفة فيما كان من المعاملات متفقة فيما كان من جملة المعارف والمعتقدات، ثم فيها مختلفون وهم مؤتلفون فقوم أصحاب التضعيف فيما أوجب عليهم وجعل لهم، وقوم أصحاب التخفيف/ 252/ب فيما ألزمهم وما وعد لهم، ثم ذكر اسم الله على ما رزقهم على أقسام، منها معرفتهم بإنعام الله بذلك عليهم وذلك من حيث شكرهم ثم يذكرون اسمه على ما وفقهم لمعرفته بأنه هو الذي رزقهم ثم فكرهم بالله بأنه هو الذي أمرهم ثم ذكرهم الله بأنه هو الذي يتقبل منهم ويثيبهم.

﴿فَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [الآية 34] وهو ماجد واحد ﴿فَلَهُ أَسْلِمُوا﴾ [الآية 34] أخلصوا في تقرُّبه وذكره وشكره وإطاعة أمره.

وقال الأستاذ: استسلموا لحكمه بلا تعبيس ولا استكراه من داخل القلب لا من القرط والإسلام يكون بمعنى الإخلاص، والإخلاص تصفية الأعمال من الآفات ثم تصفية الأخلاق من الكدورات ثم تصفيه الأحوال ثم تصفية الأنفاس ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾ [الآية 34] المتواضعين أو المخلصين فإن الأحياء صنعتهم باليقين.

قال ابن عطاء: المخبت هو امتلاء قلبه من المحبة وقصر طرفه عما دون حبه استدامة الطاعة بشر الاستطاعة، ومن أمارات الإخبات كمال الخضوع بشرط دوام الخشوع وذلك بإطراق السريرة.

﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية 35] خافت واضطربت هيبة لإشراق أشعة جلاله عليها وعظمة لحضور وسرور ذكره ونور فكره لديها.

قال ابن عطاء: هل رأيت ذلك الوجل عند سماع ذكره أو كتابه أو خطابه أو هل أخرسك الذكر حتى لم تنطق إلا به وأصمك حتى لم تسمع إلا منه هيهات.

قال الواسطي: الوجل على قدر المطالعة ربما يريه موضع السطوة والقلبة وربما يريه موضع المحبة والمودة.

وأفاد الأستاذ: أن الوجل عند الذكر على أقسام: إما لخوف عقوبة ستحصل أو لمخافة عقابه بالسّوء تختم أو لخروج من الدنيا على غفلة من غير استعداد للموت وإصلاح أهبة أو لحياء من الله سبحانه إذا ذكر اطلاعه عليه لما ينذر منه من الأمور التي هي غير محبوبة. ويقال: الوجل على حسب تجلي الحق للقلب فإن القلوب في حال المطالعة والتجلي بوصف الوجل والهيبة وجل له سبب ووجل بلا سبب، فالأول هو المخافة، والثاني معدود من الهيبة. ويقال: الوجل خوف المكر والاستدراج وأقربهم من الله قلباً أكثرهم من الله على هذا الوجه خوفاً.

253/ أ / ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ [الآية 35] التاركين الجزع والخوف ﴿عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ﴾ [الآية 35] من النوائب والمصائب.

وقال الأستاذ: أي الحافظين مع الحق أسرارهم لا يطلبون السكون باطلاع الخلق على أحوالهم ﴿وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ﴾ [الآية 35] في أوقاتها بشرائطها وأركانها ومكملاتها.

وقال الأستاذ: أي إذا اشتدت بهم البلوى فزعوا إلى الوقوف في محل النجوى.

إذا ما تمنى الناس روحاً وراحة   تمنيت أن أشكو إليك فتسمع[1]

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الآية 35] في مرضات ربهم خالصاً لوجهه.

وقال الأستاذ: عند المعاملة من أموالهم وفي قضايا المنازلة الاستسلام في أحوالهم وتسليم النفس وكل ما منك وبك لطوارق التقدير فينفقون أبدانهم على تحمُّل مطالبات الشريعة والطريقة وينفقون قلوبهم على التسليم والخمود تحت جريان الأحكام بموافقات الحقيقة.

﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [الآية 36] من أعلام دينه التي شرّعها الله ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الآية 36] كثير ونفع كبير ديني ودنيوي ﴿فَاذْكُرُوا اسْمَ

(1) نسب إلى المجنون العامري. انظر الكشكول (1/ 383).

ٱللَّهِ عَلَيۡهَا﴾ [الآية 36] بأن تقولوا عند ذبحها بسم الله الله أكبر لا إلٰه إلا الله والله أكبر اللهم منك وإليك، أي عطاء لنا حاصل منك وتقرُّب منَّا واصل إليك ﴿صَوَآفَّۖ﴾ [الآية 36] قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن.

وأفاد الأستاذ: أن أقسام الخير فيها كثيرة بالركوب والحمل عليها وشرب ألبانها وأكل لحومها والانتفاع بروثها ثم الاعتبار بخلقها كيف سخرت للناس على قوتها وصورتها ثم تنقاد للصبيان في البروك عند الحمل عليها وركوبها والنزول منها ووضع الحمل عنها وصبرها على العطش في تعب سفرها وعلى قليل علفها، ثم ما في طبعها من لطف الخلقة حيث تستريح بالحداء مع كثافة صورتها إلى غير ذلك.

﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا﴾ [الآية 36] سقطت على الأرض حال نحرها وهو كناية عن موتها ﴿فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ﴾ [الآية 36] الراضي بما عنده وبما يعطى من غير مسألة من قنع بالكسر قناعة، أو السائل من قنع بالفتح إذا خضع في السؤال ممن طمع، وقد قيل:

العبد حر إن قنع والحر عبد إن قنع

فاقنع ولا تقنع فلا شيء يشين سوى الطمع(1)

فهو السائل المتواضع ﴿وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ﴾ [الآية 36] السائل الغير المتواضع أو المعترض بالسؤال أو المعترض ببيان الحال.

253/ب وأفاد الأستاذ: / أن القانع الذي ألقى جلباب الحياء وأظهر فقره للناس والمعتر الذي هو في تحمُّله يتحمل ولموضع فاقته كاتم ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ﴾ [الآية 36] مع عظمتها وقوتها وهيبتها حتى تأخذوها منقادة فتعقلونها وتحبسونها وتنحرونها ﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [الآية 36] إنعامنا في خلق أنعامنا للتقرب بها إلينا.

﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ﴾ [الآية 37] لن يصيب رضاه ﴿لُحُومُهَا﴾ [الآية 37] المتصدَّق بها ﴿وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الآية 37] المهراقة بنحرها من حيث لحومها ودماؤها ﴿وَلَٰكِن

(1) هذا البيت نسب للشافعي. انظر الأم (1/ 14).

يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾ [الآية 37] ولكن يصيبه ما يصحبها من تقوى قلوبكم التي تدعوكم إلى تعظيم أمر ربكم بالتقرُّب إليه والإخلاص لديه.

قال سهل: التقوى بدء التبري والإخلاص.

وأفاد الأستاذ: أن لا عبرة بأعيان الأعمال الضرورية سواء كانت محضة بدنية أو صرفة مالية ولكن العبرة بقرابتها من الإخلاص لها فإذا انضاف إلى اكتساب الجوارح خلاصات القصود والجوانح وتجردت عن ملاحظة أصحابها الأغيار صلحت للقبول والاعتبار. ويقال: التقوى شهود الحق بنعت التفرد فلا بثبوت تقربك بملاحظة أحد ولا بأخذ عوض على عمل من بشر ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ [الآية 37] كرره تذكيراً للنعمة وتمهيداً للعلة بقوله ﴿لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ﴾ [الآية 37] لتعرفوا عظمته فتوحدوه بالكبرياء في نعته. وقيل: هو التكبير عند الإحلال أو الذبح على ما هداكم وأرشدكم إلى طريق تسخيرها وكيفية التقرُّب بها. وعلى تعليلية أو حالية والتقدير شاكرين ﴿عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ [الآية 37].

قال الأستاذ: أي أرشدكم إلى القيام بحق العبودية على قضية الشرع وفق القضايا الربوبية ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الآية 37] فيما يأتونه ويذرونه.

وقال الأنطاكي: للمحسنين علامات أولها أن لا يظلم وإن ظلم لا ينتصر وأن لا يغضب وإن غضب لا يأثم وقد أتعب نفسه والناس منه في راحة ونفسه منه في شغل، وأن يكون قلبه وجلاً عند الذكر وصابراً على ما يصيبه من الشدائد.

وأفاد الأستاذ: أن الإحسان كما في الخبر «أن تعبد الله كأنك تراه»[1] فأمارة صحته سقوط التعب بالقلب عن صاحبه فلا يشتغل شيئاً ولا يتبرم بشيء من أمر ربه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الآية 38] يبالغ في دفع غائلة/ المشركين 254/ أ عن طائفة المؤمنين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو يدفع.

(1) سبق تخريجه.

قال ابن عطاء: إن الله يدفع بالكفار عن المؤمنين وبالعصاة عن المطيعين وبالسفهاء عن العلماء. وقال بعضهم: يدفع عن المؤمنين هواجس أنفسهم ووساوس شياطينهم.

وقال سهل: يدفع عنهم بنور السنَّة ظلمة البدعة.

وقال الأستاذ: يدفع عن صدورهم نزغات الشيطان وعن قلوبهم خطرات العصيان وعن أرواحهم طوارق النسيان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ﴾ [الآية 38] ذي خيانة في أمانته ﴿كَفُورٍ﴾ [الآية 38] ذي كفران النعمة.

وأفاد الأستاذ: أن الخيانة على أقسام: خيانة في الأموال وتفصيلها في المسائل الشرعية المعروفة عند علماء الفقه، وخيانة في الأعمال، وخيانة في الأحوال. فخيانة الأعمال الرياء والسمعة والمصانعة، وخيانة الأحوال بالملاحظة والإعجاب والمساكنة وشرها الإعجاب، ثم المساكنة وأخفاها الملاحظة. ويقال: خيانة الزاهدين عزوفهم عن الدنيا على طلب الأغراض ليجدوا حسن المآل في العقبى وهذا إخلاص الزاهدين ولكنه عند خواص الزهاد خيانة في الدين لأنهم تركوا دنياهم لا لله ولكن لوجود العارض على تركهم ذلك من قبل الله. وخيانة العابدين أن يدعوا شهواتهم ثم يرجعوا إلى الرخص في معاملاتهم فلو صدقوا في مرماهم لما انحطوا إلى الرخص بعد ترقيهم عنها، وخيانة العارفين جنوحهم إلى وجود مقام وتطلعهم لمنال منازلة وإكرام من الحق ونوع تقريب، وخيانة المحبين رَوْم فرجة مما يمسهم من برحاء المواجيد وابتغاء خرجة مما يستوعبهم من استيلاء صد وغلبات شوق أو تمادي أيام هجر، وخيانة أرباب التوحيد أن يتحرك عليهم للاختيار عرق ورجوعهم بعد امتحائهم عنهم إلى شظية من أحكام الفرق إلا أن يكون ذلك منهم موجوداً وهم عنه مفقودون.

﴿أُذِنَ﴾ [الآية 39] رخص. وقرأ ابن كثير وابن عامر وحمزة والكسائي على البناء للفاعل أي أذن الله للذين يقاتِلون المشركين ﴿لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾ [الآية 39]. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بفتح التاء أي للذين يقاتلهم المشركون ﴿بِأَنَّهُمْ

ظُلِمُواْ﴾ [الآية 39] بسبب أنهم ظلموا وهم أصحاب النبي ﷺ/ ورضي عنهم، كان 254/ ب
المشركون يؤذونهم ويضربونهم وكانوا يأتون بين يديه ويتظلمون إليه فيقول لهم:
«اصبروا على هذا الحال فإني لم أؤمر بالقتال»(1) حتى هاجر فأُنزِلَت، وهي أول
آية نزلت في القتال بعدما نهي عنه في نيف وسبعين آية بالصبر على تلك الحال
﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ﴾ [الآية 39] جملة حالية معترضة مفيدة لوعد لهم
بالنصر مع الظفر مع الصبر ومشعرة بأنه قادر على نصرهم من غير قتال أيضاً، إلا
أنه سبحانه اقتضت حكمته وأوجبت مشيئته أن يكون ذلك الحال في ضمن القتال
ليتبين أحوال الرجال وتفاوت الآمال.

وقال الأستاذ: إذا أصابتهم ضراء ومستهم ما هو في الظاهر ذل ومن
الأعادي تجري عليهم أنحاء ضيم أو يلحقهم من الأجانب استيلاء ظلم فالحق
سبحانه ينتقم من أعدائهم لأجلهم وهم بنعت التسليم والسكون في أغلب
أحوالهم وتفاصيل الأقدار جارية باستئصال من يناؤهم وإدالة الدبرة على من
يعاديهم وفي بعض الأحانين بنصبهم الحق بنعت التمكين والغلبة من نزولهم
بساحات مَن يناوئهم بحسن الظفر وتمام حصول الدبرة على من ناصبهم
وأخزاهم بأيديهم كل ذلك يتفق وأنواع النصرة من الله سبحانه، والله غالب
على أمره في الجملة.

﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الآية 40] أي بغير موجب استحقوا به
﴿إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الآية 40] من قبيل قول بعضهم:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب(2)

وأفاد الأستاذ: أن المظلوم منصور ولو بعد حين ودولة الحق تغلب
دولة الباطل بالأمر اليقين، وللمظلوم حميد العقبى وللظالم وشيك الانتقام

(1) ورد بلفظ: «اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال». انظر تفسير البغوي (5/ 388)، الكشاف (4/ 295).

(2) نسب هذا البيت إلى النابغة الذبياني. انظر نهاية الأرب (2/ 303) وخزانة الأدب (2/ 399).

بشديد البلوى ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ [النَّمل: الآية 52] وقد تجري في النفس وهواجسها على القلوب لبعض الأولياء وأهل القصة ظلم وجفاء يحصل لسكان القلوب من الأحوال الصافية عنها جلاء وتستولي غاغة النفس فتعمل في القلوب بالفساد من استكمال الغفلة وتداعي القلوب للخراب من طوارق الحقائق وشوارق الأحوال الزاكية، كما قال قائلهم:

أنعي إليك قلوباً طالما هطلت   سحائب الوحي فيها أبحر الحكم

فيهزم الحق سبحانه بجنود الإقبال أراذل الهواجس وينصر عسكر التحقيق بإمداد الكشوفات وتحديد دارس العهود وإطلاع شموس السعد في/ 255/ أ ليالي السير ويكنس القلوب ويطهرها عن آثار ظلم النفس، وكما قيل:

أطلال سعدى باللوى تتجدد[1]

فإذا هبت على تلك القلوب رياح العناية وأزال عنها هيج النسيان وشفاها الله صوب التجلي أنبت فيها أزهار البسط ثم تفتح فيها أنوار الأنس ثم يتضح نهار الوصل ثم نسيم القرب إلى أن تطلع شموس التوحيد.

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ﴾ [الآية 40] وقرأ نافع دفاع الله ﴿ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الآية 40] بتسليط المؤمنين على الكافرين ﴿لَّهُدِّمَتْ﴾ [الآية 40] وقرأ نافع وابن كثير بالتخفيف أي لخربت باستيلاء المشركين على أهل ملل الدين ﴿صَوَٰمِعُ﴾ [الآية 40] أي للرهابنة خاصة ﴿وَبِيَعٌ﴾ [الآية 40] للنصارى عامة[2] ﴿وَصَلَوَٰتٌ﴾ [الآية 40] كنائس لليهود كافة سميت بها لأنها يُصلى فيها ﴿وَمَسَٰجِدُ﴾ [الآية 40] للمسلمين ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الآية 40] صفة للمساجد، وخصت بها تفصيلاً أو للأربع التي وقعت تفضيلاً.

وأفاد الأستاذ: أنه يتجاوز عن الأصاغر لقدر الأكابر ويعفو عن العوام لاحترام الكرام وتلك سنَّة أجراها الله سبحانه لاستيفاء منازل العبادة

(1) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 200).
(2) تفسير البيضاوي (1/ 129).

واستصفاء مناهل المعرفة ولا تحويل لقديم سنّته ولا تبديل لكريم عادته ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الآية 40] أي دينه أو نبيه ولقد أنجز وعده بأن سلّط المهاجرين والأنصار على صناديد العرب وأكاسرة العجم وقياصرة الروم وأورثهم أرضهم وديارهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ [الآية 40] على نصرهم ﴿عَزِيزٌ﴾ [الآية 40] غالب على أمرهم.

﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الآية 41] وصف للذين أخرجوا، وهذا ثناء قبل بلاء، وفيه دليل على صحة أمر الخلفاء الراشدين إذا لم يستجمع ما ذكر في غيرهم من المهاجرين ﴿وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ [الآية 41] فإن مرجعها إلى حكمه، وفيه تأكيد لوعده.

وقال الأستاذ: إذا طالت بهم المدة وساعدهم العمر والمهلة ولم يستفرغوا أعمارهم في استجلاب حظوظهم ولا في اقتناء محبوبهم من الدنيا أو مطلوبهم من العقبى ولكن قاموا بأداء حقوقنا و﴿أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الآية 41] بالظواهر واستداموا المواصلات في السرائر، ويقال إقامة الصلاة الوفاء بآدابها بأن تعلم بين يدي من أنت، وتناجي من، وقريب منك من، ﴿وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الآية 41] أي الأغنياء منهم يؤتون زكاة أموالهم وفقراؤهم يؤتون زكاة أحوالهم،/ 255/ ب فزكاة المال من مائتين خمسة للفقراء والباقي لهم وزكاة الأحوال أن يكون من مائتي نفس تسعة وتسعين ونصف لله ونصف من جزاء من مائتين لك، وذلك أيضاً علة ﴿وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الآية 41] تبتدىء في الأمر بالمعروف على نفسك ثم إذا فرغت من نفسك تأخذ في نهيها عن المنكر ومن وجوه المنكرات الرياء والإعجاب والمساكنة والملاحظة.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ﴾ [الآية 42] قوم هود ﴿وَثَمُودُ﴾ [الآية 42] قوم صالح ﴿وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَٰبُ مَدْيَنَ﴾ [الآيتان 43،44] قوم شعيب، وهذا كله تسلية له بأن قومه إن كذبوه فهو ليس بأوحدي في ذلك فإن هؤلاء قد كذبوا أرسلهم قبل قومه ﴿وَكُذِّبَ مُوسَىٰ﴾ [الآية 44]

أي مع ظهور أمره وسطوع نوره، ولعله خُصّ في هذا الباب لأنه أول مَن أُعطي الكتاب ﴿فَأَمْلَيْتُ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية 44] أي أمهلتهم ومتعتهم ﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ [الآية 44] وعاقبتهم ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ [الآية 44] إنكاري عليهم بتغيير النعمة محنة والحياة هلاكاً وعقوبة والعمارة دماراً ونقمة.

﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا﴾ [الآية 45] بإهلاك أهلها، وقرأ البصري أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الآية 45] أي أهلكتها ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الآية 45] ساقطة حيطانها على سقوفها بأن تعطلت بنيانها فخرت سقوفها ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق سقوفها، أو خالية مع بقاء عروشها ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الآية 45] أي وكم بئر عامرة في بواديها تُركت لا يسقى منها لهلاك أهلها ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الآية 45] مرفوع أو مجصص شديد خلّيناه عن ساكنيه في زمن مديد.

وأفاد الأستاذ: أن الظلم يوجب خراب أوطان الظالم فتخرب أولاً أوطان راحة الظالم وهو قلبه، فالوحشة التي هي غالبة على الظلمة من ضيق صدورهم وسوء أخلاقهم وفرط غيظهم على من يظلمون عليهم كل ذلك من خراب أوطان راحتهم وهي في الحقيقة من جملة العقوبات التي تلحقهم على ظلمهم. ويقال: خراب منازل الظلمة ربما يتأخر وربما يتعجل وخراب نفوسهم في تعطلها عن العبادات شؤم ظلمهم وخراب قلوبهم باستيلاء الغفلة عليهم خصوصاً أوقات صلواتهم وأوان خلواتهم تعد ناجز غير مستأخر/. 256/ أ

وقوله: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ﴾ [الآية 45] الإشارة فيه إلى العيون المتفجرة كانت في بواطنهم كانوا يستقون منها لاستبقاء حياة أوقاتهم من غلبة الإرادة وقوة المواجيد فإذا اتصفوا بظلمهم غلب شقاؤها وانقطع ماؤها بانسداد عيونها. وقوله: ﴿وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الآية 45] إشارة فيه إلى تعطل أسرارهم من الذكر والفكر والأنس والهيبة وخلو أرواحهم عن نوازل المحاب وسلطان الأشواق وصنوف المواجيد.

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية 46] حث لهم على أن يسافروا ليروا مصارع المهلكين فيعتبروا وهم وإن كانوا قد سافروا إلى هنالك لكن لم يسافروا لذلك أو

بعث لهم على أن يسيروا بقلوبهم فيتأملوا ما سمعوا أخبار المقدمين بأذاتهم لكن ينبغي أن لا يكونوا بوصف الغفلة في المعقول والمنقول ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الآية 46] ما يجب أن يعقل من الاعتبار بما يحصل من الاستدلال والاستبصار ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ﴾ [الآية 46] ما يجب أن يسمع من الأخبار وما يتبعه من الآثار ﴿بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى﴾ [الآية 46] الضمير للقصة المقترنة بالغصة ﴿الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الآية 46] عن الاعتبار في الأمور، وفيه تنبيه على أن العمى الحقيقي ليس المتعارف الذي يمحص البصر بل الذي يمحص البصيرة. قيل لما نزلت: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: الآية 72]. قال ابن أم مكتوم: يا رسول الله أنا أعمى في الدنيا أفأكون أعمى في الآخرة، فنزلت(1). وعنه ﷺ: «ليس الأعمى من يعمى بصره ولكن الأعمى من يعمى بصيرته»(2) كذا في الدر المنثور في تفسير المأثور. وعنه عليه السلام: «ما من عبد إلا ولقلبه عينان وهما غيب يدرك بهما الغيب فإذا أراد الله بعبد خيراً فتح عين قلبه ليرى ما هو غائب عن بصره» ذكره الغزالي في رسالة العلم اللدني. وقد قال ابن عباس:

إذا أَذْهَبَ الله عن عينيَّ نورهما ففي فؤادي وقلبي منهما نور

وقال سهل: البصيرة من نور بصر قلبه بقلب الهوى والشهوة فإذا عمي بصر القلب عما فيه غلبة الشهوة وتواترت الغفلة فعند ذلك يسير البدن/ 256/ ب متخبطاً في المعاصي غير منقاد للحق.

وقال الأستاذ: كانت لهم قلوب من حيث الخلقة فلما زايلها صفاتها المحمودة صارت كأنها لم تكن في الحقيقة. ثم إنه أخبر أن العمى عمى القلب وكذاك الصمم وإذا صح وصف القلوب بالسمع والبصر صح وصفها بسائر صفات الحي من وجوه الإدراكات فكما تبصر القلوب بنور العين تدرك نسيم الإقبال بمسام السر في الأحوال. وفي الخبر: «إني لأجد نفس ربكم

---

(1) تفسير القرطبي (12/ 77)، تفسير البيضاوي (1/ 130).
(2) جامع الأحاديث (18/ 243) رقم (19316)، وكنز العمال (1/ 243) رقم (8220).

من قبل اليمن»[1]، وقال خبراً عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: الآية 94] وما كان ذاك إلا بإدراك السرائر دون اشتمام ريح في الظواهر.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ [الآية 47] المتوعد به في هذا الباب لأنهم في مقام الحجاب ﴿وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الآية 47] المبين في الكتاب لامتناع الخلق في خبره وعد أو وعيد فيصيبهم ما أوعدهم به عذاباً شديداً ولو بعد حين من المهلة لأنه صبور ولا يعجل بالعقوبة فليس التأخير للعجز بل لاقتضاء الحكمة واقتفاء المشيئة.

وأفاد الأستاذ: إن عدم تصديقهم حملهم على استعجالهم ما توعدوا به، قال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ﴾ [الشورى: الآية 18] فلو آمنوا لصدقوا ولو صدقوا لسكنوا وحققوا ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الآية 47] وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي بالغيبة، وهو بيان لتمادي عذابه وطول أيامه حقيقة أو من حيث إن أيام الشدائد مستطالة. وقيل: معناه أن يوماً عنده كألف سنة في الإمهال سواء لأنه قادر متى يشاء أخذهم لا يفوته شيء بالتأخير لهم فيستوي في قدرته وقوع ما يستعجلون به من العذاب وتأخره، وهذا معنى قول ابن عباس في رواية ابن عطاء كما في العالم.

واختاره الأستاذ فيما أفاد من أن الأيام عنده تتساوى إذ لا استعجال له في الأمور فسواء عنده يوم واحد وألف سنة ومن لا يَجري عليه الزمان وهو يُجري الزمان سواء عليه وجود الزمان وعدم الزمان وقلة الزمان وكثرة الزمان.

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ [الآية 48] أي من أهلها ﴿أَمْلَيْتُ لَهَا﴾ [الآية 48] أمهلتها كما أمهلتكم بعد/ استحقاق عقوبتكم ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [الآية 48] مثل حالتكم 257/أ

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (5/ 57) رقم (4661)، وأحمد في المسند (2/ 541) رقم (10991).

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهَا﴾ [الآية 48] بالعذاب الشديد على الوجه اليسير ﴿وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الآية 48] وإلى حكمي مرجع الجميع في الظاهر، والضمير فريق في الجنة وفريق في السعير.

وأفاد الأستاذ: أن الإمهال يكون من أدبه سبحانه دون الإهمال يدع الظالم في ظلمه حيناً من الأجل ويوسع له الحبل ويطيل به المهل فيتوسم أنه انفلت من قبضة القدير وذلك ظنه الذي أراده فيأخذه من حيث لا يرتقب فعله فيعلوه ندمه ولات حينه وكيف يستبقي بالحيلة ما حق في التقدير عدمه.

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾﴾ [الآية 49] أوضح لكم ما أنذركم به ولعل الاقتصار على الإنذار من باب الاكتفاء في الاعتبار أو لأن البشارة مرتبة على قبوله الإنذار بالتصديق والإقرار كما يفيده التقريع المتضمن للتوزيع بقوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ [الآية 50] لما بدَرَ لهم من الغفلة وندر لهم من المعصية وصدر عنهم من الزلة ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الآية 50] مثوبة عظيمة في الجنة لما قدموه من الطاعة.

وقال الأستاذ: يعني أشباهكم من حيث الصورة لكني أباينكم من حيث السريرة، فأنا لمحسنكم بشير ولمسيئكم نذير وقد أيدت بإقامة البرهان ما جئتكم به من وجوه الأمر بالطاعة والإحسان. والناس في المغفرة على أقسام، منهم من يستر زلته ومنهم من يستر عليه أعماله الصالحة صيانة له عن الملاحظة، ومنهم من يستر عليه حاله لئلا يصيبه من الشهوة فتنة تضره في مآله. وفي معناه قالوا:

لا تُنْكِرَنْ جحدي في هواك فإنما ذاك الجحود عليك ستر مسبل[1]

ومنهم من يستره بين أوليائه ويغمره بين أصفيائه بذلك ورد في الكتاب الإلهي: «أوليائي تحت قبابي لا يشهد أوليائي غيري»[2]. والرزق الكريم ما

---

(1) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 208) و(7/ 467).

(2) سبق تخريجه.

يكون من الوجه الحلال، ويقال: ما يكون من حيث لا يحتسب ولا يخطر بالبال. ويقال: هو الذي يبدو من غير ارتقاب على يدي موفق في وقت الحاجة من كل باب. ويقال: هو ما يحمل المرزوق على صرفه في وجه القربة. ويقال: ما فيه البركة أو هو الذي يُنال من غير تعب ولا مشقة ولا/ 257/ب تقلُّد منَّة من مخلوق قدر ذرة.

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ [الآية 51] في ردها وإبطالها مسارعين ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ [الآية 51] مسابقين موافقين. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو معجزين أي مقدرين إعجاز المؤمنين أو متوهمين أنهم يفوتهم عذابنا المستبين ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [الآية 51] النار الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

وقال الأستاذ: في الحال معجّل الوحشة وانسداد أبواب الرشد والهداية وتنغص العيش وتفطّر اللذة والابتلاء بمن لا يتعطف عليه إذا انعطف عليه ممن ليس خوف الله لديه وفي الآخرة والاستقبال ما سيلقون من أليم العقوبة على حسب الإجرام من الأعمال.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا﴾ [الآية 52] بعثنا ﴿مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الآية 52] وكان ابن عباس يقرأ: ولا محدّث، لكنه منسوخ ولعل وجهه أنه يفهم بالأولى كما لا يخفى والرسول أُمِرَ بتبليغ ما أوحي إليه والنبي غيره أو أعم منه ويدل على المغايرة بينهما ما صح عنه أنه عليه السلام سئل عن الأنبياء فقال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً. قيل: فكم الرُّسل منهم؟ فقال: ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً»(1) رواه أحمد وغيره ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ [الآية 52] أي صور كل واحد منهما في نفسه ما يهواه ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الآية 52] متمناه ومشتهاه ما يوجب انشغاله عن الله بالالتفات إلى ما سواه كما في حديث مسلم: «وإنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة»(2) ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾

---

(1) أورده الزيلعي في تخريج الأحاديث والآثار (2/ 388) رقم (822). وانظر تفسير الآلوسي (2/ 190) وتفسيرالنيسابوري (5/ 411).

(2) سبق تخريجه.

[الآية 52] فيُذهبه ويُبطله لعصمته عن الركون إليه وللإرشاد إلى ما يربحه لديه ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ [الآية 52] يثبت آياته الداعية إلى الاستغراق في أمر العقبى والاشتياق إلى قرب المولى ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ [الآية 52] بأحوال عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ [الآية 52] فيما دبره وقدّره من مراده، فقيل: حدّث نفسه بزوال المسكنة فنزلت. وقيل: تمنى لحرصه على إيمان قومه أن ينزل عليهم ما يقربهم إليه واستمر ذلك لديه حتى كان في تأديبهم، فنزلت عليه سورة والنجم فأخذ يقرأها فلما بلغ ﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠﴾ [النجم: الآية 20] تكلم الشيطان في سكتة من سكتاته محاكياً صوته عليه السلام في حركاته وسكناته فقال: «تلك الغرانيق[1]/ 258/ أ العلى وإن شفاعتهن لترتجى»، والنبي ﷺ لم يشعر بنزغاته لكونه في استغراق حالاته، وفرح المشركون بها حتى شايعوه بالسجود ولما سجد في آخرها ثم نبهه جبريل عليه السلام بإلقاء الشيطان في أمنيته فاغتمّ به في الغاية فقوّاه الله تعالى وأمته بهذه الآية[2]، فالمعنى إلا إذا تمنى أي قرأ وتعين ألقى الشيطان في أمنيته أي في قراءته وأثناء تلاوته والحديث صحيح وليس مما يرده دليل صريح بل يشير إليه ويدل عليه قوله: ﴿لِيَجْعَلَ﴾ [الآية 53] أي الله ﴿مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً﴾ [الآية 53] غلبة ومحنة ﴿لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [الآية 53] شك وشبهة ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية 53] من سائر الكفرة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية 53] من الفريقين ﴿لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [الآية 53] عن طريق سديد.

﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ﴾ [الآية 54] متلوٌّ أو تمكين الشيطان من ذلك ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [الآية 54] النازل من عنده الصادر من إذنه ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الآية 54] بالقرآن أو بمنزله ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية 54] بالانقياد والوحشة عن عيوبهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الآية 54] لمثبتهم على الدين القويم.

---

(1) طيور الماء البيضاء. انظر لسان العرب (10/ 286).

(2) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (9/ 34) رقم (8316)، وانظر مجمع الزوائد (6/ 34) رقم (1950).

هذا وقد قال سهل: من قرأ وهو يلاحظ الحق فإنه يكون بريئاً مصوناً من إلقاء الشيطان أي لغفلته عن أن الرحمٰن علَّم القرآن. وقال أيضاً: صدق الإيمان وحقيقته يورث الإخبات في القلب والخشوع في البدن وكثرة التفكُّر وطول الصمت وهذا من نتائج الإيمان لأن الله يقول: ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية 54].

وأفاد الأستاذ: أن الشياطين يتعرضون للأنبياء عليهم السلام ولكن لا سلطان لهم ولا تأثير في أحوالهم وإنما من الشيطان ظهور التسويل والتخييل وليس به شيء من التضليل. وكان لنبينا ﷺ سكتات في خلال القراءات عند انقضاء الآيات فتلفظ الشيطان ببعض الكلمات فإن لم يكن له تحصيل من المعقول توهم أنه كان من ألفاظ الرسول وصار لقوم فتنة والذين أيدتهم قوة العصمة وأدركتهم العناية استبصروا فلم يضرهم لا في البداية ولا في النهاية لأنه إذا أراد الله بعبد خيراً أيّده بنور التحقيق وأيّده بحسن العصمة/ وسر 258/ب التوفيق فيميز بحسن البصيرة وقوة التميز في الفكر بين الحق والباطل فلا يظلّه غمام الريبة ويتجلى عنه غطاء الغفلة، ولا تأثير لضباب الغداة أو الغبار في شعاع الشمس عند متفرع النهار، وهذا معنى قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [الآية 54] الآية.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ﴾ [الآية 55] شك وشبهة ﴿مِّنْهُ﴾ [الآية 55] من القرآن وحجته أو الرسول وملّته أو من ما ألقى الشيطان في أمنيته يقولون ما باله ذكرها بخير ثم ارتدع عنه إلى غيره ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ﴾ [الآية 55] القيامة الصغرى أو الكبرى ﴿بَغْتَةً﴾ [الآية 55] فجأة ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ [الآية 55] أي مهلك أليم في الدنيا أو العقبى.

﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الآية 56] أي يظهر حينئذ أنه لا شرك فيه لما سواه وكذا اليوم في نظر العارفين من أهل الانتباه ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ [الآية 56] بين الخلق بالحق ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [الآية 56] ولذات المقيم بموجب فضله.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [الآية 57] وحجاب متين بمقتضى عدله.

وأفاد الأستاذ: أنه لم يتخصص ملكه سبحانه بيوم إلى عصر دون عصر ولم يتجدد له وقتئذ أمر ولا جلالة قدر ولكن الدعاوي في ذلك اليوم تنقطع والظنون والتجويزات تتلاشى وترتفع، فللمؤمنين من أرباب الوفاق نِعَم ومن الكفار وأصحاب الشقاق نقم، فهؤلاء لهم عذاب مهين وهؤلاء لهم فضل مبين.

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الآية 58] عن البلاء والعباد ﴿ثُمَّ قُتِلُوا﴾ [الآية 58] في الجهاد ﴿أَوْ مَاتُوا﴾ [الآية 58] على المهاد ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [الآية 58] للأحياء في الدنيا وللأموات في الأخرى ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ [الآية 58] فإن له الآخرة والأولى ورزقه هو خير وأبقى بل ولا رازق له أصلاً وقطعاً في نظر أهل التقى.

قال أبو عثمان: هو القناعة بما أعطى.

وقال ابن عطاء: ثقة بالله وتوكُّلاً عليه وانقطاعاً عن الخلق والتجاء إليه.

وأفاد الأستاذ: أن للقلوب حلاوة العرفان وللأرواح خلة المحاب وللأسرار دوام الشهود.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا﴾ [الآية 59] وقرأ نافع بفتح الميم إدخالاً أو دخولاً ﴿يَرْضَوْنَهُ﴾ [الآية 59] أي يحبونه ويتمنونه ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ﴾ [الآية 59] بمبدئهم ومعادهم ﴿حَلِيمٌ﴾ [الآية 59]/ لا يعجل بعقوبة أهل عنادهم. 259/ أ

وقال الأستاذ: أي إدخالاً فوق ما يتمنونه وإبقاء على الوصف الذي يهوونه، وذلك في أوان صحوهم من شعور البال لينالوا لطائف الأنس على وصف الكمال ويتمكنوا من قضايا البسط والسرور على أعلى الأحوال.

﴿ذَلِكَ﴾ [الآية 60] أي الأمر ذلك هنالك ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ﴾ [الآية 60] أي جازى بمثل ما فعل به على وفق الشريعة ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾ [الآية 60] بالمعاودة إلى العقوبة ﴿لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾ [الآية 60] أي لا محالة ولو

طالت المدة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الآية 60] فيه تنبيه للحث على العفو والمغفرة مع القدرة على النصرة.

وأفاد الأستاذ: أن نصره سبحانه للأولياء نصر عزيز وانتقام بتمام واستئصال بكمال وإرهاق الأعداء بتمحيق جملتهم عن الإنباء وأن لا يحتاج المنصور إلى احتيال ولا اعتضاد بأشكال.

﴿ذَلِكَ﴾ [الآية 61] النصر ﴿بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الآية 61] لسبب أن الله قادر على تغليب بعض الأمور على بعض وكما هو جار عادة على المداولة بين الأشياء المتعاندة ومن ذلك إيلاج أحد الزمانين في الآخر بأن يزيد فيه ما ينقص منه أو بتحصيل ظلمة الليل في مكان ضوء النهار وعكس ذلك بتغييب الشمس وإطلاعها هنالك ﴿وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ [الآية 61] بأقوال العباد ﴿بَصِيرٌ﴾ [الآية 61] بأعمالهم في البلاد.

وأفاد الأستاذ: أنه كما في أفق العالم ليل ونهار كذلك للسرائر ليل ونهار، فعند التجلي نهار وعند الستر ليل. وليالي السر ونهاره زيادة ونقصان وبمقدار القبض ليل وبمقدار البسط نهار، وقد يزيد أحدهما على الآخر وقد ينقص وهذا للعارفين. وأما الفقراء المحققون فلهم الأنس والهيبة مكان قبض قوم وبسطهم وذلك في حالتي صحوهم ومحوهم ويزيد أحدهما وينقص ومنهم من يدوم نهاره ولا يدخل عليه ليل وذلك لأهل الأنس فقط.

﴿ذَلِكَ﴾ [الآية 62] الوصف بكمال القدرة وقوة الغلبة ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الآية 62] الثابت ذاته وصفاته ومصنوعاته، وكما قيل: سوى الله والله ما في الوجود وليس في الدار غيره ديار[1] ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ [الآية 62] أي المعدوم في حد ذاته والهالك المضمحل في جميع حالاته ومراتب اعتباراته، / كما قيل: «ألا كل شيء ما خلا الله باطل»[2]. وقرأ نافع وابن كثير وابن عامر وأبو بكر بالخطاب إيماء إلى أنه يستوي الحاضر والغائب في هذا

259/ب

(1) هذه أقوال بعض مشايخ الصوفية مستدلين بذلك ببعض الآيات والأقوال.

(2) سبق تخريجه.

الباب ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الآية 62] لا شيء أعلى منه شأناً ولا أكبر منه برهاناً.

وقال ابن عطاء: هو الحق فحقِّق حقيقته في سرك فلا ترجع منه إلى غيره ولو إلى نفسك فما سواه باطل وفي نظر العارف آفل وزائل.

وأفاد الأستاذ: أنه إذا بَدا أعلم من الحقائق حصل بمقداره شظية من الفناء لمن حصل له التجلي ثم يزيد ظهور ما يبدو ويغلب وتتناقض آثار التفرقة وتتلاشى. وقال عليه السلام: «إذا أقبل الليل من هٰهنا أدبر النهار من هٰهنا»[1] فإذا استوفى العبد بالكلية عن الإحساس بما دون الله فلا يشهد الأشياء أولاً إلا للحق ثم لا يشهدها إلا بالحق ثم لا يشهد إلا الحق فلا إحساس له بغير الحق ومن جملة نسيه نفسه والكون كله.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [الآية 63] الاستفهام للتقرير ولذا رفع ﴿فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ [الآية 63] عطف على أنزل وعدل به عن صيغة الماضي أي المضارع المشترك بين الحال أو الاستقبال للدلالة على بقاء أثر المطر زماناً بعد زمان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الآية 63] يصل لطفه إلى ما جلّ وقلّ وعلمه بما بَطُنَ وظهر.

وأفاد الأستاذ: أن ماء السماء يحيي الأرض بعد موتها وماء الرحمة يحيي أحوال الزلة بعد ذبولها، وماء العناية يحيي أحوال المغاليس بعد زوال رونقها، وماء الوصلة يحيي أحوال القربة بعد نضوبها.

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية 64] ملكاً وملكاً ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ﴾ [الآية 64] في ذاته عن كل شيء من مكوناته ﴿الْحَمِيدُ﴾ [الآية 64] المستوجب للحمد بأفعاله وصفاته.

وأفاد الأستاذ: أن الملك له وهو عن الجميع غني فلا يستغني هو بملكه بل ملكه يصير موجوداً بخلقه إذ المعدوم له مقدور هو المملوك.

---

(1) سبق تخريجه.

ويقال: كما أنه غني عن الأجانب ومن أنبتهم في شواهد الأعداء فهو غني عن الأكابر وجميع الأولياء. ويقال: إذا كان الغني حميداً فالمعنى أنه يعطى حتى يشكر.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية 65] من البهائم بأن جعلها مذللة لكم معدة/ لمنافعكم ﴿وَالْفُلْكَ﴾ [الآية 65] عطف على ما ﴿تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ [الآية 65] حال منها ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ﴾ [الآية 65] أي يحفظها الله ﴿أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [الآية 65] أي من أن تسقط أو كراهة أن تقع عليها ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [الآية 65] بمشيئته ووقت إرادته ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية 65] حيث جعل لهم أسباب الاستدلال والاستبصار وفتح عليهم أبواب المنافع ودفع عنهم أصناف المضار.

260/أ

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أراد به تسخير الانتفاع بها فما للخلق به انتفاع وميسر في الاستمتاع به فهو كالمسخر له على معنى تمكنه منه ثم يراعي فيه الإذن فمن استمتع بشيء على وجه الإباحة والإذن له أو الدعاء إليه والأمر به فذلك إنعام وإكرام ومن كان بالعكس فمكر إليه واستدراج عليه، وأما السفينة كإلهام العبد باتخاذها ووجه الانتفاع بها بالحمل فيها وركوبها من أعظم إحسان الله ورأفته بالعباد، ثم ما يحصل بها من قطع المسافات البعيدة والتوصل فيها إلى المضارب النائية والتمكن من وجوه الانتفاع ففي ذلك أعظم نعمة وأفخم منحة. وجعل الأرض للخلق قراراً من غير أن تميد وجعل السماء بناءً من غير أن تقع وما جعل فيها من الكواكب التي يحصل بها الاهتداء في الظلام هي زينة السماء في نظر الأنام.

﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ﴾ [الآية 66] أي أوجدكم من العدم حيث خلق أباكم آدم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ [الآية 66] في منتهى آجالكم ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ [الآية 66] لجزاء أعمالكم على طبق أحوالكم ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ﴾ [الآية 66] لكثير الكفران بالإحسان حيث كفر بنعمة إيجاده وإمداده ولم يتهيأ بأهبة زاده لمعاده.

قال جنيد: أحياكم للمعرفة ثم يميتكم أوقات الغفلة ثم يحييكم بالجذبة

بعد الفترة ثم يقطعكم عن الوصلة ويوصلكم إلى الحقيقة، إن الإنسان لكفور يعد ما له وينسى ما عليه.

وأفاد الأستاذ: إن إحياء النفوس وإماتتها مرات محصورة أي كما هي مذكورة مسطورة وأحيا أوقات العباد وإماتتها لا حصر له ولا عد ولا حد، وفي معناه أنشدوا:

أمـوت إذا ذكـرتـك ثـمّ أحـيـى فكـم أحيى عليك وكم أموت [1]

ويقال: يحيي الآمال بإشهاد تفضله ثم يحييها بالاطلاع على تعززه.

ويقال: / هذا صفة العوام منهم فأما الأفاضل وخواصهم فحياتهم مسرمدة وانتعاشهم مؤبدة وأنى يجوز غيره وفي وجوده سبحانه غنية وخلف عن كل فائتة. 260/ ب

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ﴾ [الآية 67] طائفة من أهل ديانة ﴿جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ [الآية 67] متعبداً أو شريعة تعبدوا بها وكلفوا بالقيام لأمرها ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الآية 67] أي ينسكوه ولا محالة عالموه فسبحان من أقام العباد فيما أراد ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ﴾ [الآية 67] سائر أرباب الملل ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ [الآية 67] أي أمر الدين المبني على اليقين أو أمر النسائك وأهل الذبائح لأنهم بين جهال وأهل عناد أو لأن أمر دينك أشهر من أن يقبل نزاع وفساد ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الآية 67] توحيده وعبادته وتفريده ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الآية 67] طريق سوي قوي قويم.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه جعل لكل فرقة شريعة هم واردوها ولكل جماعة طريقة هم سالكوها ومقاماتهم سكانه ومحلاتهم قطانه، ربط كلاً بما أهّله له وأوصله كلاً إلى ما جعله محله فبساط التعبُّد موطوء بأقدام العابدين ومشاهد الاجتهاد مغمورة بأصحاب الكلف من المجتهدين، ومجاهد أصحاب المعارف مأنوسة بلزوم العارفين ومنازل المحبوبين مأهولة بحضور الواجدين ﴿فَلَا يُنَازِعُنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾ [الآية 67] أشهر تصاريف الأقدار وأعمل بموجب التكليف في هذه الدار وانتبه دون ما أذنت له من المناهل في طرق هذا الأسفار.

---

(١) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 221).

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ [الآية 68] وقد تبينت الحجة وظهرت المحجة ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الآية 68] من المجادلة الباطلة والمحاولة الماحضة فيجازيكم عليها ويخرجكم لديها حيث وكلكم إليها.

وقال الأستاذ: وكّلهم إلينا عندما راموا من الجدال ولا تتكل على ما تختاره من الاحتيال واحذر جنوح قلبك إلى الاستعانة بالأمثال والأشكال فإنهم قوالب خاوية وأشباح عن المعاني خالية.

﴿ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ [الآية 69] يفصل ما بين مؤمنكم وكافركم بالمثوبة والعقوبة ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الآية 69] كما فصل في الدنيا بوضوح الحجة وظهور المحجة ﴿فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [الآية 69] من أمر الديانة.

وقال الأستاذ: أما الأجانب فيقول لهم: ﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: الآية 14]، وأما الأولياء / فقوم منهم يحاسبهم حساباً يسيراً، وأما أقوام مخصصون فيقول لهم: بيني وبينك حساب فلا جبريل يحكم بينكم ولا ميكائيل ولا نبي مرسل ولا ملك مقرّب إنما الله يحكم بينكم فيسأل واحداً من خصمائه ويأمر بإرضاء جميع غرمائه.

261/أ

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 70] فلا يخفى عليه شيء من العلويات والسفليات والمعلنات والمخفيات ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ [الآية 70] أي بيان إحاطة علمه ﴿فِى كِتَٰبٍ﴾ [الآية 70] هو اللوح كتبه فيه قبل حدوثه من كل باب ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الآية 70] وإن كان على غيره عسير لأنه علمه مقتضى ذاته متعلق بكل معلوماته على سواء في مراتب تعيناته.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يعلم السر والنجوى وما يكون حاجة العبد به أمس وأقوى وبكل وجه هو بالعبد أولى وله أن يحمل له النعمى ويرحل عنه البلوى أو ينزل به البلوى ولا يسمع منه الشكوى فله الحكم تبارك وتعالى.

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾ [الآية 71] حجة وبرهاناً، يجيز لهم عبادة غيره من طريقة النقل ﴿وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الآية 71] دلالة تحصل من ضرورة الفعل ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [الآية 71] يدفع عنهم عذاب السعير.

وأفاد الأستاذ: أن الآية تشير إلى أن من كانت من جملة خواصه أفرده ببرهان وأيده بتبيان وأعزّه بسلطان ومن لا سلطان له يؤثر عنه قهره ولا برهان له يبسط عنه على غيره نوره فهو بمعزل عن جملته.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ [الآية 72] من القرآن ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾ [الآية 72] حال كونها واضحات الدلالة على العقائد الخفية والأحكام الإلٰهية ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ﴾ [الآية 72] أي آثار الإنكار وغبار أكدار الأغيار فإن وجوه الإظهار عنوان الأسرار ﴿يَكَادُونَ يَسْطُونَ﴾ [الآية 72] يثبون ويبطشون ﴿بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [الآية 72] لفرط إنكارهم وغيظ أسرارهم ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ [الآية 72] أي أتسمعون فأخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ﴾ [الآية 72] وهو غيظكم على القالين وسطوكم على القارين ﴿ٱلنَّارُ﴾ [الآية 72] أي هو النار ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [الآية 72] في دار القرار ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الآية 72] دار البوار.

وأفاد الأستاذ: أن المنكر لسماع الخطاب أثر في قلوب من الاستبشار والبهجة والانكسار/ والوحشة ثم ما يخامر السرائر يلوم على الأسرة في الظواهر وكانت الآيات عند نزولها إذا تليت على الكفار يلوح على وجوههم دخان ما ينطوي عليه قلوبهم من ظلمات التكذيب والإنكار، فما كان يقع عليهم طرف الإنباء عن شهودهم وعادت إلى القلوب النبوة من طلوعهم ثم أخبر أن الذين هم بصدده في الآخرة من أليم العقوبة شر بكل وجه لهم ولما يعود إلى الذين لهم عند شهودهم والمناظر الوضيئة للرائين مبهجة والمناظر المنكرة للرائين إليها موحشة.

261/ ب

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ [الآية 73] بيّن لكم حالة مستغربة أو قصة معجبة أو جعل له تعالى مثل، أي في استحقاق العبادة مثل أو ضرب لكم ولغيري من معبودكم مثل يحمل ﴿فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الآية 73] أي لسياق المثل أو لشأن هذا المثل المجمل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 73] يعني الأصنام وفي معناه جميع ما سواه ﴿لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا﴾ [الآية 73] لن يقدروا على خلقه مع صغره فصلاً وباباً. وقيل له الذباب لأنه كلما ذب آب ﴿وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟

لَهُۥ﴾ [الآية 73] لا يقدرون على خلقه مجتمعين متعاونين فكيف إذا كانوا منفردين متخالفين ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ﴾ [الآية 73] لا يستخلصوه من فمه ولهم على غاية جمعهم ونهاية جهلهم حيث أشركوا بإلٰه قادر على كل المقدورات ومتفرِّد بإيجاد جميع الموجودات تمثيل هي أعجز الأشياء في محلها حيث لا يقدر على خلق أقل الأحياء وأذلها بل تعجز عن ذبه عن نفسها واستنقاذ ما يختطفه من عندها، فقد قيل: كانوا يطلونها بالطيب والزعفران والعسل ونحوها ويغلقون الأبواب عليها فيدخل الذباب ويلحسها ويقعد فوقها وينجسها ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الآية 73] عابد الصنم ومعبوده، أو الصنم والذباب، بل الصنم أضعف بدرجات من الذباب في جميع الأبواب. وقال ابن عطاء: ولهم بهذا على مقاديرهم فمن كان أشد هيبة وأعظم سلطة لا يمكنه الاحتراز من أهون الخلق وأضعفهم ليعلم بذلك عجزه وضعفه وعبوديته وذلته ولئلا يفتخر على أبناء جنسه من بني آدم بما يملكه من المال وغيره/ ضعف الطالب أن تدركه والمطلوب أن تفوته. 262/ أ

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه نبّه الأفكار المشتتة والخواطر المتفرقة على الاستجماع لسماع ما أراد تضمينها فيها فاستحضرها فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الآية 73]، ثم بيَّن المعنى لذلك المبنى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 73]لله، أي تدعونه آلهة ﴿لَن يَخْلُقُوا۟﴾ [الآية 73] بأجمعهم ﴿ذُبَابًا﴾ [الآية 73] ولا دون ذلك ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا﴾ [الآية 73] بأن يقع على طعام لهم فليس في وسعهم استنقاذ ذاك من الذباب ومن كان بهذه الصفة فساء مثلهم وضعف وصفهم وقل خطرهم. ويقال: إن الذي يقاوم ذباباً ويصير به مغلوباً قاهر بقدره وأربح بمقداره.

﴿مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الآية 74] ما عرفوه حق معرفته وما عظموه حق عظمته حيث أشركوا به وسموا باسمه ما هو من أبعد الأشياء عنه مناسبة في وصفه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ﴾ [الآية 74] قادر على خلق الممكنات بأسرها ﴿عَزِيزٌ﴾ [الآية 74] غالب على الأشياء كلها وما يدعونه من دونه عجزه مغلوبة عن أقلها مقهورة من أذلها.

وقال الواسطي: لا يعرف قدر الحق إلا الحق وكيف يقدر قدره أحمد وقد عجز عن معرفة قدرة الوسائط من الرسل والأولياء والصديقين والأصفياء ومعرفة قدره أن لا تلتفت منه إلى غيره ولا تغفل عن ذكره وشكره ولا تذهل عن فكره ولا تفتر عن طاعته ولا تمل عن عادته وإذ ذاك عرفت أمر ظاهره. وأما حقيقة قدره فلا يقدر قدره إلا هو.

وقال الأستاذ: يقال ما عرفوه حق معرفته ولا وصفوه بجلال ما يستحقه من نعته ومن لم يكن له نقص قلب في العقيدة من المستحيلات في وصفه سبحانه لم يباشر خلاصة التوحيد سره فهو على تزاحم فكر وتجويز ظن وخطر نفس في كل وهدة من الضلالة. ويقال: العوام اجتهادهم في رفضهم الأعمال الخبيثة خوفاً من العقوبة الأبدية، والخواص جهدهم في نقضهم العقيدة من الأوصاف التي تخل عنها الصمدية، فبينهما فرقان بعيدان ﴿إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ﴾ [الآية 74] لقادر على أن يخلق/ من هو فوقهم في التحصيل وكمال المعقول، ﴿عَزِيزٌ﴾ [الآية 74] لا يقدر قدره أحد إلا بما يليق بصفة البشر بقدر من العرفان المقدر. ويقال: من وجد السبيل إليه فليس العز له إلا بوصف القصور ولكن كل بوجده مربوط وبحده في كمية قدره موقوف ومضبوط والحق سبحانه ﴿عَزِيزٌ﴾ [الآية 74] أي بديع ومنيع. 262/ب

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [الآية 75] جبريل وميكائيل ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الآية 75] كالحبيب والخليل ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ [الآية 75] لأقوالهم ﴿بَصِيرٌ﴾ [الآية 75] بأحوالهم.

وأفاد الأستاذ: إن الاجتباء والاصطفاء من الله سبحانه بإثبات القدر وتخصيص الطول أي الفضل في المراتب والتقديم في أشكالهم في المناقب والمواهب، ثم بعضهم فوق بعض في الدرجات فالفضيلة لحق الرسل لا لخصوصية الخلقة في الرسل.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [الآية 76] ما وقع بهم وما سيقع لهم ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [الآية 76] لأنه مالكها بالذات ومتصرفها في الكائنات.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يعلم حالهم ومآلهم وظاهرهم وباطنهم ويومهم وغدهم ونقضهم وعهدهم وإليه منقلبهم وفي قبضه تقلُّبهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ﴾ [الآية 77] أي صلُّوا، وعبر عن الصلاة بهما لأنهما أعظم أركانها ﴿وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ﴾ [الآية 77] بسائر ما تعبدكم به من الصوم والزكاة والحج وغيرها ﴿وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ﴾ [الآية 77] أي الخيرات والمبرات من نوافل الطاعات ومكارم الحالات ونحوها ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الآية 77] تظفرون بالمرادات من الدرجات العاليات وأمثالها. والمعنى افعلوا هذه كلها وأنتم راجون الفلاح غير واثقين على ما بكم من الصلاح.

وأفاد الأستاذ: أن الركوع والسجود والعبادة كلها بمعنى الصلاة لأن الصلاة تشتمل على هذه الأفعال جميعها ولكن فرقها في الذكر مراعاة لقلبك من الخوف عند الأمر بالصلاة والقيام بها فقسمها لتكون مع كل لفظة ومعنى نوع من التخفيف والترفيه، والقلوب أهل المعرفة في كل لفظة راحة جديدة. ويقال: لوَّن عليهم العبادة وأمرهم بها ثم جمعها عبادة واحدة ووعد عليها من الثواب الكثير ما يقصر عن علمه البصائر. ويقال: علم أن الأحباب يسمعون كلامه/ فطول عليهم القول إلى آخر الآية ليزدادوا بسماع ذلك أنساً على أنس 263/ أ وروحاً على روح ومعاد خطاب الأحباب هو روح روحهم.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ﴾ [الآية 78] أي لدينه أو سبيله ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الآية 78] وقد ورد أنه عليه السلام حين رجع من غزوة تبوك قال: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[1] كما رواه الشعبي.

وفي «تفسير السلمي»: المجاهدة مع النفس حملها على اتباع ما أمر به واجتناب ما نهى عنه.

وأفاد الأستاذ: إن حق الجهاد ما يوافق الأمر في القدر والوقت

---

(1) أخرجه البيهقي في الزهد الكبير (1/ 388) رقم (384) وانظر جامع الأحاديث (15/ 139) رقم (15164).

والنوع، فإذا حصل في شيء منه مخالفة فليس حق جهاده. ويقال: مجاهدة بالنفس ومجاهدة بالقلب ومجاهدة بالمال، فالمجاهدة بالنفس هي أن لا تدخر ميسوراً إلا بدلالته في طاعاته بتحمُّل المشاق وأن لا تطلب الرخص والإرفاق والمجاهدة بالقلب صونه عن الخواطر الرديئة مثل الغفلة والقوم على المخالفة وتذكر ما سلف لك في أيام الفترة والبطالة، والمجاهدة بالمال بالبذل والسخاء ثم بالجود والإيثار. ويقال: حق الجهاد الأخذ بالأشق وتقدير الأوثق على الأسهل الأرفق وإن كان في الأحق أيضاً نوع من الحق. ويقال: حق الجهاد أن لا يفتر عن مجاهدة النفس لحظة كما قال قائلهم:

يا رب إن جهادي غير منقطع فكل أرض لي ثغر طرسوس[1]

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ﴾ [الآية 78] اختاركم لدينه وهداكم لنصر نبيه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الآية 78] أي ضيق بتكليف ما يشق عليكم القيام به. ففيه تنبيه على أنه لا مانع ولا دافع لهم عن تركه.

وأفاد الأستاذ: أن من حق اجتنابه إياكم أن تعظموا أمر مولاكم. ويقال: هو الذي اجتباكم ولولا أنه اجتباكم لما جاهدتم في مخالفة هواكم فلا اختياره إياك وفقك حتى جاهدت في مرضاة مولاك. ويقال: علم ما كنت تفعله. قيل أن خلقك فلم يمنعك من أن يجتبيك فكذلك وإن رأى ما فعلت فلا يمنعه أن يتجاوز عنك ولا يعاقبك ثم الشرع مبناه على السهولة بناء على امتنانه والذي به/ يصل 263/ ب العبد إلى رضوانه ويستوجب جزيل فضله وإحسانه ويتخلص من أليم عقابه وامتحانه بيسير من الأمر لا يستغرق كنه إمكانك على معنى أنك إن أردت فعله لقدرت عليه وإن لم توصف في الحال ما بك مستطيع ما ليس بموجود فيك.

﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الآية 78] أي الزموها واختصوا بها، والخطاب للعرب أصالة ولغيرهم تبعية وكان أكثرهم من ذرية إبراهيم عليه السلام والتحية والمراد بها صرف التوحيد ومحض التمجيد والاعتماد على الحق في مقام التفريد

---

(1) ذكره القشيري في تفسيره (3/ 95) و(5/ 233).

حيث الالتقاء إلى السوى حتى قال لجبريل: أما إليك فلا[1].

قال ابن عطاء: أي السخاء والبذل وإطلاق الخروج من النفس والأهل والولد.

وقال الأستاذ: اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم عليه السلام في البذل والسخاء والجود والخلة والإحسان والإنعام.

﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الآية 78] أي قبل نزول القرآن في الكتب المتقدمة ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ [الآية 78] أي وفي هذا القرآن المعظم الشأن في المرتبة ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الآية 78] اللام للعاقبة ﴿شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ [الآية 78] لإطاعة من أطاع فيكم وعصيان من عصى منكم ﴿وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [الآية 78] بتبليغ رسله إليهم ما يجب عليهم ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [الآية 78] فتقربوا إلى الله بأنواع من الطاعات من العبادة البدنية والمالية فإنهما أم العبادات ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ [الآية 78] اعتمدوا على الله ولا تلتفتوا إلى ما سواه.

وقال الثوري: الاعتصام بالله للخواص وهو خلق القلب والسر عما يشغله عنه والاشتغال لمراقبته والإقبال عليه والالتجاء إليه والاعتصام بحبل الله للخواص والعوام، قال الله عز وجل: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [آل عِمرَان: الآية 103] وهو التمسك بالأوامر على السنن.

وقال ابن عطاء: الاعتصام هو رؤية العجز والثقة بالقوى والرجوع إليه والاعتماد عليه وأفاد الأستاذ: أن الاعتصام بالله بالتبري من الحول والقوة والنهوض لعباد الله بالله لله. ويقال: الاعتصام بالله التمسك بالكتاب والسنَّة. ويقال: حسن الاستعانة بدوام الاستغاثة، ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ [الآية 78] ناصركم ومتولي أمركم ﴿فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الآية 78] أي هو إذ لا مثل له في الولاية والنصرة بل ولا مولى ولا نصير سواه في الحقيقة.

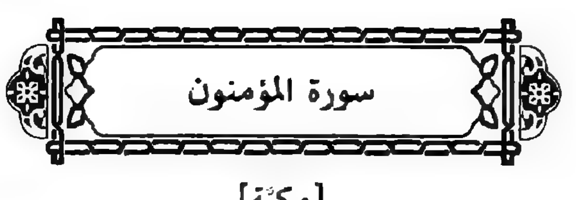
264/أ قال الإمام جعفر: / نعم المعين لمن استعان به، نعم النصير لمن استنصر به.

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (2/ 28) رقم (1077) و(2/ 104) رقم (1293)

وفي «تفسير السلمي»: أي وهو الذي يعينكم إن أقبلتم على الاعتصام بتوفيق نعت الإتمام.

وقال الأستاذ: هو مولاكم وناصركم الذي لا خلف عنه لكم فنعم المولى إخبار عن عظمته ونعم النصير إخبار عن رحمته. ويقال: المولى بدأك بالمحبة قبل أن أجبته وقبل أن عرفته أو طلبته أو عبدته، ونعم النصير إذا انصرف عنك جميع من لك فلا يدخل أحد معك لا عند السؤال ولا على الصراط من ينفعك.



[مكيّة]

وهي مائة وتسع عشرة آية[1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

باسمه يطيب المساء والصباح، وبيمنه يحصل الفلاح والنجاح، وببركته يرتفع البلاء والجناح.

وأفاد الأستاذ: أن مَن عرف بسم الله سمت همته عن المرسومات ومن أحب بسم الله صفت حالته من مساكنة الموهومات. اسم مَن طلبه نسي من الدارين أربه ومن عرفه وجد بقلبه ما لا يعرف سببه.

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الآية 1] أي فازوا بإيمانهم وعقائدهم وظفروا بأمانيهم ومقاصدهم. ومجمله أنهم فازوا بمطلوبهم وظفروا بمرغوبهم وهو إنباء وإنشاء. وقال بعضهم: المؤمن من يكون أميناً على سره أميناً على جوارحه.

وقال أبو بكر بن طاهر: مَن يكون في نفسه في أمن والخلق منه في أمن.

وقال الأستاذ: ظفر بالبقية وفاز بالطلبة من آمن بالله، والفلاح الفوز بالمطلوب والظفر بالمقصود والمحبوب، والإيمان ابتسام الحق في السريرة من الخلق.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [الآية 2] خاضعون متذلّلون متواضعون مراعون مشاهدهم ملزمون أبصارهم مساجدهم، وقد صح أنه عليه السلام كان

(1) كذا في الأصل المخطوط.

يصلي رافعاً بصره إلى السماء فلما نزلت رمى ببصره نحو مسجده[1]، أي على وجه الحياء. ورأى رجلاً يعبث بلحيته فقال: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه[2].

وأفاد الأستاذ: أن الخشوع في الصلاة إطراق السريرة على بساط النجوى باستكمال نعت الهيبة والذوبان تحت سلطان الكشف والامتحان عند غلبات التجلي. ويقال: أدرك ثمرات القرب وفاز بكمال الأنس من وقف على بساط / النجوى بنعت الهيبة ومراعاة أدب الحضرة، ولا يكمل الأنس بلقاء الحبيب إلا عند فقد الرقيب، وأشد الرقباء وأكثرهم تنقيصاً لأوان القرب النفس، ولا راحة للمصلي مع حضور نفسه فإذا خنس نفسه عنه وشاهده عدم إحساسه بآفة نفسه طاب له العيش في حال نفسه وتمت له النعمى وتعجلت له البشرى ووجد لذة الحياة في الدنيا والعقبى. 264/ب

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ﴾ [الآية 3] عما لا يعنيهم من قول أو فعل ومما لا يعنيهم من تصور أمر وخطور فكر ﴿مُعْرِضُونَ﴾ [الآية 3] لما بهم من الجد ما شغلهم عنه ومنعهم منه.

قال ابن عطاء: كل ما سوى الله فهو لغو عند أهل الانتباه.

وأفاد الأستاذ: أن ما يشغل عن الله فهو لغو وما فيه حظ للعبد فهو لغو وما هو غير الحق سبحانه فهو كفر والتعريج على شيء من هذا بُعد وهجر.

﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ﴾ [الآية 4] أي لأدائها بإعطائها ﴿فَٰعِلُونَ﴾ [الآية 4] لا غافلون فهم جامعون بين العبادات البدنية والطاعات المالية.

وأفاد الأستاذ: أن الزكاة النماء ومن علمه للنماء فأمارة ذلك أن يكون بنقصانه في نفسه عن شواهده ولا يبلغ العبد إلى كمال الوصف في العبودية إلا بذوبانه عند مشاهدة آثار الربوبية.

---

(1) الكشاف (4/ 321)، وتفسير البيضاوي (1/ 146).
(2) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (2/ 86) رقم (6787).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝﴾ [الآية 5] لا يبذلونها في جميع حالاتهم ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ [الآية 6] زوجاتهم أو سرياتهم ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [الآية 6] أي حينئذ على متابعة شهواتهم ولهواتهم.

وقال الأستاذ: يعني بابتغاء نسل يقوم بحق الله في فرع أو أصل. ويقال: إذا كان مقصوده التعفف عن اللوم والتصاون عن مخوفات الإثم.

﴿فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ﴾ [الآية 7] المستثنى من اللواطة والزنا والاستمناء بيده على طريق الهوى ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [الآية 7] الكاملون في العدوان والتجاوز بالحد في الطغيان.

وقال الأستاذ: إن من جاوز قصد إيثار الحقوق وجنح إلى جانب استيفاء الحظوظ فقد تعدى محل الأكابر وخالف طريقهم في الباطن والظاهر.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ﴾ [الآية 8] وقرأ ابن كثير لأمانتهم ﴿وَعَهْدِهِمْ﴾ [الآية 8] أي لما يؤتمنون عليه ويعاهدون من جهة الحق أو الخلق إليه ﴿رَاعُونَ﴾ [الآية 8] مراعون لإصلاحها/ قائمون بحفظها. 265/أ

وأفاد الأستاذ: إن الأمانات مختلفة فقوم الأمانة عندهم الوظائف بظواهرهم وآخرون الأمانة عندهم اللطائف في سرائرهم، ولقوم معاملاتهم ولآخرين منازلاتهم ولآخرين مواصلاتهم وكذلك عهودهم متفاوتة فمنهم من عاهده في أن لا يعبد سواه ومنهم من عاهده أن لا يقصد سواه ومنهم من عاهده أن لا يشهد في الكونين [سواه].

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ [الآية 9] وقرأ حمزة والكسائي على صلاتهم ﴿يُحَافِظُونَ﴾ [الآية 9] يواظبون على أدائها ويداومون على شرائطها وأركانها، وأما الخشوع والخضوع فمن باب مراعاة واجباتها وسننها، وفي تصدير الأوصاف وختمها بالصلاة إيماء إلى تعظيم شأنها.

قال ابن عطاء: المحافظة عليها هو حفظ السر فيها مع الله وهو أن لا يختلج فيها شيء سواه.

وقال الأستاذ: لا تصادفهم الأوقات وهم غير مستعدين لحضور الجناب ولا يدعوهم المنادي وليسوا واقفين بالباب فهم في الصف الأول بظواهرهم وكذلك في الصف الأول بسرائرهم.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [الآية 10] الجامعون لهذه الصفات ﴿هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ [الآية 10] أي الدرجات العاليات.

﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ [الآية 11] بوصف الإرث ونعت لسبب الإيمان في الأصل ثم الطاعات في الفصل وفي استحقاق الإرث في مقدار السهام بالفرض والتعصيب كذلك في الطاعات، فمنهم ومنهم أي على حسب الترتيب ووفق التهذيب، فهم في الفردوس بنفوسهم وفي الأحوال اللطيفة بقلوبهم ثم ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الآية 11] بأجمعهم لا يبرحون عن منازل نفوسهم ولا يخلون عن أحوال قلوبهم.

﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ﴾ [الآية 12] أي خلاصة سلت وأخرجت من بين الكدر وأظهر لنظر العبر ﴿مِّن طِينٖ﴾ [الآية 12] من ماء وتراب صار طيناً ثم تحجر، والمراد به آدم أو جنس البشر فإنهم خُلقوا من سلالات في أطوار جُعلت نطفاً بعد أدوار.

﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ﴾ [الآية 13] صيّرنا نسله ﴿نُطۡفَةٗ﴾ [الآية 13] بأن خلقنا منها أصله ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ [الآية 13] مستقر حصين وهو الرحم للجنين.

وقال الأستاذ: عرّفهم بأصلهم لئلا يعجبوا بفعلهم ولا يغلطوا في نفوسهم. ويقال: عرّفهم نسبتهم لئلا يخرجوا عن رتبتهم. ويقال: خلقهم من سلالة سلت من كل/ بقعة، فمن طينة حر ومن طينة سخنة ومن سهل ومن وعر ولذلك اختلفت 265/ ب أخلاقهم أي خُلقهم وخَلْقهم. ويقال: بسط عذرهم عند الكافة فإن المخلوق من سلالة ما الذي ينتظر منه أي في الحالة. ويقال: خلقهم من سلالة والقدر للتربية لا للتربة. ويقال: سلالة ولكن معدن المعرفة ومنبع المحبة ومربع القربة ومتعلق العناية ومستحق الرعاية ومن لهم قال: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المَائدة: الآية 54]. ويقال: خلقه ثم مال إلى حال نقله ودوام تغييره وبما شاء حوله.

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ﴾ [الآية 14] وهي بيضاء ﴿عَلَقَةً﴾ [الآية 14] هي حمراء ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ [الآية 14] فصيرناها كأنها قطعة لحم ممضوغة ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا﴾ [الآية 14] بأن حوّلناها وصلّبناها ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [الآية 14] أي مما أنبتنا عليها مما يصل إليها، وجمع العظام لاختلافها في الهيئة والصلابة بحسب المرام في المقام. وقرأ ابن عامر وأبو بكر على التوحيد فيهما اكتفاء باسم الجمع منهما.

وقال الأستاذ: أجزاؤها متماثلة وأبعاضها متشاكلة ثم جعل بعضها لحماً وبعضها عظماً وبعضها شعراً وبعضها ظفراً وبعضها عصباً وبعضها جلداً وبعضها مخاً وبعضها عرقاً ثم حصر كل عضو بهيئة مخصوصة وكل جزء بكيفية معلومة ثم الصفات التي للإنسان خلقها متفاوتة من السمع والبصر والعلم والقدرة والإرادة والشجاعة والغضب والحقد والحرد والأوصاف الكثيرة التي يتقاصر عنه الحصر والعد ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [الآية 14] هو صورة البدن وقوة القوى بنفخ الروح فيه.

وقال الأستاذ: في التفاسير إن صورة الوجه يحتمل ما يركب فيه من الحياة ويخص به من العقل والتمييز، وتفرد بعضهم منهم بمزايا في الإلهام العام لكل الأنام. ويقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [الآية 14] وهو أن هيأهم لأحوال عزيزة يظهرها عليهم بعد بلوغهم إذا حصل لهم كمال التمييز من فنون الأحوال، فلقوم تخصيص بزينة العبودية ولقوم تحرُّز من رق البشرية ولآخرين تحقق بالصفات الصمدية بامتحائهم عن الإحساس مما هم عليها وبها من الأحوال التي هي أوصاف الإنسانية ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ [الآية 14] تعالى شأنه في قدرته وتعاظم برهانه في حكمته ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الآية 14]/ المقدرين من المصورين حيث جعل الإنسان عالماً أكبر وخلق غيره بمجموعه عالماً أصغر كما يشير إليه الحديث القدسي والكلام الأنسي: «لا يسعني أرضي ولا سمائي ولكن يسعني قلب عبدي المؤمن»[1] أي بذاتي وأسمائي.

266/ أ

(1) سبق تخريجه.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه خلق السموات والأرضين بجملتها والعرش والكرسي مع الجنة والنار بكليتهما ولم يعقبهما بهذا التمدح الذي ذكر بعد نعت خلقه بني آدم تخصيصاً لهم وتمييزاً وتفخيماً وإفراداً لهم من بين المخلوقات تكريماً وتعظيماً. ويقال: إن لم يصرح لك بأنك أحسن المخلوقات في هذه الآية فلقد قال: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: الآية 4] في الآية الآتية. ويقال: ثناؤه على نفسه وتمدُّحه لديك أعز وأجلّ من أن يثني عليك. ويقال: لما ذكر أصناف نعمتك وتارات حالاتك في ابتداء خلقتك ولم يكن منك لسان شكر ينطق ولا بيان مدح ينطلق ناب عنك في الثناء على نفسه فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [الآية 14]، ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾ [الآية 15] لصائرون إلى الموت وسائرون فاغتنموا حياتكم في صرفها إلى الطاعة قبل أن تلقوا مماتكم ولم تجدوا الاستطاعة.

قال بعضهم: من مات في الدنيا خرج إلى حياة العقبى ومن مات في الأخرى خرج منها إلى الحياة الأصلية وهو البقاء مع المولى.

وأفاد الأستاذ: أنه من الإنشاد:

حياتنا عندنا قروض والموت من بعد في التقاضي
لا بد من رد ما اقترضنا كل غريم بذاك راضي[1]

ويقال: نعاك إلى نفسك بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾ [الآية 15] وكل ما هو آت فقريب. ويقال: كسر على أهل الغفلة سطوة غفلتهم وقل دونهم قوة صولتهم بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ۝١٥﴾ [الآية 15] وللجماد مضاهون وعن المكنة والقدرة والقوة لمبعدون وفي عداد ما لا خطر له من الموات معدودون.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ ۝١٦﴾ [الآية 16] تُحشرون للمجازات والمحاسبة.

---

(1) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 244).

قال الأستاذ: فعند ذلك يفضل الحساب والعتاب والثواب والعقاب ويتبين المقبول من المردود والموصول من المهجور والمبعود. ويوم القيامة يوم خوّف به العالم حتى لو قيل للقيامة: مما تخافين، لقالت: من القيامة. وفي القيامة/ ترى الناس سكارى حيارى لا يعرفون أحوالهم ولا يتحققون بما يؤول إليه أمرهم وآمالهم إلا أن يتبين لكل واحد أمر خيره وشره، يثقل بالخيرات ميزانه أو خف عن الطاعات ديوانه وما بين الموت والقيامة فإما راحات متصلة وإما آفات غير منفصلة. 266/ ب

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾ [الآية 17] سبع سموات طباقاً بينهما مطابقة لأنها طوارق بعضها فوق بعض مصادقة النقل فكل ما فوقه مثله فهو طريقه أو لأنها طرق الملائكة ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ [الآية 17] الذي هي السموات أو جميع المخلوقات ﴿غَٰفِلِينَ﴾ [الآية 17] مهملين أمرها بل نحفظها عن الزوال في سيرها والاختلال في أثرها حتى تبلغ منتهى ما قدر لها من كمالها وزوالها وفنائها وبقائها حسبما اقتضته الحكمة وتعلقت به المشيئة.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ﴾ [الآية 18] بتقدير يكثر نفعه ويقلّ ضره أو بمقدار مراتب حالهم كما علمنا من صلاح مآلهم ﴿فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 18] جعلناه مستقراً ثابتاً فيها ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ﴾ [الآية 18] بإزالته عن وجهها بالإفساد أو التصعيد لها أو التعميق بها ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ [الآية 18] كما كنا قادرين لإنزاله عليها.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أنزل من السماء ماء المطر الذي هو سبب حياة الأرض ومَن عليها وذلك بقدر معلوم ونصيب مقسوم. ثم البلاد مختلفة في السقي للعباد فبعضها خصب وبعضها جدب وسنة يزيد وسنة ينقص وسنة تفيض وسنة تقبض كذلك أنزلنا من ماء الرحمة فيحيي القلوب وهي مختلفة في الشرب فمن موسع عليه رزقه ومن مضيق مقتر عليه رقعه ومن هو منح ووقت هو وقت حبس ويقال: ما هو صوب الرحمة يزيل به دون العصاة وآثار زلتهم وأوضار عثرتهم وما هو سقي قلوبهم فيزيل به عطش تحيرهم ويحيي به موات أحوالهم وتكسُّرهم فينبت في رياض قلوبهم فنون أزهار البسط وصنوف

أنوار الروح وما هو شراب المحبة فيخص به قلوباً لساحات القرب فيزيل عنها به حشمة الوصف ويسكن به قلوباً فيعطلها عن التمييز ويحملها على التجاسر، والخطأ ببذل الروح فإذا شربوا طابوا ولم يبالوا بما وهنوا.

﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ﴾ [الآية 19] بالماء/ ﴿جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا﴾ 267/أ [الآية 19] في الجنات ﴿فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ﴾ [الآية 19] متفكهون منها ومتلذذون بها ﴿وَمِنْهَا﴾ [الآية 19] أي ومن الجنات باعتبار ثمارها وزروعها ﴿تَأْكُلُونَ﴾ [الآية 19] تتغذوا بها.

وقال الأستاذ: كما يحيي الغياض بماء السماء الرياض ويصنِّف فيها الأذهان والأنوار ويثمر الأنهار وتجري به الأنهار فكذلك يسقي شجرة العرفان فتورق وتثمر بعدما تزهو وتوفي أُكلها من طيب عيش وكمال بسط، ثم وفور هيبة ثم روح أنس ونتائج تجلي وعوائد قرب وما تتقاصر العبادات عن شرحه ولا تطمح الإشارات إلا في حصره.

﴿وَشَجَرَةً﴾ [الآية 20] أي وأنشأنا لكم بالماء شجرة ﴿تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ [الآية 20] جبل موسى بين مصر وأيلة. وقد يقال له طور سينين، ونسبنا اسم بقعة أضيف الطور إليها منع صرفه للتعريف والتأنيث وهي مأخوذة من السناء بالمد وهو الرفعة أو بالقصر وهو النور. وقرأ الشامي والكوفيون بالفتح على أنه فعلاً كصحراء ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾ [الآية 20] نبتاً مختلطاً بالدهن. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بضم التاء وكسر الياء من أنبت بمعنى نبت، أو على تقدير تنبت زيتونها متلبساً بالدهن ﴿وَصِبْغٍ لِّلْءَاكِلِينَ﴾ [الآية 20] أي وبإدام يغمس فيه الخبز للائتدام، والمعنى تنبت بالشيء الجامع بين كونه دهناً يدهن به ويسرج منه وكونه إداماً يصبغ الخبز فيه وقد ورد: «ائتدموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة»[1]، وفي رواية: «فإنه ينفع من الباسور»[2] أي وما يتبعه من المضرة.

(1) أخرجه ابن ماجه في السنن (2/ 1103) رقم (3319)، والبيهقي في شعب الإيمان (5/ 100) رقم (5939)، وعبد الرزاق في المصنف (10/ 422) رقم (19568).
(2) جامع الأحاديث (14/ 296) رقم (14338).

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ [الآية 21] تعتبرون بحالها وتستدلون بها على كمال صانعها ﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ [الآية 21] من ألبانها ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ [الآية 21] في ظهورها وأصوافها وشعورها ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [الآية 21] تنتفعون بأعيانها.

﴿وَعَلَيْهَا﴾ [الآية 22] أي على الأنعام التي من جملتها الإبل وهي سفينة البر ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ [الآية 22] سفن البحر ﴿تُحْمَلُونَ﴾ [الآية 22]، ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: الآية 7].

وأفاد الأستاذ: أن الإشارة منه إلى أن الكدورات الهاجمة المتراكمة لا عبرة بها ولا مبالاة بوجودها وعدمها فإن اللبن الخالص السائغ يخرج من أخلاف الأنعام من بين ما تنطوي حواياها عليه من الوحشة ولكنه صادق لم يؤثر فيه منها بحكم المجاورة، فكذلك الصنف يوجد أكثره من عين الكدورات إذ الحقيقة/ لا تعلق حق ولا باطل كما هو معلوم بالضرورة. ومن أشرف على سر التوحيد تحقق بأن جميع الحدثان من التقدير فتسقط عنه كلفة التمييز والتدبير فالأسرار عند ذلك تصفو والوقت لصاحبه لا يجفو، ولكم فيها منافع لازمة لكم إلى أجل متصل بكم: 267/ب

إني على أحوالها برٌّ بها   وبكل متصل بها متوسل[1]

ثم تحفظهم السفينة في بحار الفطرة ويحفظهم في سفينة السلامة والعصمة في بحار القدرة وإن بحار القدرة يتلاطم أمواجها والناس فيها غرقى لا من حفظه الحق في سفينة العناية، وصفة أهل الفلك إذا مستهم شدة خوف الغرق ما ذكر الله سبحانه في قوله: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العَنكبوت: الآية 65] كذلك من شهد نفسه على شرف الهلاك والغرق التجأ إلى شرف الاستعانة ودوام الاستغاثة فعند ذلك يحميه الحق سبحانه من مخلوقات التقدير. ويقال: إن وجه الأرض بحار الغفلة وما عليه الناس من أسباب

(1) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 25، 249) و(6/ 134) و(7/ 315). واللفظ عنده في صدر البيت: إني على جفواتها فبربها.

التفرقة بحار المهلكة والناس فيها غرقى، كما قال بعضهم:

الناس بحر عميق والبعد منهم سفينة
وقد نصحتك فانظره لنفسك بالسكينة[1]

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الآية 23] أي وجوده ولا تعبدوا سواه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ [الآية 23] استئناف لتعليل الأمر بعبادته وإطاعة أمره ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الآية 23] عتابه ولا تخافون عقابه.

﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [الآية 24] أي خواصهم لعوامهم ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية 24] برياسة الرسالة ونباهة النبوة ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الآية 24] إرسال رسول من عنده ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ [الآية 24] أي بمثل هذا ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الآية 24] وذلك من فرط عنادهم أو لفترة متطاولة في بلائهم.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [الآية 25] جنون وكلامه فنون ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ﴾ [الآية 25] فاحتملوه وانتظروا له ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الآية 25] يحل فيه أجله أو يزول عنه علله.

﴿قَالَ﴾ [الآية 26] بعدما أيس من إيمانهم ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ [الآية 26] بإهلاكهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [الآية 26] بسبب تكذيبهم إياي.

﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الآية 27] بمرأى منا وبحفظ عنا.

قال جنيد: مَن عمل على المشاهدة أورثه الله الرضا. قال/ تعالى: ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [الآية 27] أمرنا لك وتعليمنا لصنعك ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [الآية 27] بالركوب والإركاب أو نزول العذاب ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [الآية 27] روي أنه قال لنوح عليه السلام: إذا فار الماء من التنور اركب أنت ومن معك في الفور، فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركبه ومحله في مسجد الكوفة، وقيل عين وردة من 268/ أ

(1) نسب إلى منصور الفقيه المصري. انظر التمثيل والمحاضرة (1/ 25)، وبهجة المجالس (1/ 145).

الشام ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ﴾ [الآية 27] صنفين من ذكر وأنثى ﴿زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [الآية 27] مزدوجين. وقرأ حفص من كل بالتنوين أي من نوعين زوجين وأكد باثنين ﴿وَأَهْلَكَ﴾ [الآية 27] أهل بيتك ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [الآية 27] أي القول من الله بإهلاك من صدر الكفر عنهم ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ [الآية 27] بالدعاء لإنجائهم ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [الآية 27] لإصرارهم على الكفر.

﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية 28] كقوله تعالى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: الآية 45].

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ [الآية 29] في السفينة بعد الوصول أو في الأرض بعد النزول ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ [الآية 29] يتسبب لمزيد الخير في الدارين. وقرأ غير أبو بكر: منزلاً، أي إنزالاً أي موضع إنزال ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾ [الآية 29] هذا الثناء المطابق للدعاء فيه مبالغة للطمع والرجاء.

قال ابن عطاء: أكثر المنازل بركة منزل يسلم فيه من هواجس النفس ووساوس الشيطان ومرتبات الهوى ويصل فيه إلى محل القربة والأنس ومنازل القدس وسلامة القلب من الهوى والضلالات والبدع.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ [الآية 30] فعل بنوح وقومه ﴿لَآيَاتٍ﴾ [الآية 30] يستدل بها أولوا الاعتبار ويعتبر بها ذوي الاستبصار ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [الآية 30] لمصيبين قوم نوح بالبليات أو ممتحنين عبادنا بهذه الآيات، وإن هي المخففة واللام هي الفارقة.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه كرر قصة نوح لما فيها من عظيم الآيات من مقامه في قومه وشدة مقاساة البلاء منهم وتمام صبره على ما استقبله في طول عمره ثم إهلاك الله جميع من أصر على كفرانه ثم لم يغادر منهم أحداً ولم يبال سبحانه بأن أهلك جملتهم. ولقد ذكر في القصص أن امرأة من قومه لما أخذهم الطوفان كان لها مولود فحملته وقامت حاملة له ترفعه عن الطوفان/ 268/ب فلما بلغ الماء إلى يدها رفعته إلى فوق رأسها قدر ما أمكنها إبقاء على ولدها

إشفاقاً عليه أن لا يهلك إلى أن غلبها الماء وتلفت وولدها، فأوحى الله إلى نوح عليه السلام: لو كنت أرحم أحداً منهم لرحمت تلك المرأة وولدها[1].

وفي الخبر: أن نوحاً عليه السلام اسمه يشكر ولكثرة ما كان يبكي أوحى الله إليه: يا نوح إلى كم تنوح. فسمي نوحاً وأن ذنبه أنه كان يوماً من الأيام مر بكلب فقال: ما أوحشه، فأوحى الله إليه اخلقْ أنت أحسن من هذا، فكان يبكي معتذراً من قالته تلك. وأن قومه كانوا يلاحظونه بعين الحنون وما ازدادهم دعوة إلا ازدادوا عن إجابته نبوة ولم يزدد منهم إلا جفوة وما ازدادوا على طول المدة إلا قسوة على قسوة. ولما عمل السفينة وظهر الطوفان وأدخل في السفينة أهله فجاء في القصة أن إبليس تعرض له وقال: احملني معك في السفينة، فأبى نوح وقال: يا شقي تطمع في حملي إياك وأنت رأس الكفرة، فقال إبليس: يا نوح أما علمت إن الله أنظرني إلى يوم القيامة وليس ينجو اليوم أحد إلا في هذه السفينة. فأوحى الله إلى نوح أن احمله، فكان إبليس مع نوح في السفينة ولم يكن لابنه معه مكان في السكينة[2]. وفي هذا ظهور عين التوحيد وأن الحكم من الله غير معلول إن كان المعنى في أن ابنه لم يكن معه مكان لكفره فإبليس يشكل ولكنه أحكام غير معلولة وجبار يفعل ما يريد يقبل من يشاء ويرد من يشاء، أي فيما شاء. ثم قال الإنزال المبارك: أن يكون بالله ولله وعلى شهود الله من غير غفلة عن الله ولا مخالفاً لأمر الله. ويقال: الإنزال المبارك الاستيعاب بشهود الوصف عنك ثم الاستغراق باستيلاء سلطان القرب عليك ثم الاستهلاك بإحداق نور التجلي حتى لا ينفي عين ولا أثر فإذا تمَّ هذا وداوم هذا فتنزول بساحات الحقيقة مبارك لأنك بلا أنت بكليتك من غير بقية وأثر عنك.

﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الآية 31] هم عاد وثمود ﴿فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الآية 32] هوداً وصالحاً ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [الآية 32] تفسير لأرسلنا، أي

(1) تفسير القشيري (5/ 251).
(2) تفسير القشيري (3/ 364).

269/ أ قلنا لهم على لسان رسولهم: اعبدوا/ الله، أي وحدوه وأطيعوه ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الآية 32] معاقبته أو مخالفته ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية 33] بالإشراك وإنكار النبوة ﴿وَكَذَّبُوا بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ﴾ [الآية 33] بلقاء ما فيها من المثوبة والعقوبة أو بالبعث والإعادة إلى الحياة الثانية ﴿وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾ [الآية 33] نعمناهم ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية 33] بكثرة الأموال والأولاد واتساع الجاه بين العباد في البلاد ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الآية 33] في الصفة والحال من نيل المنال ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾ [الآية 33] أي منه.

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ﴾ [الآية 34] فيما يأمركم وينهاكم ﴿إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الآية 34] حيث أذللتم أنفسكم ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا﴾ [الآية 35] ورجعتم إلى أصلكم ﴿وَعِظَٰمًا﴾ [الآية 35] مجردة من لحومكم وأعصابكم ﴿أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ﴾ [الآية 35] من الأجداث أو من العدم إلى الوجود تارة أخرى بالأجداث ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ [الآية 36] بَعد بُعد ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ [الآية 36] فالأول ماض والثاني مصدر، والتركيب من قبيل جد جدد للمبالغة وعمل بكل من اللغة واللام للتقوية ولعل هذا أوجه من جميع ما ذكره أهل العربية.

﴿إِنْ هِىَ﴾ [الآية 37] أي لا حياة ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية 37] فأقيم الضمير مقام الحياة الأولى لدلالة الثانية عليها حذراً عن تكرارها وإشعاراً بأن تعينها خفي عن التصريح بها كقوله هي النفس ما جمّلتها تتجمل وكقول ابن الفارض:

هي النفس إن ألقت هواها تضاعفت قواها وأعطت فعلها كل ذرة

أي من ذراة جسدها وارتفع عنها كسدها ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ [الآية 37] يموت بعضنا ويولد بعض وفق عادتنا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الآية 37] بعد الموت بإعادتنا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الآية 38] فيما يدعيه من الرسالة أو فيما يعدنا من الإعادة ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية 38] مصدقين لقوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ [الآية 39] عليهم وانتقم لي منهم ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [الآية 39] بسبب تكذيبهم إياي ما أخبرتهم عن ربهم.

﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ﴾ [الآية 40] بعد زمان قليل ﴿لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ [الآية 40]

ليصيرن متندمين على التكذيب إذا شاهدوا التعذيب ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ﴾ [الآية 41] صيحة جبريل عليه السلام صاح صيحة هائلة عليهم تصدعت قلوبهم فماتوا بأجمعهم/ واستدل به على أن القوم قوم صالح لا هود فإنهم أهلكوا بريح 269/ ب صرصر عاتية لا بالصيحة ويجاب بما وقع في بعض التفاسير من أنهم أيضاً صاح بهم جبريل صيحة واحدة مع الريح أهلكهم الله بها كما ذكره القرطبي ﴿بِالْحَقِّ﴾ [الآية 41] بالوجه الثابت الذي لا دافع له ولا مانع أو بالعدل في الفصل أو بالوعد الصدق ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ﴾ [الآية 41] في دمارهم وخراب ديارهم ﴿غُثَاءً﴾ [الآية 41] كغثاء السيل وهو محموله فوق الماء ذاهب كالهباء في الهواء ﴿فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الآية 41] يحتمل أن الأخبار والدعاء أي بعدوا بعدالهم على كل خير لظلمهم على أنفسهم.

﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الآية 42] يعني قوم صالح أو لوط وشعيب وغيرهم ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ [الآية 43] الوقت الذي حد لأجلهم ﴿وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ [الآية 43] الأجل المقدر لهم ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾ [الآية 44] أصلها وترى ووزنه فَعلى والألف للتأنيث لأن الرسل جماعة ومحلها النصب على الحالية أي متواترين واحداً بعد واحد متعاقبين متظارفين من الوتر وهو الفرد. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالتنوين إنه مصدر بمعنى التواتر وقع حالاً ﴿كُلَّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا﴾ [الآية 44] في الإهلاك ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ﴾ [الآية 44] اسم جمع للحديث ومنه أحاديث النبي عليه السلام أو جمع أحدوثة وهي ما يتحدث به تلهياً وهو المرام في هذا المقام والمعنى تبقى منهم الأحاديث ليسم بها في أوقات ﴿فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية 44] في «تفسير السلمي» ما بعث الله رسله إلى أعدائه وإنما بعث الرسل ليميز أعداءه من أوليائه.

وقال الأستاذ: تتابعت القرون على طريقة واحدة في التكذيب وغرهم طول الإمهال وما مكنهم من ترفه العيش وخفض الدعة وسعة البال فلم يفتشوا إلا على أنفسهم ولم يسم لهم طرق الأمن من فوقهم من المنزلة والحال فقالوا أنؤمن بمن يتردد في الأسواق ويبتغ مثلها بوجود الإرفاق ولئن أطعنا بشراً مثلنا ليسلكنا سبيل الغي والضلالة وينكبنا سنَّة الرشد والهداية فما

جرأهم في الإهانة وإخلال العقوبة بهم مجراً واحداً وأذاقهم عذاب الخزي وأعظم داخلهم من الشبه والاستبعاد من الحشر والنشر ولم يوافقوا للعلم بأن/ الإعادة كالابتداء في الجواز وعدم الاستحالة والله يهدي من يشاء ويغوي من يريد. 270/ أ

﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ [الآية 45] بالآيات التسع المعجزات الظاهرة والآيات الباهرة ﴿وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [الآية 45] حجة واضحة ملزمة لخصمه أو بينة موضحة لنبوّته وجوز أن يراد به العصا وإفرادها بالذكر لأنها أول المعجزات وأنها حيث تعلقت معجزات شتى بها كانقلابها حية تسعى وتلقفها لما أفكه أهل السحر وانفلاق البحر وانفجار العيون من الحجر بقربها وحراستها ومصيرها سمعة وشجرة خضراء مثمرة ورشاء ودلواً ونحوها.

﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾ [الآية 46] أشراف قومه ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ [الآية 46] عن الإيمان والمتابعة ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا عَالِينَ﴾ [الآية 46] متكبرين عن الطاعة متحرين على الرعية ﴿فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [الآية 47] من قصور نظرهم طالعوا إلى الأنبياء بصورهم الظاهرية ونفوسهم البشرية ومن قلة بصيرتهم ما ورائهم من الأحوال الملكية والأخلاق الإلهية كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [فصلت: الآية 6] فامتياز الأنبياء إنما هو بوحي الإنباء كما أن العلماء يتميزون بالمعرفة عن السفهاء وإن شاركوا في نسبة الآباء والأبناء ﴿وَقَوْمُهُمَا﴾ [الآية 47] من بني إسرائيل ﴿لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ [الآية 47] خامدون منقادون كالعباد في مقام التذليل وهذا جهل منهم نشأ عنهم بسبب اتساع جاههم في البلاد وظلمهم على العباد.

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الآية 48] بالإغراق في الدنيا وبالإحراق في العقبى ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الآية 49] التوراة بعدما أهلكنا القرون الأولى أي فرعون وقومه ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ [الآية 49] أي بني إسرائيل ﴿يَهْتَدُونَ﴾ [الآية 49] إلى المعارف الأصولية والأحكام الفصولية.

﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾ [الآية 50] بولادتها إياه من غير مسيس آلة

فالآية واحدة مضافة إليهما بأدنى ملابسة ﴿وَءَاوَيْنَـٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ [الآية 50] وقرأ ابن عامر وعاصم بالفتح أي بقعة مرتفعة وهي بيت المقدس أو رملة ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ [الآية 50] مستقر من أرض منبسطة. وقيل: ذات ثمار وزراعة فإن ساكنيها يستقرون بها لأجل ما فيها ﴿وَمَعِينٍ﴾ [الآية 50] ما ظاهر على وجه الأرض جار عليها.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ [الآية 51] ما يستلذ من المباحات ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا﴾ [الآية 51] من العبادات/ فإنه المقصود منكم والنافع عند ربكم ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [الآية 51] فأجازيكم على أعمالكم وفق أحوالكم وهذا الخطاب والنداء لجميع الأنبياء لا على أنهم خوطبوا بذلك دفعة واحدة لأنهم أرسلوا في أزمنة مختلفة بل على معنى أن كلاً منهما خوطب به في زمانه وتبعه في قومه في شأنه ولا يبعد أن يكون هذا النداء لهم في عالم الأرواح حال جمعهم هذا، وفيه تنبيه على أن إباحة الطيبات شرع قديم للأنبياء واحتجاج على الرهابنة فمن رفض المستلذات. 270/ ب

وقد قال سهل: الطيبات الحلال وفي الأكل آداب أربع: الحلال والصافي والقوام والأدب، فالحلال الذي لا يعصى الله فيه، والصافي الذي لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك به النفس ويحفظ العقل بسببه، والأدب أن يشكر المنعم في إنعامه.

وقال الأستاذ: أي ما أحلّ لهم وأباح ومما هو محكوم بأنه طيب على شريطة مطالعة وخصته الشريعة مما كان لا حالاً في وقتهم مطلقاً مأذوناً لهم فيه وكذلك أعمالهم الصالحة ما كان موافقاً لأمر الله في زمانهم بفنون طاعاتهم في أفعالهم وعقائدهم وأحوالهم.

﴿وَإِنَّ هَـٰذِهِۦٓ﴾ [الآية 52] أي واعلموا أن هذه الملة ﴿أُمَّتُكُمْ أُمَّةً﴾ [الآية 52] ملتكم ملة ﴿وَٰحِدَةً﴾ [الآية 52] متحدة في أصول الشريعة والعقيدة، أو جماعتكم جماعة واحدة متفقة على الإيمان والتوحيد في العبادة، ونصب أمة على الحالية. وقرأ ابن عامر بفتح الهمز وتخفيف النون على أنها مخففة من الفعلة والكوفيون بالكسر والتشديد على أنها جملة استئنافية وأنا ربكم ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ [الآية 52]

أي فخافوني وارجوا خيري ولا تبالوا بغيري.

وقال الأستاذ: معبودكم واحد ونبيكم واحد وشرعكم واحد فأنتم سواء في أصول الشريعة فلا تسلكوا ثنيات الطرق فتطيحوا في أودية الضلالة وعليكم باتباع سلفكم واحذروا موافقة ابتداع خلقكم ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [الآية 52] خالفوا مخالفة أمري واعرفوا عظيم قدري واحفظوا جريان تقدير سري واستدعوا بقلوبكم ذكري تجدوا في مآلكم غفري وتحظوا بجميل بري.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم﴾ [الآية 53] قطعوا أمر دينهم وجعلوه أدياناً مختلفة بينهم أو فتقربوا وتحزبوا في أمرهم ﴿بَيْنَهُمْ﴾ [الآية 53] والضمير/ لما دل عليه الأمة من الجماعة أو أرباب الملة ﴿زُبُرًا﴾ [الآية 53] قطعاً حال من أمرهم ﴿كُلُّ حِزْبِۭ﴾ [الآية 53] طائفة من المتحزبين ﴿بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ [الآية 53] من الدين ﴿فَرِحُونَ﴾ [الآية 53] معجبون ومقتدرون أنهم على الحق اليقين. قال بعضهم: ربط كل أحد بحظه في سعاياته من حركاته وسكناته فالسعيد من جذب عن حظه ورد إلى حظ الحق في حقه. 271/ أ

وقال الأستاذ: فمستقيم على حقه وتائه في غيه ومصر على عصيانه وفسقه ومقيم على إحسانه وصدقه، كل مربوط بحده موقوف بما قسم له في البداية من شأنه، كل ينتحل طريقه ويتنحل لحسن طريقته حقيقة وعند صحو سماء قلوب أرباب التوحيد لا غبار في الطريق، طريق أصحاب التفريد فهم على يقين معارفهم فلا ريب يتخالجهم ولا شبهة تتداخلهم، وأهل الباطل في دخان جهلهم وغبار جحدهم وظلمة تقليدهم ومحنة شكهم.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ [الآية 54] اتركهم ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ [الآية 54] أي في جهالتهم وغوايتهم ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [الآية 54] أوان موتهم وقيام قيامتهم أو زمان انتباههم من نوم غفلتهم.

وأفاد الأستاذ: أن مدة أخذهم قريبة وأن العقوبة عليهم إذا أخذوا لشديدة وسوف يتبين لهم خطأهم عن صوابهم ولو بعد مدة مديدة.

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ﴾ [الآية 55] نعطيهم مما نجعل مدداً لهم من مدد من السنين ﴿مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ [الآية 55] بيان لما وخبر إن قوله: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي

ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الآية 56] والمعنى أيظنون أن الذين نمدهم به نسارع به لهم فيما فيه خيرهم وإكرامهم في الدنيا ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [الآية 56] لأنهم كالأنعام بل هم أضل حيث لا فطنة لهم ولا شعور بهم ليتأملوا ويعلموا أن ذلك الإمداد هو الاستدراج والمكر لا مسارعة في الخبر لما يفوتهم به من أمر العقبى. قال عبد العزيز المكي: مَن تزين بزينة تفنى فتلك الزينة تكون وبالاً عليه إلا من تزين بما تبقى.

وأفاد الأستاذ: إن هذا في شأن أصحاب الاستدراج ومكر الحق بتلبيس المنهاج فرأوه سراباً ظنوه شراباً ودس لهم في مشهدهم صباباً فتوهموه عذاباً وحين لقوا عذاباً علموا أنهم لم يفعلوا صواباً.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾ [الآية 57] من خوف عقابه وعقوبة حجابه ﴿مُّشْفِقُونَ﴾ [الآية 57] حذرون وجلون عن بابه.

وأفاد/ الأستاذ: أن أمارة الإضعاف من الخشية إطراق السريرة في حالة الوقوف بين يدي الله بشواهد الأدب ومحاذرة بغتات الطرد لا يستقر بهم قرار لما داخلهم من الرعب والمخافة واستولى عليهم من سلطان الهيبة. 271/ ب

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ [الآية 58] المنصوبة والمكتوبة ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ [الآية 58] بتصديق مدلولهما مفصلة أو مجملة.

وأفاد الأستاذ: أن تلك الآيات مختلفة فمنها ما يكاشفون لها في الأقطار من اختلاف الأدوار وما فيه الناس من فنون الهمم وصنوف المنى والإرادات فإذا آمن بها واعتبر منها امتنع بما يرى بعينيه مطالباً بسببها.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [الآية 59] إشراكاً جلياً ولا خفياً.

وأفاد الأستاذ: أن الشرك الخفي ملاحظة الخلق في أوطان طاعة الحق واستبشار بمدحه الخلق وقبولهم والانكسار والذبول عند انقطاع رؤية الخلق وحصولهم. ويقال: الشرك الخفي إحالة النوادر من الحالات والأكساب في المبار والمضار على الأسباب كقول القائل: لولا دعاء أبيك لهلكت ولولا سمة فلان لما أفلحت، وأمثال هذا كثير وعليه كثيرون. قال تعالى: ﴿وَمَا

يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ [يوسف: الآية 106] وكذلك توهم حصول الشفاء من شرب الدواء وإذا انتقض السرير واليقين عن توهم شيء من الحدثان إلا من التقدير فعند ذلك ينتفي عن الشرك أي في جميع التغيير.

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا﴾ [الآية 60] يعطون من أموالهم ما أعطوه من الصدقات أو يعطون من أنفسهم ما أعطوه من الطاعات، ويؤيده أنه قرىء يأتون ما أتوا أي يفعلون ما فعلوه من العبادات ﴿وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [الآية 60] خائفة من عدم قبول المبرات وتضييع الحالات كما.

قال قائلهم:

من لم يكن للوصال أهلاً فكل إحسانه ذنوب[1]

﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [الآية 60] لأن مرجعهم إليه وحسابهم عليه ولا يخفي أعمالهم وأحوالهم لديه.

قال الواسطي: الخائف الرجل من لا يشهد حظه بحال.

وأفاد الأستاذ: أنهم مخلصون في الطاعات من غير إلمام بتقصير أو تقريح في أوطان الكسل أو جنوح إلى الاسترواح بالرخص في المباحات ثم يخافون كأنهم ألموا بفواحش الكبار ويلاحظون أحوالهم بعين الاستبصار والاستحقار ويخافون بفتات التقدير وقضايا السخط الموجب للتغيير/ كما قال بعض أهل التعبير: 272/أ

يتجنب الآثام ثم يخافها فكأنما حسناته آثام[2]

﴿أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [الآية 61] أي في نيل خيرات الدارين ووصول مبرات الكونين بمزاولة الأعمال الصالحة فيعطيهم خير الدنيا والآخرة ﴿وَهُمْ لَهَا﴾ [الآية 61] لأجلها ﴿سَابِقُونَ﴾ [الآية 61] الناس إلى الطاعة أو المثوبة أو الجنة أو

(1) نسب إلى الشبلي. انظر محاضرات الأدباء (1/ 204)، والطيوريات (14/ 35) رقم (1080).

(2) نسب إلى أبي تمام. انظر المثل السائر (2/ 81).

القربة أو سابقونها بمعنى ينالونها قبل العقبى حيث عجلت لهم في الدنيا.

وأفاد الأستاذ: أن كلاً منهم مسارع بقدمه من حيث الطاعات ومسارع بهمه من حيث المواصلات ومسارع بندمه من حيث تجرُّع الحسرات والكل مصيب وللكل من إقباله على ما يليق بحاله نصيب.

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [الآية 62] قدر طاقتها بالقيام في طاعتها.

وأفاد الأستاذ: أن المطالبات في الشريعة مضمنة بالسهولة في الطريقة وأما مطالبات الحقيقة فكما قالوا ليس إلا بذل الروح وإلا فلا تشتغل بالدهان. وقد قال تعالى لأهل الرخص في الأعمال والمستضعفين في الأحوال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: الآية 78]. وأما أرباب الحقائق وأصحاب الدقائق فقال لهم: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: الآية 284]، وقال: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: الآية 102]، وقال: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج: الآية 78].

﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ [الآية 62] فيه فصول وأبواب وهو اللوح المحفوظ أو صحيفة الملفوظ ﴿يَنطِقُ بِالْحَقِّ﴾ [الآية 62] على وفق الصدق ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الآية 62] بزيادة عقاب أو نقصان ثواب.

وقال الأستاذ: لولا غفلتهم عن موضع الحقيقة لما خوفهم بكتابه الحفظة ما صدر عنهم من الشريعة والطريقة ولكن غفلوا عن شهود الحق لهم ولأحوالهم فخوَّفهم بإطلاع الملائكة وكتابتهم عليهم أعمالهم. أقول: ولعل في هذا تنبيه لهم على أن بعض عبادنا مطلعون على أعمالهم فكيف يخفى علينا أحوالكم.

وأما حكمة الكتابة في اللوح المحفوظ قبل أن يظهر أرباب الحقوق والحظوظ فلعل فيه الإيماء إلى سر القدر والقضاء وإشعار إلى عدم تغيير تقدير ما ثبت في عالم القضاء قبل خلق الأرض والسماء وما بينهما من الجو والهواء/ فيفيد أنه عالم بالكليات والجزئيات قبل ظهورها في صدور الكائنات 272/ب وصدور الحادثات.

﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الآية 63] قلوب الكفرة ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ [الآية 63] غفلة غامرة ﴿مِنْ هَذَا﴾ [الآية 63] الذي وصف به البررة أو من اللوح وصحيفة الحفظة ﴿وَلَهُمْ أَعْمَالٌ﴾ [الآية 63] خبيثة دنيئة وأحوال دنسة رديئة ﴿مِن دُونِ ذَلِكَ﴾ [الآية 63] من الكفر هنالك ﴿هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [الآية 63] لا محالة ومعتادون فعلها في كل حالة.

وأفاد الأستاذ: أنه لا يصلح لهذا الشأن والحال إلا من كان فارغاً من جميع الأعمال لا شغل له في الدنيا ولا في الأخرى، وأما من له شغل دنياه أو على قلبه حديث عقباه فليس له نصيب من حديث مولاه. وفي الخبر: «نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ»[1]. ويقال: أصحاب الدنيا مشغولون بدنياهم وأصحاب العقبى مشغولون بعقباهم وأهل البأس مشغولون بما ينالهم من بلواهم، فمن الذي له في الدنيا والآخرة عن مولاه خير الفراغ عزيز، . قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [يس: الآية 55] أي بخلاف جمع مقامهم عليُّون، وهذا أحد معاني ما ورد من أن أكثر أهل الجنة البله.

﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم﴾ [الآية 64] متنعميهم ﴿بِالْعَذَابِ﴾ [الآية 64] يعني الجوع بالقحط حتى أكلوا الكلاب ﴿إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾ [الآية 64] يستغيثون ويتضرعون على الباب أن يستجابوا، فقيل لهم بلسان القال أو بيان الحال ﴿لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الآية 65] أي لا تمنعون من عذابنا بل تطردون من بابنا وتعذبون بحجابنا. وفي الخبر: «مَن سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب فليكثر الدعاء في الرخاء»[2].

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يمهل ولكنه لا يهمل فإذا أخذ فبطشه شديد فإذا أخذ أصحاب الكبائر حين يحل بهم الانتقام في الجوار ردوا بالهوان والصغار والاحتقار. ويقال للجنايات سرايات فإذا أمسك الجاني عن الجناية

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (6412)، والترمذي في الجامع الصحيح (4/ 550) رقم (2304)، وابن ماجه في السنن (2/ 1396) رقم (4170).

(2) أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 729) رقم (1997)، والترمذي في الجامع الصحيح (5/ 462) رقم (3382)، وأبو يعلى في المسند (11/ 283) رقم (6396).

فلا ينفعه ذلك ما لم يمض حكم السراية.

﴿قد كانت آياتي﴾ [الآية 66] يعني القرآن ﴿تتلى عليكم﴾ [الآية 66] رجاء أنكم إليها تقبلون وما لديها تقبلون ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ [الآية 66] ترجعون فتعرضون عن سماعها وتصديقها والعمل بها.

273/أ وقال الأستاذ: وذكر هذا من/ باب إبداء العذر وإلزام الحجة والقطع بأن لا ينقطع الآن الجذع ولا يسمع العذر والفزع والملوك إذا أبرموا أحكامهم فالاستعتاب غير مؤثر في الحاصل منهم كما.

قال قائلهم:

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكد إليه بوجه آخر الدهر تقبل[1]

﴿مستكبرين به﴾ [الآية 67] أي بتكذيب الآيات ﴿سامرا﴾ [الآية 67] تسمرون بالهذيانات أو بالطعن في الآيات البينات وهو في الأصل مصدر على وزن الفاعل كالعافية بمعنى المسامرة وهي الحكاية بالليل وقيل في ظلمة القمر ﴿تهجرون﴾ [الآية 67] تعرضون وتدبرون أو تمترون وتستهزؤون، ويؤيده قراءة نافع تهجرون من أهجر إذا أفحش.

﴿أفلم يدبروا القول﴾ [الآية 68] العظيم والقرآن الكريم ليعلموا أن الحق من ربهم بإعجاز مبناه وإيجاز معناه ﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ [الآية 68] من الرسول والكتاب والأمن من العذاب.

وقال الأستاذ: يعني أنهم لو أنعموا النظر وسلطوا على أحوالهم صائب الفكر لاستبصروا في الحال ولانتفى عن قلوبهم الاستعجال والإشكال ولكنهم استوطنوا مراكب الكسل وعرجوا في أوطان التفاعل فتعودوا الجهل والسؤال من الاستبصار.

﴿أم لم يعرفوا رسولهم﴾ [الآية 69] بالأمانة والديانة والصيانة ﴿فهم له منكرون﴾ [الآية 69] وعن قبول قوله معرضون.

---

(1) نسب إلى معن بن أوس. انظر نهاية الأرب (1/ 271)، والأغاني (12/ 68).

﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ﴾ [الآية 70] جنون والحال أنه أعقلهم كما يعلمون ﴿بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ [الآية 70] لأنه يخالف شهواتهم ولهواتهم أو لقلة فطرتهم وعدم فكرتهم.

وقال الأستاذ: يعني أنهم ذهلوا عن التحقيق فتطوحوا في أودية المغاليط وترجمت بهم الظنون الخاطئة وملكتهم كواذب التقديرات فأخبر الله سبحانه عن أحوالهم وعن مقابلة الأنبياء بأموالهم فمرة قابلوهم بالتكذيب ومرة رموهم بالسحر ومرة عابوهم بتعاطي أفعال العادة بما عليه من المأكل والمشرب ومرة قدحوا فيهم بما هم فيه من العقل وقلة ذات اليد، فأخبر الله تشتت أخبارهم وتقسم أفكارهم.

﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [الآية 71] الفاسدة وآراؤهم الكاسدة كتجويز نفي النبوة والرسالة والبعثة/ ووجود تعدد الآلهة ﴿لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [الآية 71]. 273/ب

وأفاد الأستاذ: إن ذلك لضاد مناتهم وأهوائهم إذ هم متشاكسون في مرادهم وسؤالهم وتحصيل ذلك محال تقديره في وجود أحوالهم، فبيَّن الله سبحانه أنه لو أجرى حكمه على وفق مرادهم لاختل أمر السموات والأرضين ولخرج عن حد الإحكام والاتقان المبين ﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ﴾ [الآية 71] بالكتاب الذي فيه ذكرهم أي وعظهم وتذكرهم أو صيتهم وشرفهم وفيه رد على تمنيهم بقولهم: ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات: الآية 168]، ﴿فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [الآية 71] وبدل شكرهم منكرون.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا﴾ [الآية 72] أجراً على أداء الرسالة ﴿فَخَرَاجُ رَبِّكَ﴾ [الآية 72] رزقه في الدنيا وثوابه في العقبى ﴿خَيْرٌ﴾ [الآية 72] لسعته ودوام بقائه ففيه مندوحة لك عن عطاء غيره. وقرأ ابن عامر خرجاً فخرج وحمزة والكسائي خراجاً فخراج للمزاوجة والمشاكلة ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الآية 72] في الدنيا والآخرة.

وقال الأستاذ: إنك لا تطالبهم على تبليغ الرسالة بأجر وعوض

وحصول عرض حتى تكون بموضع التهمة فيما تأتيهم به من الشريعة إن لعلك تريد أن يعقدوا لك الرئاسة بأن يعتقدوا فيك الرسالة. ثم قال: والذي لك من الله سبحانه من جزيل الثواب وحسن المآب يغنيك عن التصدي لنيل ما يكون في حصوله منهم مطمع، وهذا كان سنَّة الأنبياء والمرسلين عملوا لله فلم يطلبوا عليه أجراً من غير الله والعلماء ورثة الأنبياء فسبيلهم التوقي من التدنس بالأطماع والأكل باليدين فإنه وبيء مضر بالإيمان واليقين، وإذا كان العمل لله فالأجر منتظر من الله وهو موعود من قبل الله.

﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [الآية 73] أي دين قويم وطريق كريم تشهد العقول السليمة على استقامته حيث لا اعوجاج ولا مناقضة في دلالته.

وأفاد الأستاذ: أن الصراط المستقيم شهود الحق بنعت الإفراد في جميع الأشياء والاتحاد والاستسلام لقضايا الإلزام بمواطأة القلب من غير استكراه الأحكام.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ﴾ [الآية 74] أي السوي القوي ﴿لَنَاكِبُونَ﴾ [الآية 74] عادلون كالضلال القوي فإن خوف الآخرة أقوى البواعث/ 274/أ عن طلب الحق وسلوك طريق الصدق.

قال أبو بكر الوراق: مَن لم يهتم لأمر منقلبه ومعاده ولم يهيىء في معاشه أمراً فهو ضال عن طريقه وغاوٍ عن مقام تحقيقه.

وأفاد الأستاذ: أنهم زاغوا عن الحجة المثلى بقلوبهم فوقعوا في جحيم الفرقة وستميل أقدامهم غداً عن الصراط فيقعون في نار الحرقة ناكبون في دنياهم وعقباهم.

﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ﴾ [الآية 75] قحط بلواهم ﴿لَّلَجُّوا﴾ [الآية 75] لثبتوا وتمادوا ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ [الآية 75] إفراطهم في عصيانهم وكفرانهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ [الآية 75] عن طريق برهانهم وتحقيق شأنهم. روي أنه عليه السلام دعا عليهم بقوله: اللهم اشدد وطأتك على مضر واجعلها عليهم سنين كسني

يوسف[1]. فقحطوا حتى أكلوا الجيف فجاء أبو سفيان إلى رسول الله ﷺ فقال: أنشدك الله والرحم ألست تزعم أنك رحمة للعالمين قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع. فنزلت[2].

وفي «تفسير السلمي» قال بعضهم: لو فتحنا لهم أبواب الطرق إلينا لأبوا إلا اتباع الباطل بطغيان النفس وعمائها.

قال الواسطي: للعلم طغيان وهو التفاخر به وللمال طغيان وهو البخل به وللعبادة طغيان وهو الرياء والسمعة وللنفس طغيان وهو اتباع الشهوة.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أخبر عن صادق علمه بهم وذلك صادر عن سابق حكمه فيهم فقال: لو كشفنا عنهم العذاب في الحال لم يفوا بما يعدون في أنفسهم من الإيمان في المآل ولقد علمتم أنهم سيكفرون وحكم عليهم بأنهم ينفرون إذ لا يجوز أن يكون حكم فيهم بخلاف علمه بهم.

﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ [الآية 76] يعني القتل يوم بدر ﴿فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الآية 76] في مآل بل أقاموا على استكبارهم وداوموا على إنكارهم.

قال سهل: ما أخلصوا لربهم بالعبودية ولا أذلوا له بالوحدانية.

وقال الأستاذ: أذقناهم مقدمات العذاب دون شدائدها تنبيهاً لهم فما انتبهوا ولا أترحوا ولو أنهم إذ رأوا العذاب لفزعوا إلى التضرع والابتهال لأسرع الله زوالها عنهم ولكنهم أصروا على باطلهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً.

274/ ب ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [الآية 77] يعني الجوع فإنه / بئس الضجيع وأشد من الأسر السريع والقتل الذريع ﴿إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الآية 77] متحيرون في الأمر آيسون من الخير حتى إذا جاءك يستعطفك وبئس أهل الشر.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يقول: لما أحللنا بهم أشد العقوبات ضعفوا

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (4598)، ومسلم في الصحيح (675/ 294).
(2) تفسير البيضاوي (1/ 163).

عن حملها فأخذوا بغتة ولم ينفعهم ما قدموا من الابتهال فيئسوا عن الإجابة وعرجوا في أوطان التفرط من الرحمة.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ﴾ [الآية 78] لتدركوا بها ما نزل من الآيات السمعية بنصيب من الدلالات البصرية ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ [الآية 78] لتتفكروا فيها وتستدلوا بها بنظر البصيرة عليها إلى غير ذلك من المنافع الدينية والتوابع الدنيوية ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الآية 78] تشكرونها شكراً قليلاً لأن العمدة في شكرها استعمالها فيما خلقت لأجله والإذعان لمانحها، وما صلة لتأكيد القلة.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه ذكر عظيم منته عليهم بأن خلق لهم هذه الأعضاء وطالبهم بالشكر على تلك النعماء وشكرها بحقيقة استعمالها في طاعته، فشكر السمع أن لا يسمع إلا بالله ولله، وشكر البصر أن لا ينظر إلا بالله ولله، وشكر القلب أن لا يشهد غير الله ولا يحب به غير الله.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 79] خلقكم فيها وبثكم في أطرافها ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الآية 79] تجمعون يوم القيامة بعد تفرقكم ثم تتفرعون.

وأفاد الأستاذ: أن الابتداء للحادثات من الله بدءاً والانتهاء إليه عوداً والتوحيد ينظم هذه المعاني بأن تعرف أن الحدثان بالله ظهور ولله ملكاً وملكاً ومن الله ابتداء وإلى الله انتهاء.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الآية 80] حقيقة ومجازاً كما أفاد الأستاذ بقوله: يحيي النفوس ويميتها. والمعنى في هذا معلوم عند أهلها وكذلك يحيي القلوب ويميتها فموت القلوب بالجحود وحياة القلوب بالإيمان والتوحيد، وكما أن للقلوب حياة وموتاً فكذا للأوقات موت وحياة، فحياة الأوقات بيمن إقباله وموت الأوقات بمحنة إعراضه، وفي معناه أنشدوا:

أموت إذا ذكرتك ثم أحيا فكم أحيا عليك وكم أموت[1]

كذا ذكره الأستاذ، لكن المراد بالموت والحياة بالبيت إنما هو الفناء

---

(1) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 221، 280) و(7/ 74). ونسب إلى الشبلي. انظر إحياء علوم الدين (4/ 360).

275/أ والبقاء، /نعم لو كان البيت: أموت إذا نسيتك ثم أحيا، لكان مناسباً كما لا يخفى. وقد ذكر المعنيان في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: الآية 24] ربك أو نسيت نفسك.

﴿وَلَهُ اخْتِلَافُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [الآية 80] ظلمة ونوراً وتعاقبهما ظهوراً وانتقاص أحدهما بعد زيادة الآخر منهما طوراً فطوراً ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الآية 80] بالنظر والتأمل في آياتنا أن الكل من مصنوعاتنا وإنما نشأ من إرادتنا وإن قدرتنا تعمُّ الممكنات كلها وإن البعث من جملتها.

وأفاد الأستاذ: أنه ليس كل اختلافها في ظلمتها وضيائها وطولها وقصرها بل ليالي المحبين تختلف في الطول والقصر وفي الروح والنوح فمن الليالي ما هو أضوأ من اللآلي لِلمحبين، ومن النهار ما هو أشد ظلاماً من دخان النار كما قال قائلهم:

لـيـالـي وِصـال قـد مـضـيـن كـأنـهـا لآلـي عـقـود فـي نـحـور الـكـواعـب
وأيـام هـجـر أعـقـبـتـهـا كـأنـهـا بياض مشيب في سواد الذوائب[1]

﴿بَلْ قَالُوا﴾ [الآية 81] كفار مكة وغيرهم ﴿مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الآية 81] من آبائهم ومن دان بدينهم من قوم نوح وهود وصالح ونحوهم ﴿قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الآية 82] أي استبعاداً واستغراباً، وذلك لأنهم لم يتأملوا أنهم كانوا قبل ذلك تراباً.

﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا﴾ [الآية 83] البعث ﴿مِن قَبْلُ﴾ [الآية 83] قبل هذا الرسول ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الآية 83] أكاذيبهم التي كتبوها وتلهوا بها.

وأفاد الأستاذ: أنهم سلكوا في التكذيب مسلك سلفهم وأسرفوا في العنود[2] مثل سرفهم فأصابهم ما أصاب الأولين من هلاكهم وتلفهم ولما

---

(1) قائله القشيري. انظر الوافي بالوفيات (6/ 126) وطبقات الشافعية (7/ 84).
(2) الإبل المعاندة عن طائفتها. انظر لسان العرب (3/ 307) وتاج العروس (1/ 2141).

طال عليهم وقت العسر وما تواعدوا به من العذاب بعد البعث والنشور فزاد ذلك في ارتيابهم وجعلوا ذلك حجة في اضطرابهم فقالوا: لقد وعد مثل هذا آباؤنا ثم لم يكن لذلك تحقيق لهم فما نحن إلا مثلهم، فاحتجّ الله عليهم في جواز الحشر انتهاء بما أقروا به من الخلق ابتداء حيث قال: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الآية 84] خالقها، ففيه تقرير لغاية جهالتهم وتحرير لنهاية ضلالتهم حيث جهلوا ما هو من بداية بداهتهم ولذا أخبر سبحانه عن جوابهم قبل إصابتهم بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [الآية 85] حيث لا جواب سواه لأن العقل/ الصريح قد اضطرهم إلى هذا القول الصحيح، وهو إنه خالقها ومالكها ومتصرفاً ما فيها ﴿قُلْ﴾ [الآية 85] لهم بعد ما قالوه واعترفوا بما نالوه ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الآية 85] فتعلمون أن من فطر الأرض ومن عليها ابتداء قادر على إيجادها انتهاء فإن أمر البداءة والإعادة يكون عنده سواء. 275/ ب

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [الآية 86] فإنها أعظم من ذلك في مقام التفخيم ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [الآية 87] وقرأ أبو عمرو بغير لام فيه فيما بعده على ما يقتضيه السؤال في المبنى بخلاف غيره حيث اختار الجواب بالمعنى ﴿قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الآية 87،88] بواطنه وخزائنه ﴿وَهُوَ يُجِيرُ﴾ [الآية 88] يغيث مَن يشاء ويحرسه عمن يشاء ﴿وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [الآية 88] ولا يقات أحد ولا يمنع منه ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الآية 88] حقائق ذاته ودقائق صفاته.

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [الآية 89] ليس يشاركه أحد بل ولا ثمّ سواه ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [الآية 89] فمن أين تخدعون عن الصدق وتصرفون عن الحق مع ظهور أمر الإيمان وبطلان قضية الكفران.

قال محمد بن الفضل: مَن علم أن الأشياء كلها له ثم رجع في طلبه إلى سواه مع أنه لا يمكنك من ذلك شيئاً فإن ذلك من قلة غفلته ورقة دينه.

وأسر الأستاذ إنه سبحانه أمر النبي عليه السلام أن يكرِّر عليهم الأسئلة وعقب كل واحد من ذلك مخبراً عنهم بقوله: ﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [الآية 87] ثم

يكتفي منهم بمقولهم ذلك بل عاتبهم على تجرد قولهم من التذكر والفهم والعلم تنبيهاً على أن القول وإن كان في نفسه صدقاً لم يكن فيه غنية إذا لم يصدر عن علم ويقين ثم نبههم على كمال قدرته وأن القدرة القديمة إذا تعلقت بمقدوراته وله ضد تعلقت بضده ويتعلق بمثل متعلقه والعجب أن من اعترافهم بكمال أوصاف جلاله ثم تجويزهم عبادة الأصنام التي هي جمادات لا تعطي ولا تمنع ولا تضر ولا تنفع. ويقال: قال أولاً ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الآية 85]، ثم قلل بعدد ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الآية 87] فقدم الذكر على التقوى لأن بتذكرهم يصلون إلى المعرفة ثم بعد أن عرفوه علموا أنه يجب عليهم اتقاء مخالفته ثم بعد ذلك قال: ﴿فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [الآية 89] أي بعد وضوح الحجة فأي شك بقي حتى تنسبوه إلى السحر والحيلة.

276/ أ ﴿بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ﴾ [الآية 90] من التوحيد وبالصدق/ في البعث من الوعد والوعيد ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الآية 90] حيث أنكروا ذلك وكابروا هنالك.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه بيَّن أنهم أصروا على عتوهم وأقاموا على نبوهم وبعد أن أزيحت العلل فلات حين عذر في المحل.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ [الآية 91] لتقدُّسه عن مماثلة أحد ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [الآية 91] يساهمه في الألوهية بلا اشتباه ﴿إِذًا﴾ [الآية 91] أي لو كان معه آلهة كما تقولون إذاً ﴿لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ [الآية 91] أي بما اشتبه بخلقه وامتاز ملكه عن ملك غيره ﴿وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الآية 91] لظهر بينهم التحالب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا، وهذا باطل بإجماع العقلاء بحسب التفحص والاستقراء ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الآية 91] من الولد وشركة الأحد.

﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [الآية 92] هو عالم بما غاب عن العباد وظهر في البلاد فيستوي فيه الأمران عنده وحده. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وحفص بالخفض على أنه نعت لله ﴿فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الآية 92] به من لا علم له بحاله فضلاً عن غيره.

وأفاد الأستاذ: أن اتخاذ الولد والشريك يوجب المساواة في القدرة والخلة والصمدة يتقدّس أن يكون له مثل أو جنس لأن الإثنينية تنافي الأحدية هذا وكل أمر مرتبط باثنين فقد انتفى عنه النظام ودليل التمانع مذكور في مسائل الكلام فتقدّس وتنزّه عن أوهام من أشرك وأفهام من أفك.

﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي﴾ [الآية 93] أي إن كان لا بد من أن تريني ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾ [الآية 93] من العذاب في الدنيا ﴿فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [الآية 94] قريباً لهم في العذاب المهين وهو إما لهضم النفس وقبول النعمة في دفع النقمة أو لأن شؤم الظلمة قد تحقق بمن وراءهم من الأمة. قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: الآية 25]. وعن الحسن أنه سبحانه أخبر نبيه عليه السلام أن له في أمته نقمة ولم يطلعه على وقت البلية فأمره بهذا الدعاء وتكرير النداء من باب زيادة التضرع بالثناء.

وأفاد الأستاذ: أنه عليه السلام يقول: إن عجلت لهم ما تتوعدهم به فلا تجعلني في جملتهم ولا توصل إليّ مثل ما توصل إليهم من عقوبتهم. وفي هذا دليل على أن للحق أن يفعل ما يريد وأنه لو عذّب البريء لم يكن ذلك منه قبيحاً ولا ظلماً للعبيد.

/ ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الآية 95] لكنا نؤخره على 276/ب أمان بعضهم أو بعض أعقابهم، أو لأنّا لا نعذبهم وأنت فيهم. وقيل: قد أراه ببدراً وفتح مكة ما عجل من وعيدهم.

وأفاد الأستاذ: أن الآية تدل على صحة قدرته على خلاف ما علم فإنه أخبر أنه قادر على تعجيب عقوبتهم ثم لم يفعل ذلك فصحت القدرة على خلاف المعلوم، أي بخلاف الإرادة.

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الآية 96] كلمة التوحيد وهي العليا ﴿السَّيِّئَةَ﴾ [الآية 96] الشرك وهي الكلمة السفلى، وقيل: هي الأمر بالمعروف والسيئة المنكر، والأظهر أن السيئة بمعنى الإشارة والتي هي أحسن هو الصفح عن جهتها والإحسان في مقابلتها وهو أبلغ من أن يقال: ادفع بالحسنة السيئة لما فيه من

التنصيص على الزيادة.

وأفاد الأستاذ: أن الهمزة في الأحسن يجوز أن لا تكون للمبالغة ويكون المعنى ادفع بالحسنة السيئة ويجوز أن يكون للمبالغة، فكانت المكافأة جائزة والعفو عنها في الحسن أشد مبالغة. ويقال: ادفع الجفاء بالوفاء وجرم أهل العصيان بحكم الإحسان. ويقال: ادفع ما هو حظك إذا حصل ما هو حق له من قبلك. ويقال: اسلك مسلك الكرم والموافاة ولا تجنح إلى طريق المكافأة. ويقال: الأحسن ما أشار إليه القلب والسيئة ما تدعو إليه النفس. ويقال: الأحسن نور الحقائق والسيئة ظلمة الخلائق ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ [الآية 96] من نعوتنا التي غير لائقة بذاتنا أو أصالتك على خلاف حالك وأقدر على جزائهم منك فكِلْ إلينا أمرهم فيك فإنَّا ندفعهم عنك ونكفيك.

﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [الآية 97] وساوسهم وخطراتهم ومتابعة خطواتهم ﴿وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [الآية 98] أن يحوموا حولي في كل حال ومحل لا سيما حال الصلاة والقراءة وحلول الأجل.

وأفاد الأستاذ: أن الاستعاذة في الحقيقة تكون بالله من الله كما قال ﷺ: «أعوذ بك منك»[1] ولكن تفيدنا بالاستعاذة بالله من الشيطان بل من كل ما هو مسلط علينا من الحيوان والإنسان والحق عند ذلك يوصل إلينا مضرّتنا بجري العادة علينا وإلا فلو كان بالشيطان من إغواء الخلق شيء باستبداده/ 277/أ لكان يمسك على الهداية نفسه ومن عجز عن حفظ نفسه كان أشد عجزاً من إغواء غيره. وفي معناه أنشدوا:

جحودي لك تلبيس وعقلي لك تهويس
فمن آدم لولاك ومن في البين إبليس[2]

---

(1) أخرجه الحاكم في المستدرك (1/ 449) رقم (1150)، والنسائي في السنن الكبرى (1/ 452) رقم (1444)، والبيهقي في شعب الإيمان (3/ 385) رقم (3838)، وابن أبي شيبة في المصنف (2/ 99) رقم (6943).

(2) نسب إلى الحسين بن منصور الحلاج. انظر تفسير الآلوسي (10/ 16).

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ﴾ [الآية 99] متعلق بيصفون وما بينهما جملة اعتراضية.

وقال ابن عطية: حتى هي ابتدائية ﴿قَالَ﴾ [الآية 99] أحدهم تحسر على ما فرط فيه من الإيمان والطاعة وأفرط من الكفر والمعصية لما اطلع على أمر القيامة ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ [الآية 99] ردوني من العقبى إلى الدنيا، والواو لتعظيم المخاطب، وقيل لتكرير قوله أرجعني، وقيل لخطاب الملائكة، ففي الكلام التفات.

﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾ [الآية 100] ينفعني في العقبى ﴿فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [الآية 100] أي ضيّعته في الدنيا. وعنه عليه السلام: «إذا عاين المؤمن الملائكة فقالوا نرجعك إلى الدنيا، فيقول: إلى دار الهموم والأحزان»(1) بل قدوماً إليّ، وأما الكافر فيقول: رب ارجعون ﴿كَلَّا﴾ [الآية 100] ردع عن طلب الرجعة واستبعاد عن حصول تلك الحالة ﴿إِنَّهَا﴾ [الآية 100] أي جملة قوله رب ارجعون ﴿كَلِمَةٌ﴾ [الآية 100] طائفة من الكلام ﴿هُوَ قَائِلُهَا﴾ [الآية 100] أي لا فاعلها أو لا يلتفت إليها ﴿وَمِن وَرَائِهِم﴾ [الآية 100] أي أمامهم والضمير إلى الخلق بأسرهم ﴿بَرْزَخٌ﴾ [الآية 100] حائل بينهم وبين الرجعة ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الآية 100] وهو يوم القيامة.

قال أبو عثمان: لو علم أهل النار عملاً أنجى لهم من طاعة الله لما فزعوا في وقت البيان إلا إليه بقولهم رب ارجعون لعلي أعمل صالحاً.

وقال الأستاذ: إذا أخذ البلاء بخناقهم واستمكن الضر من أحوالهم وعلموا أن لا محيص ولا محيد لهم أخذوا في التضرع والاستكانة إلى رب العباد ودون ما يرمون خرط القتاد.

قلت للنفس إن أرَدْتِ رجوعاً فارجعي قبل أن تُسد الطريق(2)

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ [الآية 101] لقيام القيامة ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [الآية 101] تلك الساعة لفرط الحيرة وشدة الدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه

---

(1) تخريج الأحاديث والآثار (2/ 407).
(2) ذكره القشيري في تفسيره (1/ 461) و(3/ 483) و(4/ 49) و(5/ 289).

وأبيه وصاحبته وبنيه ﴿وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الآية 101] ولا يسأل حينئذ أحد عن غيره لاستثقال كل أحد بنفسه كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: الآية 37].

﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الآية 102] موزونات عقائده وأعماله من الطاعات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الآية 102] الفائزون بالنجاة والدرجات / ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ [الآية 103] من الإيمان والعبادات ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الآية 103] حيث ضيّعوها في زمان استكمالها وأبطلوا استعدادها لنيل كمالها وإكمالها ﴿فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [الآية 103] دائمون نادمون. 277/ب

﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الآية 104] أي تحرقها وتسودها ﴿وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾ [الآية 104] من شدة احتراق النيران. والكلوح تقلُّص الشفتين عن الأسنان في «تفسير السلمي».

قال فارس: الأنساب رؤية الأعمال ورجاء الخلاص بها ولا يتساءلون أي لا يتذكرون ما جرى عليهم في الدنيا من نعيمها وبؤسها شغلاً بما هم فيه من أمور العقبى.

وقال الأستاذ: لا تنفع الأنساب ولا ينفع الندم وسيلقى كل ذا غب ما اجترم فمن ثقلت بالخيرات موازينه لاح عليهم تزيينه ومن ظهر ما يشينه وافترى من البلاء فنونه تلفح وجوههم النار وتلمح من شواهدهم الآثار ويتوجه عليهم حجاج الإنكار فلا جواب لهم يُسمع ولا خطاب ينفع ولا عذر يُقبل ولا عذاب عنهم يُرفع ولا عقاب عنهم يُقطع.

هذا ويقال لهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الآية 105] توبيخ وتذكير لهم بما استحقوا من العذاب لأجل فعلهم ﴿قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [الآية 106] وقرأ حمزة والكسائي شقاوتنا بالفتح وهي ضد السعادة أي ملكتنا وقويت علينا بحيث صارت مجامع أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة ﴿وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ﴾ [الآية 106] عن طريق الهداية.

قال أبو تراب: الشقوة حسن الظن بالنفس وسوء الظن بالخلق.

وأفاد الأستاذ: إنهم يظنوا بالحق ولكن في وقت لا ينفع الإقرار ولا يقبل الاعتذار ثم يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ١٠٧﴾ [الآية 107] أنفسنا، والحق يقول: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: الآية 28] علم أن ردهم لا يكون ولو كان كيف كان يكون.

﴿قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا﴾ [الآية 108] اسكتوا سكوت هوان كما في خطاب الكلاب ﴿وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [الآية 108] في رفع العذاب ودفع الحجاب.

وأفاد الأستاذ: أن عند ذلك يتم لهم البلاء ويشتد عليهم العناء لأنهم ما داموا يذكرون الله لم يحصل لهم الفراق بالكلية فإذا حيل بينهم وبين ذكره يتم لهم المحنة والبلية، وهذا أحد ما قيل في قوله تعالى: ﴿لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: الآية 103]، وفي الخبر: «إنهم ينصرفون بعد ذلك فإذا لهم عواء / كعواء الذئب» هنالك. وبعض الناس يغار على أحوالهم بأن الحق يقول لهم 278/أ اخسؤوا وقالوا: يا ليتنا يقول الناس لنا هو بذلك يخاطبنا وهؤلاء يقولون: قدح الأحباب ألذ من مدح الأعداء. وينشدون في هذا المعنى قول بعض الشعراء:

أتاني منك سبك لي فسبّي ... أليس جرى بفيك اسمي فحسبي[1]

قلت: هذا من بعض شطحاتهم حال جذباتهم أو من بعض مقاماتهم في بداياتهم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ [الآية 109] أي الشأن ﴿كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي﴾ [الآية 109] وهم الزُّهاد من عبادي ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا﴾ [الآية 109] بمحو السيئة ﴿وَٱرۡحَمۡنَا﴾ [الآية 109] بقبول الحسنة ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الآية 109] من جميع العالمين.

﴿فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا﴾ [الآية 110] مهزؤواً بهم. وقرأ نافع وحمزة والكسائي بالضم وهما مصدران زيدت فيهما ياء النسبة لقصد المبالغة ﴿حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي﴾ [الآية 110] من فرط تشاغلكم بذكر غيري واستهزائكم بأهل صبري وشكري ﴿وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ﴾ [الآية 110] استهزاءً بأرباب فقري.

(1) ذكره القشيري في تفسيره (2/ 241).

﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓا۟﴾ [الآية 111] على محنهم ومنها أذاكم لهم ﴿أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الآية 111] لأن فوزهم بمجامع مراداتهم مخصوص بهم. وقرأ حمزة والكسائي بالكسر على أن الجملة استئنافية فيه معنى التعليلية.

وفي «تفسير السلمي» قيل: الفائزون هم الآمنون من أهوال القيامة. وقال بعضهم: مَن صبر على مخالفة النفس فاز من طغيانه وتعديه.

وأفاد الأستاذ: أن الحق سبحانه ينتقم من أعدائه ما يطيب به قلوب أوليائه وتلك خصيمة الحق لأصفيائه فيقول: قد كان قوم من أوليائي يفصحون بمدحي وثنائي وينصفون بحمدي ودعائي فاتخذتموهم سخرياً في ناديهم فأنا اليوم أجازيهم وأنتقم ممن كان يناديهم.

﴿قَٰلَ﴾ [الآية 112] أي الله أو الملك. وقرأ ابن كثير وحمزة والكسائي: قل، على الأمر للملك المأمور بسؤالهم وتبيين حالهم ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 112] أحياءً وأمواتاً ﴿عَدَدَ سِنِينَ﴾ [الآية 112] تمييز لكم وتبيين ﴿قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الآية 113] استقصاراً لمدة لبثهم فيها لأنها منقضية أو بالنسبة إلى ما تيقنوا به من الخلود في العقوبة ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾ [الآية 113] الذين يتمكنون من عد أيامها إن أردت تحقيق مرامها فإنَّا مشغولون بما نحن فيه من العذاب عن تذكُّرها وإحصائها.

278/ب ﴿قَٰلَ﴾ [الآية 114] وقرأ حمزة والكسائي: / قل ﴿إِن لَّبِثْتُمْ﴾ [الآية 114] ما مكثتم ﴿إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الآية 114] قدر تلك الأزمنة.

قال يحيى بن معاذ: المغبون من عطّل أيامه بالبطالة. وأفاد الأستاذ: أن الأشياء وإن كانت كثيرة فقد تقصر وتقلّ بالإضافة إلى أن يوفي ويربي عليها كذلك مدة مقامهم تحت الأرض إن كانوا في الراحة فقد تقل بالإضافة إلى الراحات التي يلقونها في القيامة، وإن كانت شديدة فقد تتلاشى في جنب ما يرونه ذلك اليوم من أليم العقوبات المتوالية.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾ [الآية 115] أي عابثين أو للعب، والمعنى لم نخلقكم تلهيّاً بكم وإنما خلقناكم لنعيدكم ونجازيكم على أعمالكم بحسب

أحوالكم ﴿وَأَنَّكُمْ﴾ [الآية 115] أي وحسبتم ﴿إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [الآية 115] بالجزاء. وقرأ حمزة والكسائي بفتح التاء وكسر الجيم.

وأفاد الأستاذ: أن العبث اللهو والاشتغال بما يلهي من الحق والله لم يأمر العباد بذلك فلم يدعهم إلى ذلك ولم يندبهم إلى ما هنالك، والعابث في فعله من فعله على غير جد الاستقامة ويكون هازلاً مستحلياً بفعله أحكام اللهو إلى نفسه متمادياً في سهوه مستلذ التفرقة في قصده وكل هذا من صفات ذوي البشرية، والحق سبحانه منزَّه النعت عن هذه الجملة بالكلية فلا هو بفعل شيء عابث ولا بشيء من العبث أمر.

﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [الآية 116] الذي يحق له الملك المطلق ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الآية 116] فإن ما عداه مملوك له وعبيده ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الآية 116] الذي يحيط بالأجرام وينزل منه محكمات الأحكام، ولذا وصفه بالإكرام.

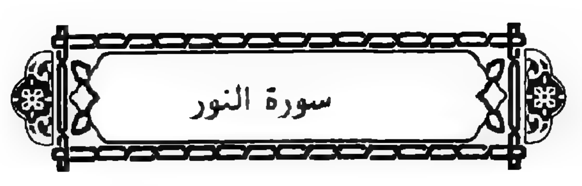
وأفاد الأستاذ: أن الحق بنعوت جلاله متوحِّد، وفي إزاله وعلو أوصافه متفرِّد بذاته أحق وصفاته حق وقوله صدق ولا يتوجه لمخلوق عليه حق وما يفعله من إحسانه بعباده فليس شيء منها بمستحق ثم ما تجمل سبحانه بالعرش ولكن تقرر العرش بأن أضافه إلى نفسه إضافة خصوصية.

﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ﴾ [الآية 117] يعبد غيره إفراداً أو إشراكاً ﴿لَا بُرْهَـٰنَ لَهُۥ بِهِۦ﴾ [الآية 117] صفة أخرى لإله، لازمة له جيء بها للتأكيد وللتنبيه على أن التديُّن بما لا دليل عليه ليس في محله فضلاً عما دلّ الدليل على خلافه ﴿فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ/ رَبِّهِۦٓ﴾ [الآية 117] فهو مجاز له بقدر استحقاقه ﴿إِنَّهُۥ﴾ [الآية 117] أي الشأن ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الآية 117] بدأ السورة بثبوت فلاح المؤمنين وختمها بنفي فلاح الكافرين، ثم أمر رسوله بأن يستغفره ويسترحمه مع أنه رحمة للعالمين فقال: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الآية 118] جمعاً بين الدعاء والثناء في مقامي الخوف والرجاء.

279/أ

وقال الأستاذ: حسابه على الله في أجله وعذابه من الله في عاجله وهو

الجهل الذي أودع قلبه حتى رضي بأن يعبد معه غيره. وقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ﴾ [الزُّمَر: الآية 3] كلام حاصل من غير دليل عقل ولا شهادة خبر ونقل، فما هو إلا إفك وبهتان وقول ليس يساعده برهان وقل رب اغفر الذنوب واستر العيوب وأجزل الموهوب وارحم حتى لا يستولي علينا هواجم التفرقة ونوازل الخطوب والرحمة المطلوبة بالدعاء هو الصادر عن الرحمة من صنوف النقمة، وسمي الحاصل بالرحمة على وجه التوسع وحكم المجاور في العبارة.



سورة النور

[مدنيّة]

وهي اثنتان أو أربع وستون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أفاد الأستاذ: أن بسم الله اسم نذير الوفاة، فرقته اسم بشير الحياة، وصلته اسم سبب الروح، عرفانه اسم راحة الروح، إحسانه اسم كمال الأنس، إقباله اسم فتنة المهيمن، جماله اسم من شهده دامت سلامته، اسم من وجده قامت قيامته، اسم لا إليه خطوة ولا بدونه سلوة.

﴿سُورَةٌ﴾ [الآية 1] أي هذه ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا﴾ [الآية 1] صفتها ﴿وَفَرَضْنَاهَا﴾ [الآية 1] أي ما فيها من أحكامها. وشدّده ابن كثير وأبو عمرو لكثرة فرائضها أو للمبالغة في إيجابها ﴿وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الآية 1] واضحات المرام موضحات الأحكام ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الآية 1] تتعظون فتتقون الحرام. قال بعضهم: لو لم يكن من آيات هذه السورة إلا براءة الصدِّيقة بنت الصدِّيق حبيبة حبيب الله لكان كثيراً فكيف وقد جمعت من البراهين والأحكام ما لم يجمعه في غيرها.

وقال الأستاذ: أي شرّعنا فيها من الحلال والحرام وبيَّنا فيها من الأحكام وما لكم بها اهتداء وللقلوب عن غمة الاستعجام شفاء، وأنزلنا فيها آيات بيِّنات دلائل واضحات وحجج لائحات لتتذكروا تلك الآيات وتعتبروا بما / فيها من البراهين النيرات. 279/ ب

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ [الآية 2] الجَلد: ضرب الجِلد، وهو حكم يختص بمن ليس بمحصن لما دل على أن حد المحصن هو الرجم، والإحصان بالحرية والبلوغ والعقل والإصابة في نكاح صحيح. واعتبر الحنفية.

وأفاد الأستاذ أن العقوبة على الزنا شديدة أكيدة لكن جعل إثبات أمره وتقرير حكمه بكونه على أكثر الناس خصلة عسيرة بعيدة إذ لا تُقبل الشهادة عليه هنا حتى يقول رأيت ذلك منه في ذلك منها وذلك أمر بمرة شديد وجوده وصعب شهوده، فسبحان مَن أعْظَمَ العقوبة على تلك الفعلة ثم جعل الأمر في إثباتها بغاية الكدر والعناء حفظاً لستر الصيانة على عباده بالخفاء. ثم ما ورد في الخبر عنه ﷺ مما يدهش اللب في ظهور الكرم فيما عامل به ماعزاً حين اعترف بذلك ولم يكن شهود هنالك، لعلك قبّلت، لعلك لامست[1]، وقوله لبعض أصحابه استنكهوه[2]، كل ذلك روماً لدرء الحد عنه إلى أن ألحّ وأصرّ على الاعتراف به. قلت: واعترافه به مع تلقينه عليه السلام بإعذاره وإصراره على إقراره كان من غاية كماله في صدق مقاله وقوة حاله وحسن مآله.

﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [الآية 2] وقرأ ابن كثير بفتح الهمزة أي شدة رحمة ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ [الآية 2] طاعته وإقامة حده فتعطلوه أو تسامحوا فيه، ولذا ورد في السنَّة ما في الكتب الستة: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»[3] ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [الآية 2] فإن الإيمان به وبمحاسبته ومجازاته يقتضي الجد في طاعته والاجتهاد في إقامة حدوده وأحكام عقوبته وهو من باب تهييج المخاطب ومبالغته على القيام بقضيته فلا نظر إلى ظاهر شرطيته.

قال جنيد: الشفقة على المخالفين كالإعراض عن الموافقين. وقال بعضهم: لا يكون المحب من يصبر على مخالفة حبيبه.

وأفاد الأستاذ: أن ما يأمر به الحق فالواجب مقابلته بالسمع والطوع والرحمة من موجب الشرع وهو المحمود، فأما ما يقتضيه الطبع والعادة فمذموم، ونهي عن الرحمة على مَن خرق الشرع وترك الأمر وأساء الأدب وفي مواطن المخالفة انتصب. ويقال: نهانا/ عن الرحمة بهم وهو يرحمهم 280/أ

(1) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (5/ 117) رقم (4843).
(2) انظر مجمع الزوائد (6/ 432) رقم (10680).
(3) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (4/ 333) رقم (7388).

حيث لا تمحو عنهم تلك الغفلة الفحشاء رغم الإيمان فقال عليه السلام آخر ما قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(1) ولولا رحمته مع استبقى عليه حلة إيمانه مع قبيح جرمه وعصيانه.

﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ﴾ [الآية 2] أي ثلاثة أو اثنان أو واحد ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية 2] زيادة في التقرير لإفادة التشهير الموجب للتهذيب فإنه أبلغ من التعذيب ولحصول التنبيه له ولغيره من العدو والحبيب في مقام التأديب.

قال أبو بكر ابن طاهر: لا يشهد مواضع التعذيب إلا من يستحق التأنيب وهم طائفة من المؤمنين لا المؤمنون أجمعون.

وقال الأستاذ: ليكون العذاب أشد عليها وليكون آكد تخويفاً لتعاطي ذلك الفعل من غيرهما ثم من حق الذين يشهدون ذلك الموضع أن يذكروا عظيم نعمة الله عليهم كيف سترهم ولم يفضحهم لديهم ولم يقمهم في موضعه الذي أقام فيه هذا المبتلى به وسبيل من يشهد ذلك الموضع أن لا يعيِّر صاحبه بذلك ولا ينسى حكم الله تعالى في إقدامه على جرمه هنالك.

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [الآية 3] وهذا باعتبار الغلبة، فإن المشاكلة علة الإلفة والمخالفة سبب للنفرة كقوله تعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [الآية 26] الآية.

وأفاد الأستاذ: أن الناس أشكال وأمثال فكل يطير مع شكله وكل يألف مع مثله. وأنشدوا:

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدي(2)

أما أهل الفساد فالفساد يجمعهم وإن تناءت ديارهم، وأما أهل السواء فالسواء يجمعهم وإن تباعد مزارهم ﴿وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية 3] لأنه تشبه

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (5578)، ومسلم في الصحيح (57/ 100).
(2) نسب إلى عدي بن زيد. انظر العقد الفريد (1/ 190) ونهاية الأرب (1/ 268).

بالفسقة وتعدّ من التهمة وتسبب لسوء المقالة والطعن في نسب الذرية ولذلك عبر عن التنزيه بالتحريم مبالغة لقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ﴾ [الآية 32] فإنه يتناول المسافحة ويؤيده أنه عليه السلام سئل عن مَن زنى بامرأة ثم نكحها فقال: «أوله سفاح وآخره نكاح والحرام لا يحرِّم الحلال»[1]. وقد روي أن الآية نزلت في ضعفة المهاجرين لما همُّوا أن يتزوجوا بغايا أهل الكتاب/ ويكرين أنفسهن لينفقن عليهم من اكتسابهن على عادة الجاهلية ولذا قدَّم الزاني هنا وقد قدم الزانية فيما سبق لأن الزنا في الأغلب يكون بتعرضها وعرض نفسها ولأن مفسدته إنما تتحقق بالإضافة إليها.

280/ ب

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [الآية 4] يقذفوهن بالزنية ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ﴾ [الآية 4] على تلك الفعلة ﴿فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ [الآية 4] والإحصان هنا بالحرية والبلوغ والعقل والإسلام والعفة عن الزنا ولا فرق فيه بين الذكر والأنثى، وتخصيص المحصنات لخصوص الواقعة التي هي سبب نزول الآية هنا وضربه أخف من ضرب الزنا في الكيفية كما نص عليه في الكمية ﴿وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ [الآية 4] أي شهادة كانت لأنه مفتر أبداً إلى آخر عمره وعليه الحنفية، أو قبل توبته وعليه الشافعية ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [الآية 4] المحكوم بفسقهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [الآية 5] عن القذف ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ [الآية 5] أعمالهم وتداركوا أحوالهم والاستثناء من جملة الأخيرة كما يشير إليه قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية 5] وقيل من الجملة المنهية وعليه الشافعية. وقد أفاد الأستاذ أنه سبحانه جعل من شرط صحة توبته إصلاحه فقال وأصلحوا، وهو أن يأتي على توبته مدة تنتشر بالصلاح صفته كما اشتهر بهتك عرض المسلمين قالته، كل هذا لشديد لمن لم يحفظ على المسلمين ظاهر حالته.

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الآية 6] نسائهم ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ﴾ [الآية 6] على زناهن ﴿إِلَّآ أَنفُسُهُمْ﴾ [الآية 6] بدل من شهداء ﴿فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ﴾ [الآية 6] أي فعليهم

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (7/ 155) رقم (13656)، وابن أبي شيبة في المصنف (3/ 527) رقم (16779)، وعبد الرزاق في المصنف (7/ 202) رقم (12787).

شهادة أحدهم ﴿أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍ﴾ [الآية 6] مفعول مطلق، ورفعه حمزة والكسائي وحفص على أنه خبر لشهادة ﴿بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الآية 6] فيما رماها به من الزنا ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ﴾ [الآية 7] أي والشهادة الخامسة ﴿أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الآية 7] فيما رماها. وقرأ نافع بالتخفيف والرفع، وهذا لعان الرجل وحكمه سقوط حد القذف عنه وثبوت حد الزنا على المرأة لقوله: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ﴾ [الآية 8] أي الحد ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الآية 8] فيما رماني به ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ/ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾﴾ [الآية 9] فيما رماها، ورفع الخامسة بالابتداء وما بعدها الخبر ونصبها حفص عطف على أربع. وقرأ نافع إن غضب الله بتخفيف النون وكسر الضاد ورفع الجلالة. 281/ أ

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الآيــــة 10] لآل حالكم إلى الفضيحة وعاجلكم بالعقوبة.

وقال الأستاذ: أي لبقيتم في هذه الواقعة المعضلة ولم تهتدوا إلى الخروج من هذه الحالة المشكلة، وإلا ففي عادة الناس من الذين يهتدي لمثل هذا الحكم الخفي لولا تعريف سماوي وأمر نبوي من الوحي مستقاه ومن الله مبتدأه وإليه منتهاه.

هذا وفي تفسير السلمي قال بعضهم: من لم ير فضل الله عليه في جميع الأحوال فهو ساقط عن درجة المعرفة بالأفضال فإن أوائل المعرفة رؤية الفضل ومن شاهد الفضل لا يعمى عن الشكر والتزام المنة ونعمته في الدنيا العافية وفي الأخرى الرضا.

وقال السياري قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية 10] ولم يقل لولا عبادتكم وصلاتكم وحسن قيامكم لله ما نجا منكم من أحد ليُعلم أن العبادات وإن كثرت فإنها من نتائج الفضل.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ﴾ [الآية 11] بأبلغ ما يكون من الكذب مأخوذ من الإفك وهو الصرف ويسمى به لأنه قول مأفوك عن وجهه ومصروف عن نحره. والمراد ما أفك به على عائشة رضي الله تعالى عنها وذلك أنه عليه السلام

استصحبها في بعض الغزوات فأذن ليلة في القفول بالرحيل فمشت لقضاء حاجة ثم عادت إلى الرحل فلمست صدرها فإذا عقد من جزع ظفار قد انقطع فرجعت لتلتمسه فظن الذي كان يرحلها إنها دخلت الهوادج فرحّله على مطيتها وسار، فلما عاد إلى منزلها لم يجد منهم أحداً فجلست كي يرجع إليها منشد وكان سفيان بن المعطل السلمي قد عرس وراء الجيش فأدلج فأصبح عند منزلها فعرفها فأناخ راحلته فركبتها فقادها فاتهمت به[1] ﴿عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [الآية 11] خبر إن أي جماعة وهي كالعصابة من العشرة إلى الأربعين وهم عبد الله بن أُبيّ وزيد بن رفاعة وحسان بن ثابت ومسطح ابن أثاثة وحمنة بنت جحش ومَن/ وافقهم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ [الآية 11] لا تظنوا الإفك ﴿شَرًّا لَّكُم﴾ [الآية 11] جملة مستأنفة والخطاب للنبي ﷺ وأبي بكر وعائشة وصفوان ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الآية 11] لاكتسابكم الثواب العظيم وظهور كرامتكم على الله الكريم بإنزال سبعة عشر آية في براءتكم وتعظيم نزاهة ساحتكم والوعيد بالتهويل لمن تكلم فيكم والثناء الجميل على مَن ظنّ خيراً بكم ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ [الآية 11] لكل جزاء كسبه بقدر ما خص فيه مختصاً به ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ [الآية 11] معظمه ﴿مِنْهُمْ﴾ [الآية 11] من الخائضين وهو ابن أُبي من المنافقين فإنه بدأ به وأذاعه وهو وحسان ومسطح فإنهما ساعداه في التصريح به فالذي بمعنى الذين ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية 11] في العقبى أو في الدنيا بأن جلدوا وصار ابن أُبي مطروداً مشهوراً بالنفاق مبعوداً وحسان أعمى وأشل اليدين ومسطح مكفوف البصر فاقد العين.

281/ب

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه بيَّن في قصة عائشة رضي الله عنها وما كان من حديث إفكها لأنه لا يخلي أحداً من المحنة والبلاء في المحبة والولاء من أقوى أركانه وأعظم برهانه وأصدق بيانه كما ورد يمتحن الرجل على قدر دينه.

وقال: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل من الأولياء»[2].

---

(1) أخرجه ابن حبان في الصحيح (10/ 13) رقم (4212)، وأحمد في المسند (6/ 194) رقم (25664).

(2) سبق تخريجه.

ويقال: إن الله سبحانه غيور على قلوب خواص عباده فإذا حصلت مساكنة لبعض إلى بعض في حظه يجري الله ما يرد كل واحد منهما عن صاحبه ويرد إلى نفسه، وقد أنشدوا:

إذا علقت روحي حبيباً تعلّقت به غير الأيام إذ تَسلبَتّه[1]

وأن النبي ﷺ لما قيل له أي الناس أحب إليك قال: «عائشة»[2] فمساكنها، وعائشة رضي الله عنها قالت في بعض الأخبار: يا رسول الله إني أحبك وأحب قربك، فأجري حديث الإفك حتى ردَّ رسول الله ﷺ قلبه عنها إلى الله وردت عائشة عنه إلى الله حيث قالت لما ظهرت براءة ساحتها: بحمد الله لا بحمدك كشف الله غيابة تلك المحنة وأزال الشك والشبهة[3]. وأظهر رضي الله عنها براءة ساحتها. ويقال أن: النبي ﷺ قال: «اتقوا فراسة المؤمن فإن المؤمن يتظر بنور الله»[4] فإذا كانت الفراسة صفة المؤمن فأولى الناس بالفراسة كان رسول الله/ ﷺ ثم لم يظهر له بالفراسة ساحتها حتى كان يقول لها: «إن فعلت فتوبي»[5] والسبب فيه أن في أوقات البلاء يبدي الله على أوليائه عيون الفراسة إكمالاً للبلاء. وكان إبراهيم عليه السلام لم يميز ولم يعرف الملائكة حيث قدم إليهم العجل الحنيذ وتوهم أضيافاً. ولوطاً عليه السلام لم يعرفهم ملائكة إلى أن أخبروه أنهم ملائكة. ويقال: إنه كان عليه السلام يقول لعائشة: يا حميراء[6]، فلما كان زمن الإفك وأرسلها إلى بيت أبويها واستوحش الأبوان معها ومرضت عائشة رضي الله عنها من الحزن والوجد الذي بها فكان رسول الله ﷺ إذا رأى

282/ أ

(1) ذكره القشيري في تفسيره (7/ 441).
(2) أخرجه البخاري في الصحيح (3662)، ومسلم في الصحيح (2384/ 8) رقم (6328).
(3) أورده القشيري في تفسيره (5/ 307).
(4) سبق تخريجه.
(5) أخرجه البخاري في الصحيح (4757)، والترمذي في الجامع الصحيح (5/ 332) رقم (3180)، والطبراني في المعجم الكبير (23/ 108) رقم (150).
(6) أخرجه الحاكم في المستدرك (3/ 129) رقم (4610)، والبيهقي في السنن الكبرى (1/ 6) رقم (15)، والبيهقي في شعب الإيمان (3/ 382) رقم (3835).

واحداً من دار أبي بكر يقول كيف ابنتكم لا عائشة ولا الحميراء. ولكن ما كان يطيب قلبه بالتغافل عنها فكان يقول: كيف تيكم[1]، إن لم يسأل بالتصريح كان يتفقد بالتلويح.

﴿لَوْلَآ﴾ [الآية 12] هلّا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [الآية 12] أي بالذين منهم من المؤمنين والمؤمنات كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [الحُجرَات: الآية 11] وعدل عن الخطاب إلى الغيبة مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقضي ظن الخير بالمؤمنين والكف عن الطعن فيهم وذب الطاعنين عنهم كما يذبّونهم عن أنفسهم ﴿وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [الآية 12] مبنياً على حسن الظن الواقع موقع اليقين.

﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ﴾ [الآية 13] أي الأربعة ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الآية 13] أي في حكمه ﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ [الآية 13] فيجري عليهم أمر حده.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه عاتبهم على المبادرة إلى الاعتراض عليها وبسط ألسنة السوء إليها ثم قال: وهلّا جاؤوا على ما قالوا بالشهداء وإذا لم يجدوا ذلك البيان فهلّا تسكنوا عن بسط اللسان.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [الآية 14] أي فضله في الدنيا بأنواع النعم التي من جملتها المهلة للتوبة ورحمته في العقبى بالعفو والمغفرة والوصلة والقربة ﴿لَمَسَّكُمْ﴾ [الآية 14] بالعجلة ﴿فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ [الآية 14] خضتم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية 14] يستحقر دونه الجلد والملامة.

282/ ب وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أخبر أن جرمهم وإن كان عظيماً/ عنده فإنه في حكم الله عنهم غير مؤثر لهم ولولا أن الله سبحانه ينتقم لأوليائه ما لا ينتقم لنفسه لعله لم يذكر هذه المبالغة في أمرهم فإن الذي يقول الأجانب والكفار

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (2661)، ومسلم في الصحيح (2770/ 56).

في وصف الحق سبحانه ما يستحيل وجوده وكونه يوفي ويربي على كل سوء في مشهوده ثم لا يقطع عنهم أرزاقهم ولا يمنع منهم إرفاقهم ولكن ما يتعلق به حقوق أوليائه لا سيما حق سيد أنبيائه فذلك عظيم عند الله وعند أصفيائه.

﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ﴾ [الآية 15] يأخذه بعضكم من بعض ﴿بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ [الآية 15] بالسؤال عنه ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ [الآية 15] عندكم كقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: الآية 167]، ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا﴾ [الآية 15] سهلاً لا تبعة له أصلاً ﴿وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [الآية 15] وزراً وفعلاً. قال بعضهم: مَن تهاون بما يجري عليه من الدعاوى المنسوبة إليه فقد صغر ما عظم الله لديه لأن الله يقول: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [الآية 15].

وأفاد الأستاذ: أن سير الذلة إذا لاحظها العبد بعين الاستصغار يحيط كثيراً من الأحوال ويكدر كثيراً من صافي المشارب كالزلال واليسير من الطاعة ربما يستقل العبد وجوده ثم فيها نجاته ونجاة عالم معه.

﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ [الآية 16] مثل هذا القول ﴿قُلْتُم مَّا يَكُونُ﴾ [الآية 16] ما ينبغي ولا يصح ﴿لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا﴾ [الآية 16] بتحقق هذا الفعل ﴿سُبْحَانَكَ﴾ [الآية 16] تعجب ممن يقول ذلك أو تنزيه له سبحانه من أن يكون حَرَمُ نبيه فاجرة هنالك ﴿هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية 16] لعظمة المبهوت عليه فإن حقارة الذنوب وعظمتها باعتبار متعلقاتها كما قد يكون باعتقاد مصادرها وعظمة حالاتها ولذا قالوا: حسنات الأبرار سيئات الأحرار.

وأفاد الأستاذ: إن استماع الغيبة نوع من الغيبة بل مستمع الغيبة شر المغتابين إذ بسماعه يتم قصد قائله فإذا سمع المؤمن ما هو سوء قاله في السلمي مما لا صحة له في التحقيق واليقين فالواجب الرد على قائله بأحسن نصيحة وأدق موعظة ونوع شاغل عن إظهار المشاركة له بأحسن كيفية فإن آبى إلا انهماكهما فيما يقول فرد عليه بما أمكن من الحصول، فإن لم يستح/ 283/ أ قائله من قوله فلا ينبغي أن يستحي المستمع من رد فعله.

﴿يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟﴾ [الآية 17] كراهة أن ترجعوا ﴿لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الآية 17] ما دمتم أحياء مكلفين ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الآية 17] فإن الإيمان يمنع منه ويدفع عنه.

﴿وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾ [الآية 18] الدالة على محاسن الشريعة وآداب الطريقة كي تتعظوا أو تتأدبوا بما يجب عليكم من أطوار الحقيقة ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ [الآية 18] بأحوال خلقه ﴿حَكِيمٌ﴾ [الآية 18] في تدبير حكمه.

قال الأستاذ: يتعلق بهذا قوم في أن من بسط لسانه في عائشة رضي الله عنها بعد هذا لم يكن مؤمناً لظاهر هذه الآية، ولعمري قائل هذا مرتكب كبيرة ولكن لا يخرج عن الإيمان بذلك قلت أما بعد إبراء الله تعالى ساحة عصمتها وإنزاله آياته في عفتها وإخباره عزَّ وجلَّ عن براءتها فلا شك أن الطعن فيها طعن في إخباره سبحانه عنها فيكون كفراً صريحاً هنالك ولا أعلم في المسألة خلافاً في ذلك. وأما من طعن فيها بغير ما يفهم من القرآن نفيه عنها بل لما صدر بعض المخالفة منها كما وقع لها مع علي رضي الله عنها فهو من شعار المبتدعة فإن قصدها كان المصالحة وقد حصل لها المراجعة عن تلك الحالة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ﴾ [الآية 19] أي يريدون أن تنتشر وتذيع ﴿ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الآية 19] بحسب ظاهر الشريعة ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [الآية 19] بالحد والحرقة والحجاب والفرقة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ [الآية 19] ما في الضمائر ﴿وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الآية 19] إلا الظواهر فعاقبوا في الدنيا على ما دل عليه الظواهر والله سبحانه يعاقب على ما في القلوب من حب الإشاعة في السرائر.

وأفاد الأستاذ: إن هؤلاء في استحقاق الذم [أشد] منزلة وأشد معصية حيث أحبوا افتضاح المسلمين ومن أركان الدين مظاهرة المسلمين وإعانة أولي الدين وإرادة الخير بكافة المؤمنين والذي يود فتنة المسلمين فهم شرار الخلق أجمعين والله لا يرضى منه بحاله ولا يؤهله لمنازل خلاص التوحيد وكماله.

﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٢٠﴾ [الآية 20] لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم تكرير للمنة بترك العجلة بالعقوبة بعد عظمة جرم النسبية.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الآية 21]/ بإشاعة الفاحشة في 283/ ب أهل الإيمان ﴿وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الآية 21] أي طرق تزيينه بأنواع العصيان ﴿فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [الآية 21] أصحابه وأتباعه من أهل الكفر والعصيان والفحشاء ما أفرط قبحه حتى في الطبع، والمنكر ما أنكره الشرع.

وقال الأستاذ: إذا انتقى القلب عن الوساوس وصفا عن الهواجس بدا فيه أنوار الخواطر فإذا سما وقت العبد عن ذلك سقطت الخواطر من الملك وبدا فيه أحاديث الحق سبحانه هنالك كما في الخبر: «لقد كان لكم في الأمم محدثون فإن يك في أمتي فعمر»[1] ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [الآية 21] بتوفيق التوبة الماحية للمعصية وتشرع الحدود المكفرة ﴿مَا زَكَىٰ﴾ [الآية 21] ما ظهر ﴿مِنكُم﴾ [الآية 21] من دنس السببية ﴿مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [الآية 21] أي إلى غاية ولا نهاية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ﴾ [الآية 21] بعصمته عن المعصية أو بحمله على التوبة ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ [الآية 21] لمقالاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ [الآية 21] بنياتهم.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه ردهم في جميع أحوالهم إلى مشاهدة ما من الحق في قسمي نعم النفع والدفع وحالتي العسر واليسر والزكاة من الله والنعماء من الله والآلاء من الله، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: الآية 53].

﴿وَلَا يَأْتَلِ﴾ [الآية 22] لا تحلف أو لا تقصر ﴿أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ﴾ [الآية 22] أي أرباب الفضيلة في الكمال ﴿أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 22] أي ضعفاء الأحوال وفيه دليل على فضل أبي بكر وشرف حالته حيث نزل فيه وقد حلف أن لا ينفق على مسطح بعد، وكان ابن خالته،

---

(1) سبق تخريجه.

وهو كان من فقراء المهاجرين وأرباب حاجته فالصفات لموصوف واحد كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: الآية 120] أو ناساً جامعين لها أو لموصوفات أقيمت الصفات مقام ذواتها ﴿وَلْيَعْفُوا۟﴾ [الآية 22] ما فرط منهم ﴿وَلْيَصْفَحُوٓا۟﴾ [الآية 22] بالإغماض عنهم ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [الآية 22] على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية 22] مع كمال قدرته فتخلقوا بأخلاقه ونعته. روي أنه عليه السلام قرأها على أبي بكر رضي الله عنه فقال: بلى أحب، ورجع إلى مسطح بنفقته. قال بعضهم: العفو هو الستر/ عن ما مضى وترك التأنيب فيما بقي، ثم الأظهر أن العفو بحسب الباطن والصفح باعتبار الظاهر كما يشير إليه مادة الأول والآخر فإن العفو معناه المحو والصحو إعراض صفحة الخير والجانب والكشح، ولعله لهذا المعنى لم يرد الصفوح في الأسماء الحسنى.

284/ أ

وأفاد الأستاذ: أن العفو والصفح بمعنى فكررهما تأكيداً لمبنى ويقال: العفو أن يتجاوز عن الجاني والصفح أن يتناسى جرمه. ويقال: العفو في الأفعال والصفح في جنايات القلوب من الأحوال ومن كان بلطفه سبحانه قوله: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ [الآية 22] فإن الله سبحانه لا يغادر في قلوب أوليائه كراهة من غيرهم وأنى بالكراهة من الخلق، والمنفرد بالإيجاد هو الحق. وأنشد:

رب رام لي بأحجار الأذى ... لم أجد بداً من العطف عليه
فعسى يطلع الله على فرح ... القوم فيدنيني إليه[1]

هذا وقد تحرك في أبي بكر رضي الله عنه أولاً عرق من البشرية في وصف الانتقام مع مسطح حيث خاض في ذلك الكلام، فلما نزلت الآية لم يرض الصدِّيق أن يتحرك فيه عرق من الأحكام النفيسة والمطالبات البشرية. فأعاد أبو بكر رضي الله عنه ما كان يفعله في الأيام الماضية والإحسان إلى

(1) نسب إلى الحسن بن سهل بن منصور. انظر غرر الخصائص الواضحة (1/ 128)، والوافي بالوفيات (3/ 433).

المحسن مكافأة وإلى من لا يسيء ولا يحسن فضل وإلى الجاني فتوة وكرم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [الآية 23] العفائف ﴿ٱلۡغَٰفِلَٰتِ﴾ [الآية 23] مما رُمِينَ به ﴿ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ﴾ [الآية 23] بالله ورسوله وسائر ما يجب الإيمان به ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [الآية 23] أُبْعِدُوا عن الرحمة ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الآية 23] وعقاب أليم. قيل: هذا خاص بمن نزل في حقه من أُبي ونحوه من الكفرة. وقيل: حكم كل قاذف قبل التوبة. وقيل مخصوص بقاذف أهل بيت النبوة ولذا قال ابن عباس: لا توبة له ولو فتشت آيات الوعيد لم تجد أغلظ مما نزل في قذف عائشة من التهديد الأكيد.

وقال الأستاذ: بالغ في التوعُّد لهم حيث ذكر اللعنة في شأنهم ووصفه إياهن بالغفلة، أي عما نسبن إليه على جهة المذمة ولكن لبيان تباعدهن عما قيل في حقهن واستحقاق اللعنة/ في الدنيا يدل على أنه لشؤم زلتهم بتغير عواقب حالاتهم فيخرجون عن الدنيا لا على ملتهم. 284/ ب

﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الآية 24] وقرأ حمزة والكسائي بالتذكير ﴿أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الآية 24] يعترفون بأعمال الشهود عليهم بإنطاق الله إياها من غير اختيارهم.

وقال الأستاذ: تشهد عليهم أعضاؤهم بما عملوا من غير اختيار منهم ثم كما شهد بعض أعضاؤهم عليهم شهد بعض أعضائهم، فالعين كما تشهد إنه نظر بي تشهد أنه بكى بي، وكذا سائر الأعضاء. ويقال: شهادة الأعضاء في القيامة مؤجلة وشهادتنا في المحبة اليوم معجلة من صفرة الوجوه وشحوب اللون ونحافة الجسم وانسكاب الدموع وخفقان القلب من محبة الرب.

﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ [الآية 25] جزاؤهم المستحق ويعلمون بالعلم اليقين أن الله هو الحق المبين الثابت بذاته الظاهر بنعوته وصفاته لا يشاركه في ذلك سواه ولا يقدر على الثواب والعقاب إلا إياه.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يجازيهم على قدر استحقاقهم للعابدين بالجنة والمثوبة على توفية أعمالهم وللعارفين بالوصلة والقربة على تصفية

أحوالهم، فهؤلاء لهم علو الدرجات وهؤلاء لهم الأنس بعلو المشاهدات ودوام الجنات ﴿وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ﴾ [الآية 25] تصير المعارف ضرورية فيجدون المكافأة من النظر وتذكره وتسريح القلب من وصفي تردده وتغيره باستغنائه ببصائره عن تبصّره. ويقال: لا يشهدون غداً إلا الحق فهم قائمون بالحق للحق مع الحق تبين لهم أسرار التوحيد المطلق ويكون القائم عنهم والأخذ لهم عنهم من غير أن يردهم إليهم.

﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾ [الآية 26] أي الخبائث تزوجن الخباث وبالعكس، وكذا أهل الطيب فهو كالدليل لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [الآية 26] يعني الرسول وعائشة وصفوان ﴿مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ﴾ [الآية 26] أي بتفوهه أهل البهتان ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ [الآية 26] مقرونة بالرحمة ﴿وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الآية 26] مثوبة عظيمة/ في الجنة. قيل: لقد برأ الله أربعة، براءة يوسف بشاهد من أهلها، وبراءة موسى من قول قومه بالحجر الذي ذهب بثوبه، ومريم بإنطاق ولدها، وعائشة رضي الله عنها بما أنزل الله فيها من الآيات مع هذه المبالغات وما ذاك إلا لإظهار منصب الرسالة وإعلاء أهل بيت النبوة هنالك. 285/ أ

وقال سهل: الخبيثات من القلوب للخبيثين من الرجال وخبيثو القلوب من الرجال للخبيثات من النساء. وقال بعضهم: من لم يراع أوامر الله ونواهيه فهو الخبيث.

وقال عبد العزيز المكي: الدنيا وخبائثها من الرجال المحبين لها ولهم تصلح الدنيا، والخبيثون المحبون للدنيا للخبيثات أي لِشهوات الدنيا ولها يصلحون، والطيبات هي درجات الآخرة وكراماتها للطيبين المحبين لها ولهم تصلح الآخرة، والطيبون المحبون للآخرة للطيبات أي للذات الآخرة ولها يصلحون.

وأفاد الأستاذ: أن الخبيثات من الأعمال وهي المحظورات للخبيثين من الرجال المؤثرون لها طوعاً والذين يجنحون إلى مثل تلك الأعمال فهم لها كل مربوط بما يليق به، فالفعل لائق بفاعله والفاعل لائق بفعله في الطهارة

والقذراة والنفاسة والخساسة. ويقال: الخبيثات من الأحوال وهو للحظوظ والمنى والشهوات لأصحابها الساعين لها والساعون لمثلها غير ممنوع أحدهما من صاحبه فالصفة للموصوف لازمة والموصوف لصفته ملازم. ويقال: الخبيثات من الأشخاص لِلخبيثين من الأشخاص وهم الراضون بالمنازل السخيفة، وإن طعمة الكلاب الجيفة. ويقال: الخبيثات من الأموال وهي التي ليست من وجه الحلال لمن بها توبته وعليها تعتكف همته، والخبيث من الرجال لا يميل إلا إلى مثل تلك الأموال وتلك الأموال لا تساعد إلا تلك الرجال والطيبات من الأعمال وهي القرب والطاعات للطيبين وهم المؤثرون لها الساعون في تحصيلها، والطيبات من الأحوال وهي تحقيق المواصلات بما هي/ من الحق مجرداً عن الحظوظ للطيبين من الرجال الذين 285/ ب هم قائمون بحق الحق لا يصحبون الخلق إلا للتعفف دون استجلاب الشهوات لهم مغفرة في المآل ورزق كريم في الحال وهو ما ينالون من غير استشراف ولا بطلب طمع ولا ذل منه ولا بتقديم تعب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا﴾ [الآية 27] أي مسكونة وغيرها ﴿غَيْرَ بُيُوتِكُمْ﴾ [الآية 27] أي تملكونها أو تسكنونها ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟﴾ [الآية 27] تستأذنوا من الاستئناس بمعنى الاستعلام من أنس الشيء إذا بصره فإن المستأنس مستعلم للحال مستنكف لأمر الإدخال ﴿وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [الآية 27] فعنه عليه السلام: «أن التسليم أن يقول: السلام عليكم أأدخل ثلاث مرات فإن أذن له دخل وإلا رجع»[1]، رواه ابن ماجه وغيره. وروي أن رجلاً قال للنبي عليه السلام: «استأذن على أمي، قال: نعم، قال: لا خادم لها غيري أستأذن عليها كلما دخلت، قال: أتحب أن تراها عريانة، قال: لا، قال: فاستأذن»[2] رواه أبو داود وغيره ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الآية 27] ونفعه راجع إليكم وقد نزل هذا عليكم

---

(1) أورده أبو السعود في تفسيره (6/ 168)، والبيضاوي في تفسيره (1/ 181)، والنسفي في تفسيره (3/ 142).

(2) أخرجه مالك في الموطأ (3/ 375) رقم (901)، والبيهقي في السنن الكبرى (7/ 97) رقم (13336)، وابن أبي شيبة في المصنف (4/ 42) رقم (17600).

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الآية 27] أراد أن تذكروا وتعلموا ما هو أصلح لكم.

وأفاد الأستاذ: أن الخواص لا يرون لأنفسهم ملكاً ينفردون به لا من الأموال المنقولة ولا من المساكن التي تصلح أن تكون مدخولة فمن فاتحهم بشيء منها فلا يكون منهم منع ولا زجر ولا حجب لأحد ولا خطر هذا فيما ينيط بهم ثم ما ربط به غيرهم فلا يتعرضون لمن هي في أيديهم لا باستشراف طمع ولا بطريق سؤال ولا على وجه انبساط، فإن كان حكم الوقت يقتضي شيئاً من ذلك فالحق يلجىء مَن في يده الشيء هنالك لتحمله بحكم التواضع والتقرُّب ويأخذ المؤتي ذلك بنعت التعزُّز والتأدُّب، وأنشدوا:

إني لأستحيي من الله أن أُرى أطوف بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل المرء اللئيم بعيره وبعران ربي في البلاد كثير[1]

﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾ [الآية 28] يأذن لكم ﴿فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الآية 28] حتى يأتي مَن يأذن لكم فإن المانع من الدخول ليس مجرد الاطلاع على العورات بل وعلى ما يخفيه الناس في العادات مع أن التصرف في ملك/ غيره محظور بغير إذنه واستثنى ما إذا عرض فيه من حرق أو غرق أو كان فيه منكر محقق أو وجه من صاحبه رضى مطلق ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا﴾ [الآية 28] ولا تلحوا في إذنكم ﴿هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [الآية 28] الرجوع أطهر لقلبكم أو أنفع لديكم ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [الآية 28] فنجازيكم على أعمالكم بحسب أحوالكم. 286/ أ

﴿لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾ [الآية 29] كالربط والخانات والحوانيت والحمامات ﴿فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ﴾ [الآية 29] استمتاع وانتفاع من غير مضرة لأحدكم كالاستكنان من الحرارة والبرودة وإيواء الأمتعة والجلوس للمعاملة ونحوها من الحالة ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ [الآية 29] ما تظهرون وما تسترون وعد ووعيد للعباد على ما يريدون من الصلاح والفساد.

(1) نسب إلى أعرابي لص. انظر بهجة المجالس وأنس المجالس (1/ 34)، ومقاييس اللغة (1/ 253).

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه رفع الجناح والحرج في الانتفاع بما لا يستنصر به صاحبه بغير إذنه كدخول أرض للداخل فيها غرض كقضاء حاجة أو لا تجد طريقاً غير تلك الجهة إذا لم يكن من دخوله ضرر على صاحبه وجرى هذا مجرى الاستظلال بظل حائطه إذا لم يكن قاعداً في ملكه وكالنظر في المرآة المنصوبة في جدار غيره، وكل هذا إنما يستفاد بالشرع والنقل دون قضية العقل على ما توهمه قوم من الجهل.

﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [الآية 30] ما يكون جانب محرم ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [الآية 30] إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم. وقيل: حفظ الفروج هنا خاصة سترها والأولى تفسيره بالمعنى الأعم والله أعلم ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [الآية 30] أنفع وأنمى وأطهر وأتقى ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [الآية 30] لا يخفى عليه خافية من خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وتقديم غض البصر لأن يريد الزنا هو النظر فالحذر الحذر عن موضع الخطر وتهمة البشر.

قال ابن عطاء: أبصار الرؤوس عن المحارم وأبصار القلوب عما سواه.

وقال الأستاذ: أبصار الظواهر عن المحرمات وأبصار القلوب عن الأفكار الرؤية والخواطر المحظورات، ولقد قالوا: إن العين سبب للحين كما قيل:

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر/ 286/ ب

وقالوا: مَن أرسل طرفه اقتنص حتفه. وإن النظر إلى الأشياء بالبصر توجب تفرقة القلوب إلى الخطر. ويقال: إن العدو إبليس يقول قوسي القوي وسهمي الذي لا يخطىء هو النظر. وأرباب المجاهدات إذا أرادوا صون قلوبهم عن الخواطر الرديئة لم ينظروا إلى المستحسنات النفسية وهذا أصل كبير لهم في المجاهدة في أحوال الرياضة. ويقال: قوم لا ينظرون إلى الدنيا وهم الزاهدون، وقوم لا ينظرون إلى الكون وهم العارفون، وقوم هم أصحاب الهيبة في الوجود كما لا ينظرون بقلوبهم إلى الأغيار لا يرون

نفوسهم أهلاً للشهود، ثم الحق سبحانه يكاشفهم من غير اختيار منهم أو تعرض أو تكلُّف فيهم.

﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ﴾ [الآية 31] فلا ينظرن إلى ما لا يحل لهن النظر إليه من الرجال والنساء ﴿وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [الآية 31] بالتستر عن العراء والتحفُّظ عن الزنا.

وأفاد الأستاذ: أن الندب المطالبة عليهن كالمطالبة على الرجال لشمول لتكليف الجنسين فالواجب عليهن ترك المحظورات والنقل لهن صون القلب عن الشواغل الردية والخواطر الردية ثم إن ارتقين من هذه الحالة فبالتعامي بقلوبهن عن غير معبودهن والله يختص برحمته من يشاء من الأولياء والأصفياء ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [الآية 31] كالحلي والثياب ونحوها فضلاً عن موضعها لمن لا يحل أن يراها ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [الآية 31] كالخاتم والثياب عند مزاولة أشيائها دفعاً للحرج في سترها واستثنى الوجهان والكفان واتفاقاً لأنها ليست بعورة منها، وكذا القدمان في رواية أبي حنيفة والذراعان أيضاً في رواية أبي يوسف والأظهر أن هذا الاستثناء في الصلاة لا في النظر فإن بدن الحرة كله عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء منها بشهوة إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة وحال الخطبة. قال بعضهم: أزين ما تزين به العبد الطاعة فإذا أظهره فقد ذهبت/ الزينة. 287/أ

وأفاد الأستاذ: أن ما أباح الله سبحانه على بيان مسائل الفقه فمستثنى من الخطر وما وراء ذلك فالواجب عليهن حفظ أنفسهن عن العقوبات في الأجل والتعاون عن أن يكون سبباً لفتنة قلوب عباده في العاجل والله سبحانه كما يحفظ أولياءه عما يضرهم في الدين يصونهم عما يكون سبباً لفتنة غيرهم من أهل اليقين فإن لم يتصل منهم بالخلق منفعة لا يصيب أحداً بسببهم فتنة. وفي الجملة ما فيه زينة للعبد لا يجوز إظهاره فكما أن النساء عورة ولا يجوز لهن إبداء زينتهن كذلك من أظهر للخلق ما هو زينة سرائره من صفاء أحواله وزكاة أعماله انقلب زينه شيناً إلا إذا ظهر شيء لا بتعلمه وتكلفه فذلك مستثنى لأنه غير مؤاخذ بما لم يكن بتصرفه.

﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [الآية 31] كرَّره لبيان مَن يحل له الإبداء ومن لا يحل له على ما يفهم من الاستثناء بقوله: ﴿إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ﴾ [الآية 31] فإنهم المقصودون بزينتهن ولهم أن ينظروا إلى جميع بدنهن إلا أن النظر إلى الفرج خلاف الأولى وقد كرهه بعض العلماء ﴿أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ﴾ [الآية 31] من غيرهن ﴿أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ﴾ [الآية 31] بحسب نسبهن أو رضاعهن لكثرة مداخلتهم عليهن واحتياجهن إلى مداخلتهم لهن وقلة توقع الفتنة من قبلهم وقبلهن لما في الطباع السليمة من النفرة عن مماسة القريبة، ولهم أن ينظروا منهن ما يبدوا عنك المهنة والخدمة لهن والأعمام والأخوال في معنى إخوانهن ﴿أَوْ نِسَآئِهِنَّ﴾ [الآية 31] فيما يجوز كشفهن لهن فالمراد بالنساء كلهن دون المؤمنات منهن على ما ذهب إليه بعض الشافعية من تقييدهن بهن ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ [الآية 31] أي من إمائهن فإن عبيدهن كالأجنبي لهن. وعند الشافعي يعم الإماء والعبيد لما روى أبو داود أنه ﷺ أتى فاطمة بعبد وهبه لها وعليها ثوب إذا قنعت به رأسها لم يبلغ رجليها وإذا غطت رجليها لم يبلغ رأسها فقال عليه السلام: «ليس عليك بأس إنما هو أبوك وغلامك»[1]، وفيه أنه واقعة حال لا يصح أن يكون منشأ استدلال/ أو يحتمل أن يكون الغلام صغيراً لم يبلغ الاحتلام وأن يكون هذا مشروطاً بعفته عن الحرام أو من قبيل قوله: ﴿أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ﴾ [الآية 31] أي البله الذين يبتغون الناس لفضل طعامهم ولا يعرفون شيئاً من أمر النساء، ومرامهم وفق معناهم الشيخ الهرم ﴿مِنَ ٱلرِّجَالِ﴾ [الآية 31] المجبوب والخصي خلاف عند الشافعية والصحيح أنهما كالفحل عند الحنفية ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ﴾ [الآية 31] أي الأطفال ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟﴾ [الآية 31] لم يطلعوا ﴿عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الآية 31] لعدم تميزهم أو لنفي بلوغهم ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [الآية 31] فيتبين أنهن من ذوات الخلخال فإن ذلك يورث ميلاً في الرجال وهو أبلغ من النهي عن إظهار الزينة وأدل على منع رفع الصوت من غير الحاجة بناء على أن

287/ ب

---

(1) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (7/ 95) رقم (13323)، وأبو داود في السنن (4/ 107) رقم (4108).

صوتهن عورة ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الآية 31] تفوزون بشهادة الدارين، وإنما جمعهم في أمر التوبة أو لا يكاد يخلو أحد منهم من ارتكاب الخطيئة لا سيما في الكف عن الشهوة، وقد ورد: «كلكم خطاؤون وخير الخطائيين التوابون»[1].

وأفاد الأستاذ: أن التوبة هي الرجوع من الأفعال المذمومة إلى أضدادها المحمودة وجميع المؤمنين مأمورون بالتوبة، فتوبة عن الزلة وهي توبة العامة وتوبة عن الغفلة وهي توبة الخاصة، وتوبة عن محاذرة العقوبة وتوبة عن ملاحظة الأمر في الجملة. ويقال: أمر الكافة بالتوبة فالعاصين بالرجوع إلى الطاعة من المعصية والمطيعين من رؤية الطاعة إلى رؤية التوفيق في العبادة وخاص الخاص من رؤية التوفيق إلى مشاهدة الموفق بعين التحقيق. ويقال: أمر الكل بالتوبة لئلا يخجل العاصي بانفراده من الجملة. ويقال: مسامحة الأقوياء مع الضعفاء رفقاً بهم من أمارات كرم الأصفياء. ويقال: بيَّن في قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الآية 31] أنه أمرهم بالتوبة لينتفعوا هم بذلك لا ليكون الحق سبحانه بتوبتهم وطاعتهم تحمل هنالك. ويقال: أحوج الناس إلى التوبة من توهم أنه ليس يحتاج إلى التوبة.

288/أ ﴿وَأَنكِحُواْ/ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [الآية 32] الخطاب للأولياء والسادة والأمر للندب عند الحنفية وللوجوب عند الشافعية. وفيه إشعار بأن الأَمَةَ والعبد لا يستبدءان به، والأيامى مقلوب أيام جمع أيم وهو العزب ذكراً كان أو أنثى، بكراً أو ثيباً، وتخصيص الصالحين لأن إحصان دينهم أتم والاهتمام بشأنهم أهم ﴿إِن يَكُونُواْ﴾ [الآية 32] أي الأيامى ﴿فُقَرَآءَ﴾ [الآية 32] قليليّ المال عديمي الغنى ﴿يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [الآية 32] فإن المعونة بقدر المعرفة

(1) أخرجه ابن ماجه في السنن (2/ 1420) رقم (4251)، والترمذي في الجامع الصحيح (4/ 659) رقم (2499)، وأبو يعلى في المسند (5/ 301) رقم (2922)، وابن أبي شيبة في المصنف (7/ 62) رقم (34216).

وفيه وعد من الله بالغنية لقوله عليه السلام: «أطلبوا الغنى في هذه الآية»[1] وظاهرها مطلقة بخلاف من قيده بالمشيئة مع أنه لا يقع شيء إلا بالمشيئة والإرادة ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ﴾ [الآية 32] ذو سعة لا تنفذ نعمته إذ لا تنتهي قدرته ﴿عَلِيمٌ﴾ [الآية 32] بعباده يبسط الرزق ويقدِّر لهم وفق ما أوجبته مشيئته على ما تقتضيه حكمته.

وقال الأستاذ: إذا كان القصد في المناكحة التأدُّب بآداب الشرع يكفي الله ببركاته مطالبات النفس والطبع، فيجب أن يكون الصفة إلى التعفف والتوكل على الله ثم رجاء نسل يقوم بحق الإله إن يكونوا فقراء بالمال يغنيهم الله بالحال فإن الغنى غنى النفس وهو غنى القلب وغنى القلب هو الغني عن الشيء والغنى عن الدنيا أتم من الغنى بالدنيا. وقد يقال: أن يكونوا فقراء في الحال يغنيهم الله في الاستقبال والمآل.

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ﴾ [الآية 33] أي ليجتهد في العفة بقمع الشهوة ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا﴾ [الآية 33] أسبابه من المهر والنفقة بأن يكون في حالة المسكنة وعدم الملك بالمرة ﴿حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [الآية 33] فيجدوا ما يكفيهم في القضية.

قال أبو عثمان: لأن يغنيك عنها خير من أن يغنيك بها. وقال بعضهم: من صح افتقاره بالله صح استغناؤه عما سواه.

وأفاد الأستاذ: أن من تقاصر وسعه عن الإنفاق على العيال فليصبر على مقاساة التجمّل في الحال فعن قريب تجيبه نفسه إلى سقوط الإرب أو الحق سبحانه يجود عليه بتسهيل السبب/ من حيث إنه ما احتسب ولا خطر بباله أنه اكتسب ﴿وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الآية 33] المكاتبة وهي أن يقول الرجل لمملوكه: كاتبتك على كذا من مال وخدمة، وهو مأخوذ من الكتابة لأن السيد كتب على نفسه والتزم عتقه إذا أدّى حقه ﴿فَكَاتِبُوهُمْ﴾ [الآية 33] أمر ندب عند أكثر العلماء وإطلاقه يدل على جواز الكتابة الحالة كما ذهب إليه الحنفية فلاشتراط كون

288/ ب

(1) أورده أبو السعود في تفسيره (6/ 171)، والبيضاوي في تفسيره (1/ 184).

الكتابة منجمة كما ذهب إليه الشافعية ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [الآية 33] أمانة وقدرة على أداء المال بالحرفة، وقد روي مثله مرفوعاً وموقوفاً، وقيل صلاحاً وديانة ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الآية 33] أمر للموالي بأن يبذلوا لهم شيئاً من أموالهم وفي معناه حط شيء من مال الكتابة عنهم وهو للوجوب عند أكثر الفقهاء. وعن علي: «يحط الربع» وعن ابن عباس يحط الثلث[1]، وقيل: أمر لعامة المسلمين بإعانة المكاتبين وإعطائهم سهمهم من الزكاة. ويحل للمولى وإن كان غنياً لأنه لا يأخذه صدقة كالدائن والمشتري ويدل عليه قوله ﷺ في حديث بريرة: «هو لها صدقة ولنا هدية»[2].

وقال الأستاذ: إن سمحت نفوسكم بإزالة الرق عن المماليك الذين هم إخوانكم في الدين من غير عوض تلاحظون منهم فلا تخسرون على الله في صفقتكم وإن أبيتم إلا العوض وادعوا إلى الكتابة وعلمتم بغالب ظنونكم صحة الوفاء بمال الكتابة من قبلهم فكاتبوهم ثم تعاونوا على تحصيل المقصود بكل وجه من قدر يُحَطُّ من مال الكتابة وإعانة لهم من فروض الزكاة وإمهال بقدر يحتمل المكاتب ليكون ترفيهاً له، هذا وإذا كان في الشرع نحن مأمورون بكل هذا الرفق حتى يصل المملوك المسكين إلى العتق فبالحر أن يسموا الرجاء إلى الله تعالى بجميل الظن أن يعتق العبد من النار بكثرة تضرعه وقدم سعيه بقدر وسعه من عناء قاساه وفضل من الله عن قديم رجاه. ثم في الخبر: «إن المكاتب عبد ما بقي عليه درهم»[3] والعبد يسعى بجهده ليصل / إلى تحرُّر قلبه وما دام يبقى عليه بقية من قيام الأخطار وشظية من الاختيار وإرادة شيء من الأغيار فهو بكمال رقه ليس بِحُرٍّ في حقه. 289/أ

﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَـٰتِكُمْ﴾ [الآية 33] إمائكم ﴿عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ [الآية 33] على الزنا

---

(1) أورده البيضاوي في تفسيره (1/ 185).
(2) أخرجه البخاري في الصحيح (5279)، ومسلم في الصحيح (1504/ 14).
(3) أخرجه الترمذي في الجامع الصحيح (3/ 560) رقم (1259)، ومالك في الموطأ (2/ 787) رقم (1486)، وابن أبي شيبة في المصنف (4/ 316) رقم (20564).

﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [الآية 33] أي تعفُّفاً، وهو شرط للإكراه فإنه لا يوجد بما سواه باكتساب الزنا ﴿لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الآية 33] باكتساب الزنا ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الآية 33] أي لهن لما في مصحف ابن مسعود من بعد إكراههن لهن غفور رحيم.

وأفاد الأستاذ: أن حامل المعاصي على زلته والداعي له إلى عثرته والمعين له على مخالفته يتضاعف عليهم العقوبة وله من الوزر أكثر من غيره ولو كان الأمر في الطاعة والإعانة على العبادة فالأمر بعكسه.

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [الآية 34] في هذه السورة وغيرها من الأحكام الواضحات يصدقها الكتب المتقدمة والفعول المستقيمة ﴿وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ [الآية 34] من أمثال من مضى ﴿مِن قَبْلِكُمْ﴾ [الآية 34] أي وقصة عجيبة من قصصهم، فإن قصة عائشة رضي الله عنها كقصة يوسف ومريم عليهما السلام ﴿وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الآية 34] وخصوا لأنهم المراد بكونهم المنتفعين.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه لم يغادر على وجه الدليل غباراً مُحلاً لم يترك للإشكال محلاً بل أوضح المنهاج وأضاء السراج وأنار السبيل وألاح الدليل فمن أراد أن يستبصر لا يلحقه نصب ولا يمسه تعب.

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 35] أي منوِّر السمٰوات والأرض، وقد قرىء به، فإن الله نوّرها بالكواكب وما يفيض عنها من الأنوار، وبالملائكة والأنبياء وما يستفاد عنهم من الأسرار. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هادي من فيهما فهم بنوره يهتدون وإضافته إليها لاشتمالها على الأنوار الصورية والمعنوية فهو الذي يبصر بنوره ذو العماية ويرشد بظهوره ذو الغواية.

وقال جنيد: أي هو منوِّر قلوب الملائكة حتى سبَّحوه وقدّسوه ومنوِّر قلوب الرُّسل وأتباعهم حتى عرفوه وعبدوه. وقال بعضهم: نور السمٰوات/ 289/ ب الملائكة ونور الأرض الأنبياء والأولياء وأرباب المعرفة. وقيل: السمٰوات إشارة إلى القلوب والأرض عبارة عن الأجساد والأشباح. وقال: أي منوِّرها وخالق ما فيها من الضياء والزينة اللاحقة وموجد ما أودعها من الأدلة اللائحة. ويقال: نوَّر

السماء بنجومها فقال: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [المُلك: الآية 5] فكذلك زين القلوب بالأنوار التي هي نور العقل ونور الفهم ونور العلم ونور اليقين ونور المعرفة ونور التوحيد وسائر الأنوار والأسرار ولكل شيء من هذه الأنوار مطرح شعاع يقدِّره في الزيادة والنقصان بحسب الأطواف في اختلاف المقدار.

﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [الآية 35] صفة نوره العجيبة الشأن وظهوره الغريبة البرهان وإضافته إلى ضميره مشير إلى أن إطلاقه عليه ليس على ظاهره. وقرىء: مثل ثوره في قلب المؤمن.

وقال سهل: مثل نور محمد ﷺ. ويؤيده قراءة أُبي: مثل نور المؤمن.

وقال سفيان: مثل نور القرآن المكرَّم ﴿كَمِشۡكَوٰةٖ﴾ [الآية 35] أي كصفة مشكات وهي الكوة الغير النافذة ﴿فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ﴾ [الآية 35] سراج لنوره معراج ﴿ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ﴾ [الآية 35] قنديل من الزجاج ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ﴾ [الآية 35] منسوب إلى الدر، أي مضيء متلألىء كالزهرة في صفائه وزهرته وضيائه. وقرأ حمزة وأبو بكر: دريء بالهمز فعيل من الدرء فإنه يرفع الظلام بضوئه وبرقانه أو بعض ضوءه بعضاً من غاية لمعانه. وقرأ أبو بكر والكسائي بكسر الدال والهمز أي كثير الدفع كشريب كثير الشرب ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ﴾ [الآية 35] ابتداء ثقوب المصباح من زيت شجرة الزيتون المتكاثر نفعه بأن رديت ذبالته بزينتها حين وصفه، وفي إبهام الشجرة ووصفها بالبركة ثم إبدال الزيتونة عنها تفخيم لشأنها. وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتذكير والبناء للمفعول من أوقد على إسناده إلى المصباح، وحمزة والكسائي وأبو بكر بالتأنيث، كذلك على إسناده إلى الزجاجة بحذف المضاف إلى مصباح الزجاجة. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: وتوقد بلفظ الماضي.

290/ أ قال الواسطي: نفس خلقها الله تعالى مؤمنة فسماها/ شجرة مباركة كشجرة زيتونة.

وقال أبو سعيد الخراز: المشكات جوف محمد ﷺ والزجاجة قلبه والمصباح نوره الذي جعل فيه والشجر إبراهيم عليه السلام جعل الله في قلبه

من النور ما جعل في قلب محمد ﷺ من السرور ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [الآية 35] لا نابتة في شرقها المعمورة ولا في غربها المغمورة بل في وسطها وهو الشام المشهورة فإن زيتونها أجود أنواعها.

قال جنيد: لا هي مائلة إلى الدنيا ولا راغبة في الأخرى ولكنها فانية الحظ عن سوى المولى. وقال جعفر: لا خوف يوجب القنوط ولا رجاء يجلب الانبساط فتكون واقعة بين الخوف والرجاء.

وقال الواسطي: لا دنيوية ولا أخروية جذبها الحق إلى قربه وأكرمها بعناية حبه ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [الآية 35] أي بنفسه ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [الآية 35] لتلألؤه وفرط لمعانه ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [الآية 35] متضاعف في مراتب ظهوره فإن نور المصباح زاد في إنارته صفاء الزيت وضياء الزجاجة وضبط المشكات للأشعة.

وفي «تفسير السلمي»: يكاد ضياء روحها يتوقد ولو لم يدعه نبي ولم يسمع كتاباً ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [الآية 35] نور الهداية في النهاية وافق نور الروح في البداية وقيل: نور المعرفة والإيقان يزيد على نور الإيمان.

وقال الواسطي: الزيت التوفيق والنار التشديد والنور القرآن.

وقال الحسن البصري: أراد بذلك قلب المؤمن وضياء التوحيد لأن قلوب الأنبياء عليهم السلام أنور من أن يوصف بهذه الأنوار. وقال بعضهم: نفس المؤمن مثل بيت وقلبه مثل قنديل ومعرفته مثل السراج وفمه مثل الكوة إلى العرش ولسانه مثل باب الكوة والقنديل معلق بباب الكوة إذا افتتح اللسان بما في القلب من الذكر استضاء المصباح من كوته إلى العرش، فالزجاجة من التوفيق وقنديلها من الزهد ودهنها من الرضا وعلائقها من العقل يكاد يزهر من قلب المؤمن على لسانه إذا ذكر ما بين المشرق والمغرب من ضيائه ولمعانه. وقيل في قوله عزَّ وجل: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 35]/ هو 290/ ب شواهد الربوبية ودلائل وحدانيته فمثل معرفته في قلوب العارفين كمصباح في مشكات شبه نور المعرفة في القلب بالمصباح وشبه قلب المؤمن بالقنديل. وقال

بعضهم: المصباح سراج المعرفة وفتيلته الفرائض ودهنه الإخلاص ونوره الاتصال، فكلما ازداد الإخلاص صفاء ازداد المصباح ضياء وكلما ازداد الفرائض ظهوراً ازداد المصباح نوراً ﴿يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية 35] فإن الأسباب دون مشيئته لاغية وإرادته من غير سبب وعلة كافية ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ﴾ [الآية 35] إدناء من المعقول المحسوس توبيخاً وبياناً في مقام القياس ومرام الاستئناس ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الآية 35] عقلياً وجنسياً ظاهراً كان أو خفياً.

وقال الحسين: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ وهو نور النور ﴿يَهْدِي مَن يَشَآءُ﴾ بنوره إلى قدرته وبقدرته إلى غيبه وبغيبه إلى قدمه وبقدمه إلى أزله وأبدله وبأزله وأبده إلى وحدانيته لا إلٰه إلا الله هو المشهود شأنه المقرر سلطانه يزيد من يشاء علماً بتوحيده ووحدانيته وتنزيهه وصمدانيته وإجلال مقامه وتعظيم ربوبيته.

قال الجورجاني: الرجاء مثل نور والخوف مثل نور والمحبة مثل نور فإذا اجتمعت في قلب المؤمن يكون نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء يوصل الله إلى هذه الأنوار من نوره في الآزال بأنوار قدسه وأسرار أنسه فيقبل هذه الأنوار التي في الباطن على أداء الفرائض واجتناب المحارم فيصير المؤمن منوراً بنور الله واصلاً إليه بتوحيده.

وقال جعفر بن محمد: الأنوار مختلف الأطوار أوله نور حفظ القلب ثم نور الخوف ثم نور الرجاء ثم نور الحب ثم نور التفكُّر ثم نور اليقين ثم نور التذكُّر ثم نور النظر ثم نور العلم ثم نور الحياء ثم نور حلاوة الإيمان ثم نور الإسلام ثم نور الإحسان ثم نور النعماء ثم نور القضاء ثم نور الآلاء ثم نور الكرم ثم نور العطف ثم نور الغيب ثم نور الإحاطة ثم نور الهيبة ثم نور الحيرة ثم نور الحياة ثم نور الأنس ثم نور الاستقامة ثم نور الاستكانة ثم / 291/أ نور الطمأنينية ثم نور العظمة ثم نور الجلال ثم نور القدرة ثم نور الجذبة ثم نور القوة ثم نور الألوهية ثم نور الوحدانية ثم نور الفردانية ثم نور الأبدية ثم نور السرمدية ثم نور الديمومية ثم نور الأزلية ثم نور النقابية ثم نور الهوية ولكل واحد من هذه الأنوار أهل وله حال ومحل فكلها من أنوار الحق التي

ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 35] ولكل عبد من عبيده مشرب من نور هذه الأنوار وربما كان حظه من نورين وثلاث وأكثر ولم تتم هذه الأنوار لأحدٍ إلا للمصطفى ﷺ فإنه القائم مع الله تعالى بشرط تصحيح العبودية والمحبة فهو نور ومن ربه على نور.

هذا وقد أفاد الأستاذ أنه سبحانه أراد بهذا نور قلب المؤمن وهو معرفته فشبّه صدره بالمشكاة وشبّه في صدره بالقنديل في المشكاة، وشبَّه معرفته بالمصباح في القنديل، وشبَّه القنديل الذي هو قلبه بالكوكب الدريّ، وشبّه إمداده لمعرفته بالزيت الصافي الذي يمد السراج في الإشتعال، ثم وصف الزيت بأنه على كمال إدراك زيتونة من غير نقصان أصابه أو خلل مسّه، ثم وصف ذلك الزيت في صفوته بأنه بحيث يكاد يضيء من غير أن يمسه نار. ويقال: نار، ويقال: إن ضرب المثل لمعرفة المؤمن بالزيت أراد به شريعة المصطفى ديناً حنيفاً ما كان يهودياً وهم الذين قبلتهم إلى جانب المغرب ولا نصرانياً وهم الذين قبلتهم في ناحية المشرق. وقوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [الآية 35] أي نور اكتسبوه بجهدهم بنظرهم واستدلالهم ونور وجدوه بفضل الله كالبيان إضافة إلى برهانهم وكالعيان إضافة إلى بيانهم فهو نور على نور. ويقال: أراد به قلب محمد ﷺ ونور معرفته أوقد نوره من شجرة مباركة وهي إبراهيم عليه السلام وهو ﷺ على دين إبراهيم عليه السلام. وقوله: ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ﴾ [الآية 35] بحيث يصيبها الشمس ما يغشي دون الغدوة ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [الآية 35] بالغدوة دون العشي بل تضيئه/ الشمس طول النهار ليتم نضج زيتونه ويكمل صفاء زيته 291/ ب والإشارة فيه أنه لا ينفرد خوف قلوبهم عن الرجاء فيقرب من اليائس ولا ينفرد رجاؤهم عن الخوف فيقرب من الآمن بل هما يعتدلان فلا يغلب أحدهما الآخر نعتاً بل هيبتهم وأنسهم وبغضهم وبسطهم وصحوهم ومحوهم وبقائهم وفنائهم وقيامهم بآداب الشريعة والطريقة وتحققهم بجوامع الحقيقة. ويقال: لا شرقية ولا غربية كذلك هممهم لا تسكن شرقياً ولا غربياً ولا علوياً ولا سفلياً ولا جنياً ولا أنسياً ولا عرشياً ولا كرسياً عن الأكوان ولم تجد سبيلاً إلى حقيقة الرحمٰن لأن الحق منزَّه عن اللحوق فبقيت عن الخلق منفصلة وبالحق غير متصلة «الإسلام

بدأ غريباً وسيعود غريباً فطوبى للغرباء»[1]. ويقال: نور الطلب ثم وحيه وهو دوام الانزعاج فلا يذره يعرج في أوطان الكسل بل يصل سيره بسراه في استعمال فكره، فالحق يمده بنور التوفيق وسر التحقيق حتى لا يصده من عوارض الاجتهاد شيئاً من رياسة أو ميل بسواه وهواه وعادة فإذا أسفر صبح غفلته واستمكن النظر في موضعه حصل العلم لا محالة ثم لا يزال يزداد يقيناً على يقين فما يراه في معاملته من القبض والبسط والمكافأة في زيادة الكشف عند زيادة الجهد وحصول الوجد عند أداء الورد، ثم بعده نور المعاملة ثم نور المنازلة ثم متفرع نهار الوصلة وشموس التوحيد مشرقة وليس في أسماء أسرارهم سحاب وليس في هواء أنوارهم ضباب.

قال الله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [الآية 35]. ويقال: نور المطالبة يحصل للقلب في البداءة فيحمل صاحبه على المحاسبة فإذا نظر في ديوانه وما أسلفه من عصيانه يحصل له نور المعاتبة فيعود على نفسه باللائمة ويتجرع كاسات ندم الندامة فيرتقي عن هذا باستدامة قصده والتبقي عما كان عليه في أوقات فترته فإذا استقام فيه كوشف بنور المراقبة فيعلم دائماً أنه سبحانه مطلع عليه وحاضر لديه وناظر إليه وبعد هذا/ نور المحاضرة وهي لوائح تبدو في السرائر وتظهر في الضمائر، ثم بعد ذلك نور المكاشفة وذلك بتجلي الصفات ثم بعده أنوار المشاهدة فيصير ليله نهاراً ونجومه أقماراً وأقماره بدوراً وبدوره شموساً ثم بعد هذا أنوار التوحيد وعند ذلك تحقيق التجريد بخصائص أسرار التقدير ثم ما لا يتناوله عبارة ولا يدركه إشارة، فالبيان خرس والشواهد طمس وشهود الغير في الخيال عند ذلك من المحال فعند ذلك ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوير: الآيات 1،4] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: الآية 1] و﴿ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: الآية 1]، وهذه كلها أقسام الكون وما من العدم صار لهم إلى العدم القائم عنهم غيرهم والكائن عنهم

292/ أ

(1) أخرجه مسلم في الصحيح (145/ 232)، والترمذي في الجامع الصحيح (5/ 18) رقم (2629)، وابن ماجه في السنن (2/ 1320) رقم (3988)، والدارمي في السنن (2/ 402) رقم (2755).

سواهم جلّت الأحدية وعزّت الصمدية وتقدّست الديمومية وتنزَّهت الألوهية. وروي أن أبي منصور الماتريدي أن الإسلام معرفة تكاليف الأحكام ومحله الصدر لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الزمر: الآية 7] والإيمان معرفة بالله من جهة ذاته وصفاته ومحله القلب لقوله سبحانه: ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: الآية 7] والقلب داخل الصدر والمعرفة محله السر وهو داخل الفؤاد وهذا هو المعنى إن المراد في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [الآية 35] الآية، فإنه جعل الصدر بمنزلة المشكاة والقلب بمنزلة الزجاجة والفؤاد بمنزلة المصباح والسر بمنزلة الشجرة وداخل السر وهو الثمر موضع خفي هو موضع نور الهداية ولا صنع فيه للعبد، لا في البداية ولا في النهاية، إلا أن الله سبحانه إذا أراد أن يهدي قلبه بلطفه الوفي ألقى فيه نور الهداية في الهداية الخفي فيتلألأ في ظهور النور الجلي وهو معنى قوله: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [الآية 35] ثم يتلألىء النور إلى السر على وجه السرور فيقوم للعبد فعل التوحيد في غاية من الظهور ولا يسكن ذلك النور في القلب فيقوم له فعل الإيمان المعرفة فيصير عارفاً بالله وصفاته ثم يتلألأ ذلك النور في القلب فيقوم له فعل ثم يتلألأ في الصدر فيقوم له فعل الإسلام ثم ينتشر ذلك النور إلى جميع الأعضاء وكل الأجزاء فيتقاضى العبد باجتناب الزواجر وارتكاب الأوامر فيكون مؤمناً كاملاً عالماً عاملاً.

﴿فِي بُيُوتٍ﴾ [الآية 36] متعلق بيوقد فيكون تمثيلاً لأبدانهم/ بالمساجد 292/ ب وتشبيهاً لقلوبهم المتعلقة بتلك المشاهد ﴿أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [الآية 36] بالتعظيم والتكريم ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ [الآية 36] ولو على وجه التعلُّم والتعليم من المذاكرة فيما يتعلق بذاته وصفاته والمباحثة في أحكام عباداته وتحقيق مصنوعاته. قال بعضهم: ترفع الحوائج إلى الله.

وقال أبو عثمان: إذا دخلت المسجد فارفع عن قلبك كل همة سوى الله فإن الله تعالى خص به الرفع والذكر. وقال بعضهم: ترفع الحوائج عن القلوب وتشتغل القلوب بذكر علّام الغيوب فإنه عليه السلام قال حاكياً عن

ربه: «مَن شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين»[1].

وأفاد الأستاذ: أن المساجد بيوته سبحانه وأن الله أذن أن ترفع الحوائج فيها إلى الله فيقضيها ورفع أقدار تلك البيوت على غيرها من الأبنية والآثار والمساجد بيوت العبادة والقلوب بيوت الإرادة فالعابد يصل بعبادته إلى ثواب الله والقاصد يصل بإرادته إلى الله. ويقال: القلوب بيوت المعرفة والأرواح مشاهد المحبة والأسرار محال المشاهدة ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ [الآية 36] ينزِّهونه فيها على دوام الأوقات أو يصلون فيها بالغدواة والعشيات.

﴿رِجَالٌ﴾ [الآية 37] لهم كمال وبربهم وِصَال. وقرأ ابن عامر وأبو بكر يسبح بالفتح على إسناده إلى أحد الظروف الثلاثة ورفع رجال بما يدل عليه من نحو يسبح ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ﴾ [الآية 37] لا تشغلهم معاملة من بيع وشراء ونحوهما ﴿عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 37] من بيان ذاته وصفاته وغيرهما ﴿وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ [الآية 37] وأمثالهما.

وقال الأستاذ: لم يقل لا يتجرون ولا يبيعون ولا يشترون بل قال: ﴿لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 37] فإن أمكن الجمع بينهما فلا بأس ولكنه كالمتعذر إلا على الأكابر الذين تجري عليهم الأمور وهم عنها مأخوذون. ويقال: هم الذين يؤثرون حقوق الحق على حظوظ النفس. ويقال: إذا سمعوا صوت المؤذِّن حي على الصلاة تركوا ما هم فيه من التجارة والبيع وقاموا لأداء حقه. ويقال: هم الخواص / والأكابر الذين لا يشغلهم قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصَّف: الآية 10] عن التحقق بذكره من غير ملاحظة عوض أو مطابقة سبب وغرض ﴿يَخَافُونَ﴾ [الآية 37] أي مع ما هم عليه من الطاعات والأذكار ﴿يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الآية 37] تضطرب من أهوالها أو تنقلب أحوالها فتفقه القلوب حينئذ ما لم تكن تفقهه وتبصر الأبصار ما لم تبصر أو تتقلب القلوب بين توقع النجاة والثواب وخوف الهلاك والعقاب والأبصار من أي

293/ أ

(1) سبق تخريجه.

ناحية يؤتى كتابهم أو يؤخذ بهم من جهة حسابهم. إذا علمت أنه مقلب القلوب والأبصار فليكن شغلك في النظر إلى فعله فيك وتوقى الخلاف والغفلة عنك.

وقال الأستاذ: أقوام ذلك اليوم مؤجلهم وآخرون ذلك معجل لهم وهو ما هم فيه من الأوقات فإن حقيقة الخوف ترقُّب العقوبات مع مجاري الأنفاس وممر الساعات.

﴿لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ﴾ [الآية 38] متعلق بيسبِّح أو يخافون وقيل اللام لِلعاقبة ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ [الآية 38] أحسن جزاء أعمالهم الموعود له من الجنة بمقتضى عدله ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [الآية 38] أشياء لم يعدهم على أعمالهم مما لم يخطر ببالهم ﴿وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الآية 38] في العطية والمنَّة وهو تقرير للزيادة وتنبيه على سعة القدرة ونفاذ المشيئة.

وأفاد الأستاذ: أن من رفع الحساب من الوسط يرفع معه الحساب في القسط، ومن هو في أسر مطالباته فالوازن يومئذ الحق فمن ثقلت موازين عباداته وخفت موازين طاعاته والرزق بغير حساب في أرزاق الأرواح ومحصور ومعدود في أرزاق الأشباح هي وجود أفضال وفنون نوال وما حصره الوجود من الحوادث فلا بد من أن يأتي عليه العدد ويقال له بالتمام والأرواح مكاشفة شهود الجمال والجلال وذلك على الدوام.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوٓا أَعْمَالُهُمْ﴾ [الآية 39] التي يحسبونها صالحة نافعة نافقة يجدونها لاغية في العاقبة ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ [الآية 39] أي أرض مستوية، والمعنى كشيء يرى في الفلاة من لمعان الشمس عليها فيظن أنه ماء يشرب أنه يجري/ 293/ ب فيها ﴿يَحْسَبُهُ الظَّمْـَٔانُ مَآءً﴾ [الآية 39] وتخصيص العطشان بالذكر لتشبيه الكافر به في شدة الخيبة عند مسيس الحاجة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ﴾ [الآية 39] جاء ما توهمه ماء ﴿لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [الآية 39] مما ظنه ماء وهو أبلغ من تشبيه عمله بالهباء فإنه في الجملة له صورة في الهواء ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُۥ﴾ [الآية 39] أي عقابه، أو وجده محاسباً إياه ﴿فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ﴾ [الآية 39] ووافاه عذابه ﴿وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الآية 39] لا يشغله حساب عن حساب عند الإرادة أو سريع المجازاة وقت المشيئة.

وأفاد الأستاذ: أن من أمل الشراب شرباً لم يلبث إلا قليلاً حتى يعلم أنه كان تخييلاً فالعطش يزداد والروح يدعوا للخروج أو كاد. وقد قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: الآية 104]، وقال: يحسبون أنهم على شيء.

﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ﴾ [الآية 40] عطف على كسراب، وأو للتخيير، فإن أعمالهم لكونها لا منفعة لها كسراب له لمعان ولكونها خالية عن نور الإيمان كظلمات متراكمات أو للتنويع فإن أعمالهم إن كانت حسنة فسراب وإن كانت قبيحة فظلمات أو للتقييم فإنها في الدنيا كسراب وفي العقبى كظلمات ﴿فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [الآية 40] ذي لج عميق ﴿يَغْشَىٰهُ﴾ [الآية 40] يغطي البحر ﴿مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ﴾ [الآية 40] أمواج مترادفة وأفواج متراكمة ﴿مِّن فَوْقِهِۦ﴾ [الآية 40] فوق الموج الثاني ﴿سَحَابٌ﴾ [الآية 40] غطى النجوم وصار لأنوارها حجاب ﴿ظُلُمَٰتٌ﴾ [الآية 40] أي هذه ظلمات ﴿بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [الآية 40] وقرأ ابن كثير: ظلمات بالجر على إبدالها من الأولى بناء على رواية قنبل بتنوين سحاب وبإضافة السحاب إليها بناء على رواية البزي ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ﴾ [الآية 40] وهي أقرب ما يرى عنده ﴿لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾ [الآية 40] لم يقرب أن يراها فضلاً عن أن يردها، والضمائر في أخرج وما بعده للواقع في البحر وإن لم يجز ذكره في المعنى لدلالة المعنى.

وأفاد الأستاذ: أن ظلمات السحاب وغيوم التفرقة وليالي الجحد وحنادس الشك إذا اجتمع فلا سراج لصاحبه ولا نجوم ولا أقمار ولا شموس في حصول النيل فالويل كل الويل ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [الآية 40] من لم يقدّر له الهداية من البداية فما له من نور توفيق في النهاية وظهور تحقيق من عين العناية بخلاف الموقف/ الذي له نور على نور بما سبق له من زيادة الحسنى ووقاية الرعاية، وقد ورد أن الله خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره فمن أصابه فقد اهتدى ومن أخطأه فقد اعتدى.

294/ أ

وقال القاسم: بل من لم يجعل الله له نوراً وقت القسمة فما له من نور وقت الخلقة.

وسئل الواسطي ما علامته قال: كل من نوره أقوى كانت يقظته أدوم وأبقى، ومَن كان نوره أضعف وأدنى كان ذكره مرة وغفلته أخرى. وقال أيضاً: إن الله تعالى لا يُبعد فقيراً لأجل فقره ولا يبعد غنياً لأجل غناه وليس للأعراض عنده خطر حتى بها يصل وبها يقطع فلو بذلت له الدنيا والآخرة ما وصلك به ولو أخذتها كلها ما قطعك به قرب من قرب بغير علة وبعد من بعد بغير علة كما قال: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [الآية 40].

توضيحه ما أفاد الأستاذ بقوله: إذا لم يسبق لعبد نور القسمة ولم يساعده تعلق الرحمة فبحمده وكده وسعيه وجده عقيم من ثمراته مؤيس من نيل بركاته والبدايات غالبة للنهايات فالقبول لأهله غير مجتلب والرد لأهله غير مكتسب سعد من سعد بالسعادة علمه في أزله وأراد كون ما علم أنه منها يكون وأخبر أن ذلك كذلك يكون في أخرى ذلك على ما أخبر وأراد وعلم، وهكذا القول في الشقاوة وليس لأفعاله علة ولا يتوجه عليه لأحد حجة كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ﴾ [الأنعام: الآية 149].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [الآية 41] أي ألم تعلم بالوحي أو الاستدلال علماً لِشبه المشاهدة في اليقين والوثاقة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 41] بتنزيه ذاته وتقديس صفاته جميع مصنوعاته من علوياته وسفلياته بما يدل عليه من مقال أو يشير إليه دلالة حال:

ففي كل شيء له شاهد   دليل على أنه واحد[1]

وفيه تغليب العقلاء أو هو من باب الاكتفاء أو الاستغناء ﴿وَٱلطَّيْرُ﴾ [الآية 41] خصّ لما فيها من الصنع الطاهر والدليل الباهر ولذا قيدها بقوله: ﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ [الآية 41] فإن إعطاء الأجرام الثقيلة ما به تقوى على الوقوف في الجو صافة باسطة أجنحتها بما فيها من القبض والبسط/ حجة قاطعة على كمال قدرته ولطف تدبيره وحكمته ﴿كُلٌّ﴾ [الآية 41] كل واحد مما ذكر ﴿قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ 294/ ب

(1) سبق التعليق عليه ص (159).

﴿وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [الآية 41] أي علم الله دعاه وتنزيهه طوعاً واختياراً بلسان القال أو طبعاً واضطراراً ببيان الحال أو علم كل دعاويه وتنزيهه اللائق به في مقام الإجمال ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [الآية 41] بتفصيل الأفعال.

وأفاد الأستاذ: أن التسبيح على قسمين: تسبيح قول ونطق، وتسبيح دلالة وخلق. فتسبيح الخلق عام من كل مخلوق وعين وأثر، وتسبيح النطق خاص بالحيوانات ثم هو خاص بالعقلاء ثم هو ينقسم إلى قسمين: صادر عن بصيرة، وحاصل من غير بصيرة. فالذي قرنته البصيرة مقبول ومقصود، والذي تجرّد عن المعرفة مردود.

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾﴾ [الآية 42] فإنه الخالق لهما ولما فيهما من الذوات والصفات والأفعال والملك والقدرة على الإيجاد، فالمقدورات قبل وجودها للحق مملوكة وكذلك في حال حدوثها وبعد عدمها عائدة إلى ما كانت عليه، فملكه الذي لا يحدث ولا يزول ولا يؤول شيء منه إلى البطول.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى﴾ [الآية 43] يسوق ﴿سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ [الآية 43] بين أجزائه ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا﴾ [الآية 43] متراكماً بعضه فوق بعض ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ [الآية 43] المطر ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الآية 43] وسطه ﴿وَيُنَزِّلُ﴾ [الآية 43] أي ذلك الماء مبتدئاً ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا﴾ فيها بدل منها ﴿مِنۢ بَرَدٍ﴾ [الآية 43] بيان للجبال وعن السلف أن المراد ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الآية 43] المظلة ﴿مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ﴾ [الآية 43] كما في الأرض جبال من حجر، وليس في العقل قاطع يمنعه ولا في النقل مانع يدفعه فهو أولى من قول بعض الخلف: أن المراد من السماء السحاب ومن الجبال قطع عظام منها شبه الجبال في عظمها وجمودها ﴿فَيُصِيبُ بِهِۦ﴾ [الآية 43] بالماء النازل من السماء ﴿مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ﴾ عن ﴿مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ﴾ [الآية 43] لمعانه ﴿يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الآية 43] أبصار الناظر من فرط الإضاءة بالإبصار.

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَۚ﴾ [الآية 44] بالمعاقبة بينهما وبنقص أحدهما وبتغيير

295/ أ أحوالهما بالحر والبرد والنور والظلمة وأمثالهما ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي/ الْأَبْصَارِ﴾ [الآية 44] أي لدلالة على وجود الصانع القديم وإحاطة علمه الكريم وكمال قدرته ونفاذ مشيئته وأنى يكون الوفاق والخلاف لهم وهو يقلّب الليل والنهار بما فيهما منهم وهو قائم على الأشياء كلها وبالأشياء جميعها في تقلُّبها وفنائها لا يؤنسه وجد ولا يوحشه فقدٌ، بل لا فقد ولا وجد إنما هي رسوم تحت الرسوم.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه تعرّف إلى قلوب العلماء بدلالات صنعه في بدائع حكمته، وما يدل منها على كمال قدرته وشمول علمه وحكمته ونفوذ إرادته ومشيئته، فمن أنعم النظر وصل إلى برد اليقين ومَن أعرض بقي في وهدة الجهل وظلمة الجحد وشبهة التخمين ترتفع بقدرته بخارات البحر فتصعد بتيسيره وتقديره إلى الهواء وهو السحاب ثم يديره إلى سمت يريده أن ينزل به المطر ثم ينزل ما في السحاب من ماء البحر قطرة ويكون الماء حين فصل في بخارات البحر غير عذب فيقلبه عذباً ويسبِّحه السحاب سكباً فيوصل إلى كل موضع قدراً يكون له مراداً معلوماً لا بجهد من المخلوقين ويمسكه من الموضع الذي عليه ينزله ولا بالحيلة يستنزل على المكان الذي لا يمطره، يقلب الله الليل والنهار وكذلك جميع الأغيار من الرسوم والآثار ذلك تقدير العزيز العليم.

﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [الآية 45] حيوان تدب على الأرض. وقرأ حمزة والكسائي خالق كل دابة بالإضافة من ماءٍ هو جزء المادة أو مخصوص النطفة فهو باعتبار الغلبة إن صح وجود حيوان بلا نطفة ﴿فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ﴾ [الآية 45] كالحية، وسمي الزخرف مشياً بالرجل على الاستعارة للمشاكلة ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ﴾ [الآية 45] كالإنس والطير ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ﴾ [الآية 45] كالنعم والوحش. وقرىء ومنهم من يمشي على أكثر وإليه الإيماء بقوله: ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [الآية 45] ونظيره ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ﴾ [فَاطِر: الآية 1] ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النّساء: الآية 3] يزيد في الخلق ما يشاء كجبريل عليه السلام فإن له ستمائة جناح. وأما ما قيل من أنه يندرج فيه ما له أكثر من أربع كالعناكب

295/ ب فإن اعتمادها إذا مشت على أربع فمحتاج إلى صحيح نقلاً/ أو صريح عقلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الآية 45] وفي كل شيء له حكمة وتدبير.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يريد خلق كل حيوان من ماء من صلب الأب فتربية الأمر ثم أجزاء الماء متشاكلة متماثلة ثم ينقسم إلى جوارح في الظاهر وجوارح في الباطن فيختص كل عضو وينفرد كل شلو بنوع من الهيئة والصورة وضرب من الشكل والبنية، ثم اختلاف هيئات الحيوان في الريش والصوف والوبر والظفر والحافر والمخلب ثم في القامة والنظر، ثم انقسام ذلك إلى لحم وشحم وجلد وعظم وسن وظفر ومخ وعصب وعرق وشعر والنظر في هذا بعين العبرة يوجب قوة التحصيل والبصيرة.

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ﴾ [الآية 46] واضحات للأنام وموضحات للأحكام ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [الآية 46] بالتوفيق للنظر في مبانيها والتدبير لمعانيها ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الآية 46] هو دين الإسلام الموصل إلى درك الحق والفوز بدار السلام.

قال أبو سعيد القرشي: في صفة المريد والمراد خرجت الهداية من المشيئة.

وأفاد الأستاذ: أن الآيات بينات ولكن الله يهدي قوماً إليها ويصرف آخرين عنها والذي سد بصره ولبس نظره فما ينفعه طلوع شمس في نهاره أو سطوع قمر في ليله، كذلك الذي سدت عين بصيرته أنى ينفعه شواهد العلوم ودلائل الفهوم. وقالوا في معناه:

وما انتفاع أخي الدنيا بمقلته إذا استوى عنده الأنوار والظُّلَمُ[1]

﴿وَيَقُولُونَ﴾ [الآية 47] أي المنافقون ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا﴾ [الآية 47] كلاً منهما أو كلام رسوله لأنه في حكمه ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ﴾ [الآية 47] بالامتناع عن قبول قضائه وإطاعة أمره ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ [الآية 47] بعد قولهم هنالك ﴿وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الآية 47] أي الثابتين أو المخلصين حيث آمنوا بلسانهم ولم يصدقوا بجنانهم كما يدل عليه عدم إذعانهم.

(1) نسب إلى المتنبي. انظر يتيمة الدهر (1/ 59)، وخزانة الأدب (1/ 275).

وقال الأستاذ: يستسلمون في الظاهر ويقرُّون باللسان ثم المخلص يبقى على صدقه والذي قاله لخوف سيف المسلمين أو لغرض له آخر من أغراض المفسدين يتولى بعد ذلك وينحاز إلى جانب الكفر هنالك.

296/ أ ﴿وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الآية 48]/ حكم كتابه ونبيه ﴿لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الآية 48] المدعو إليه ﴿إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الآية 48] فاجأ الإعراض فريق منهم إذا كان الحق عليهم ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ﴾ [الآية 49] أي الحكم ﴿يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ [الآية 49] منقادين ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [الآية 50] كفراً وميل إلى الظلم ﴿أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ﴾ [الآية 50] بأن رأوا تهمة منك فزالت ثقتهم ويقينهم بك ﴿أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ﴾ [الآية 50] في الحكومة بينهم ﴿بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الآية 50] الكاملون في الظلم والعدوان والنفاق والكفران.

وأفاد الأستاذ: أنهم علموا أن اقتضاء حكم في حكمه بينهم في علم أنه قاسط في خصومته لم تطب نفسه بحكومته وكذلك المريب يهرب من الحق ويجتهد في الفرار إلى الخلق كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ﴾ [الآية 49] يميلون مع الهوى ولا يقبلون حكمه إيماناً وكذلك الذي هو مريض يتميل بين الصحة والسقم وأرباب النفاق مترددون بين الشك والعلم فلا منهم نفي بالقطع ولا إثبات بالعلم مطروحون في أودية الشك والوهم.

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الآية 51] أي المخلصين الموقنين ﴿إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الآية 51] أي سواء لهم أو عليهم ﴿أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الآية 51].

وأفاد الأستاذ: أنهم الصادقون في الحقيقة السالكون للطريقة الآخذون بالوثيقة.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الآية 52] فيما يأمران أنه من فرائض الله وسنن نبيه ﴿وَيَخۡشَ ٱللَّهَ﴾ [الآية 52] على ما صدر عنه من مخالفة أمره ﴿وَيَتَّقۡهِ﴾ [الآية 52] فيما بقي من عمره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [الآية 52] بالنعيم المقيم.

﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [الآية 53] إنكاراً للامتناع عن حكمه وإظهاراً

لثبات إيمانهم ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ [الآية 53] بالخروج عن ديارهم وأموالهم والبروز إلى الكفار من أعدائهم ﴿لَيَخْرُجُنَّ﴾ [الآية 53] جواب لأقسموا على الحكاية والمبنى دون اللفظ والمعنى ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ [الآية 53] على الكذب والمخالفة ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [الآية 53] أي هذه طاعة معروفة منكم منكرة عنكم، أو المطلوب طاعة إيمانية معروفة لا طاعة نفاقية منكرة ﴿إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الآية 53] فلا يخفى عليه سرائركم ولا ضمائركم.

﴿قُلْ﴾ [الآية 54] لهم على لساننا ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا﴾ [الآية 54] أي أعرضوا ولم/ يقبلوا ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ﴾ [الآية 54] على الرسول ﴿مَا حُمِّلَ﴾ [الآية 54] من تبليغ الرسالة ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [الآية 54] من الامتثال ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ [الآية 54] في حكمه ﴿تَهْتَدُوا﴾ [الآية 54] إلى طريقه ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [الآية 54] التوضيح الموضح لأمر الدين وقد أدى ما حمل عليه وإنما بقي ما حملتم فإن أديتم فلكم نفعكم وإن توليتم فعليكم ضركم. 296/ ب

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الآية 55] خطاب للأمة والرسول، فمن للتبعيض أو له ولمن معه من النبيين، والمعقول محذوف دل عليه قوله: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية 55] والله يجعلهم خلفاء متصرفين في الأرض تصرف الملوك في ممالكهم بالطول والعرض ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الآية 55] كبني إسرائيل استخلفهم في مصر والشام بعد هلاك عدوهم. وقرأ أبو بكر بصيغة المجهول ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ [الآية 55] وهو الإسلام بتقويتهم وتثبيتهم ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم﴾ [الآية 55] وقرأ ابن كثير وأبو بكر بالتخفيف ﴿مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ﴾ [الآية 55] من أعدائهم ﴿أَمْنًا﴾ [الآية 55] منهم ومن بلائهم، وقد كان رسول الله ﷺ وأصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ثم هاجروا إلى المدينة لائذين وكانوا يصبحون في السلاح ويمسون في الصياح حتى أنجز الله وعده ونصر عبده وأظهرهم على العرب كلهم وفتح بلاد الشرق والغرب لهم. وفيه دليل على صحة نبوة رسوله من الإخبار عن الغيب على ما هو به وعلى صحة خلافة الراشدين بعده إذ لم يجتمع الموعود من الاستخلاف والتمكين والأمنية والموعود عليه من الإيمان والأعمال الصالحة بغيرهم بإجماع

الأمة واتفاق الأئمة ولا عبرة بمنازعة أهل البدعة. وقيل: الخوف من العذاب في الدنيا والأمن منه في العقبى ﴿يَعْبُدُونَنِي﴾ [الآية 55] استئناف بيان لحالهم ﴿لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [الآية 55] حال من ضميرهم ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ [الآية 55] بالردة أو كفر بهذه النعمة ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ [الآية 55] الوعد بالمنة ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الآية 55] الخارجون عن الدنيا بالكلية حيث كفروا تلك النعمة العلية بعد ظهور الآيات الجلية.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [الآية 56] في سائر ما أمركم / 297/أ به من أمر الشريعة. والمعنى داوموا على سلوك هذه الطريقة ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الآية 56] بالوصول إلى مراتب الحقيقة.

وأفاد الأستاذ: أن وعد الله حق وكلامه صدق والآية دالة على صحة إمامة الخلفاء الأربعة لأنه بالإجماع إلى يومنا هذا لم يتقدمهم أحد في الفضيلة وما بعدهم هذا مختلف فيهم بين الأمة، فأولئك مقطوع بإمامتهم وصدق وعد الله في حقهم وهم على الدين المرضي من قبل الله فيهم ولقد آمنوا بعد خوفهم وقاموا بسياسة المسلمين خاصهم وعامهم والذب عن حوزة الإسلام أحسن قيام لهم.

وفي الآية إشارة إلى أئمة الدين الذين هم أركان الملة ودعائم الإسلام الناصحون لعباده الهادون من يسترشد في الله إذ الخلل في أمر المسلمين من الولاة الظلمة ضرره مقصور على ما يتعلق بأحكام الدنيا، وأما حفّاظ الدين فهم الأئمة من العلماء الناصحين لدين الله المبين، وهم أصناف تقوم بهم حفاظ الكتاب والسنَّة وهم بمنزلة الخَزَنَة، وقوم هم علماء الأصول الرادون على أهل العناد وأصحاب البدعة بواضح الأدلة وهم أبطال الإسلام وشجعان الديانة وقوم هم الفقهاء المرجوع إليهم في علوم الشريعة من حقيقة العبادات وكيفية المعاملات وما يتعلق بأحكام المصاهرات وما في معناها من الأيمان والنذور والدعاوى وفصل الحكم في المنازعات وهم في الدين بمنزلة الوكلاء والتصرف في الملك من الأمراء، وآخرون هم أهل المعرفة وأصحاب الحقائق وهم في الدين كخواص الملك وأعيان مجلس السلطان وأرباب الأسرار الذين لا يبرحون

عن ذلك المكان، فالدين مغمور بهؤلاء على اختلافهم إلى يوم القيامة.

﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ [الآية 57] يا محمد أو أيها الحاسب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الآية 57] وقرأ ابن عامر وحمزة بالغيبة أي لا يحسبنهم حاسب أو لا يحسبوا أنفسهم ﴿مُعْجِزِينَ﴾ [الآية 57] الله عن إدراكهم وإهلاكهم ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ [الآية 57] من الطول أو العرض ﴿وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [الآية 57] أي مثوى الكفار ﴿وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الآية 57] مأواهم الذين يصيرون إلى النار.

297/ ب وأفاد الأستاذ: أن الباطل قد يكون/ له جولة ولكنه تخييل وإنما لذلك يقال قليل كعارض ينشأ في القيظ ويعقبه تحويل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [الآية 58] من العبيد المرائين ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ﴾ [الآية 58] أي من أغرار المسلمين ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾ [الآية 58] في يوم وليلة من الأوقات مرة ﴿مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ﴾ [الآية 58] لأنه زمان تكشف العورات ﴿وَحِينَ تَضَعُونَ﴾ [الآية 58] للقيلولة ﴿ثِيَابَكُمْ﴾ [الآية 58] التي لليقظة ﴿مِنَ الظَّهِيرَةِ﴾ [الآية 58] بيان للحين وهو قبيل وقت الظهر ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ﴾ [الآية 58] لأنه وقت التجرد عن اللباس والالتحاف باللحاف ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ﴾ [الآية 58] أي هي ثلاث أوقات يختل فيه ستركم. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر بالنصب بدلاً من ثلاث مرات، والمعنى أوقات ثلاث عورات أو ثلاث أوقات عورات ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ﴾ [الآية 58] في ترك الاستئذان ﴿بَعْدَهُنَّ﴾ [الآية 58] بعد هذه الأوقات ﴿طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ﴾ [الآية 58] أي هم طوافون والجملة استئنافية مبينة للعذر المرخص في ترك الاستئذان سائر الأوقات وهو المخالطة وكثرة المداخلة ﴿بَعْضُكُمْ﴾ [الآية 58] طائف ﴿عَلَى بَعْضٍ﴾ [الآية 58] تأكيد لما قبله ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ﴾ [الآية 58] أي الأحكام المبينات ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ [الآية 58] بأحوالكم ﴿حَكِيمٌ﴾ [الآية 58] فيما شرع لكم من أعمالكم. روي أن غلام أسماء بنت أبي مرشد دخل عليها في وقت كرهته فنزلت، وقيل: أرسل رسول الله ﷺ مدلج ابن عمرو الأنصاري وكان غلاماً وقت الظهر ليدعو عمر رضي الله عنه فدخل وهو نائم وقد انكشف عنه ثوبه فقال عمر:

لوددت أن الله عزَّ وجلَّ نهى آباءنا وأبنائنا وخدمنا أن لا يدخلوا هذه الساعة علينا إلا بإذن ثم انطلق معه إلى النبي ﷺ فقد وجده وقد أنزل عليه[1] هذه الآية: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ [الآية 59] من الأحرار والعبيد ﴿فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟﴾ [الآية 59] في جميع الأوقات ﴿كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ﴾ [الآية 59] بلغوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الآية 59] وفيه دلالة على وجوب استئذان العبد البالغ على سيدته ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ [الآية 59] بمخلوقاته ﴿حَكِيمٌ﴾ [الآية 59] في مصنوعاته تأكيد أو مبالغة في الأمر بالاستئذان في أوقاته.

﴿وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ [الآية 60] وهن العجائز اللاتي قعدت عن الحيض / 298/أ والحمل ﴿ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا﴾ [الآية 60] لا يطمعن فيه لكبرهن ﴿فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ﴾ [الآية 60] أي الثياب الظاهرة لهن كالجلباب لوجههن ﴿غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ﴾ [الآية 60] غير مظهرات لزينة مما أمرن بإخفائهن في قوله: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [الآية 31]، ﴿وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ﴾ [الآية 60] من إبدائهن لأنه أبعد من التهمة لهن ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ﴾ [الآية 60] لمقالهن مع الرجال ﴿عَلِيمٌ﴾ [الآية 60] بمقصودهن في جميع الأحوال.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه ضيق الأمر من وجه ووسع من وجه فأمر بمراعاة الاحتياط وحسن السياسة لأحكام الدين ومراعاة حرم المسلمين والتحرز عن مخاوف الفتنة واستيلاء سلطان الشهوة، وإذا سهلت فتلك الشائبة سهل الأمر وأبيحت الرخص وأمنت الفتنة.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الآية 61] يتحرجون من مؤاكلة الأصحاء حذراً من استقذارهم أو أكلهم من بيت من يدفع المفتاح إليهم ويبيح البسط فيه لهم إذا خرج للقرّ ونحوه مخافة أن لا يكون ذلك من طيب قلب فإن الحكم بالظاهر والله أعلم بالسرائر ﴿وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ [الآية 61] أو بيوت أولادكم لقوله عليه السلام:

---

(1) تفسير النيسابوري (6/ 26)، والكشاف (4/ 424).

«أنت ومالك لأبيك» من كسبه[1] رواه ابن ماجه وقوله عليه السلام: «أن أطيب ما يأكل الرجل من كسب يده» رواه الشيخان ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾ [الآية 61] من بيوت مماليككم ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [الآية 61] بيوت أصدقائكم فإنهم أرضى بالتبسط في أموالهم وأسر به في أحوالهم، وهذا كله إذا علم رضاهم بإذن أو قرينة دالة لهم، وكذا خص هؤلاء فإنه يعتاد التبسط بينهم.

قال أبو عثمان: الصديق مَن لا يخالف باطنه باطنك كما لا يخالف ظاهره ظاهرك إذ ذاك محل الانبساط بينه وبينك.

وقال الأستاذ: إذا جاءت الأعذار سهل الامتحان والاختبار وإذا حصلت القربة سقطت الحشمة وإذا صدقت القرابة انتفت الأجنبية والفرقة فإذا انتفت هذه الشروط صحت المباسطة في الارتفاق بشهادة هذه الآية. ثم قال: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [الآية 61] وعزيز من يصدق في الصداقة فيكون/ في الباطن كما يُرى في الظاهر ولا يكون في الوجه كالمرآة ومن ورائك كالمقراض. وفي معناه ما قلت: 298/ب

مَن لي بمن يثق الفؤاد بودّه ... وإذا ترحّل لم يزغ عن عهده

يا بؤس نفسي من أخ لي باذل ... حسن الوفاء بوعده لا نقده

يولي الصفاء بنطقه لا خلقه ... ويدسّ صلباً في حلاوة شهده

فلسانه يُبدي جواهر عقده ... وجِنانه تغلي مراجل حقده

لا همّ أني لا أطيق مراسه ... بل أستعيذ من الحسود وكيده[2]

فقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ [الآية 61] من تُؤمَن منه هذه الخصال وأمثاله من

---

(1) أخرجه ابن ماجه في السنن (2/ 769) رقم (2291)، والطبراني في المعجم الكبير (7/ 230) رقم (6961)، وابن حبان في الصحيح (2/ 142) رقم (410)، وأبو يعلى في المسند (10/ 98) رقم (5731).

(2) تفسير القشيري (5/ 348).

الأحـــوال ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗا﴾ [الآيـــة 61] مجتمعين أو متفرقين، نزلت في بني ليث بن عمرو بن كنانة كانوا يتحرجون أن يأكل الرجل وحده أو في قوم من الأنصار إذا نزل بهم ضيف لا يأكلون إلا معه أو في قوم تحرجوا عن الاجتماع على الطعام لاختلاف الطعام في النهمة والنفرة ﴿فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [الآية 61] على أهلها الذين هم منكم ديانة وقرابة وصداقة ﴿تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 61] تأدية بأمره مشروعة بحكمه ﴿مُبَٰرَكَةٗ﴾ [الآية 61] لأنها يوحى بها إفادة المحبة وزيادة المثوبة ﴿طَيِّبَةٗ﴾ [الآية 61] تطيب به النفس المتكلمة والمستمعة، وعنه عليه السلام قال: «متى لقيت أحداً من أمتي فسلّم عليه يطيل عمرك وإذا دخلت على أهل بيتك فسلّم عليهم يكثر خيرك»، هذا وإذا لم يكن في البيت أحد فليقل السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين[1].

وأفاد الأستاذ: أن السلام الأمان وسبيل المؤمن إذا دخل بنياناً أن يسلّم من الله على نفسه أي يطلب الأمان والسلامة من الله لنفسه لتسلم نفسه من الإقدام على ما لا يرضاه الله من الفعل والكلام إذ لا يحل لمسلم أن يفتر لحظة من الاستجارة بالله بل لا يرفع عنه ظل عصمته بإدامة حظه عن الاتصاف بمكروه في شريعته ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ [الآية 61] بتكريرها المرات وتفصيلها الكرات ﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [الآية 61] طرق الخيرات وسبيل المبرات.

300/ أ ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [الآية 62]/ الكاملون ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الآية 62] جمعاً بين لسانهم وجنانهم ﴿وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ﴾ [الآية 62] لبيان شأنهم كالجمعة والأعياد والمشاورة في نحو الجهاد ﴿لَّمۡ يَذۡهَبُواْ﴾ [الآية 62] عنه ولم يـتـركـوه ﴿حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ [الآية 62] وهذا إذا كان الاستئذان عن عذر لهم في حضور ذلك الشأن فلا ينافي قوله تعالى: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [التوبة: الآية 44] فإنه محمول على استئذانهم بغير عذر في شأنهم ﴿فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ﴾

(1) تفسير أبي السعود (9/ 177) وتفسير البيضاوي (1/ 201).

[الآية 62] ما يعرض لهم من أمر ربهم ﴿فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ [الآية 62] ممن علمت أن له عذراً لقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة: الآية 43]، ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ﴾ [الآية 62] فإن الاستئذان ولو لعذر لا يخلو عن نوع قصور لا سيما إذا كان تقديماً لأمر الدنيا على أمر العقبى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ [الآية 62] بالعباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ [الآية 62] بالعباد.

وفي «تفسير السلمي» قيل لأبي عثمان: أوصنا، قال: عليكم بالاجتماع على الدين وإياكم ومخالفة الأكابر من العلماء العاملين والدخول في شيء من الطاعات إلا بإذنهم ومشورتهم وواسوا المحتاجين بما أمكنكم وأرجو أن لا يضيع سعيكم.

وأفاد الأستاذ: أن شرط الاتباع موافقة المتبوعين وأن لا يتفرقوا فيصيروا خراباً كما قال تعالى: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: الآية 14] والعلماء ورثة الأنبياء والمريدون لشيوخهم كالأمة لنبيهم. فشرط المريد أن لا يتنفس إلا بإذن شيخه في نفس سراً وجهراً ويسري عنه في غير ما يحبه سريعاً ومخالفة الشيوخ فيما يستسرونه منهم أشد مما يكاد يرونه بالجهر كثيراً لأن هذا يلتحق بالخيانة، ومن خالف شيخه لا يشم رائحة الصدق فإن نذر منه شيء من ذلك فعليه بسرعة الاعتذار والإفصاح عما حصل منه من المخالفة والخيانة ليهديه شيخه إلى ما فيه كفارة جرمه ويلتزم في القوامة بما يحكم عليه به، وإذا رجع المريد إلى شيخه بالصدق في توبته وجب على شيخه جبران تقصيره بهمته فإن المريدين عيال على الشيوخ/ ففرض عليهم أن ينفقوا لهم من قوة أحوالهم بما يكون بيراناً لتقصيرهم. 299/ب

﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [الآية 63] لا تجعلوا نداءه كنداء غيره باسمه ورفع الصوت به ومن وراء بنائه من حجرات نسائه.

قال ابن عطاء: لا تخاطبوه بخطابه ولا تدعوه باسمه وأنيفوا آداب الله

فيه بدعائه في كلامه بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: الآية 64] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ [المَائدة: الآية 41].

وقال جعفر: الحرمات يتبع بعضها بعضاً فمن ضيّع حرمة الخلق ضيّع حرمة المؤمنين، ومن ضيّع حرمة المؤمنين ضيّع حرمة الأولياء، ومن ضيّع حرمة الأولياء ضيّع حرمة الأنبياء، ومن ضيّع حرمة الأنبياء ضيّع حرمة الله تعالى، ومن [ضيّع حرمة] الله تعالى فقد دخل في ديوان الأشقياء، فأفضل الأخلاق حفظ الحرمات ومَن أسقط عن قلبه الحرمات تهاون بالفرائض والواجبات. قلت: وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحَج: الآية 30].

وقال الأستاذ: عظّموه في الخطاب واحفظوا في خدمته الآداب وعانقوا طاعاته ووافقوا هيبته ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ﴾ [الآية 63] ينسلون قليلاً قليلاً من جماعتكم ﴿لِوَاذًا﴾ [الآية 63] ملاوذة بأن يستنفر بعضهم ببعض في مفارقتكم ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [الآية 63] يعرضون عن طاعته أو يذهبون سمتاً خلاف سمته والضمير في أمره إلى الله أو رسوله ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الآية 63] محنة في الدنيا ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الآية 63] في العقبى.

قال أبو سعيد الخراز: الفتنة انتكاس القلب حتى لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

وقال النوري: الفتنة هي الاستغناء بشيء سوى الحق.

وقال رويم: الفتنة للعوام والبلاء للخواص.

وقال أبو طاهر: الفتنة مأخوذ بها والبلاء معفو عنه ومثاب عليه.

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 64] مِلكاً ومُلكاً ﴿قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ [الآية 64] من المخالفة والموافقة ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [الآية 64] للجزاء على وفق المحاسبة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟﴾ [الآية 64] فيعلمهم بأعمالهم على وفق مراتب أحوالهم ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الآية 64] لا يخفى عليه خافية من آجالهم وآمالهم.



سورة الفرقان

[مكيّة]

وهي سبع وسبعون آية

300/ أ / بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

باسمه نزول البركة وحلول الحركة وبرحمته وصول النعمة وحصول الجنة.

وقال الأستاذ: بسم الله اسم عزيز عرف بفعله قدرته، اسم كريم شهد بفضله نصرته، اسم عزيز عرفه العقلاء بدلالة أفعاله وعرفه الأصفياء باستحقاقه لجلاله وجماله، فبلطف جلاله عرفوا وجوده وبكشف جماله عرفوا جوده. بسم الله اسم عزيز من دعا به لبّاه ومن توكل عليه كفاه، ومن توسل إليه أكرمه وآواه، ومن تنصل إليه رحمه وأدناه، ومن شكا إليه سلّاه، ومن سأله خوله وأعطاه.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الآية 1] فكاثر خيره وتواتر بره ودام إنعامه وتمّ إكرامه بإنزال القرآن بنعت الفرقان ﴿عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الآية 1] القائم بوظيفة عهده الذي أكرمه وفضله وإلى الخلق أرسله وبيَّن معجزته بالقرآن الذي عليه أنزله. وقال بعضهم: تبارك أي تعالى الحق عن إدراك الخلق ﴿لِيَكُونَ﴾ [الآية 1] هو سبحانه أو كتابه أو عبده ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الآية 1] من الجن والأنس ﴿نَذِيرًا﴾ [الآية 1] وللعالمين من أهل الإيمان والأنس بشيراً فهو منذر للعاصين بالحرقة والفرقة في دار البوار، ومبشر للمطيعين بالوصلة والقربة في دار القرار.

قال سهل: خصّ محمد ﷺ بإنزال القرآن ليفرق به بين الحق والباطل

والولي والعدو والقريب والبعيد والطاعة والعصيان والعدل والعدوان والإحسان والطغيان.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 2] خلقاً وملكاً.

قال النصرآبادي: له المُلك فمن اشتغل بالمُلك فاته المَلِك ومن اشتغل بالمَلك حصل له المَلك والمُلك ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الآية 2] كزعم عوام اليهود والنصارى وبعض كفار مكة ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ﴾ [الآية 2] كقول الثنوية ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الآية 2] أوجده وأظهر تدبيراً ﴿فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الآية 2] لا يتصور تغييراً.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه تفرد بالملك فلا شريك يساهمه وتوحّد بالجلال فلا نظير يقاسمه، فهو الواحد بلا قسيم في ذاته ولا شريك في مخلوقاته ولا شبيه في ذاته وصفاته.

﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ﴾ [الآية 3] أي من غير خالقهم ﴿ءَالِهَةً﴾ [الآية 3] أي أصناماً سموها آلهة ﴿لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا﴾ [الآية 3] لا يقدرون أن يخلقوا/ ذباباً ولو اجتمعوا له ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الآية 3] حيث خلقهم الله ابتداء ونحتهم وصوّرهم عبدهم انتهاء ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ [الآية 3] لا يستطيعون ﴿لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا﴾ [الآية 3] دفع ضر عن الناس ﴿وَلَا نَفْعًا﴾ [الآية 3] جلب نفع لمن يعبدهم من الناس ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ﴾ [الآية 3] لغيرهم ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا﴾ [الآية 3] إماتة وإحياء ولا بعثاً وجزاء.

300/ ب

وقال الأستاذ: لا يملكون قطميراً ولا يخلقون نقيراً ولا يدفعون عنهم كثيراً ولا يسيراً ولا ينفعونهم فيسهّلون عليهم عسيراً.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ﴾ [الآية 4] القرآن أو الفرقان ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ [الآية 4] كذب وبهتان ﴿ٱفْتَرَىٰهُ﴾ [الآية 4] اختلقه من تلقاء نفسه ﴿وَأَعَانَهُۥ﴾ [الآية 4] أنه من عند ربه وأعانه ﴿عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الآية 4] من اليهود أو جبر ويسار وعداس كما سبق في قوله: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: الآية 103]، ﴿فَقَدْ جَآءُو﴾ [الآية 4]

فعلوا ﴿ظُلْمًا﴾ [الآية 4] في إشراكهم له سبحانه مخلوقاً عاجزاً محققاً ﴿وَزُورًا﴾ [الآية 4] بجعل الكلام المعجز إفكاً مختلقاً ملفقاً.

﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الآية 5] ما سطره المتقدمون ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ [الآية 5] استكتبها ﴿فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الآية 5] ليحفظها قليلاً قليلاً.

وأفاد الأستاذ: أنهم ظنوه كما كانوا وكما أنهم بأمثالهم استعانوا فيما عجزوا عنه من أمورهم واستهدوا لأمثالهم واستكانوا فقالوا من غير حجاج وتقويل فلم يكن لقولهم تحصيل، والأساطير الأولين برهانهم التي لا تدري هل كانت وإن كانت لا تعرف كيف كانت ومتى كانت.

﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ﴾ [الآية 6] أي المغيبات والمخفيات ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الآية 6] أي في جميع الكائنات وقد أعجزكم عن آخركم بفصاحته وبلاغته وتضمنه أخباراً عن مغيبات مستقلة وأشياء مكنونة لا يعلمها إلا عالم الأسرار فكيف يكون أساطير الأولين وتعليم الأغيار وهو مما لا يقدر أحد على الإتيان بمثله ولو تساعد أعداء الدين مع كثرتهم من الوقت الذي أتى به واجتهدوا في معارضته بما يوجب مساواته أو معاربته فيدعوا تكذيبه ومخالفته فانقطعت الأعصار وانقطعت الأعمار من أهل الأمصار ولم يأت أحد بسورة من مثله فانتفى الريب ووجب الإقرار بحقه وفضله / ﴿إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الآية 6] حيث لم يعجل في عقوبتكم ويمدكم في معيشتكم. 301/ أ

﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ﴾ [الآية 7] بزعمه ﴿يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾ [الآية 7] كما نأكل في تحصيل الارتفاق ﴿وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الآية 7] كما نمشي لطلب المعاش والأرزاق وذلك لقصور نظرهم على الأمور الحسية فإن تميز الرسل عن من عداهم ليس بأحوال جسمانية بل بأعمال نفسانية وأخلاق روحانية كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: الآية 110].

قال جعفر الصادق: إن الله تعالى لم يبعث رسولاً إلا أباح ظاهره

للخلق بالكون معهم على شرط البشرية ومنع سرهم عن ملاحظاتهم لأن أسرار الأنبياء في القبضة الإلٰهية لا تفارق المشاهدة بحال من الأحوال الكونية ﴿لَوْلَآ﴾ [الآية 7] أي إن لم يكن ملكاً بشيراً فهل ﴿أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا﴾ [الآية 7] لنعلم صدقه بتصديقه له.

﴿أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ﴾ [الآية 8] فيستعين به ويستغني في وجه المعاش عن غيره ﴿أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾ [الآية 8] ويتعيش بريعه. وقرأ حمزة والكسائي بالنون أي ننتفع معه به وهذا أقل ما يتميز المكرم عند ربه ﴿وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الآية 8] أي الكاملون في الظلم منهم ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الآية 8] سحر فغلب على عقله.

﴿ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ﴾ [الآية 9] الأقوال الشاذة واخترعوا لك الأحوال النادّة ﴿فَضَلُّوا۟﴾ [الآية 9] عن طريق الهدي ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الآية 9] إلى الرفيق الأعلى.

﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ﴾ [الآية 10] في الدنيا ﴿خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الآية 10] مما قالوه ولكن أخره إلى الآخرة لأنه خير وأبقى ﴿جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الآية 10] بدل من خيراً وبيان ﴿وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا﴾ [الآية 10] بلا قصور ولا فطور عطف على محل الجزاء. وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو بكر بالرفع لأن الشرط إذا كان تاماً جاز في جزائه الجزم والرفع وجوز أن يكون استيثاقاً بوعد ما يكون له في العقبى.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ﴾ [الآية 11] أي ساعة القيامة فأعرضوا عن الطاعة وقصرت أنظارهم على الحطام الدنيوية وغفلوا عن النعيم المقيم للؤمنين وعذاب الجحيم للكافرين في الأيام الأخروية / كما أشار إليه بقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الآية 11] ناراً شديدة الاستعار في دار البوار. 301/ب

وأفاد الأستاذ: أنهم لما عجزوا عن معارضته أخذوا في مناقضته يعيبونه بكونه من جنسهم يمشي في الأسواق ويأكل الطعام وقالوا: هلّا أنزل عليه الملائكة فيرون عياناً وعابوه بالفقر وقالوا: هلّا يجعل الكنوز بحكمه يتكثر

مالاً وهلّا خص بآيات اقترحوها فيقطع بها العذر ويزيل عنها إشكالاً، وما هذا إلا بشراً يعتريه من دواعي الشهوات ما يعتري غيره، فأي خصوصية له حتى يلزمنا متابعته ولكن يظهر لنا حجته، فأجاب الله عنه وقال: إن الحق قادر على تمليك ما قالوا وأضعافه وفي قدرته إظهار ما اقترحوه من الآيات وأمثاله ولكن ليس لهم هذا التخيير وبعدما أُزيح العذر بإظهار معجزة واحدة فاقتراح ما يهوون تحكُّم على التقدير وليس لهم ذلك. ثم أخبر أنه لو أظهر تفصيل ما قالوه وأضعافه لم يؤمنوا لأن حكم الله بالشقاوة سابق لهم. وقال: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ﴾ [الآية 11] وهم في حكم الله من الكفار والله أعدّ لهم ولأمثالهم دار البوار حقق وعيد الأبد فلا محالة يمتحنون بها. وفي قوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الإسرَاء: الآية 48] دليل على جواز تكليف ما لا يقدر عليه العبد في الحال لأنه أخبر أنهم لا يستطيعون سبيلاً، وهم معاتبون مكلفون انتهى. ولا يخفى أن المحال إذا كان لذاته فلا يجوز تكليفه وقد نفى وقوعه بقوله سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: الآية 286] وأما إذا كان لغيره كما هنا لتعلُّق علمه سبحانه بكثرة مقدار ما يجوز تكليفه وصح وقوعه بإجماع من يعتد به.

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [الآية 12] وهو أقصى ما يمكن أن ترى منه ﴿سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا﴾ [الآية 12] صوتاً يشعر بغيظها ﴿وَزَفِيرًا﴾ [الآية 12] يسمع من جوفها لقوة غليانها وهو أن يخرج نفسها بعد مدها إياه في باطنها. والمحققون من الصوفية بل مذهب أهل السنَّة والجماعة على ما صرح به في المعالم إن الأشياء كلها لها علم بالله وحياة تناسبها وخشية وصلاة وعبادة وتسبيحاً وكلاماً ورؤية وغيظاً ومحبة وعداوة كما حقق في محلها ومنه / ما ورد: «أُحد جبل يحبنا ونحبه وعير جبل يبغضنا ونبغضه» وغير ذلك من الآيات والأحاديث الثابتة عن الثقات خلافاً للمعتزلة بناء على أصولهم الفاسدة وقواعدهم الكاسدة، وقد دفعها بعض علمائنا بأن الحياة لما لم تكن مشروطة عندنا بالبنية بل يجوز تعلق الروح بالأجزاء المتفرقة شرقاً وغرباً في الأمكنة أمكن أن يخلق الله فيها ميزة هنالك فترى وتتقيظ وتزفر وأمثال ذلك على أن أمور الآخرة كلها على خرق العادة

302/ أ

فيجب الإيمان بما ورد إجمالاً ووكول علمه إليه سبحانه تفصيلاً.

وأفاد الأستاذ: أن وحشة النار توجد من مسافة بعيدة قبل شهودها والامتحان بها ونسيم الجنة يوجد قبل شهودها ودخولها والنار توقد منذ سنين قبل المحترقين بها، والجنة تزين منذ سنين قبل المستمتعين بها، وكذب من أحال وجودها قبل كون سكانها وقطانها من المنتفعين بها والمعاقبين فيها لأن الصادق أخبر عن صفاتهما التي لا يكون ذلك إلا لموجود هنالك.

﴿وَإِذَآ أُلۡقُوا۟ مِنۡهَا مَكَانًا﴾ [الآية 13] في مكان، ومنها بيان تقدم لكونه صفة نكرة فصار حالاً ﴿ضَيِّقًا﴾ [الآية 13] لزيادة العقوبة فإن الضيق زيادة الكربة كما أن في الوسعة مزيد الراحة، ولذا وصفت الجنة بأن عرضها السمٰوات والأرض، وفي الحديث: «خير المجالس أوسعها»[1] ﴿مُّقَرَّنِينَ﴾ [الآية 13] قرنت أيديهم بالسلاسل إلى أعناقهم ﴿دَعَوۡا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الآية 13] تمنوا هلاكاً وطلبوا إهلاكاً.

فيقال لهم: ﴿لَّا تَدۡعُوا۟ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا﴾ [الآية 14] أي قليلاً يسيراً ﴿وَٱدۡعُوا۟ ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ [الآية 14] لكثرة أنواع العقاب الذي لا ينقطع.

وأفاد الأستاذ: أن راحة الجنة مقرونة بسعتها ووحشة النار موصولة بضيقها فيضيق عليهم مكانهم ويضيق عليهم قلوبهم ويضيق عليهم أقواتهم، ولو كانت حياتهم تبطل بها وكانوا يتخلصون منها لم يكن البلاء كاملاً ولكنها آلام لا تتناهى ومحن لا تنقضي كلما راموا فرجة وباباً قيل لهم ﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: الآية 30].

﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ﴾ [الآية 15] العذاب المؤبد الذي وعد به العاصون ﴿أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ ٱلَّتِي وُعِدَ/ ٱلۡمُتَّقُونَۚ كَانَتۡ لَهُمۡ﴾ [الآية 15] في علم الله ﴿جَزَآءً﴾ 302/ب

(1) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (1/ 388) رقم (1136)، والحاكم في المستدرك (4/ 300) رقم (7705)، والبيهقي في شعب الإيمان (6/ 300) رقم (8240)، وأبو داود في السنن (4/ 405) رقم (4822).

[الآية 15] على أعمالهم وفق أحوالهم ﴿وَمَصِيرًا﴾ [الآية 15] مرجعاً لآمالهم.

﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ [الآية 16] من النعيم المقيم على قدر مراتبهم وما يليق ويناسب بمناصبهم ومناقبهم كما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: الآية 30] وفيه تنبيه على أن كل المشتهيات لا تحصل إلا في الجنة ولذا ورد: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»[1]، ﴿خَٰلِدِينَ﴾ [الآية 16] حال مقدرة ﴿كَانَ﴾ [الآية 16] ما ذكر ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الآية 16] واجباً عليه بمقتضى ﴿وَعْدًا مَّسْـُٔولًا﴾ [الآية 16] وعداً حقيقاً بأن يكون مطلوباً.

وقال الأستاذ: إن في النعيم المقيم حور وسرور وحبور وقصور وروح وريحان وبهجة وإحسان ولطف جديد وفضل مزيد ولذات شراب وكاسات محاب وبسط قلب وطيب حال وكمال أنس ودوام طرب وتمام حول ولباسهم فيها حرير فالأسماء أسماء ما في الدنيا، والأعيان بخلاف المعهودات منها، ثم فيها ما يشاؤون ويتحقق، وهم أبداً مقيمون لا يبرحون ولا هم عنها يخرجون. وقال: ﴿لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ﴾ [الآية 16] وتحقق لهم فيها ما يشاؤون ولكن لا يخلق في قلوبهم الإرادة ما علم أنه سيفعله فما هو المعلوم لله أن لا يفعل لا يتعلق به إرادتهم ويمنع من قلوبهم مشيئته لهم.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ [الآية 17] أي المخلوقين أو المشركين. وقرأ ابن كثير وحفص بالياء أي يجمعهم الله ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 17] يعم كل معبود سواه ﴿فَيَقُولُ﴾ [الآية 17] أي الله للمعبودين. وقرأ ابن عامر بالنون ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الآية 17] الضالين ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ﴾ [الآية 17] بأنفسهم فكانوا كالغاوين لإخلالهم بالنظر الصحيح وإعراضهم كالمرشد النصيح، وهو استفهام تقريع للعبدة.

﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ﴾ [الآية 18] تنزيهاً لله عن الأنداد وإشعاراً بأنه لا يليق بهم

---

(1) أخرجه البخاري في الصحيح (3797)، ومسلم في الصحيح (1804/ 126).

إضلال العباد ﴿مَا كَانَ يَنۢبَغِي لَنَآ﴾ [الآية 18] ما يصح وما يصلح لنا ﴿أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ [الآية 18] حتى نكون سبباً لإضلال هؤلاء ﴿وَلَٰكِن مَّتَّعۡتَهُمۡ وَءَابَآءَهُمۡ﴾ [الآية 18] بأنواع النعم فاستغرقوا في اتباع الشهوات والنهم ﴿حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكۡرَ﴾ [الآية 18] أي ذكر المنعم وشكره وتركوا حكمه وأمره، ففيه نسبة الضلال إليه بكسبهم وإسناد له إلى ما فعل الله بهم من حملهم وهو عين مذهب أهل السنَّة وليس فيه حجة للمعتزلة ﴿وَكَانُواْ﴾ [الآية 18] في قضاء الله ﴿قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ [الآية 18] هالكين لكونهم ضالين عن / هداه. 303/ أ

﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم﴾ [الآية 19] أي المعبودون ﴿بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الآية 19] في قولكم إنكم آلهة لنا أو هؤلاء أضلونا ﴿فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ﴾ [الآية 19] أي المعبودون. وقرأ حفص بالخطاب للعابدين ﴿صَرۡفٗا﴾ [الآية 19] دفعاً للعذاب عنكم ﴿وَلَا نَصۡرٗاۚ﴾ [الآية 19] منعاً له منكم ﴿وَمَن يَظۡلِم﴾ [الآية 19] أي من يستمر على الشرك ﴿مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا﴾ [الآية 19] أي ناراً وسعيراً.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الآية 20] الجملة حال اكتفي فيها بالضمير عن الواو ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ﴾ [الآية 20] أيها الناس ﴿لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ [الآية 20] ابتلاء ومحنة، ومن ذلك ابتلاء الفقراء بالأغنياء والمرسلين بالرسل إليهم في مخالفتهم لما أنزل عليهم وفيه تسلية له ﷺ من قولهم بعد إبطاله لهم، وفيه دليل على القضاء والقدر وما يترتب عليه من الصبر والشكر والحذر ﴿أَتَصۡبِرُونَۗ﴾ [الآية 20] حث على الصبر على ما افتتنوا به كقوله تعالى: ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: الآية 91]، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا﴾ [الآية 20] بمن يصبر على بلائه ويرضى بقضائه أو علماً بالصواب فيما يبتلي به ومن يبتلي وغير ذلك من أمور أرضه وسمائه.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أخبر أن الذين تقدموهم من الرسل كانوا بشراً مثلهم ولم تكن الخصوصية لهم إلا ظهور المعجزات عليهم وفي الجملة الفضائل بالمعاني لا بالصور والمباني. ثم قال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ [الآية 20] فضّل بعضنا على بعض في الأشياء فأمر

المفضول بالصبر والرضا والفاضل بالشكر على العطاء وخصّ قوماً بالغنى وجعلهم فتنة لأهل البلاء، وخصّ قوماً بالعوافي عن الأمراض والأسقام وآخرون بالآلام والانتقام فلا لمن نعمه مناقب ولا لمن امتحنه معاتب، فبحكمه لا بجرمهم، وبفضله لا بعقلهم، وبإرادته لا بعبادتهم، وباختياره لا بإرضائهم، وبإقداره لا بأوزارهم، وبه لا بهم. وقوله: ﴿أَتَصْبِرُونَ﴾ [الآية 20] استفهام بمعنى الأمر فمن ساعده التوفيق صبر وشكر ومن قارنه الخذلان أبي وكفر.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ [الآية 21] أي لا يأملونه بالثواب أو لا يخافونه بالعقاب لإنكارهم البعث والحساب، والمراد باللقاء الوصول إلى الجزاء. أو قيل: المراد باللقاء الرؤية في دار البقاء ﴿لَوْلَا﴾ [الآية 21] هلّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ﴾ [الآية 21] / فينكشف لنا الأمر بالكلية ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ﴾ [الآية 21] أي في شأنها حتى أرادوا لها ما يتفق للأفراد من الأنبياء في أكمل أوقاتها وأجمل حالاتها ﴿وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الآية 21] وتجاوزوا عن الحد في الظلم تجاوزاً عظيماً كثيراً حيث طلبوا الرؤية في الدنيا مع أنها ليست حاصلة إلا لخواص عباده في العقبى وأعرضوا عن الآيات الباهرة والمعجزات القاهرة واقترحوا لأنفسهم الفانية ما امتدت دونه مطامح النفوس القدسية. 303/ ب

وأفاد الأستاذ: أن هؤلاء قالوا على وجه رؤية المقام لأنفسهم وأنه مسلم لهم ما اقترحوه من نزول الملائكة عليهم ورؤية ربهم وكان ذلك في القدرة جائزاً ولكن لم يكن ذلك واجباً، وبعد إزاحة عذرهم بظهور المعجزات لم يكن اقتراح ما قالوه من المستحسنات.

﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ﴾ [الآية 22] أعوان ملك الموت أو ملائكة العذاب ﴿لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [الآية 22] منهم ومن غيرهم أو المصرين على جرمهم أو المشركين المعهودين فيهم ﴿وَيَقُولُونَ﴾ [الآية 22] أي المجرمين حينئذ ﴿حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الآية 22] أي هذه الجملة التي كانوا يستعيذون بها عند لقاء عدوهم أو هجوم مكروه بهم طلباً من الله أن يمنع لقاءه منهم ويدفع بلاءه عنهم. والمعنى

امنع عنَّا منعاً ممنوعاً فهو في باب التأكيد من قبيل «جد جده وظلاً ظليلاً»، أو يقولها الملائكة لهم بمعنى حراماً محرماً عليكم النار أو الجنة أو الرؤية على ما اختاره الأستاذ.

حيث أفاد أنهم اقترحوا شيئين: رؤية الملائكة ورؤية الله فأخبر أنهم يرون الملائكة عند التوفي ولكن تقول الملائكة لهم: ﴿لَا بُشْرَىٰ﴾ [الفرقان: الآية 22] لكم. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الآية 22] يعني حراماً ممنوعاً، يعني رؤية الله عنكم وهذا يعود إلى ما جرى ذكره وحمله على ذلك أولى من حمله على الجنة إن لم يجر لها ذكر هنا، ثم فيه بشارة للمؤمنين بالرؤية لأنهم يرون الملائكة ويبشرونهم بالجنة، قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: الآية 30] الآية. فكما لا يكون للكفار البشارة بالجنة ويكون للمؤمنين لا يكون الرؤية للكفار ويكون للمؤمنين. قلت: وقد قال تعالى في حقهم: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين: الآية 15]،/ وفي حق المؤمنين: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: الآيتان 22،23] رزقنا الله الحسنى وزيادة وختمنا بخاتمة السعادة. 304/ أ

﴿وَقَدِمْنَا﴾ [الآية 23] أي عهدنا وقصدنا ﴿إِلَىٰ مَا عَمِلُوا﴾ [الآية 23] في زمان كفرهم ﴿مِنْ عَمَلٍ﴾ [الآية 23] في صورة أعمال حسنة من المكارم كقرى الضيف وإغاثة الملهوف وصلة الرحم ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الآية 23] فأحبطناه لفقد ما هو شرط اعتباره من الإيمان بالدار الآخرة والإخلاص عن الرياء والسمعة وسائر الأعراض الفاسدة. والهباء غبار يرى في شعاع الشمس يطلع من الكوة ويكون متفرقاً منشوراً.

قال ابن عطاء: أطلعناهم على أعمالهم فطالعوها بعين الرضا فسقطوا عن أعيننا بذلك فجعلنا أعمالهم هباء منثوراً.

وقال الأستاذ: ضاع سعيهم وخاب جهدهم وضاع عمرهم وخسرت صفقتهم وانقطع رجاؤهم وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً فهذا آفة الكفار في تلك الدار، وأما أصحاب

الحقائق وأرباب التوحيد فيلوح لقلوبهم من سماع هذه الآية ما يحصل به كمال روحهم ويتأدى إلى قلوبهم من الراحة ما يضيق عن وصفه شرحهم ويتقاصر عن شأنه نطقهم حيث يسمعون قوله: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ [الآية 23] وحبب لهم من الأريحية ما يشغل عن الاهتمام بقوله: ﴿فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً﴾ [الآية 23] ويقولون: يا ليت لنا أعمال أهل الدارين، ثم لا يقبل منها ذرة وهو يقول بسببها: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ﴾ [الآية 23] ولأنهم إذا تخلصوا من مواضع الخلل وموجبات الخجل من أعمالهم غدوا ذلك من أجل ما ينالون من الإحسان إليهم. وفي معناه أنشدوا:

سأرجع من حجي إلى العام مقبلاً فأما الذي قد كان لم يتقبل[1]

﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا﴾ [الآية 24] مكاناً يستقر فيه في أكثر الأوقات للمجالسة والمجاورات ﴿وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الآية 24] مكاناً يؤوى إليه للاسترواح مع الزوجات، ويحتمل أن يراد بأحدهما المصدر أو الزمان إشارة إلى أن مكانهم وزمانهم أطيب ما يتخيل من الأمكنة والأزمنة، والتفضيل إما لإرادة الزيادة المطلقة في العقبى أو بالإضافة إلى المترفين في الدنيا. وقد صحت عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه يفرغ من الحساب/ في نصف ذلك اليوم فيقبل أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار. 304/ب

وفي «تفسير السلمي»: أصحاب الجنة يومئذ في دار البوار على ميعاد لقاء الجبار من غير خوف زوال ولحوق ملال.

وأفاد الأستاذ: أن أصحاب الجنة هم الراضون بها الواصلون إليها المكتفون بوجدانها فحسنت لهم أوطانهم وطاب لهم مستقرهم ومكانهم.

﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ [الآية 25] أصلها تتشقق فحذفت التاء وأدغمها في الشين نافع وابن كثير وابن عامر أي تتفتح أبوابها ﴿السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ [الآية 25] بسبب طلوع ونزول الغمام منها وهو الغمام المذكور في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَ

---

(1) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 366).

يأتيهم الله في ظلل من الغمام﴾ [البقرة: الآية 210]، ﴿ونزل الملائكة تنزيلا﴾ [الآية 25] وقرأ ابن كثير ونزل ﴿الملك يومئذ الحق﴾ [الآية 26] الثابت ﴿للرحمن﴾ [الآية 26] لأن كل ملك وملك يبطل حينئذ لغيره ولا يبقى إلا ظهور ملكه ﴿وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾ [الآية 26] شديداً لا يصير يسيراً.

قال ابن عطاء: الملك له على دوام الحالات وجميع الأوقات ولكن يكشف يومئذ للعوام فلا يقدر أحد أن يجحده بعدما عيَّن ذلك المقام.

وقال أبو سعيد الخراز: حقيقة الملك لمن هو مستغنٍ عما أبدى في الملك من جميع المكونات لا يرضاه من مكان العبيد شيء ولا يفضيه شيء من السكنات.

وقال الأستاذ: يريد يوم القيامة إذا بدت أهلها وظهر للمبعوثين أحوالها علموا ذلك الزمان وتحققوا في ذلك المكان أن المُلك أزلاً وأبداً للرحمٰن فلم يتجدد وصف له سبحانه بل يتلاشى أوهام الخلق لما بدا شأنه.

﴿ويوم يعض الظالم على يديه﴾ [الآية 27] من فرط الحسرة لديه ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا﴾ [الآية 27] طريقاً إلى النجاة بما أبداه دليلاً ﴿يا ويلتى﴾ [الآية 28] يا حسرتي ﴿ليتني لم أتخذ فلانا خليلا (٢٨)﴾ من أهل الكفر والغفلة عن الشكر ﴿لقد أضلني عن الذكر﴾ [الآيتان 28،29] أي ذكر الله وخطابه في كتابه ومواعظ رسوله في بابه ﴿بعد إذ جاءني﴾ [الآية 29] وتمكنت منه برفع حجابه ﴿وكان الشيطان﴾ [الآية 29] يعني الخليل المضل أو إبليس لأنه حمله على مخالفته ومخالفة الرسول في طاعته ﴿للإنسان خذولا﴾ [الآية 29] يواليه حتى يؤديه إلى هلاكه ثم يتركه ولا ينفعه.

وأفاد الأستاذ: إن الكافر يضل صاحبه فيقع منه في الثبور/ والمؤمن 305/أ يهدي إلى الربّ صاحبه فيصل به إلى السرور. قلت: كما يدل عليه ويشير إليه قوله سبحانه: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ [الزخرف: الآية 67]. وقال بعضهم: أصح الخلة وأحسن المودة ما لا يورث أسفاً ولا ندامة كما أخبر الله عنهم يوم القيامة.

﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ﴾ [الآية 30] شكاية عن قومه وبثاً إلى ربه ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي﴾ [الآية 30] يريد كفار قومه ﴿ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾ [الآية 30] بأن تركوا الإيمان به والعمل بمضمونه فقال في تسليته: ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ [الآية 31] كما جعلنا لك أعداء ﴿جَعَلۡنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّٗا مِّنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الآية 31] ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: الآية 35] فإنما نمهلهم لكن لا نهملهم. وفيه دليل على أنه خالق الشر كما أنه خالق الخير خلافاً للثنوية والمعتزلة ﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيٗا﴾ [الآية 31] إلى معرفته إن أراد هدايتهم ورعايتهم ﴿وَنَصِيرٗا﴾ [الآية 31] معيناً لك عليهم إن شاء ضلالتهم وتخويفهم.

قال أبو بكر بن طاهر: رفعت درجات الأنبياء لامتحانهم بالمخالفين والأعداء وكل نبي قد ابتلي بمخالف وعدو وحاسد وابتلي كل ولي بمكابر ومعاند وذلك لتمام درجاتهم ونظام حالاتهم وعظم محلهم عند ربهم.

وقال الأستاذ: فمن شكا من الله فهو جاهل جاحد ومن شكا إلى الله فهو عارف واجد. ثم أخبر أنه لم يخلِّ نبياً من أنبيائه إلا سلّط لهم عدواً في وقته إلا أنه سبحانه لم يغادر منهم أحداً إلا أذاقه وبال ما استوجبوه على كفره وغيه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ﴾ [الآية 32] أي هلا أنزل ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ﴾ [الآية 32] إليه ﴿جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ﴾ [الآية 32] دفعة واحدة، وهو اعتراض لا طائل تحته لأن الإعجاز لا يختلف بنزوله مفرقاً أو جملة مع أن للتفريق فوائد محققة منها ما بيَّنه سبحانه بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ﴾ [الآية 32] أي كذلك أنزلناه مفرّقاً لنقوِّي بتفريقه فؤادك على حفظه وفهمه لأن نزوله بحسب الوقائع يوجب مزيد بصيرة في المبنى وعوض خوض في المعنى ولأنه تحدى بكل نجم من سوره فيعجزون عن معارضته زاد ذلك قوة قلبه ولأن نزول جبريل مرة بعد مرة سبب لثبات فؤاده وكمال روحه ودوام أنسه وتمام قربه. فإن قلت: المحب يسكن بتواصل كتب محبوبه، / ومنها معرفة الناسخ والمنسوخ بسبب تقدمه وتأخره، 305/ب
ومنها انضمام القرائن الحالية إلى الدلائل القالية إذ كل من الحالات الواقعة في

زمان من الأزمنة تناسب نزول آية خاصة ﴿وَرَتَّلْنَهُ تَرْتِيلًا﴾ [الآية 32] وقرأناه عليك شيئاً بعد شيء على تمهُّل وتؤدة في ثلاث وعشرين سنة أو المعنى بيّناه تبييناً وفصلناه تفصيلاً ولم نكتف بذكر شيء منه إجمالاً بل أوردناه على ما أردناه إكمالاً.

﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ﴾ [الآية 33] سؤال عجيب وبيان حال غريب ﴿إِلَّا جِئْنَكَ بِالْحَقِّ﴾ [الآية 33] بالأمر الثابت لجوابه وعلى وفق الصدق في صوب صوابه ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الآية 33] أي بما هو أحسن بياناً من سؤالهم في بابه.

﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ﴾ [الآية 34] أي مغلوبين إليها أو مسحوبين. وروى البيهقي عنه عليه السلام: «يحشر الناس يوم القيامة على ثلاثة أصناف، صنف على الدواب وصنف على الأقدام وصنف على الوجوه»[1] وفي الخبر: «إن الذي مشاهم اليوم على أقدامهم يمشيهم غداً على وجوههم»[2] وهو ذم مرفوع أو منصوب أو مبتدأ خبره ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ [الآية 34] مستقراً ومقيلاً ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الآية 34] وأخطأ طريقاً وأغلظ دليلاً، فلا جرم يقعن في قعر جهنم ذليلاً.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَبَ﴾ [الآية 35] التوراة وفيها فصل الخطاب ﴿وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَرُونَ وَزِيرًا﴾ [الآية 35] يؤازره في الدعوة ويعاونه في إعلاء الكلمة وهو لا ينافي مشاركته في النبوة بل إشارة إلى الأصالة والخلافة.

وأفاد الأستاذ: أن القصة الواحدة إذا أُعيدت مرات كثيرة كانت أتم في باب البلاغة لا سيما وفي كل مرة فائدة زائدة.

﴿فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ [الآية 36] يعني فرعون وقومه ﴿بِآيَتِنَا﴾ [الآية 36] أي بأوليتنا في مصنوعاتنا أولاً وبمعجزاتنا ثانياً ﴿فَدَمَّرْنَهُمْ

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (1/ 318) رقم (359)، والطيالسي في المسند (1/ 334) رقم (2566).

(2) أورده القشيري في تفسيره (5/ 373).

تَدْمِيرًا﴾ [الآية 36] أي فذهبا إليهم فكذبوهما وجحدوا نبوتهما ورسالتهما فأهلكناهم إهلاكاً بالإغراق في الدنيا وبالإحراق في العقبى. وفيه تسلية لسيد الأنبياء فيما كان يقاسيه من فنون البلاء، ووعد جميل له بإهلاك مَن له من الأعداء أو تهديد لقومه من السفهاء.

306/ أ ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ﴾ [الآية 37] أي نوحاً ومن / قبله أو نوحاً وحده لأنه يستلزم أنهم كذبوا الرسل كلهم ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾ [الآية 37] أحللنا العقوبة بهم كما أحللنا بأمثالهم وعاملناهم مثل ما عاملنا قرناءهم ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ﴾ [الآية 37] أي قصتهم ﴿لِلنَّاسِ آيَةً﴾ [الآية 37] عبرة ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ﴾ [الآية 37] منهم ومن غيرهم ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الآية 37] حجاباً مقيماً.

﴿وَعَادًا وَثَمُودَا﴾ [الآية 38] أي وجعلناهما كذلك عبرة لما هنالك ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ﴾ [الآية 38] وهم قوم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكذبوه فبينما هم حول الرَّسِّ وهي البئر الغير المطوية فانهارت فخسف بهم وبديارهم ﴿وَقُرُونًا﴾ [الآية 38] قيل القرون أربعون سنة وقيل سبعون وقيل مائة وعشرون، والمعنى وأهل أعصار ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ [الآية 38] أي ما ذكر من الأمم أمصاراً ﴿كَثِيرًا﴾ [الآية 38] لا يعلمها إلا الله ولا يحيط بتفصيل أحوالها سواه.

﴿وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الآية 39] بيَّنا له القصص والأحوال وما أجرى عليهم من النكال إنذاراً وإعذاراً فلما أصروا أهلكوا لقوله: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الآية 39] دمرنا تدميراً.

﴿وَلَقَدْ أَتَوْا﴾ [الآية 40] يعني كفار قريش مروا مراراً في أزمنة تجارتهم إلى الشام قبل بعثته أو بعد دعوته عليه السلام ﴿عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ﴾ [الآية 40] أي سدوم بالدال المهملة أو المعجمة وهي عظمى قرى قوم لوط أُمطِرَت عليها الحجارة ﴿أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا﴾ [الآية 40] في مرورهم عليها فيتعظون بما يرون من آثار عذاب الله فيها ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الآية 40] أي لا يخافون حشراً ولا نشوراً ولا يأملون عاقبة وآخرة فكذلك لم ينظروا ولم يتعظوا ولم يعتبروا فمروا بها كما مرت ركابها عليها من غير التفات إليها.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه ذكر كل ذلك فيما هنالك تسكيناً لقلبه وتطييباً لسرّه وإعلاماً بأنه سيهلك من يعاديه ويدمر على من يناوئه، ولقد فعل بعض ذلك في حياته والباقي بعد مضيه عليه السلام من الدنيا ووفاته.

﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا﴾ [الآية 41] ما يتخذونك إلا مهزءاً به ومهزولاً حيث قالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ [الآية 41] الهمزة للإنكار والإشارة للاستحقار.

﴿إِن كَادَ﴾ [الآية 42] إن قارب ﴿لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ [الآية 42] ليصرفنا عن عبادتها بفرط اجتهاده في / الدعاء إلى التوحيد وكثرة ما يورد مما يرد إلى الذهن أنه أدلة على تحقق التقدير ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الآية 42] ثبتنا على محبتها واستمسكنا بعبادتها ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الآية 42] عن صوب الصواب وفيه دلالة على أنه سبحانه وإن كان يمهلهم في الدنيا فلا يهملهم في العقبى.

306/ ب

وأفاد الأستاذ: أنه كان يحصل سلوته لو ذكر حالته وشكا إليه قصته وتبيَّن له غصته وإذا أخبر الله عما يعانيه وقصَّ عليه ما كان يلاقيه كان أوجب للسلو وأقرب من الأنس، وغاية سلوة أرباب المحنة أن يذكروا لأحبابهم ما لقوا في أيام امتحانهم في مقام احتجابهم.

لذا قال قائلهم في بابهم:

يود بأن يمسي سقيماً لعلها ... إذا سمعت منه بشكوى تراسله
ويهتز للمعروف في طلب العلى ... ليذكر يوماً عند سلمى شمائله[1]

وقد أخبر الله سبحانه عنهم أنهم كانوا ينظرون إليه ﷺ بعين الازدراء والتحقير في شأنه والتقصير في مكانه لأنهم كانوا لا يعرفون قدره ولا يتبعون أمره فقال: ﴿وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: الآية 198].

﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الآية 43] بل أطاعه وبنى عليه متمناه فلا

(1) نسب إلى كثير عزة. انظر الزهرة (1/ 108) ودواوين الشعر العربي (21/ 186).

يسمع حجة ولا يبصر دليلاً ﴿أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الآية 43] تمنعه عن المعصية وتدفع عنه عذاباً وبيلاً.

وأفاد الأستاذ: أنهم كانوا يعبدون من الأصنام ما يهوون ويستبدلون صنماً بصنم وكانوا يجرون على مقتضى ما يقع لهم والمؤمن بحكم الله لا بحكم نفسه، وبهذا يتضح البرهان بين الشأن والشأن والذي يعيش على ما يقع له فوائد هواه والذي يتبع ما أمره ربه ونهاه.

﴿أَمْ تَحْسَبُ﴾ [الآية 44] أتظن ﴿أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ﴾ [الآية 44] ما ينفعهم ﴿أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ [الآية 44] ما يضرهم فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم.

قال ابن عطاء: لا تظن أنك تسمع بندائك إنما تسمعهم بنداء الأزل فإن ندائك ودعوتك لا تغني عنهم شيئاً وإجابتهم دعوتك هو بركة جواب نداء الأزل، فمن عقل أو أعرض فإنما هو لفقده عن محل الجواب في القدم ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ﴾ [الآية 44] في عدم انتفاعهم/ بسماع الآيات وقلّة تدبرهم بشواهد الدلائل والمعجزات ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الآية 44] من الحيوانات لأنها تنقاد لمن يتفقدها وتمتثل إلى مَن يتعهدها وتميز من يُحسن لها ومن يسيء إليها وتطلب ما ينفعها وتتجنب ما يضرها، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يطلبون مقام حبهم ولا يعرفون إحسان الرحمٰن من إساءة الشيطان ولا يطلبون الثواب الذي هو أعظم منافعهم ولا يتقون العذاب الذي هو أشد مضارهم، ولأنها إن لم تعتقد حقاً ولم تكتسب خيراً لم تعتقد باطلاً ولم تقترف شراً بخلاف هؤلاء، ولأن جهالتها وضلالتها لا تتعدى عنها وجهالة هؤلاء وضلالتهم تؤدي إلى فتنة الخلق وصدهم عن الحق، ولأنها غير متكمنة من الكمال فلا تقصير منها في جميع الأحوال، وهؤلاء مقصورون مستحقون على تقصيرهم أشد النكال وأعظم الوبال، ولأنها تصير في العاقبة تراباً ولم يشاهدوا عقاباً، وهؤلاء يقال لهم: ﴿فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ: الآية 30].

307/أ

وأفاد الأستاذ: أن الذي ليس له نهمة إلا في أكل وشرب واستجلاب حظوظ نفسه فكالبهائم نهمتها الأكل والشرب وانتفاع حظوظها وإن الله تعالى

خلق الملائكة وعلى العقل جبلهم والبهائم وعلى الهواء فطرهم وبني آدم وركّب فيهم الأمرين فمن غلب هواه عقله فهو شر من البهائم ومن غلب عقله هواه فهو خير من الملائكة، كذا قاله المشايخ.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الآية 45] ألم تنظر أثر صنعه ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الآية 45] بسطه فيما بين طلوع الفجر وسطوع الشمس وهو أطيب الأحوال الواقعة، فإن الظلة الخالصة تنفر الطبع وتسد النظر وشعاع الشمس فيسخن الجو ويوجب الحر ويبهر البصر، ولذا وصف الجنة بقوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة: الآية 30]، ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾ [الآية 45] ثابتاً مستقراً على حالة واحدة كما يكون في أيام الجنة ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ﴾ [الآية 45] على وجوده ومقدار حدوده ﴿دَلِيلًا﴾ [الآية 45] فإنه لا يظهر حقيقته لحس الأنام حتى تطلع الشمس فيقع ضوؤها على بعض الأجرام.

﴿ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا﴾ [الآية 46] / أي أزلناه بإيقاع الشعاع موقعه كما قدر لدينا ﴿قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [الآية 46] قليلاً قليلاً حسبما ترتفع الشمس بأمر الحق لينتظم بذلك ما لا يحصى لمصالح الخلق. ومجمل المرام من هذا الكلام ووضوح البرهان لعقول الأنام وهو دلالة حدوث الظل وتصرُّفه على أن ذلك فعل الصانع الحكيم في أمره. 307/ ب

وقال الواسطي: أثبت للعامة المخلوق فأثبتوا به الخالق وأثبت للخاصة الخالق فأثبتوا به المخلوق، فمخاطبة العامة ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: الآية 17]، ومخاطبة الخاصة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الآية 45] انتهى. وتوضيحه ما قاله بعض الصوفية: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله»[1]. وقال بعض آخر: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله بعده»[2] فالأول استدلال بالصانع على المصنوع وهو حال المجذوبين والمرادين والثاني استدل بالمصنوع على الصانع وهو طريق السالكين والمريدين وعامة أهل الدين من

---

(1) تفسير الرازي (17/ 274). (2) تفسير الرازي (17/ 274).

المجتهدين. وحاصله إن صاحب المعرفة من لا يحجبه الكثرة عن شهود الوحدة ولا ظهور الوحدة عن مشاهدة الكثرة كما عبر بعضهم عن هذه الحالة بقوله: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله معه» وهذا مقام جمع الجمع.

وقال ابن عطاء: أي كيف حجب الخلق عنه ومد ستور الغفلة عليهم وحجبهم عن ربهم ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً، قال: شموس المعرفة وهي دلائل القلب إلى الرب. وقيل: أي كيف مد عليك ظل العصمة ولو شاء لجعله ساكناً أي جعلك مهملاً ولم يعقل بل جعل الشمس التي طلعت من صدرك دليلاً ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً، هذا خطاب من أسقط عنه الرسوم والوسائط.

وقال الأستاذ: قيل في سبب نزول الآية إنه ﷺ نزل في بعض أسفاره وقت القيلولة في ظل شجرة وكانوا خلقاً كثيراً، فمدّ الله ظلّ تلك الشجرة حتى وسع جميعها فأنزل الله هذه الآية، وكان ذلك من جملة أنواع المعجزة. ويقال: ألم تر كيف مد ظل العناية على أحوال أوليائه فقوم هم في ظل الحماية وآخرون في ظل الرعاية وآخرون في ظل العناية/، فالفقراء في ظل 308/ أ الكفاية والأغنياء في ظل الراحة والحماية. ويقال: ظل هو ظل العصمة وظل هو ظل النعمة، فالعصمة للأنبياء ثم للأولياء والنعمة وهي الرحمة لعموم المؤمنين في العقبى ولكافة الخلق أجمعين في الدنيا. ويقال له قوله للنبي ﷺ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الآية 45] ثم قوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الآية 45] ستر لمكاشفه به أولاً إجراء للسنَّة في إخفاء حال الحبيب عن الرقيب. ويقال: أحياه بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ [الآية 45] ثم أفتاه بقوله: ﴿كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ [الآية 45] وكذا سنته مع عباده يرددهم بين إفتاء وإبقاء أي وإيجاد وإمداد وصحو ومحو وقبض وبسط.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ [الآية 47] شبه تشبيهاً بليغاً لظلامه باللباس في ستره لأحوال الناس ﴿وَالنَّوْمَ سُبَاتًا﴾ [الآية 47] راحة بالإبداع بقطع الشواغل للجنان ولكون النوم أخ الموت قال: ﴿وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الآية 47] ذا نشور أي انتشار ينتشر فيه الناس لمعاشهم وأخذ زادهم لمعادهم. وفيه إيماء إلى

أن النوم واليقظة أنموذج للموت والقبر والبعث للحشر والنشر كما ورد أنه عليه السلام إذا قام من المنام قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه البعث والنشور»[1]. وعن لقمان: «يا بني كما تنام فتوقظ كذلك تموت فتُنشر»[2].

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه جعل الليل وقتاً لسكون قوم ووقتاً لانزعاج آخرين، فأرباب الغفلة يسكنون في ليلهم وأصحاب المحبة يسهرون في ميلهم لأنهم إن كانوا في روح الوصال فلا يأخذهم النوم لكمال أنسهم وشوقهم وإن كانوا في ألم الفراق فلا يأخذهم النوم لكمال خوفهم وقلقهم، كالسهر للأحباب صفة في جميع الأبواب إما لظهور السرور أو لهجوم الهموم. ويقال: جعل النوم لقوم من الأحباب وقت التجلي يريهم ما لا سبيل إليه في اليقظة فإذا رأوا ربهم في المنام يؤثرون النوم على السر بالدوام.

قال قائلهم:

وإني لأستغشي وما بي نعسة لعل خيالاً منك يلقى خياليا[3]

وقال آخر منهم:

رأيت سرور قلبي في منامي فأحببت التنعس والمناما[4]

/ ويقال: النوم لأهل الغفلة عقوبة ولأهل الاجتهاد راحة فإن الحق سبحانه يُدخل عليهم النوم ضرورة رحمة منه بنفوسهم لتستريح عن كل مجاهدة. 308/ ب

﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ﴾ [الآية 48] وقرأ ابن كثير الريح ﴿نُشْرًا﴾ [الآية 48] تقدم فيه القراءات أي ناشرات للسحاب أو مبشرات ﴿بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾

---

(1) أخرجه ابن حبان في الصحيح (12/ 342) رقم (5532)، والنسائي في السنن الكبرى (6/ 214) رقم (10694).

(2) تفسير الكشاف (4/ 465)، وتفسير النيسابوري (6/ 53)، وتفسير البيضاوي (1/ 221).

(3) نسب إلى قيس بن معاذ. انظر الكامل في اللغة (1/ 78)، وزهر الآداب (1/ 290).

(4) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 380).

[الآية 48] يعني قدام المطر الذي سبب نعمته ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الآية 48] مطهراً يُتطهر به ويُنتفع بشربه وفيه تنبيه على أن تطهير بواطنهم أولى من تطهير ظواهرهم لما ورد: «أن الله لا ينظر إلى صوركم وأعمالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأحوالكم»[1].

﴿لِّنُحْـِۧيَ بِهِۦ بَلْدَةً﴾ [الآية 49] مكاناً ﴿مَّيْتًا﴾ [الآية 49] من الأرض بسبب يبسها بإنبات النبات فيها ﴿وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا﴾ [الآية 49] جمع إنسي، وأخذ من الإنس وهو يعم أهل الصحراء وسكان المدن والقرى لأن أصل جميع الماء من السماء. وسياق الآية كما هو للدلالة على عظمة القدرة فهو للإشارة لا لكثرة النعمة ولعل تقديم الأنعام لاهتمامه في بيان الأنعام أو للنكتة التي ذكروها في قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: الآية 31] بأن يستوي عنده سبحانه رزق الخاص والعام، فسبحان مَن يرزق الضعيف الدني بحيث يستعجب الشريف القوي.

وفي «تفسير السلمي»: وهو الذي أرسل رياح الندم بين توبته وطهّر قلوبهم ببركاته عن المخالفات وأبدانهم بظاهر رحمته من جميع الأجناس والأدناس.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يرسل رياح الكرم فتهب على قلوب ذوي الحاجات فتزعجها إلى طلب مبارّه من الطاعات، ويرسل رياح الولاية فتهب على قلوب الخواص فتطهرها عن قلوب الإرادات فتكتفي بالله لله، ويرسل رياح الخوف على قلوب العصاة فتحملهم على الندامة وتطهر من الإصرار فترجع إلى التوبة عن السبات، ويرسل رياح الاشتياق على قلوب الأحباب وتطهر عن كل شيء إلا عن اللواعج فلا استقرار إلا بالكشوف والتجليات. ويقال: إذا انتسم القلب نسيم قرب الرب هام في ملكوت الجمال وامتحى عن كل مرسوم ومعهود في الأحوال. وقال/ في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [المؤمنون: الآية 18] الآية أحيا به البلاد والديار حيث أنبت الأزهار والأنوار، وأنزلنا

309/ أ

[1] أخرجه مسلم في الصحيح (2564/ 33)، وابن حبان في الصحيح (2/ 119) رقم (394)، وأحمد في المسند (2/ 284) رقم (7814).

من السماء ماء الرحمة فغسل للعصاة ما تلطخوا به من الأوضار وتدنسوا به من الأوزار. والطهور هو الطاهر المطهر، وأما الحياء فيطهر قلوب العارفين عن الجنوح إلى المساكنات وما في بعض الأحوال يتداخلها من الغفلات، وأما الرعاية فيحيي بها قلوب المشتاقين بما يتداركها من أنوار التجليات حتى يزول عنها عطش الاشتياق ويحصل فيها سكينة من الإقلاق ويحيي بها نفوساً ميتة باتباع الشهوات فيردها إلى القيام بالعبادات.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ﴾ [الآية 50] أي المطر ﴿بَيْنَهُمْ﴾ [الآية 50] في الأمكنة المختلفة والأمكنة المتفاوتة والصفات المتغايرة من وابل وطل وديمة، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: ما عام أمطر من عام ولكن الله قسم ذلك بين عباده على ما شاء، وتلى هذه الآية: ﴿لِيَذَّكَّرُواْ﴾ [الآية 50] ليتعظوا ويتفكروا ويعترفوا بكمال القدرة وجمال الراحة ويقوموا بشكر النعمة وليعتبروا بالصرف عنهم وإليهم ما يترتب عليه المحنة والمنحة. وقرأ حمزة والكسائي بسكون الذال وضم الكاف أي ليذكروا ربهم تجديد المنة ﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ [الآية 50] كفران النعمة بعدم القيام بشكرها أو بقلة الاكتراث لها أو لجحودها بأن يقولوا: مطرنا بنوء كذا ثم مَن لا يرى الأمطار إلا من الأنواء فهو كافر بخلاف من يرى أنها من خلق الله والأنواء وسائط وأمارات بجلبه سبحانه ما شاء من الأشياء.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾﴾ [الآية 51] نبياً ينذر أهلها من المعصية فيخف عليك أعباء النبوة لكن قصر الأمر على تبيانك إجلالاً لشأنك وتعظيماً لبرهانك وتعقيباً لأنك على إخوانك فقابل ذلك بالثبات على إقامة الدعوة والاجتهاد في إظهار الحجة ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الآية 52] فيما يريدونك من الذلة ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ﴾ [الآية 52] بالقرآن وما فيه من الأدلة ﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الآية 52] لأن مجاهدة السفهاء أكبر من مجاهدة الأعداء كما أن مجاهدة الباطن أقوى من مجاهدة الظاهر لما ورد: «رجعنا/ من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[1]. ولما قيل: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك»[2] كما يشير إليه 309/ ب

(1) سبق تخريجه.
(2) سبق تخريجه.

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: الآية 123].

وأفاد الأستاذ: أن الله سبحانه خصَّ نبينا ﷺ بأن فضله على الكافة وأرسله إلى الجملة من العامة والخاصة ولا ينسخ شرعه إلى يوم القيامة، وبهذه الآية أدّبه بأدق الإشارة حيث قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا﴿٥١﴾﴾ [الآية 51]، كما قال: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: الآية 86]، وقصد الحق أن يكون خواص عباده أبداً معصومين عن شواهدهم. وفي القصة أن موسى عليه السلام تبرم وقتاً بكثرة ما كان يسأل فأوحى الله تعالى في ليلة واحدة إلى ألف نبي من بني إسرائيل فأصبحوا رسلاً وتفرق الناس عن موسى إليهم فضاق قلب موسى وقال: يا رب إني لا أطيق ذلك، فقبض الله أرواحهم في ذلك اليوم ثم قال في قوله: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الآية 52] أي كن قائماً بحقنا من غير أن يكون لك جنوح إلى غيرنا أو مبالاة بمن سوانا فإنَّا نعصمك بكل وجه ولا نرفع عنك ظل عنايتنا بحال.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الآية 53] جعلهما متجاورين متلاصقين غير متزاوجين مختلطين ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ [الآية 53] أحدهما حلو قامع للعطش من فرط عذوبته ﴿وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الآية 53] وآخر منها مالح مر من غاية ملوحته ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ [الآية 53] حاجزاً من قدرته ﴿وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الآية 53] وتنافراً بليغاً بين كل واحد على حدته كأن كلاً منهما يقول للآخر ما يقوله المتعوِّذ عن الشر، وذلك كدجلة يدخل البحر فيجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها.

وأفاد الأستاذ: أن البحر المالح لا عذوبة فيه والعذب لا ملاحة فيه وهما واحد في الجوهرية ولكنه سبحانه بقدرته غاير بينهما في الصفة كذلك خلق القلوب بعضها معدن اليقين والعرفان وبعضها محل الشك والكفران. ويقال: أنبت في قلوب المؤمنين صفتين: الخوف والرجاء، فلا الخوف يغلب الرجاء ولا الرجاء يغلب الخوف. ويقال: خلق القلوب على صنفين: قلب المؤمن مضيئاً مشرقاً/ وقلب الكافر أسود مظلماً، هذا بنور الإيمان مزين وهذا 310/ أ

بظلمة الجحود مبين. ويقال: قلب العوام في أسر الغائب والحظوظ واللهوات وقلب الخواص مستغنٍ عن الطلبات ومتحرِّر عن رق الحظوظ والشهوات.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا﴾ [الآية 54] أي من الماء الذي خمر به طينة آدم عليه السلام، أو النطفة التي خلق منها غالب أولاده من الخاص والعام ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الآية 54] أي قسم البشر قسمين: ذوي نسب أو ذكور ينتسب إليهم وذوي صهر أي أناث يصاهر بهن كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: الآية 36]، ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الآية 54] حيث خلق من مادة واحدة بشراً ذا أعضاء مختلفة وطباع متعددة وجعله قسمين متقابلين وربما يخلق توأمين ذكراً وأنثى من نطفة واحدة.

﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ [الآية 55] أي جمع من البشر ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الآية 55] من غير المعبود القادر الخالق للقوى والقدر ﴿مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الآية 55] وهو كل ما عُبِد من دون الله، إذ ما من مخلوق يستقل بالنفع والضر ﴿وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا﴾ [الآية 55] مظاهراً للشيطان بالشرك والطغيان على مخالفة الرحمٰن.

وأفاد الأستاذ: أن الخلق متشاكسون في أصل الخلقة متماثلون في الجوهرية متباينون في الصفة مختلفون في الصورة والهيئة، فنفوس الأعداء مطاياهم تسوقهم إلى النار ومكان البوار ونفوس المؤمنين مطاياهم تحملهم إلى دار القرار ومستقر الأبرار، الخلق بشر ولكن ليس كل بشر بشر واحدٌ عدو لا يسعى إلا في المخالفة ولا يعيش إلا بنصيبه وحظه، لا يحتمل الرياضة ولا يرتقي عن حد الوقاحة والخساسة، وآخر لا يفتر عن الطاعة والعبادة ولا ينزل إلى دنيء الهمة فهو في سماء تعززه بمعبوده في مقام القربة وبينهما للناس مناهل ومشارب وطرائق ومذاهب، فواحد يكون كما قال: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ [الآية 55] يكتفي بالمنحوت من الخشب والمصنوع من الصخر والمتخذ من النحاس والذهب جماد لا يعقل ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع، وآخر لا يلتفت إلى العرش/ وإن علا ولا ينقاد ولا يستسلم بقلبه لمخلوق وإن اتصف بمناقب لا تحصى. 310/ ب

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ [الآية 56] للمؤمنين بالمثوبة والقربة ﴿وَنَذِيرًا﴾ [الآية 56] مخوفاً للعاصين بالعقوبة والفرقة ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [الآية 57] على تبليغ الرسالة الدال عليه الإرسال بالنبوة ﴿مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ﴾ [الآية 57] لكن مَن أراد ﴿أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾ [الآية 57] بالإحسان إليه فليقل جميلاً فإنه يلقى به جزاءً جميلاً.

وقال الأستاذ: رسولاً منا مأموراً بالإنذار والتبشير عنا واقفاً حيث قضاك على نعت تبليغنا غير مطالب منهم أجراً ولا طامع أن تجد منهم خطأً. وقال: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ﴾ [الآية 57] استثناء منقطع إذ ابتغاؤهم السبيل إلى ربهم ليس بأجر يأخذه منهم فهو لمن أقبل بشير ولمن أعرض نذير.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الآية 58] في الاستكفاء من شرورهم والاستغناء عن أجورهم. وأما التوكل على الذي يموت فيضيع ويفوت. قيل: التوكل أن يستوي عندك البادية وباب الطاق من القرية، كذا في «تفسير السلمي».

وأفاد الأستاذ: أن التوكل تفويض الأمور إلى الله وحقه وأصله علم العبد بأن الحادثات كلها حاصلة من الله ولا يقدر أحد على الإيجاد سواه، فإذا عرف هذا فهو فيما يحتاج إليه إذا علم أن مراده لا يرتفع إلا من قبل الله حصل التوكل لديه وهذا القدر من التوكل فرض على أهل الإيقان وهو من شرائط الإيمان، قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: الآية 23] وما زادوا على هذا القدر من سكون القلب وزوال الانزعاج والاضطراب فهي أحوال للأولياء والأقطاب ويلحق بالتوكل على وجه كماله في هذا الباب. فإذا تقرر هذا فالناس في الاكتفاء والسكون على أقسام اسم إما من حيث الاشتقاق أو من حيث الاصطلاح والاتفاق. فأول رتبة فيه أن يكتفي بها في يده ولا يطلب الزيادة على ما عنده ويستريح قلبه عن طلب الزيادة وتسمى هذه الحالة القناعة فيقف صاحبه حيث وقف وقنع بالحاصل له ولا يستزيد، ثم ذات يد كل أحد تختلف في القلة والكثرة وراحة قلوب هؤلاء في التخلص من الحرص والزيادة، ثم بعد هذا / سكون القلب مع رب الأرباب في حال عدم الأسباب، 311/أ

فيكون مجرداً عن الشيء وهواه ويكون في إرادته متوكلاً على الله وهو لا متباينون في الرتبة فواحد يكتفي بوعده أنه صدقه في ضمانه فيسكن عند فقد الأسباب بقلبه ثقة منه بوعد ربه فيسمى هذا متوكلاً. ويقال على هذا أن لِلتوكل سكون القلب بضمان الرب، ويقال سكون الجأش في طلب المعاش، ويقال الاكتفاء بوعده عند عدم فقده أو الاكتفاء بالوعد عند عدم الفقد، واللطف في هذا أن يكتفي بعلمه يعلم أنه يعلم حاله فيشتغل بما أمر الله به والعمل بطاعته ولا يراعي إنجاز موعوده فيكل أمره إلى الله في جميع أموره على وفق قضاء الله وقدره، وهذه حالة التسليم.

وفوق هذا مقام التفويض وهو أن يكل أمره إليه ولا يقترح على مولاه بحال ولا يختار شيئاً بسؤال ويستوي عنده وجود الأسباب وعدمه في هذا الباب فيشتغل بأداء ما ألزمه الله ولا يتفكر في حال نفسه وأمر هواه ويعلم أنه مملوك لمولاه والسيد أولى بعبده من العبد بنفسه، فإذا انتفى عن هذه الحالة فيجد في المنع الراحة ويستعذب ما يستقبله من الرد والبلاء فهو رتبة الرحماء ويحصل له في هذه الحالة من فوائد الرضا ولطائف الصفاء ما لا يحصل لمن دونه من الحلاوة في وجود المقصود بعد هذه الموافقة وهو أن لا يجد في المنع الراحة فيجد بدل هذا عند نسيم القرب زوائد الأنس بالرب بنسيان كل إرب وتذكر وجود سبب أو عدمه في طلب. فكما أن حلاوة الطاعة تتصاغر عند برد الرضا وأصحاب الرضا يعدون ذلك حجاباً، كذلك أهل الأنس بالله بنسيان كل فقد ووجد وتغافل عن أحوالهم في الوجود والعدم يعدون النزول إلى استذلال المنع والاستقلال بلطائف الرضا نقصاناً في الحال.

ثم بعد هذا استيلاء سلطان الحقيقة بما يأخذ العبد عن جملته بالكلية فتكون العبارة عن هذه الحالة الجمود والاستهلاك في الوجود والاصطلام والفناء. وأمثال هذا وهذا عين التوحيد، /فعند ذلك لا أنس ولا هيبة ولا لذة ولا راحة ولا وحشة ولا آفة. هذا بيان ترتيبهم، فأما ما دون ذلك فالخبر عن أحوال المتوكلين على تباين مشربهم فيختلف على اختلاف محالهم. ويقال: شرط التوكل أن يكون كالطفل في المهد لا شيء من قبله إلا أن يرضعه من هو

311/ب

في حضانته. ويقال: التوكل زوال الاستشراف وسقوط الطمع عن الأغيار وفراغ القلب عن طلب الانتظار. ويقال: التوكل السكون عند مجاري الأقدام على اختلافها في الأطوار. ويقال: إذا وثق القلب بجريان قسمة الرب لا يقدح في توكله الكسب. ويقال: عوام المتوكلين إذا أعطوا شكروا وإذا مُنِعوا صبروا وخواصهم إذا أُعطوا آثروا وإذا مُنِعوا شكروا. ويقال: الحق يجود على الأولياء إذا توكلوا بتيسير السبب من حيث يحتسب ولا يحتسب ويجود على الأصفياء بسقوط الإرب وإذا لم يكن إرب فمتى يكون طلب. ويقال: التوكل في الأسباب الدنيوية إلى حد معين مبين عند العلماء، وأما التوكل على الله في اصطلاحه سبحانه أمور أخروية فهذا أشد غموضاً وأكثر خفاء، فالواجب في الأسباب الدنيوية أن يكون السكون عند طلبها غالباً والحركة تكون ضرورة، فأما في أمر الآخرة وما يتعلق بالطاعة فالواجب البدار والجد والانكماش والخروج عن أوطان الكسل وترك الحنو إلى الفشل، والذي يتصف بالتواني في العبادات ويتباطىء في تلافي ما ضيّعه من إرضاء الخصوم في التبعات والقيام بحق الواجبات ثم يعتقد في نفسه أنه متوكل على الله في أن يعفو عنه فهو متمنٍّ معلول الحال ممكور مُستدرَج في الأعمال بل يجب أن يبذل جهده ويستفرغ وسعه ثم بعد ذلك لا يعتمد على طاعته ولا يستدل إلى سكونه وحركته ويتبرأ سره عن حوله وقوته ثم يكون حسن الظن بربه ومع حسن ظنه بربه لا ينبغي أن يخلوا من مخافته اللهم إلا أن يغلب على قلبه ما يشغل في الحال من كسوفات الحقائق النكرة في العواقب والمآل فإن ذلك إذا حصل فالوقت غالب ومانع، وهو أحد/ ما قيل في معنى قولهم: الوقت السيف القاطع. 312/ أ

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ﴾ [الآية 58] تسبيحاً مقروناً بثنائه على جميل أسمائه وجزيل إعطائه، ونزِّهه عن صفات النقصان وسمات الحدثان مثنياً عليه بأوصاف الكمال من نعوت الجلال والجمال طالباً لمزيد الإنعام بالشكر على سوابق الإنعام ﴿وَكَفَى بِهِ﴾ [الآية 58] بالله ﴿بِذُنُوبِ عِبَادِهِ﴾ [الآية 58] مما ظهر منها وما بطن في بلاده ﴿خَبِيرًا﴾ [الآية 58] مطلّعاً بصيراً.

﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾

[الآية 59] فهو حقيق بأن يُتَوَكَّلُ عليه ويفوّض الأمور إليه ويكون على وجه الثبات في الصبر والتأني في الأمر فإنه تعالى مع كمال قدرته خلق الأشياء مدرجة على وفق حكمته ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ [الآية 59] أي هو الرحمٰن المستعان في جميع الجنان ﴿فَسْئَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾ [الآية 59] عما ذكر من خلق الأشياء ووصف الاستواء ﴿بِهِ خَبِيرًا﴾ [الآية 59] عالماً يخبرك بحقيقة الأنباء وهو الله تعالى.

قال الأستاذ: انتظم به الكون والعرش من جملته ولم يتجمل الحق سبحانه بشيء من إظهار بريته فعلوُّه على العرش بقهره وقدرته واستوى بفعل خص به على العرش بتسوية أجزائه وصورته.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ﴾ [الآية 60] لظنهم أنه أراد به غير الله حيث ما كانوا يطلقون عليه سواه ﴿أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾ [الآية 60] للذي تأمرنا بسجوده من غير معرفة وجوده. وقرأ حمزة والكسائي بالغيبة على أنه قول بعضهم لبعض منهم ﴿وَزَادَهُمْ﴾ [الآية 60] الأمر بالسجود للرحمٰن ﴿نُفُورًا﴾ [الآية 60] تنفُّراً وتبعُّداً عن الإيمان.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه أقبل بلطفه وفضله على أقوام فلذلك وحدُّوه وأعرض عن آخرين بتكبُّره وتعزُّزه فلذلك جحدوه، فطرهم على سمة البعد وعجن طينتهم بماء الشقاوة والصد فلما أظهرهم ألبسهم صدار الجهل والجحد.

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا﴾ [الآية 61] اثني عشر منازل الكواكب السبعة السيارة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ [الآية 61] يعني الشمس لقوله: ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نُوح: الآية 16]. وقرأ حمزة والكسائي سراجاً وهي الشمس والكواكب الكبار ﴿وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [الآية 61] مضيئاً.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه زيّن السماء الدنيا بمصابيح وخلق/ فيها البروج ورتّب فيها كواكبها وصان عن الفطور أقطارها ومناكبها وأراد بقدرته أفلاكها وأدام على ما أراد إمساكها وكما أثبت في السماء بروجاً ظاهرية أثبت في سماء القلوب من أصفيائه وأوليائه بروجاً باطنية، فبروج السماء معدودة وبروج القلوب مشهودة وبروج السماء ثبوت شمسها وقمرها ونحوهما وبروج

312/ب

القلوب مطالع أنوارها ومشارق شموسها ونجومها وأقمارها وتلك النجوم التي هي نجوم القلب كالعقل والفهم والبصيرة والعلم، وقمر القلوب المعرفة إلا أن قمر السماء له نقصان ومحاقاً، ولذا.

قال قائلهم:

دع الأقمار تخبو أم تنير لنا بدر تذلُّ له البدور[1]

وأما شمس القلوب فهو التوحيد، وشمس السماء تغرب، وشمس القلوب لا تغيب ولا تغرب. وفي معناه قالوا:

إن شمس النهار تغرب بالليل وشمس القلوب ليست تغيب

ويصح أن يقال: شمس السماء تغرب بالليل إذا النهار تمَّ وشموس القلوب سلطانها في الضوء وبرهانها في الطلوع بالليل أتم.

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً﴾ [الآية 62] أي ذوي خلفة يخلف كل منها الآخر بأن يقوم مقامه فيما ينبغي أن يعمل فيه مرامه أو بأن يتفقا في الأدوار ويختلفا في الأطوار لقوله: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ [البَقَرَة: الآية 164]، ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ﴾ [الآية 62] أي يتذكر آلاء ربّه ويتفكرون في صنعه ﴿أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الآية 62] أن يشكر الله على ما فيها من نعمه أو ليكونا وقتين للمتذكرين والشاكرين من فاته ورده في أحدهما تداركه في الأخرى منهما. وقرأ حمزة: أن يذكر من ذكر بمعنى تذكر.

وأفاد الأستاذ: أن الأوقات متجانسة ومعنى فضيلة بعضها على بعض بمعنى أن الطاعة في البعض أفضل والثواب عليه أجزل، والليل خلف النهار والنهار خلف الليل فمن وقع له في طاعة الليل خلل فإذا حضر بالنهار فذلك وجود جبرانه، وإن حصل في طاعة النهار جلل فإذا حضر بالليل فذلك إتمام نقصانه.

﴿وعباد الرحمن﴾ [الآية 63] الراسخون في عبادته المتصفون بنعمت رحمته

---

(1) ذكره القشيري في تفسيره (5/ 393)

﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الآية 63] مشياً هيناً وسيراً ليناً أو هينين متمكنين.

قال جعفر: الذين يمشون بغير فخر ولا خيلاء بل بتواضع وحسن خلق/ 313/أ في الملاء والخلاء وذلك لما طالعوا من تعظيم الحق وهيبته وشاهدوا من كبرياءه وجلاله خشعت لذلك أرواحهم وخضعت نفوسهم وأشباحهم.

وأفاد الأستاذ: إن العباد الذين استوجبوا رحمة الرحمٰن هم الذين وفقوا للطاعات فبرحمته وصلوا إلى طاعته هكذا بيان الحقيقة وبطاعته وصلوا إلى منيّته ورحمته هذا لسان الشريعة. ومعنى هوناً أي متخاضعين متخاشعين. ويقال من شرطه وحده أن لا يستحسن شيئاً من أحواله حتى قالوا: إذا نظر إلى رحله لا يستحسن شسع نعله وعلى هذا القياس لا يساكن أعماله ولا يلاحظ أحواله.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الآية 63] سلام متاركة في الابتداء أو الانتهاء أو سداداً من القول يسلمون فيه من الإيذاء، أو المراد به الإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في مقام الاستهزاء.

قال سهل: لم ينتقموا لأنفسهم فسلموا من غلبة الشيطان عليهم.

وقال الأستاذ: إذا خاطبهم الجاهلون بأحوالهم الطاعنون في أعمالهم قابلوهم بالرفق وحسن الخلق والقول الصدق. ويقال: مَن خاطبهم بالقدح فيهم جاوبوه بالقدح له ويخبرون من جنائهم أنه منهم في أمان من المكافأة.

﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ [الآية 64] في صلاتهم وعبادتهم، وتخصيص البينونة أن العبادة بالليل أشد وطأً وأبعد رياءً.

قال الحسن البصري: نهارهم في خشوع وليلهم في خضوع.

وقال الأستاذ: يبيتون لربهم ساجدين ويصبحون واجدين فوجدوا سهود صباحهم ثمرة سجود رواحهم كما في بعض الأخبار: «من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»[1]، أي عظم ماء وجهه عند ربه، وأحسن الأشياء ظاهر

---

(1) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (3/ 129) رقم (3095).

بالسجود محسن وباطن بالشهود مزيد. ويقال: متصفين بإتيان الشهود قائمين بآداب الوجود.

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾﴾ [الآية 65] لازماً دائماً، وفيه إيماء إلى أنهم مع حسن مخالفتهم في عشرة الخلق ومجاهدتهم في طاعة الحق وجلون من عذاب ربهم مبتهلون إلى الله في صرفه عنهم لقلّة اعتدادهم بأعمالهم وعدم اعتمادهم على استمرار أحوالهم ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا﴾ [الآية 66] للفجرة ﴿وَمُقَامًا﴾ [الآية 66] للكفرة.

313/ ب وأفاد الأستاذ: أنهم يجتهدون غاية/ الجهد ويستفرغون غاية الوسع ثم عند السؤال ينزلون منزل العصاة ويقفون موقف أهل الاعتذار ويخاطبون بلسان التفضل وببيان التذلُّل كما قيل:

وما رمت الدخول عليه حتى حللت محلة العبد الذليل[1]

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾ [الآية 67] لم يجاوزوا حد الكريم ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الآية 67] لم يضيقوا بخل اللئيم. وقيل: الإنفاق في المحرمات والتقتير مع الواجبات لقولهم: لا خير في سرف ولا سرف في خير، ويؤيد الأول قوله: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الآية 67] وسطاً وعدلاً لا نقصاناً ولا فضلاً. ويقوي الثاني ما قاله الحكيم الترمذي من أن الإسراف في النفقة هو البذل في وجوه السيئات والإقتار هو منعها عن وجوه الطاعات.

وقال الأستاذ: إن الإسراف أن تنفق في الهوى وفي نصيب النفس من المتمنى، فأما ما كان لله فليس فيه إسراف، والإقتار ما كان ادخاراً عن الله، وأما التضييق على النفس منعاً لها عن اتباع الشهوات وليتعود الأسير باليسير فليس بالإقتار المذموم. هذا وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء وكسر التاء، ونافع وابن عامر بضم الياء وكسر التاء والباقون بفتح الياء وضم التاء فاختلف المبنى واتحد المعنى.

[1] ذكره القشيري في تفسيره (5/ 397)

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ [الآية 68].

قال الأستاذ: في الظاهر عبادة الأصنام وفي الباطن مساكنة الأنام، والتوحيد أن لا تعبد الأغيار والأصنام المعمولة من الأحجار المنحوتة عن الأشجار، وكما يتصف بهذا بالنفوس والإيثار لا يتوهم المسار والمضار من الأغيار ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [الآية 68] أي حرَّمها بمعنى حرَّم قتلها ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الآية 68] أي بأمر الشرع على وفق الصدق ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الآية 68] فإن الزنا نوع من القتل لهلاك النسل أو لأنه قد يجر أمره إلى حد القتل، نفى عنهم أمهات السيئات بعدما أثبت لهم أصول الطاعات إظهاراً لكمال إيمانهم وتمام إحسانهم وإشعاراً بأن الأجر المذكور موعود للجامع بين هذه الأمور وتعريضاً للكفرة والفجرة ولهذا عقبه الوعيد الشديد على وجه التهديد بقوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الآية 68] جزاء إثمه تماماً.

وأفاد الأستاذ: إن من النفوس المحرَّم قتلها على العبد نفسه المسكينة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النِّساء: الآية 29]، وقتل/ نفسك بغير حق لها 314/أ تمكينك إياها من اتباع ما فيه هلاكها، ثم دليل الخطاب أن يقتلها بالحق بذبحها بسكين مخالفة هواها فما فلاحك إلا بقتل نفسك بيديك فإن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك.

﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الآية 69] بدل من يلقى لأنه في معناه. وقرأ ابن عامر وأبو بكر بالرفع استئنافاً أو حالاً وكذا قوله: ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الآية 69] وابن كثير وابن عامر يضعف بالتشديد، وحفص وابن كثير فيه إشباع الهاء ومضاعفة العقوبة لانضمام الكفر والمعصية كما يشير إليه قوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الآية 70].

وقال الأستاذ: أقوام يضاعف لهم العذاب يوم القيامة بحسرات الفرقة وزفرات الحرقة وآخرون يضاعف لهم العذاب اليوم بتراكم الخذلان وتوالي الهجران ودوام الحرمان، بل مَن يضاعف له العذاب في عقباه فهو الذي

يضاعف العذاب في دنياه، كذا في الخبر: «من كان بحالة لقي الله بها»[1]، أي لا محالة إلا من تاب من الذنب في الحال وآمن في المآل. ويقال: آمن أن نجاته بفضل الله لا بتوبته وعمل صالحاً لا ينقض توبته ويقال: إن نقض توبته عمل صالحاً وجدد أوبته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الآية 70] بأن يمحو بالتوبة سوابق معصيتهم ويثبت مكانها لواحق طاعتهم أو يبدل في نفوسهم ملكة المعصية بملكة الطاعة أو بأن يثبت له بدل كل عقاب نزل ثواباً بأن يمحو من ديوانهم الزلات ويكتب بدلها الخيرات والحسنات ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الآية 70] يعفو عن السيئات ويثيب على الحسنات.

﴿وَمَن تَابَ﴾ [الآية 71] رجع عن المعاصي التي كان يفعلها بالندم عليها والقلع عنها والعزم على أن لا يعود إلى مثلها ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [الآية 71] بتلافي ما فرط منه وقصر فيه ﴿فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الآية 71] يرجع إليه ﴿مَتَابًا﴾ [الآية 71] مرجعاً مرضياً لديه ماحياً للعقاب ومثبتاً للثواب. قيل: ليست التوبة لأحد كاملة حتى يدع كثيراً من المباحات مخافة أن يخرجه إلى المحرمات.

قال ابن عطاء: النية هي الرجوع من كل خلق مذموم في الطبع إلى كل خلق محمود في الشرع.

وقال جعفر: لم يرجع إلى الحق مَن له مرجع إلى الخلق حتى يكون رجوعه ظاهراً وباطناً إلى الله دون ما سواه.

314/ ب ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الآية 72] شهادة الزور/ أو لا يحضرون محاضر الكذب ونحوه، فإن شهادة الباطل مشاركة في فعله لأنها دليل الرضا بوجوده.

قال ابن عطاء: هو شهادة اللسان من غير مشاهدة العيان. وقيل: لا يخالطون المبتدعين ولا يجالسون المدّعين. وقيل: هو كل مشهد ليس فيه زيادة في دينك أو قربة إلى ربك ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ﴾ [الآية 72] بمجالس اللعب

---

(1) انفرد به القشيري.

واللهو ﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الآية 72] معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن الوقوف عليه والالتفات إليه والخوض لديه ومن ذلك الإغضاء عن كلام السفهاء ومقام الاستهزاء.

وقال الأستاذ: وإذا مروا بأصحاب الزلات وبمساكن المخالفات مروا منكبين متعاونين لا يساكنون أهل تلك الحالات. ويقال: الآية نزلت في أقوام لما دخلوا بيوت مكة مروا بأبواب بيوتهم التي عبدوا فيها الصنم مروا منكرين لئلا يلاحظوها ولم يلتفتوا إليها فشكرهم الله على ذلك.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [الآية 73] بالقراءة والموعظة ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الآية 73] لم يقيموا عليها غير واعين لها ولا غير داعين بما فيها كمن لا يسمع ولا يبصر بها بل ركبوا عليها سامعين بآذان واعية ومبصرين بعيون راعية. فالمراد بالنفي نفي الحال دون الفعل. وقيل: الهاء للمعاصي فالمراد نفي الفعل.

ولذا قال ابن عطاء: لم ينكروها ولم يعرضوا عنها بل أقبلوا بالسمع والطاعة على أوامرها.

وقد مال الأستاذ إلى المعنى الأول حيث قال: قابلوها بالتفكر والتأمل فيها واستعمال الفكر والنظر فيما يتعلق بها.

﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا﴾ [الآية 74] وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وأبو بكر وذريتنا ﴿قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الآية 74] بتوفيق الطاعة وتحقيق العبادة وحيازة الفضائل وحياطة الفواضل وتحسين الأخلاق والشمائل فإن المؤمن إذا شاركه في طاعة الله أهله سرّ بهم قلبه وقرّت بهم عينه لما رأى من سعادتهم له في الملة وتوقع لحوقهم به في الجنة.

وقال الأستاذ: قرة العين مَن كان لطاعة ربه معانقاً ولمخالفة أمره موافقاً ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الآية 74] تقتدون بنا في إفاضة العلم النافع وإفادة العمل الواقع.

قال الشبلي: المتقي من اتقى ما دون الله.

315/ أ وأفاد الأستاذ: إن الإمام من/ يقتدى به ولا يبتدع في سبيله. ويقال: إن الله مدح أقواماً ذكروا رتبة إمامة فسألوا بنوع من التضرُّع والمسكنة ولم يدعوا فيها باختيارهم في القضية فالإمامة بالدعاء لا بالدعوى وإلا فما أيسر الدعوى وما أعسر المعنى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ﴾ [الآية 75] أعلى مواضع الجنة ﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الآية 75] بصبرهم على إقامة الطاعة وترك المعصية ورفض الشهوة وتحمُّل البلية ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الآية 75] أي تنقية دائمة وسلامة من كل آفة وملامة. وقرأ حمزة والكسائي وأبو بكر: يلقون مخففاً معلوماً.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [الآية 76] لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ [الآية 76] وقال بعضهم: أحسن المقام المقام في مشهد الحق وأطيب القرار القرار في جواره على عرش وضائه.

وأفاد الأستاذ: أنه سبحانه يعطي الكثير من إعطائه ويعده قليلاً ويقبل اليسير من العبد ويقول جاء بعجل سمين. وقوله: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا﴾ [الآية 75] يسمعهم سلامه عليهم بلا واسطة ويتجلى لهم ليروه من غير تكليف نقلة وتحمُّل قطع مسافة. ويقال:

قال لهم: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرَّحمٰن: الآية 60] اليوم حضر العبد بيته لأداء العبادة فنقل إلى المساجد قدمه شوقاً للطاعة وتركاً للعادة، فيجازيهم غداً بأن يكفيهم قطع المسافة فهم على أرائكهم في مستقر عزهم يسمعون كلام الله وينظرون إلى الله ولا يلتفتون إلى ما سواه. وقولهما: صبروا، أي عما أمروا به وعما نهوا عنه وعلى الأحكام التي أجراها الله بترك اختيارهم وحسن الرضا بتقديره في اختيارهم خالدين فيها مقيمين مديمين لا يبرحون في منازلهم ولا يزالون في أحوالهم حسن مستقرهم مستقراً وحسن مقامهم مقاماً.

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّى﴾ [الآية 77] أي أي شيء يصنع بكم أو لا يعتد بوجودكم أو وجودكم ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الآية 77] لولا عبادتكم من ركوعكم

وسجودكم وشهودكم ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ [الآية 77] بما أخبرتكم به من وجوب الطاعة وقصرتم في القيام بحق العبادة ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ﴾ [الآية 77] التعذيب أو جزاء التكذيب ﴿يَكُونُ لِزَامًا﴾ [الآية 77] أي لازماً لزوماً دواماً.

وقال الأستاذ: لولا تضرعكم ودعاؤكم بوصف الابتهال والالتجاء لأدام بكم البلايا والعناء ولكن لما أخذتم في الاستكانة وتضرعتم/ بالدعاء كشف عنكم الضراء. ويقال: لولا عبادتكم الأصنام وتسميتكم آلهة ودعواكم إياها باستحقاق العبادة متى كان يخلدكم في العقوبة. 315/ ب

فهرس المحتويات